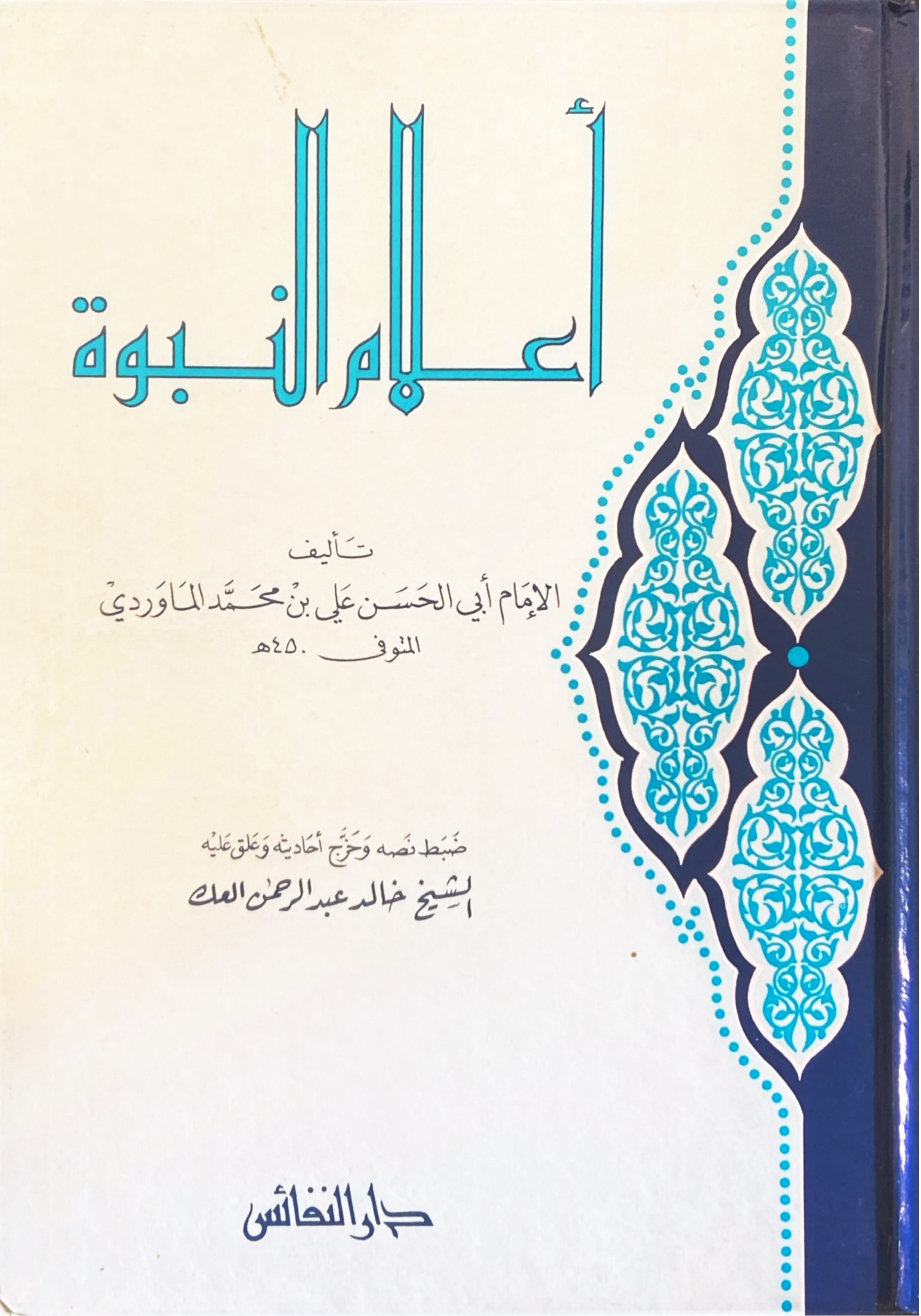


أعلام النبوة

تأليف

الإمام أبي الحسن علي بن محمد الماوردي

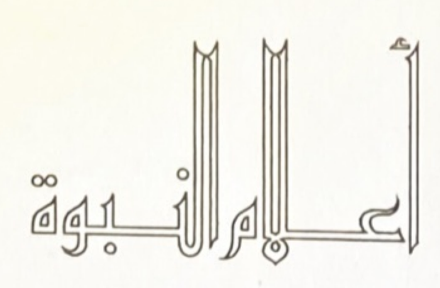
المتوفى ٤٥٠هـ

ضبط نصه وخرج أحاديثه وعلق عليه

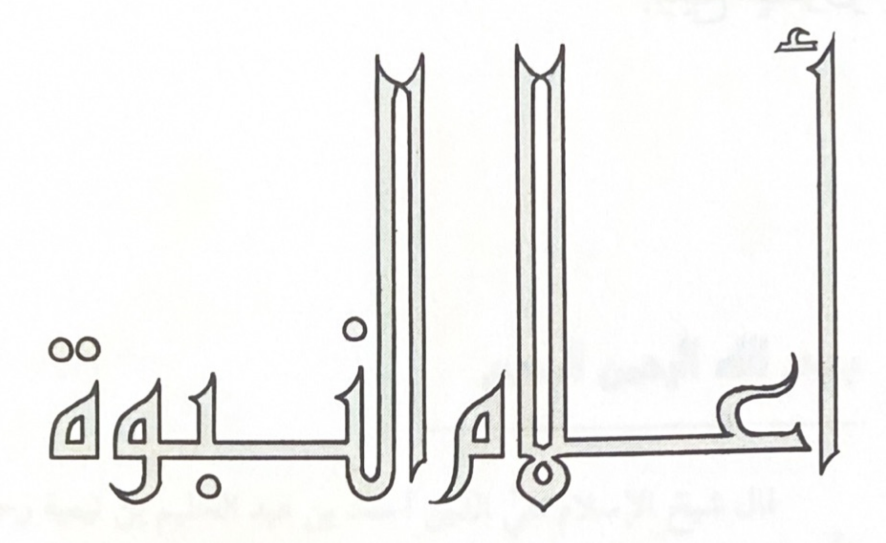
الشيخ خالد عبد الرحمن العك

دار النفائس




أعلام النبوة

بسم الله الرحمن الرحيم



تـأليف

الإمام أبي الحسن علي بن محمد الماوردي

المتوفى ٤٥٠ هـ

ضبط نصه وخرّج أحاديثه وعلق عليه

الشيخ خالد عبد الرحمن العك

دار النفائس




دار النفائس
للطباعة والنشر والتوزيع
شارع فردان - بناية صفي الدين
ص.ب ١١/٦٣٤٧ أو ١٤/٥١٥٢
برقياً: دانفايسكو - ت ٨١٠١٩٤
أو ٨٦١٣٦٧ بيروت - لبنان

الطبعة الأولى: ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

قال شيخ الإسلام تقيُّ الدِّين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية رحمه اللّٰه تعالىٰ:

«الرَّسُولُ ﷺ بعثه الله تعالى هُدىً ورحمةً للعَالَمِين؛ فإنَّه كما أرْسَلَهُ بالعِلْمِ والهُدَى والبراهين العقلية والسَّمعية، فإنَّه أرسَلَهُ بالإحْسَانِ والرحمة إلى النَّاس، بلا عِوَض، وبالصَّبرِ على أذَاهم واحتمالِهِ، فبعثَهُ بالعلم والكرم والحِلْم؛ عليمٌ هادٍ! كريمٌ محسنٌ! حليمٌ صَفُوحٌ!! فهو يُعلِّمُ ويهدِي ويُصلحُ القُلُوبَ، ويدلُّها على صلاحها في الدُّنيا والآخرة بلا عِوَض! وهذا نَعْتُ الرُّسُلِ كُلِّهم... وهذه سبيلُ مَن اتَّبعَهُ... وكذلك نَعَتَ أُمَّتَهُ بقولهِ سبحانه: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاسِ﴾».

[مجموع الفتاوى ج ١٦/٣١٣ - ٣١٧]

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

إنَّ الحمدَ للَّهِ تعالَى وحدَه . .

نحمَدُهُ ونستعينُ به، ونتُوبُ إليهِ ونستغْفِرُهُ، ونعُوذُ باللَّهِ من شُرورِ أنفسِنَا ومِن سيِّئاتِ أعمالِنَا، مَنْ يهدِهِ اللَّهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَنْ يُضلِلْ فلا هَادِيَ لهُ .

وأشهدُ أنْ لَا إِلَهَ إلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لا شريكَ لهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسولُهُ، أرسلهُ بالهُدَى ودينِ الحقِّ لِيُظهِرَهُ على الدِّينِ كلِّهِ، فبلَّغَ الرِّسالةَ وأدَّى الأَمَانَةَ ونَصَحَ الأُمَّةَ ﷺ ! ! .

﴿يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا اتقُوا اللَّهَ حقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إلاّ وأَنْتُمْ مُسْلِمُون﴾[1] .

﴿يا أيُّها النَّاسُ اتَّقُوا ربَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وخَلَقَ مِنْها زَوْجَها، وبثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً ونِسَاءً، واتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُون بِهِ والأَرْحَامَ، إنَّ اللَّهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[2] .

﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وقُولُوا قَوْلاً سَدِيْداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ويَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ، ومَنْ يُطِعِ اللَّهَ ورَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيْماً﴾[3] .

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٠٢ .

(٢) سورة النساء، الآية ١ .

(٣) سورة الأحزاب، الآيتان ٧٠ و ٧١ .

أمّا بَعْدُ : «فإنَّ أصْدَقَ الحديثِ كِتَابُ اللّهِ، وخَيْرَ الهَدْيِ هَـدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وكُلَّ مُحْـدَثَةٍ بِـدْعَةٌ، وكُـلَّ بِدْعَـةٍ ضَلاَلَـةٌ، وكُلَّ ضَـلاَلَةٍ فِي النَّارِ»(١).

إنَّ مِنْ حقائق العقيدة الإسلاميّة بعدَ الإيمانِ باللّهِ تبارك وتعالَى : «رَبًّا خَـالِقاً رَازِقاً، وإلَهاً مَعْبُوداً مُشَرِّعاً» الإيمانَ «بمحمّدٍ نَبِيًّا هَادِياً مُـطَاعاً، ورَسُـولاً مَعْصُوماً مُتَّبَعاً»، إنَّ هذهِ الحقيقةَ سِرُّ حَياةِ المسلمينَ وضَرُورَتُهُمُ الكبرَى!! وهي وَثِيقَتُهُمُ الّتي لا تَبْلَى، وعرْوَتُهم الوُثْقَى، الّتي لا تَنْفَصِمُ أبداً!!.

إنَّ العقلَ ليعجَزُ عن إيْفَاءِ «رَسُولِ اللّهِ» ﷺ حَقَّهُ مِنَ الوَصْفِ الَّذِي يستحِقُّهُ، ولكنَّهُ قَادِرٌ علَى الإيفَاءِ لهُ بذلك إنْ آمَنَ بهِ وصَدَّقَهُ، واهْتَدَى بسُنّتِهِ، واتَّبَعَ طريقَتَهُ، واقْتَدَى بأخْلاَقِهِ، وتأدَّبَ بآدَابِهِ، وتَحَاكَمَ إلى شريعَتِهِ؛ هذا مَا يُعطي رَسُولَ اللّهِ ﷺ حَقَّهُ الَّذِي أَوْجَبَهُ اللّهُ تعالَى لهُ! قَالَ سبحانَهُ في سُورَةِ الأحزاب: ﴿يا أيُّها النَّبيُّ إنَّا أرْسَلْنَاكَ شَاهِداً ومُبَشِّراً ونَذِيراً * ودَاعِيَاً إلَى اللّهِ بإذْنِهِ وسِرَاجاً مُنِيراً * وبَشِّرِ المؤمنينَ بأنَّ لَهُمْ مِنَ اللّهِ فَضْلاً كَبِيـراً﴾(٢)، وقال سُبْحـانَهُ في سُـورَةِ الفتح : ﴿إنّـا أرْسَلْنَاكَ شَاهِداً ومُبَشِّراً ونَذِيْراً * لِتُؤْمِنُوا بـاللّهِ ورَسُولِـهِ، وتُعَزِّرُوهُ وتُـوَقِّرُوهُ، وتُسَبِّحُـوهُ بُكْرَةً وأصِيْلاً * إنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إنّما يُبَايِعُونَ اللّهَ يَدُ اللّهِ فَوْقَ أيْدِيْهِمْ، فَمَنْ نَكَثَ فإنّما يَنْكُثُ علَى نفسِهِ، ومَنْ أوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللّهَ فَسَيُؤْتِيْهِ أجراً عَظِيمـاً﴾(٣)!! وقَالَ سُبْحَانَهُ في سُورَةِ النِّسَاء: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إلاَّ لِيُطَاعَ بـإذْنِ اللّهِ، ولَوْ أنَّهُم إذْ ظَلَمُوا أنفسَهُمْ جَاؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللّهَ واسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللّهَ تَوَّاباً رَحِيماً *

---

(١) التـرمذي ج ٢/١٧ بـإسناد صحيـح، من خُطْبَـةِ الحَاجـةِ التي كان يُعلِّمهـا رسـولُ اللّهِ ﷺ أصحَابَهُ.

(٢) سورة الأحزاب، الآيات ٤٥ ـ ٤٧.

(٣) سورة الفتح، الآيات ٨ ـ ١٠.

فَلاَ ورَبِّكَ لا يُؤْمِنونَ حتَّى يُحكِّمُوكَ فِيْما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا في أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ ويُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[١]، وقَالَ سُبْحانَهُ في سُورَةِ آلِ عِمرَانَ: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ والرَّسُولَ فإنْ تَوَلَّوْا فإنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الكَافِرِينَ﴾[٢]، وفي هٰذه السُّورة أيضاً: ﴿وأَطِيعُوا اللَّهَ والرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٣]، وقَالَ سُبْحانَهُ في سُورة المائِدَةِ: ﴿وأَطِيعُوا اللَّهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ واحْذَرُوا، فَإنْ تَوَلَّيْتُمْ فاعْلَمُوا أنَّما على رَسُولِنا البَلاغُ المُبِيْنُ﴾[٤]، وقَالَ سُبْحانَهُ في سُورةِ الأَنْفَالِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ ورَسُولَهُ ولاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ * وَلاَ تَكُونُوا كالَّذِين قَالُوا سَمِعْنَا وهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ﴾[٥]، وقال فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إذَا دَعَاكُمْ لِما يُحْيِيْكُمْ...﴾[٦]، فَقَدْ قَرَنَ طَاعَةَ رَسُولِهِ بِطَاعَتِهِ سُبْحانَهُ وتَعالَى، وجَعَلَ الفَوْزَ والرَّشَادَ والفَلاحَ والسَّدَادَ والهِدَايَةَ بطَاعَتِهِ سبحانَهُ وبطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ، فقَالَ سبحانَهُ في سُورةِ النُّور: ﴿وإنْ تُطيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا على الرسولِ إلَّا البَلاغُ المُبِيْنُ﴾[٧]!! وقالَ سُبْحانَهُ في سُورَةِ النِّساءِ: ﴿ومَنْ يُطِعِ اللَّهَ ورَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ خَالِدِينَ فِيهَا وذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾[٨]!! وقَالَ في السُّورَةِ أيضاً: ﴿ومَنْ يُطِعِ اللَّهَ والرَّسُولَ فأُولئِكَ مَعَ الَّذِيْنَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّيْنَ والصِّدِّيْقِيْنَ والشُّهَداءِ والصَّالِحِينَ، وحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾[٩]!! وقَالَ سُبْحانَهُ في

---

(١) سورة النساء، الآيتان ٦٤ و ٦٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية ٣٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية ١٣٢.

(٤) سورة المائدة، الآية ٩٢.

(٥) سورة الأنفال، الآيتان ٢٠ و ٢١.

(٦) سورة الأنفال، الآية ٢٤.

(٧) سورة النور، الآية ٥٤.

(٨) سورة النساء، الآية ١٣.

(٩) سورة النساء، الآية ٦٩.

سُورَةِ الأَحْزَاب: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[1] !! إلى غيرِ هٰذِهِ الآياتِ الكريمةِ الَّتي تُبَيِّن قَدْرَ الرَّسُولِ ﷺ وحَقَّهُ على أُمَّتِهِ والنَّاسِ أَجْمَعِين.

وبَعْدُ: فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وتَعَالَى قَدْ أَيَّدَ رَسُولَهُ بآيَاتِهِ السَّاطِعَاتِ، وبِدَلاَئِلِ حُجَجِهِ القَاطِعَاتِ، على صِدْقِ نُبُوَّتِهِ وصِحَّةِ رِسَالَتِهِ، بِمَا لاَ يَدَعُ رِيْبَةً لِمُرْتَابٍ، ولاَ مَغْمزاً لِعَيَّابٍ، كَمَا أَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ عَصَمَهُ بِحِفْظِهِ، وطَهَّرَهُ بِقُدْسِهِ؛ لِيَكُونَ الأُسْوَةَ الحَسَنَةَ لِعِبَادِهِ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِذَلِكَ آيَةَ اللَّهِ العُظْمَى في كلِّ مَا جَاءَ بِهِ عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وتَعَالَى؛ مِنْ عَقِيْدَةٍ وشَرِيْعَةٍ، وآدَابٍ وأَخْلاَقٍ، وتَعْلِيْمٍ وإِرْشَادٍ!!..

وكَانَ ﷺ يَأْتِيْهِم بالآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى نُبُوَّتِهِ، وبِالمُعْجِزَاتِ المُؤَيِّدَةِ لِرِسَالَتِهِ، وهِيَ تَبْلُغُ عَشَرَاتِ الآلاَفِ «مِنْ آيةٍ قُرْآنِيَّةٍ، وأَحَادِيث نَبَوِيَّةٍ، وآدَابٍ رَفِيْعَةٍ، وأَخْلاَقٍ كَرِيْمَةٍ، وسَجَايَا سَامِيَةٍ، وعُلُومٍ جَامِعَةٍ، ومَعَارِفَ جَمَّةٍ، وإِرْشَادَاتٍ سَلِيمَةٍ، ونَصَائِحَ صَحِيحَةٍ، وطَرِيْقَةٍ سَدِيدَةٍ، وتَوْجِيهَاتٍ رَشِيْدَةٍ، ووَصَايَا قَيِّمَةٍ، فَوْقَ قَضَايَا العَقِيْدَةِ والإيْمَانِ، والعِبَادَاتِ والأَحْكَامِ، ومَسَائِلِ الحَلاَلِ والحَرَامِ، حتَّى مَلأَ الدُّنيا نُوراً وعِلْماً، وثَقَافَةً وفِقْهاً، وشَغَلَ عُقُولَ مَلاَيِينِ المَلاَيِينِ مِنَ العُلَمَاءِ والمُفَكِّرِين، والمُصْلِحِيْنَ والمُرَبِّيْنَ، والمُعَلِّمِيْنَ والمُرْشِدِيْنَ، والخُلَفَاءِ والأُمَرَاءِ، والقَادَةِ والسَّادَةِ، والأَغْنِيَاءِ والفُقَرَاءِ، والآبَاءِ والأُمَّهَاتِ، والتُّجَّارِ والحِرَفِيين، والعُمَّالِ والفَلاَحِيْنَ، والطُّلاَبِ والدَّارِسِينَ، والمُكْتَشِفِينَ والمُخْتَرِعِينَ ـ على طُولِ التَّارِيخِ ومَدَى الحَيَاةِ ـ مَا مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ إلاَّ ويَجِدُ فِيْمَا جَاءَهُمْ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ طِلْبَتَهُ، ويُشْبِعُ نِهْمَتَهُ، ويُرْضِي نَفْسَهُ، ويُقْنِعُ عَقْلَهُ، ويُرْوِي فِكْرَهُ، ويُرِيْحُ قَلْبَهُ!!!.

ولَيْسَ مَا ذَكَرْنَاهُ مُبَالَغَةً، ولاَ تَقَوُّلاً ولا ادِّعَاءً، وإِنَّمَا هِيَ حَقَائِقُ مُؤَكَّدَةٌ بِالوَقَائِعِ، ومَعَالِمُ مَرْسُومَةٌ على صَفَحَاتِ هٰذا الوُجُودِ، لا يُنْكِرُهَا إلاَّ جَاحِدٌ مُكَابِرٌ، أو عَدُوٌّ

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٧١.

كَافِرٌ، أو جَهُولٌ فَاجِرٌ، ومَا هٰـذِهِ المُؤَلَّفاتُ والمُصَنَّفـاتُ والكُتُبُ والمُدَوَّنـاتُ، الَّتِي بَلَغتْ مِئَاتِ الأُلُوف، بَلْ أَكْثَر مِنْ ذَلِكَ؛ إلاّ شَاهِدُ صِدْقٍ، وبُـرْهَانُ حَقٍّ، في تَـأْيِيْدِ مَا ذَكَرْنَاهُ، وتَأْكِيْدِ مَا قُلْنَاهُ!!!.

فَهٰذِهِ هِيَ «أَعْلَامُ النُّبُوَّةِ» ظَاهِرَةٌ سَاطِعَةٌ، وشَامِخَةٌ عَالِيَةٌ، ومَا هٰذا الكِتَابُ الَّذِي نُقَدِّمُ لَهُ هٰذِهِ الدِّرَاسَةَ، ونَتَقَدَّمُ بِهِ بِهٰذِهِ التَّحْقِيقَـاتِ، إلاّ غَيْضٌ مِنْ فَيْضٍ، تَجمَّعَتْ لَدَى مُؤَلِّفها، وظَهَرَتْ لِعَيْنِ مُدَقِّقِهَا، وتَيَسَّرَتْ لِفِكْرِ دَارِسِهَا، وَلَوْ أَنَّ إرادَةً تَطَلَّعَتْ إِلَى حَصْرِها، وعَزِيمَةً اسْتَشْرَفَتْ إِلَى جَمْعِهَا؛ لَكَانَ يَكْفِيْهَا إِرَادَةُ الأُمَّةِ كُلِّها، وعَـزِيْمَتُها بِأَسْرِها، ولِهٰذَا سَادَ القَوْلُ المَشْهُورُ: مَا لَا يُدْرك كُلُّهُ لا يُتْرَكُ جِلُّهُ.

ولَقَدْ بَذَلَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى غَـايَةَ جُهْـدِهِ، وَوِسْعَ تَحْصِيْلِهِ، في هٰـذا الكِتَـابِ الَّذِي أَسْمَـاهُ بِـ «أَعْلَامِ النُّبُـوَّةِ»، نَشْـراً لِلْعِلْمِ، ودَعْـوَةً إِلَى الحَقِّ، جَـزَاهُ اللَّهُ تَعَالَى كُلَّ خَيْرٍ في كلِّ مَا أَصابَ، وعَفَا عَنْهُ في كُـلِّ مَا أَخْـطَأَ، وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ العَالِمِ ألاّ يُخْطِىءَ، فَإِنَّ العِصْمَةَ لِلَّهِ تَعَـالَى وَحْدَهُ، وَلاَ أُبَـرِّىءُ نَفْسِي، فأَسْـأَلُ اللَّهَ العَظِيمَ ربَّ العَرْشِ الكَرِيمِ أَنْ يُسَدِّ عَمَلِي على النَّحْوِ الَّذِي يَرْضَاهُ عَنِّي، فَإِنَّهُ الحَقُّ الَّذِي يَعْلَمُ كُلَّ شيءٍ، والبَصِيْرُ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شيءٌ، فَهُوَ حَسْبِي ونِعْمَ الوَكِيلُ، عَلَيْهِ تَوَكَّلتُ، وإِلَيْهِ أُنِيبُ.

هٰـذا وإِنَّ مِنْ خَصَـائِصِ الـرِّجَـالِ القَـادَةِ، والعُلَمـاءِ السَّـادَةِ، والمُفَكِّـرِينَ المُسْتَبْصِرِين، والطُّلاَّبِ الدَّارِسِينَ؛ اسْتِجْلاءَ الأُمُورِ، واسْتِكْشَافَ المَسْتُورِ، والعُثُورَ عَلَى الحَقَائِقِ، ومَعْرِفَةَ الدَّقَائِقِ، وبُلُوغَ اليَقِيْنِ، وتَمْيِيزَ الصَّحِيحِ مِنَ السَّقِيمِ.

وكَذَلِكَ فَإِنَّهُ بِالخِبْرَةِ والدِّرَايَةِ، والتَّجْرِبَةِ والسِّيَاسَةِ؛ يُمْكِنُ لِلْعُقَـلاءِ أَنْ يَصِلُوا إِلَى التَّصْدِيْقِ بِنُبُوَّةِ «مُحَمَّدٍ» ورِسَالَتِهِ ﷺ، فَقَدْ صَدَّقَ بِهِ بَعْضُ زُعَمَاءِ قُرَيْشٍ وكُبَرَائِهَا إِلَّا أَنَّ العِنَادَ مَنَعَهُم، فَهذا عُتْبَةُ بْنُ رَبِيْعَةَ حِينَ اجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وهُوَ

جَالِسٌ في المَسْجِدِ ـ الحَرَامِ ـ فَقَالَ لَهُمْ: دَعُونِي حتَّى أقُومَ إليهِ أُكَلِّمُهُ. فقَامَ إلى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فكلَّمَهُ، فقرأَ عَلَيْهِ (حـم السَّجْدَة) ثُمَّ قامَ عُتْبَةُ مَا يَدْرِي مَا يَرْجِعُ بهِ إلَى نَادِي قَوْمِهِ، فقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! قَدْ كَلَّمْتُهُ بالَّذِي أمَرْتُمُونِي بِهِ، حتّى إذَا فَرغْتُ كَلَّمَنِي بكَلامٍ لَا واللَّهِ مَا سَمِعَتْ أُذُنَايَ مِثْلَهُ قطُّ!! ومَا دَريتُ مَا أقُولُ لَهُ، يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! فأَطِيعُونِي اليومَ واعْصُونِي فِيمَا بَعْدَهُ، واتْرُكُوا الرَّجُلَ واعْتزِلُوهُ، فَوَاللَّهِ مَا هُوَ بِتَارِكٍ مَا هُوَ عَلَيْهِ، وخَلُّوا بَيْنَهُ وبَيْنَ سَائِرِ العَرَبِ، فإنْ يَظْهَرْ عَلَيْهِمْ يَكُنْ شَرَفُهُ وشَرَفُكُمْ، وعِزُّهُ وعِزُّكُمْ. قَالُوا: صَبأْتَ يَا أَبَا الوَلِيدِ؟! وكَذَلِكَ فعَلَ الوَلِيْدُ بْنُ المُغِيرَةِ، فأَسْمَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ القُرْآنَ فَقَالَ: قَدْ سَمِعْتُ الشِّعْرَ؛ رَجْزَهُ وقَرِيْضَهُ ومُخَمَّسَهُ، فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ هٰذا الكَلَامِ، يَعْنِي القُرْآن، مَا هُوَ بِشِعْرٍ؛ وإنَّ لهُ لَحلاوَةً! وإنَّ عَلَيْهِ لَطلاوَةً! وإنَّ لَهُ لَنوراً! وإنَّ لَهُ لَفرعاً! وإنَّهُ لَيَعْلُو ومَا يُعْلَى[(١)]!!!.

وكَذَلِكَ فَعَلَ «هِرَقْلُ» مَلِكُ الرُّوم، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لمّا كَتَبَ إليهِ يَدْعُوهُ إلَى الإِسْلَامِ؛ طَلَبَ مَنْ كَانَ فِي بِلَادِهِ مِنَ العَرَبِ، وكَان «أبُو سُفْيَانَ» سَيِّدُ قُرَيْشٍ وزَعِيمُها مَعَ جَمَاعَةٍ من تُجَّارِهَا، فَاسْتَدْعَاهُمْ هِرَقلُ إلَى مَجْلِسِهِ، وحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ وبَطَارِقَتِهِ، ودَعَا بتَرْجُمَانِهِ، وشَرَعَ يَسْأَلُهُمْ عَنْ أحْوَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فيَصِلُ بَعْدَمَا سَمِعَ مِنْهُمْ إلَى نَتِيجَةٍ قَاطِعَةٍ، وهِيَ: أنَّ مَا سَمِعَ مِنْ أحْوَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وصِفَاتِهِ وسِيْرَتِهِ ومَا جاءَهُمْ بِهِ، لَتَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ فِيمَا جاءَهُمْ بهِ، وأنَّهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ!! ويَحْسُنُ هُنَا أنْ نَذْكُرَ هٰذا الحِوَارَ الَّذِي يَرْوِيهِ الإِمَامُ البُخَارِيُّ في صَحِيحِهِ[(٢)] /رقم ٧/ قَالَ:

حدّثنا أَبُو الْيَمَانِ الْحَكَمُ بْنُ نَافِعٍ قَالَ: أَخْبَرَنَا شُعَيْبُ عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ:

---

(١) دلائل النبوة لأبي نعيم، رقم ١٨٣ ـ ١٨٤.

(٢) وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب المغازي «الجهاد والسير» باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل /رقم ١٧٧٣/.

أَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ عَبدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ أَخْبَرَهُ، أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ أَخْبَرَهُ: أَنَّ هِرَقْلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ، وَكَانُوا تُجَّاراً بِالشَّأْمِ، فِي المُدَّةِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَادَّ فِيهَا أَبَا سُفْيَانَ وَكُفَّارَ قُرَيْشٍ، فَأَتَوْهُ وَهُمْ بِإِيلِيَاءِ، فَدَعَاهُمْ فِي مَجْلِسِهِ، وَحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ، ثُمَّ دَعَاهُمْ وَدَعَا بِتَرْجُمَانِهِ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَباً بِهٰذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَقُلْتُ: أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَباً، فَقَالَ: أَدْنُوهُ مِنِّي، وَقَرِّبُوا أَصْحَابَهُ فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ، ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُمْ إِنِّي سَائِلٌ هٰذَا عَنْ هٰذَا الرَّجُلِ، فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ. فَوَاللَّهِ لَوْلَا الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِباً لَكَذَبْتُ عَنْهُ. ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَنْ قَالَ: كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ؟ قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ. قَالَ: فَهَلْ قَالَ هٰذَا الْقَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ فَقُلْتُ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ، قَالَ: أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ قُلْتُ: بَلْ يَزِيدُونَ، قَالَ: فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَهَلْ يَغْدِرُ؟ قُلْتُ: لَا، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لَا نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا، قَالَ: وَلَمْ تُمْكِنِّي كَلِمَةٌ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئاً غَيْرُ هٰذِهِ الْكَلِمَةِ. قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟ قُلْتُ: الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ، يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ، قَالَ: مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ قُلْتُ: يَقُولُ: اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ وَالصِّلَةِ. فَقَالَ لِلتَّرْجُمَانِ: قُلْ لَهُ: سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ، فَكَذٰلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا. وَسَأَلْتُكَ هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هٰذَا الْقَوْلَ، فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ أَحَدٌ قَالَ هٰذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ، لَقُلْتُ رَجُلٌ يَأْتَسِي بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ. وَسَأَلْتُكَ هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ، فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، قُلْتُ: فَلَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ، قُلْتُ: رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ. وَسَأَلْتُكَ هَلْ كُنْتُمْ

تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ، فَذَكَرْتَ أَنْ لا، فَقَدْ أَعرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ. وَسَأَلْتُكَ أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ، فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمُ اتَّبَعُوهُ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ. وَسَأَلْتُكَ أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ الإِيْمَانِ حَتَّى يَتِمَّ. وَسَأَلْتُكَ أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ، فَذَكَرْتَ أَنْ لا، وَكَذَلِكَ الإِيْمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ. وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَغْدِرُ، فَذَكَرْتَ أَنْ لا، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لا تَغْدِرُ. وَسَأَلْتُكَ بِمَا يَأْمُرُكُمْ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَيَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ، فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقّاً فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ، فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ، لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ. ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِي بَعَثَ بِهِ دِحْيَةَ إِلَى عَظِيمِ بُصْرَى، فَدَفَعَهُ إِلَى هِرَقْلَ، فَقَرَأَهُ، فَإِذَا فِيهِ: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ: سَلامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ، وَ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لا نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾).
قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَلَمَّا قَالَ مَا قَالَ، وَفَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الْكِتَابِ، كَثُرَ عِنْدَهُ الصَّخَبُ وَارْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ وَأُخْرِجْنَا، فَقُلْتُ لأَصْحَابِي حِينَ أُخْرِجْنَا: لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ، إِنَّهُ يَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الأَصْفَرِ. فَمَا زِلْتُ مُوقِناً أَنَّهُ سَيَظْهَرُ حَتَّى أَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيَّ الإِسْلامَ.

وَكَانَ ابْنُ النَّاظُورِ، صَاحِبُ إِيلِيَاءَ وَهِرَقْلَ، أُسْقُفًّا عَلَى نَصَارَى الشَّأْمِ، يُحَدِّثُ أَنَّ هِرَقْلَ حِينَ قَدِمَ إِيلِيَاءَ، أَصْبَحَ يَوْماً خَبِيثَ النَّفْسِ، فَقَالَ بَعْضُ بَطَارِقَتِهِ: قَدِ

آسْتَنْكَرْنا هَيْئَتَكَ، قالَ آبْنُ النّاظُورِ: وكَانَ هِرَقْلُ حَزَّاءً يَنْظُرُ فِي النُّجُومِ، فقَالَ لَهُمْ حِينَ سَأَلُوهُ: إنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ حِينَ نَظَرْتُ فِي النُّجُومِ مَلِكَ الْخِتَانِ قَدْ ظَهَرَ، فَمَنْ يَخْتَتِنُ مِنْ هٰذِهِ الأُمَّةِ؟ قَالُوا: لَيْسَ يَخْتَتِنُ إلاَّ الْيَهُودُ، فَلا يُهِمَّنَّكَ شَأْنُهُمْ، وَآكْتُبْ إلَى مَدَايِنِ مُلْكِكَ، فَيَقْتُلُوا مَنْ فِيهِمْ مِنَ الْيَهُودِ. فَبَيْنَما هُمْ عَلَى أَمْرِهِمْ، أُتِيَ هِرَقْلُ بِرَجُلٍ أَرْسَلَ بِهِ مَلِكُ غَسَّانَ يُخْبِرُ عَنْ خَبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا آسْتَخْبَرَهُ هِرَقْلُ قَالَ: آذْهَبُوا فَانْظُرُوا أَمُخْتَتِنٌ هُوَ أَمْ لاَ؟ فَنَظَرُوا إلَيْهِ، فَحَدَّثُوهُ أَنَّهُ مُخْتَتِنٌ، وَسَأَلَهُ عَنِ الْعَرَبِ، فَقَالَ: هُمْ يَخْتَتِنُونَ، فَقَالَ هِرَقْلُ: هٰذَا مُلْكُ هٰذِهِ الأُمَّةِ قَدْ ظَهَرَ. ثُمَّ كَتَبَ هِرَقْلُ إلَى صَاحِبٍ لَهُ بُرُومِيَةَ، وَكَانَ نَظِيرَهُ فِي الْعِلْمِ، وَسَارَ هِرَقْلُ إلَى حِمْصَ، فَلَمْ يَرِمْ حِمْصَ حَتَّى أَتَاهُ كِتَابٌ مِنْ صَاحِبِهِ يُوَافِقُ رَأْيَ هِرَقْلَ عَلَى خُرُوجِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَّهُ نَبِيٌّ، فَأَذِنَ هِرَقْلُ لِعُظَمَاءِ الرُّومِ فِي دَسْكَرَةٍ لَهُ بِحِمْصَ، ثُمَّ أَمَرَ بِأَبْوَابِهَا فَغُلِّقَتْ، ثُمَّ آطَّلَعَ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الرُّومِ، هَلْ لَكُمْ فِي الْفَلاحِ وَالرُّشْدِ، وَأَنْ يَثْبُتَ مُلْكُكُمْ، فَتُبَايِعُوا هٰذَا النَّبِيَّ؟ فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إلَى الأَبْوَابِ، فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِّقَتْ، فَلَمَّا رَأَى هِرَقْلُ نَفْرَتَهُمْ، وَأَيِسَ مِنَ الإيمَانِ، قَالَ: رُدُّوهُمْ عَلَيَّ، وَقَالَ: إنِّي قُلْتُ مَقَالَتِي آنِفاً أَخْتَبِرُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ، فَقَدْ رَأَيْتُ، فَسَجَدُوا لَهُ وَرَضُوا عَنْهُ، فَكَانَ ذٰلِكَ آخِرَ شَأْنِ هِرَقْلَ.

فهٰذِهِ الأَخْبَارُ والرِّوَايَاتُ مِنْ «أَعْلامِ النُّبُوَّةِ وَدَلاَئِلِهَا»، جَاءَتْ عن عُظَمَاءِ الْمُشْرِكِين، وسَادَاتِهِم، وعَنْ عُظَمَاءِ الرُّومِ وعُلَمَائِهم، حَيْثُ أَقَرُّوا بِصِدْقِ النُّبُوَّةِ، وكَابَرُوا عَلَى التَّنَكُّرِ لَها، وشَهَادَاتُ غَيْرِهِمْ مِمَّنْ أَسْلَمَ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ وَأَهْلِ الكِتَابِ، وهُمْ عَشَراتُ الأُلُوفِ؛ أَعْظَمُ وَأَكْبَرُ!! وعلَى رَأْسِهِمُ الصِّدِّيق وأَقْرانُهُ، وعَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلاَمٍ وأَصْحَابُهُ، والنَّجَاشِيُّ وبَطَارِقَتُهُ!! بَلْ كَانَ فِي إسلام كُلِّ أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ الكِرَامِ مِنَ أَعْلاَمِ النُّبُوَّةِ وَدَلائِلِها ومُعْجِزَتِها مَا يَدْعُوهُ إلَى التَّصْدِيْقِ بِنُبُوَّته ورِسَالَتِهِ بشَكْلٍ جَازِمٍ وقَاطِعٍ، ولِهٰذَا بَذَلُوا في سَبِيْلِ إيْمَانِهِمْ وإسْلاَمِهِمْ كلَّ غَالٍ ورَخِيصٍ

في حَيَاتِهِمْ، وفَدَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بأَرْوَاحِهِمْ ومُهَجِهِمْ، فَلَوْلَا مَا رَأَوْا مِنْ آيَاتِ نُبُوَّتِهِ ومُعْجِـزَاتِ رِسَالَتِـهِ مَا هَجَـرُوا البِلَادَ وهَـاجَرُوا إليـهِ، ومَا تَـرَكُوا الأَهْـلَ وأَوَوْا إليهِ، وَلا اسْتَحَبُّوا الشَّهَادَةَ فِي سَبِيْلِ نَشْرِ دِيْنِهِ وَتَبْلِيْغِ دَعْوَتِهِ، ولَما خَرَجُوا فَاتِحِيْنَ البِـلَادَ ودَاعِينَ الْعِبَادَ إلى عَقِيْدَتِهِ وشَرِيعتِهِ، علَى قِلَّةِ عَدَدِهِمْ وكَثْرَةِ عَدُوِّهِمْ!!!..

وكَما أَيَّدَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ بِالمُعْجِزَاتِ، بُرْهَاناً على صِدْقِ نُبُوَّتِهِ، كَذَلِكَ أَيَّدَ أَصْحَابَهُ بالكَرَامَاتِ، بُرْهَاناً على صِدْقِ إِيْمَانِهِمْ وصِحَّةِ إِسْلَامِهِمْ!! وذِكْرُ ذَلِكَ هُنَا يَطُولُ، وَأُحِيْلُ في مَعْرِفَتِهِ إلى كِتَابِي «مَوْسُوعَة عُظَمَاء حَوْلَ الرَّسُولِ ﷺ» الَّذِي جَمَعْتُ فِيْهِ أَخْبَارَ مَوَاقِفِهِمُ العَظِيمَةِ، فِي سَبِيْلِ نَشْرِ الإِسْلَامِ وتَبْلِيغِ دَعْوَتِهِ، وَأَخْبَارَ كَرَامَاتِهِمُ الَّتِي أَجْرَاهَا اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ تَأْيِيْداً وإِكْرَاماً وتَثْبِيْتاً!!.

وهٰذا الكِتَابُ الَّذِي نُقَدِّمُهُ لأَهْلِ الإِيْمَانِ، بَلْ ولِجَمِيْعِ بَنِي الإِنْسَانِ، دَعْوَةً إلَى مَعْرِفَةِ «أَعْلَامِ نُبُوَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ» ودَلَائِلِ مُعْجِزَاتِهِ، مَعْرِفَةً قَائِمَةً علَى الحُجَجِ والبَرَاهِينِ، يَأْتِي فِي قَائِمَةِ «دَارِ النَّفَائِسِ العَامِرَةِ» لِصَاحِبِهَا «أَحْمَد رَاتِب عَرْمُوش» حَفِظَهُ اللَّهُ تَعَالَى ورَعَاهُ، وأَدَامَ عَلَيْهِ العَافِيَةَ والبَرَكَةَ فِي العُمُرِ، الَّذِي أَخَذَ علَى عَاتِقِهِ نَشْرَ الكُتُبِ العِلْمِيَّةِ المُحَقَّقَةِ، والمُوَشَّحَةِ بالتَّعْلِيقَاتِ المُفِيْدَةِ؛ جَزَاهُ اللَّهُ تَعَالَى كُلَّ خَيْرٍ علَى حُسْنِ رِعَايَتِهِ واهْتِمَامِهِ بِنَشْرِ هٰذِهِ الكُتُبِ النَّفِيْسَةِ!!..

وتَلْبِيَةً لِرَغْبَتِهِ الكَرِيْمَةِ فَقَدْ قُمْتُ بِتَدْقِيقِ أَبْحَاثِ هٰذَا الكِتَابِ «أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ» للإِمَامِ «أَبِي الحَسَنِ عَلِيِّ بْن مُحَمَّدٍ المَاوَرْدِيِّ الشَّافِعِيِّ» رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى رَحْمَةً وَاسِعَةً، وخَرَّجتُ آيَاتِهِ وأَحَادِيْثِهِ ومَرْوِيَّاتِهِ، كَمَا هُوَ مُبَيَّنٌ في خُطَّةِ عَمَلِي في هٰذَا الكِتَابِ المُفِيدِ.

فَأَسْأَلُ اللَّهَ تَبَارَكَ وتَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ عَمَلِي هٰذا وجَمِيْعَ مَا يُماثِلُهُ عَمَلاً مُتَقَبَّلاً، عِنْدَهُ سُبْحانه، وأَنْ يَجْعَلَهُ خَالِصاً لِوَجْهِهِ الكَرِيْمِ، فإِنَّهُ لا يَقْبَلُ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصاً لَهُ،

لَا رِيَاءَ فِيْهِ ولاَ سُمْعَة، وأَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ بِعَظِيْمِ فَضْلِهِ وَكَبِيْرِ إِحْسَانِهِ وَوَاسِعِ رَحْمَتِهِ، وَعَمِيْمِ كَرَمِهِ؛ أَنْ يُجْزِلَ لِيَ المَثُوبَةَ فيهِ يَوْمَ أَلْقَاهُ، يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ ولاَ بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ، وأَنْ يَنْفَعَ بِهٰذا الكِتَابِ، ومَا قَدَّمْتُ فِيهِ مِنْ جُهْدٍ، جَمِيْعَ المُؤْمِنِيْنَ والبَاحِثِين، والحَمْدُ للَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

دِمَشْق في ١٩٩٠/٩/٢٢ م

خالد عبد الرحمن العك

غفَر اللَّهُ له ولوالديه ولجميع المسلمين

عملي في هذا الكتاب

ينحصرُ عملي في هذا الكتاب في الخُطَّة التالية:

أولاً: ضبطُ نُصوص الكتابِ، والمحافظةُ على سلامتِها من اللَّحن أو التَّصحيف، أو أخطاءِ النَّسْخ. وقد تمَّ التَّصحيح والضَّبط على النُّسخة المصرية المطبوعة سنة ١٣١٩ هـ، مع المقارنة على النُّسخ المطبوعة الحديثة التي لا تخلُو من أخطاءٍ مطبعية، ومن نقص في الجُمَل، فكانت هذه الطبعة أتمَّ من جميع النُّسَخِ المطبوعة.

ثانياً: وضْعُ المقدِّماتِ التَّمهيديَّةِ الهامَّةِ في إثباتِ النُّبُوَّةِ على منهجِ القرآنِ الكريمِ والسُّنَّةِ النَّبويَّةِ، وبيانِ دلالةِ النُّبوَّةِ والرسالةِ، والفَرْقِ بينهما، وأنَّ رسالةَ النبي ﷺ قد تضمَّنتْ أصولَ الدِّين، ثم بيانِ حقيقةِ المعجزاتِ وتعلُّقها بالنُّبوَّةِ والرِّسالة، وبيانِ طريقةِ المتكلمين في إثباتِ النُّبوَّة، والكشفِ عن نظرةِ الفلاسفةِ إلى النُّبوَّة، ثم البحث عن طُرُقِ إثباتِ أحاديثِ النُّبوَّةِ وأخبارِها، وأملي وطيد بأن تصدر هذه المقدمات في كتاب مستقل مكمل لهذا الكتاب.

ثالثاً: ترجمةُ المؤلف رحمه اللّه تعالى، وذكرُ مؤلَّفاته، ومكانته العلمية، وبيانُ منهجه في هذا الكتاب.

رابعاً: تخريجُ الآيات القرآنيَّة، والأحاديث النَّبويَّة، تخريجاً فنِّياً، وبيانُ صحيحها من سقيمها، فالمؤلِّف رحمه اللّه تعالى يستشهد بروايات لا تصح، أو بما

لا أصل له في كتب الحديث، وأحياناً يذكر الأحاديث الموضوعة التي كان يُـروِّجها القُصّاص، ولم يتبيَّنْ له حقيقتُها.

خامساً: التَّعليقُ على أبحاث المؤلف فيما يلزمُهُ الإيضاحُ والتَّبيينُ، والرَّدُّ على كثير من المسائل الكلاميَّة التي يطرحهـا في قَضَايـا العقيدة، وبيـان مذهب السَّلف فيهـا، ثم التَّعقيب على ما يُـوردُهُ من أقاويـل المبطلين الـطاعنين في النُّبُـوَّة بقصـدِ تفنيدِها، مع أنَّ رُدُودَهَا لا ينكأ عدوّاً، ولا ينفعُ مؤمناً، فكان عدمُ ذكرِها أَوْلَى.

سـادساً: وضـع العنـاوين لجميـع الفصـول، وقـد أتت ضمن هـذا الشكـل [....].

سابعاً: وضع الفهارس الفنيَّة الهامَّة والهادفة لجميع قضايا الكتاب ومسائله، ونصوص الآيات والأحاديث، لتسهيل الاستفادة السريعة من أبحاث الكتاب ومقدِّماته وتعليقاته.

والحمدُ للَّهِ الذي تتمُّ بنعمته الصَّالحات

ترجمة المؤلف

المؤلف علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي الشافعي هو من أعلام الفكر الإسلامي، وفقيه من كبار الفقهاء الشافعية، ومن رجال السياسة في الدولة العباسيّة، وأديب متفننٌ، ومن متكلِّمي الأشاعرة.

حياتـه: امتدَّت ما بين سنة ٣٦٤ ـ ٤٥٠ هـ، فقد عاصر الثقافة الإسلامية في أزْهَى عصورها، حين بلغت الدَّولة العبَّاسيَّة درجةً عاليةً من الرقيِّ العلميِّ، وظهر فيها كثيراً من العلماء البارعين، وعلى الأخص أصحاب الكلام الذين مزجوا بين الثَّقافة الإسلامية والفلسفة اليونانية وعلم المنطق والجَدَل.

قـال الحافظ الـذهبي في سيـر أعـلام النبـلاء ج ١٨/٦٤ ـ ٦٨/: صـاحب التَّصانيف، حدَّث عن الحسن بن عليٍّ الجبلي، صاحب أبي خليفة الجُمَحِي، وعن محمد بن عدي المِنْقري، ومحمد بن مُعَلَّى، وجعفر بن محمد بن الفضل. وحدَّث عنه: أبو بكر الخطيب [صاحب تاريخ بغداد] وَوَثَّقَـهُ، وقال: مـات في ربيعٍ الأوَّل سنة خمسين وأربعمائة، وقد بلغَ سِتّاً وثمانينَ سنـةً، وَوَلِيَ القَضَاءَ ببلدان شتّى، ثم سكنَ بغداد. كتبتُ عنه، وكانَ ثِقَةً. [تاريخ بغداد ج ١٢/١٠٢ ـ ١٠٣].

وقال جمال الدِّين الأسنوي في طبقات الشافعية ج ٢/٢٠٦ ـ ٢٠٧/: أقْضَى القُضـاة أبو الحسن: عليُّ بن محمـد بن حبيب المـاوردي البصـري. قـال الشيـخ أبـو إسحاق: تفقـه بالبصـرة على أبي القـاسم الصَّيْمَـري، ثم ارتحـل إلى الشيـخ أبي حامد الإسفرايني، فأخذَ عنه، ودرَّس بالبصرة وبغداد سنين كثيرة، وله مصنَّفات

كثيرة في الفقه والتفسير وأصول الفقه، والأدب، وكان حافظاً للمذهب ـ أي الشافعي ـ.

وقال القاضي شمسُ الدِّين في وَفِيات الأعيان ج ٣/٣٨٢/: مَنْ طَالَعَ كتابَ الحاوي، يشهد له بالتَّبحُّر ومعرفة المذهب، ولي قضاءَ بلادٍ كثيرةٍ.

ونَقَلَ ابن الجوزي في تاريخه المنتظم ج ٨/١٩٩/ عن الماوردي قوله: بسطتُ الفقه في أربعة آلاف ورقة، واختصرته في أربعين. يُريد بالمبسوط «الحاوي»، وبالمختصر «الإقناع».

وذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء ج ١٨/٦٦/ إنَّه لم يُظْهِرْ شيئاً من تصانيفه في حياتِهِ، وجمعَها في موضع، فلمَّا دَنتْ وفاتُهُ، قال لمن يَثِقُ به: الكتبُ التي في المكان الفُلانيّ كلُّها تصنيفي، وإنَّما لم أُظْهِرْها لأنِّي لم أجِدْ نيَّةً خالِصةً، فإذا عَايَنْتُ الموتَ، ووَقَعتُ في النزع، فاجْعَلْ يَدَكَ في يَدِي، فإنْ قَبَضْتُ عليها وعَصَرْتُها، فاعلمْ أنه لم يُقبل منِّي شيءٌ منها، فاعْمِدْ إلى الكتب وألْقِهَا في دَجْلَةَ، وإنْ بَسَطتُ يدي، فاعلمْ أنَّها قُبِلَتْ. قال الرجل: فلمّا احْتُضِرَ وضعتُ يدِي في يده، فَبَسَطها، فأظهرتُ كُتُبَهُ.

وعلى هذه القِصَّة تعقيب: ففي طبقات السبكي ج ٥/٢٦٨/ عقب هذه القِصَّة: لعلَّ هذا بالنِّسْبَةِ إلى الحاوي، وإلاَّ فقد رأيتُ من مصنَّفاته غيرَهُ كثيراً وعليه خطه، ومنه ما أكملتُ قراءته عليه في حياته.

وذكر السبكي في طبقاته ج ٥/٢٦٨/ قولَ أبي الفضل بن خيرون: كان رجلاً عظيمَ القدر، متقدِّماً عند السلطان، أحدَ الأئمة، له التَّصانيف الحِسَان في كُلِّ فَنٍ، بينَهُ وبين القاضي أبي الطَّيِّب في الوفاة أحدَ عشرَ يوماً.

الإمام الماوردي واتّهامه بالاعتزال:

الإمام الماوردي متكلِّمٌ من متكلِّمي الأشاعرة، وهو على تَعَصُّبِهِ للأشاعرة وطريقتهم الكلامية في العقيدة اتُّهِمَ بالاعتزال، وليس هذا غريباً، فإن عقيدة

الأشاعرة مزيج من عقائد الفِرَق الكلامية الّتي تأثَّرت بالمنهج الفلسفي اليوناني ومنطقها وجَدَلِها. فقولهم في تأويل الصِّفات الإلَهيَّة كقول المعتزلة، وقولهم بأنَّ كلامَ اللَّه كلامٌ نفسي، والقرآن مخلوق في اللَّوح المحفوظ، مؤدَّاه إلى مَقُولة المعتزلة الذين قالوا بخلق القرآن، فليس غريباً أن يُتَّهم متكلِّمُو الأشاعرة بالاعتزال، فعندهم ما عند المعتزلة من تحكيم العقل في نصوص القرآن والسُّنَّة، وتقديمه عليهما، وكذا رفض الأحاديث الصحيحة الواردة في العقيدة بزعم أنها آحاد، وهي لا تفيد إلاّ الظنَّ، فهم متَّفقون في قضايا كثيرة في مخالفة مذهب السَّلف الصالح، والخروج بها عن منهج القرآن والسُّنَّة الصحيحة في إثبات العقائد، فالفوارق بين متكلِّمي الأشاعرة ومتكلِّمي المعتزلة قليلة عدا مسائل جوهرية: كرؤية اللَّه تعالى في الجنَّة، وعدم تخليد مرتكب الكبيرة في النَّار، والقول في العدل، والمنزلة بين المنزلتين، وباقي المسائل المتشابهة متقاربة في الجوهر، مغايرة مختلفة في الظاهر، ولهذا يجدُ الباحثُ النَّاقدُ في كلام متكلِّمي الأشاعرة تَشَابهاً واضحاً بينهم وبين المعتزلة.

قال الإمام أبو عمرو بن الصلاح في الإمام الماوردي: هو مُتَّهَم بالاعتزال، وكنتُ أتأوَّل له واعتذرُ عنه، حتَّى وجدتُه يختار في بعض الأوقات أقوالهم. وكان لا يتظاهر بالانتساب إلى المعتزلة، بل يتكتَّم، ولكنَّه لا يُوافقهم في خلق القرآن، ويُوافقهم في القدر. [سير أعلام النبلاء: للذهبي ج ١٨/٦٧].

وقال الحافظ الذهبي في ميزان الاعتدال ج ٤/١٥٥/: صدوقٌ في نفسه، لكنَّه معتزلي.

وفي الطبقات الكبرى للسبكي ج ٣/٣٠٣ ـ ٣١٤/ بحث عمَّا رُمي به الماوردي من الاعتزال ثم ذكر أنَّه: «ليس معتزلياً مطلقاً، فإنَّه لا يُوافقهم في جميع أصولهم..».

مؤلَّفات الإمام الماوردي:

١ ـ **كتاب الحاوي الكبير**: وهو موسوعة كبيرة في أكثر من عشرين جُزْءاً، في

فقه الشافعية. وقدره أربعة آلاف ورقة. وأجزاؤه المخطوطة مفرَّقة في نواحٍ من الشرق والغرب.

٢ ـ **كتاب الإقناع**: وهو مختصر من الحاوي، وقدَّره مؤلفه بأربعين ورقة. وهو على غرار «متن القدوري» عند الأحناف.

٣ ـ **كتاب أدب القاضي**: لم يُطبع، ومنه نسخة في القسطنطينية، بالسُّليمانية.

٤ ـ **كتاب أعلام النُبُوَّة**: أي دلائلها، وهو مطبوع، ومنه نسخة خطية محفوظة في دار الكتب المصرية برقم ٦ ش/علم الكلام. وهو الكتاب الذي نُقدِّم له.

٥ ـ **كتاب الأحكام السُّلْطانية**: وهو أشهر كتبه، قد جمع فيه دستور الدولة الإسلامية؛ من أبحاث الخلافة والولاية، والقضاء، والإمارة، والعقوبات، والحدود، والجزية، والحِسْبة، إلى غير ذلك من التَّفريعات الإدارية. وقد طبع عدَّة مرَّات. ومنه نسخ خطيَّة كثيرة في المكتبات الكبرى العالمية.

وللإمام الماوردي كتب كثيرة أخرى، نذكر منها: «**نصيحة الملوك**» لم يطبع، و«**تسهيل النَّظر**» في السياسة، لم يُطبع. و«**قوانين الوزارة**» طبع بمصر سنة ١٩٢٩ بعنوان «**أدب الوزير**»، و«**كتاب في النحو**» لم يوجد منه نسخة خطية وإنَّما ذكره ياقوت في ترجمته، و«**كتاب الأمثال والحكم**» لم يطبع، و«**كتاب البغية العُليا في أدب الدِّين والدنيا**» وهو الذي شاع صيته وانتشر، ولا يزال النَّاس يُقبلون عليه حتى أيامنا هذه، واسمه المعروف هو «**أدب الدنيا والدِّين**»، وموضوعه: الأخلاق والفضائل الدِّينيَّة، من الناحية العلمية، والآداب الاجتماعية، وقد ضمَّنَهُ حِكَماً وعِبَراً وعِظاتٍ أمثالاً وأشعاراً. [من مقدمة المرحوم مصطفى السَّقا/ لكتاب أدب الدنيا والدِّين ص ٣-١٢].

منهج الإمام الماوردي في كتابه «أعلام النُّبُوَّة»:

هذا الكتاب: ضَمَّنَهُ مؤلِّفُهُ رحمه الله تعالى قسمين: **أحدُهما**: فيما يختصّ بأعلام النُّبُوَّة. **والثاني**: فيما يختلف من أقسامها وأحكامها، ويقع في واحدٍ وعشرين

باباً، وذلك كما بيَّنه في مقدمة كتابه.

وأمّا منهجه الذي سلكه فيه فهو منهجٌ كلاميٌّ جدليٌّ عقلي منطقي، بعيدٌ عن منهج القرآن الكريم والسُّنَّة النَّبويَّة الصحيحة في إثبات العقيدة، وتقرير قضاياها.

فهو يدور على النظر والاستدلال بالعقل، فيقول في الفصل الأول من الباب الأول: «وأمَّا المعلوم بدليل العقل، فهو ما يجوز أن يكون على خلاف ما هو به، كآحاد الأنبياء إذا ادَّعَى النُّبُوَّةَ، فيُوجب علمَ الاستدلال، ولا يُوجب علم الاضطرار لحدوثه عن دليل العقل لا عن ضرورته».

ثم يذكر الاختلاف في أصل النُّبُوَّة فيقول: «واختلف في أصل النُّبُوَّات على العموم، هل يُعلم بضرورة العقل، أو بدليله، على اختلافهم في التَّعبُّد بالشرائع، هل اقترانٌ بالعقل أو بعقبه، فذهب من جعله مقترناً بالعقل، إلى إثبات عموم النُّبُوَّات بضرورة العقل، وذهب مَنْ جعله متأخراً عن العقل إلى إثباتها بدليل العقل».

ويقول في أول الباب الثاني: «لا يصح التَّعبُّد ببعثة الرسل إلاَّ بعد معرفة المعبود المُرْسِل، لِيُعْلَمَ أنَّهم رُسُلُ مُطاع معبودٍ، فيُطاعوا لفرض طاعة المعبود، والمعبود هو اللَّه عزّ وجل...».

ثم يقول: «والذي يُؤدِّي إلى معرفته جلَّ جلالُهُ ثلاثة فصول: **أحدهما**: أنَّ العالَمَ مُحْدَثٌ، وليس بقديم. **والثاني**: أنَّ للعَالَمِ مُحْدِثاً قديماً. **والثالث**: أنَّه واحدٌ لا شريك له».

وجميع هذه التقريرات لم ترد في كتاب اللَّه تعالى بهذا الوصف والترتيب، وإنْ كان مضمون أكثرها جاء في آيات إثبات وحدانية اللَّه تعالى وأنَّه المتفرِّد بالخلق والإيجاد، غير أنَّ هذه الطريقة الكلامية طريقة عسيرة على العقول والأفهام، أمَّا الطريقة القرآنية على عظيم حُجَجِها وسطوع برهانها، سَهْلَةٌ يسيرةٌ نيرةٌ مُقْنِعَةٌ، لا تُثْقِلُ العقلَ بمقدار ما تُنيره بالحقائق والحُجج والبراهين.

هذا عدا إيراد الأقوال المتعارضة التي يسوق عليها الاعتراضات النَّاقضة، ثم

يأتي بما يترجَّح لدى أصحاب مذهبه، بما يزيدُ العقلَ عبثاً أمامَ ما يجبُ الاقتناعُ به والتسليمُ له من الأدلَّة والبراهين، وهذا خلاف طريقة القرآن التي أثبتَ اللَّهُ تعالى بها حقائقَ اليقين في الإيمان والاعتقاد، من غير إرهاق العقل في البحث عن الناقض والمنقوض والراجح والمرجوح في خِضَمِّ الأقوال المُتَنَازَعِ فيها والآراءِ المُخْتَلَفِ عليها. فهذا هو الأسلوب الجدلي الذي يُثبت به المتكلمون مسائل العقيدة والإيمان، والذي لا يخلو من المخاطر والمزالق التي فرَّ منها كبارُ المتكلِّمين.

وما لنا نذهبُ بعيداً في بيان خطر علم الكلام ومزالقه الرهيبة، وهَا هُمْ أولَاءِ علماءُ الكلام أنفسُهم ندم أكثرُهم في أواخر أيَّامهم في اشتغالهم به، أمثال الإمام «أبي عبد اللَّه محمد بن عمر الرَّازي» [ت ٦٠٦ هـ] الذي قال في مقدمة كتابه «أقسام اللذات»:

نِهَايَةُ إقْدَامِ العُقُولِ عِقَالُ … وغَايَةُ سَعْيِ العَالَمِينَ ضَلالُ
وأرواحُنَا في وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِنا … وحَاصِلُ دُنْيَانَا أذىً وَوَبَالُ
ولَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمْرِنَا … سِوَى أنْ جَمَعْنَا فيه: قِيْلَ وقَالُوا

ثُمَّ قال: «لقد تأمّلتُ الطُّرُقَ الكلاميَّة، والمناهجَ الفلسفية، فما رأيتُها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيتُ أقربَ الطُّرقِ طريقةَ القرآن!! [وبعد أن ذكر آياتٍ من آيات إثبات العقيدة قال]: «ومَنْ جَرَّبَ مِثْلَ تجربتِي عَرَفَ مِثْلَ معرفتي».

فهذا الإمام «المشهور بالفخر الرازي» الشافعي المفسِّر المتكلِّمَ، صاحب التصانيف المشهورة، هكذا يحكي تجربتَهُ مع علم الكلام التي امتدتْ إلى قُبيل وفاته! قال ابن الصَّلاح: أخبرني القطب الطوعاني مَرَّتين أنَّه سمع فخر الدِّين الرَّازي يقولُ: يا ليتني لم أشتغلْ بكلام الكلام، وبَكَى!!!.

وكذلك قال الإمام المتكلِّم: أبو عبد اللَّه محمد بن عبد الكريم الشهرستاني: أنَّه لم يجدْ عندَ الفلاسفة والمتكلِّمين إلاَّ الحَيْرَةَ والنَّدَمَ، حيث يقول:

لَعَمْرِي لقَدْ طِفْتُ المَعَاهِدَ كلَّها … وسَيَّرتُ طَرْفِي بينَ تِلْكَ المَعَالِمِ

فَلَمْ أَرَ إلّاَ وَاضِعاً كَفَّ حَائِرٍ   عَلَى ذَقَنٍ أو قَارِعاً سِنَّ نَادِمِ

وكذلك قال الإمام الجويني، أبو المعالي: يا أصحَابَنَا! لا تشتغلُوا بالكلام، فلو عرفتُ أنَّ الكلام يبلغُ إلى ما بلغَ ما اشْتَغَلْتُ به!!.

ولهذا أخذتُ في المقدمات[1] التي ذكرتُها على منهج السَّلف الصَّالح، فأثبت منهجَ القرآن في إثبات النُّبُوَّة كما تقدم، وذكرتُ طريقةَ المتكلمين في إثبات النُّبُوَّة ونقضَها، ونظرةَ الفلاسفة إلى النُّبُوَّة وفَسَادَها، كما ذكرت في الفصل السابع طرق إثبات أحاديث النُّبُوَّة وأخبارها على خلاف منهج المتكلِّمين. كما أخذتُ في جميع تعليقاتي جانب الرَّدِّ والنَّقض لجميع المسائل الكلامية الواردة في إثبات العقيدة والنُّبوَّة، وعلى الأخص بيان خطأ المتكلِّمين في إيراد الشُّبهات على الحقائق ثم العمل على نقضها، فيأتون بكبائرها ثم يَضَعُون عليها الرُّدُودَ البسيطةَ والضعيفةَ، فهي ليست للكفار تقمع، ولا للمؤمنين تنفع.

كما أني تابعتُ المؤلف رحمه اللّه تعالى على مرويّاته للأحاديث، حيث وجدتُ فيها الكثيرَ من الضَّفيف والموضوع، فنبهتُ إلى ذلك، فإنه لا يصح في العقيدة إلاّ ما في كتاب اللّه تعالى وسنة رسوله ﷺ الصحيحة الثابتة.

والحمدُ للّه الذي تتمُّ بنعمته الصَّالحات

(١) وهذه المقدمات ستخرج في كتاب مستقل إن شاء اللّه تعالى باسم: «معالم النبوة في القرآن والسّنّة».

نص كتاب أعلام النبوة

للإمام علي بن محمد الماوردي

رحمه الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمدُ للَّه الذي أحكمَ ما خلق وقدّر، وعدلَ فيما قسم ودبَّر، وأنذرَ بما أنشأ وأظهر، واستأثر بما أخفَى وأسرَّ، وأنعمَ بما أمَرَ وحظر، وأرشد إلى إنذارهِ بنوعي تفضيلٍ تميَّز بهما جنس البشر عن كلِّ حيوانٍ بهيم، وهما: نطقٌ يُفضي إلى الفهم، وعقلٌ يؤدِّي إلى العلم؛ لِيُعَانَ بهما على ما كلَّفَ من أوَانِ التّعبُّدِ فيصل بالعقلِ إلى علمِه واستعلامه، وبالنُّطق إلى فهمِهِ واستفهامِهِ، فيصيرُ مهيَّئاً لقبول ما كلَّفَ من التَّعارف، ومُعَاناً على ما تُعبِّدَ بهِ من الشرائع نعمةً بها قطعَ الأعذارَ وعمَّ بها المصالح؛ ليكونَ الخلقُ على رَغَبٍ يدعوهم إلى الطاعةِ، ورَهَبٍ يكفُّهم عن المعصية فيعمُّ الخيرُ بالرغبة، وينحسِمُ الشَّرُّ بالرهبةِ، وهذا لا يستقرُّ في النُّفوس إلاّ برسل مُبلِّغين عن اللَّه ثوابَهُ فيما أمرَ، وعقابَهُ فيما حظَرَ، فوجبَ أن يُوضح في إثباتِ النُّبواتِ ما ينتفي عنه ارتيابُ مَغْرُورٍ وشبهةُ معاندٍ[1]، وقد جعلتُ كتابي هذا مقصوراً

---

(١) إنّ الأنبياء الذين ابتعثهم اللَّه تعالى إلى عباده كانوا يقولون للنّاس: نحنُ مرسلون من عند اللَّه تعالى، وعليكم أن تصدّقونا فيما نخبركم به، وتتبعونا فيما جئنا به إليكم، كما حكى سبحانه عن أول المرسلين نوح عليه السَّلام إذْ قال لقومه: ﴿ألاَ تتَّقُون * إنِّي لكم رسولٌ أمينٌ * فاتّقُوا اللَّهَ وأطيعُونِ﴾ [سورة الشعراء، الآيات ١٠٦ - ١٠٨] وهذا قول كل نبي مرسل إلى قومه. فإذا كان الأمر كذلك فلا بُدَّ أن يُقيمَ اللَّهُ تعالى الدلائلَ والحُجَجَ والبراهينَ المبيّنة لصدق أنبيائه ورسله في دعواهم أنَّهم مرسلون من عند اللَّه تعالى؛ كي تقومَ الحُجَّةُ على النَّاس، ولا يبقى لأحدٍ عذرٌ في عدم تصديقهم وطاعتهم، قال اللَّه تعالى: ﴿لقد أرْسَلْنَا =

على ما أفْضَى ودلَّ عليه ليكونَ عن الحق موضِّحاً، وللسرائر مصلحاً، وعلى صحة النُّبوَّة دليلاً، ولشُبَهِ المُستريبِ مُزيلاً، وجعلتُ ما تضمنه مشتملاً على أمرين:

أحدهما: ما اختصَّ بإثبات النُّبوَّة من أعلامها.

والثاني: فيما يختلف من أقسامها وأحكامها، ليكون الجمعُ بينهما أنفى للشبهة، وأبلغ في الإبانة، وجعلت ما تضمَّنه هذا كتاباً مشتملاً على أحد وعشرين باباً:

الباب الأول: في مقدمة الأدلَّة.

الباب الثاني: في معرفة الإله المعبود.

الباب الثالث: في صحة التكليف.

الباب الرابع: في إثبات النُّبوَّات.

الباب الخامس: في مدَّة العالم وعدَّة الرسول عليهم الصلاة والسلام.

الباب السّادس: في إثبات نبوَّة محمَّد ﷺ.

الباب السّابع: فيما يتضمن القرآن من أنواع إعجازه.

الباب الثّامن: في معجزات عصمته ﷺ.

الباب التّاسع: فيما شوهد من معجزات أفعاله ﷺ.

الباب العاشر: فيما سُمِعَ من معجزات أقواله ﷺ.

الباب الحادي عشر: فيما أكرمه اللَّه تعالى به من إجابة دعوته ﷺ.

الباب الثاني عشر: في إنذاره بما يستحدث بعده ﷺ.

= رُسُلَنَا بالبيّناتِ﴾ [سورة الحديدة، آية ٢٥] أي بالدلائل والآيات البيّنات التي تثبتُ صدقهم وعصمتهم. ولقد كانت المعجزات متنوّعة الدلائل متعدِّدة الأصناف، مختلفة الأشكال، وكانت مشاهدةً محسوسةٍ غيرَ خافيةٍ على أحد، يعرفها كلُّ من شاهدها أنّها غيرُ مُسْتَطاعةٍ ولا مَقْدُورٍ عليها من غيرِهم، ولكنَّ الكفّارَ كانوا ينسبونها إلى السحر تفلّتاً من مسؤوليّة الإتباع والاقتداء، وهذا يدلُّ على حُمْقٍ في التفكير، وخُبْثٍ في النفوس التي تأبَى الطهارةَ والتّطهرَ من أنواع الرذيلة وفنون الشرور، وما أرسلَ اللَّهُ تعالى أنبياءه إلاّ من أجلِ تطهيرِ الإنسانِ من رجسِ الكفرِ والشركِ، ومن عُهْرِ الرّذيلة، ومن رَدَى الشّر والآثام.

الباب الثالث عشر : في معجزه ﷺ بما ظهر من البهائم.
الباب الرابع عشر : في ظهور المعجز من الشجر والجماد.
الباب الخامس عشر : في بشائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بنبوته ﷺ.
الباب السادس عشر : في هتوف الجن بنبوته ﷺ.
الباب السابع عشر : فيما هجست النفوس من إلهام العقول بنبوته ﷺ.
الباب الثامن عشر : في مبادىء نسبه وطهارة مولده ﷺ.
الباب التاسع عشر : في آيات مولده وظهور بركته ﷺ.
الباب العشرون : في شرف أخلاقه وكمال فضائله.
الباب الحادي والعشرون : في مبتدى بعثته واستقرار نبوّته.

وأسأل الله تعالى حسن معونته وأرغب إليه في توفيقه وهدايته وصلى الله على محمد وعلى آله وصحابته، وهو حسبي ونعم الوكيل.

الباب الأول

في مقدمة الأدلة

والأدلّـةُ ما أوصلتْ إلى العلم بـالمدلـولِ عليه، والـدليـلُ معلومٌ بـالعقـل، والمدلولُ عليه معلومٌ بالدليل، فيكونُ العقلُ موصلاً إلى الدَّليل، وليس بدليل؛ لأنَّ العقلَ أصلُ كلِّ معلومٍ من دليلٍ ومدلولٍ عليه، ولذلك سُمِّي أمُّ العلم، فصار العقلُ مستدلاًّ، وإن لم يكنْ دليلاً، والعلمُ الحـادثُ عنه مـا تميَّزَ بـه الحقُّ من البـاطـل، والصحيحُ من الفاسد، والمُمكن من الممتنع، وهـو على ضربين: علمُ اضـطرارٍ، وعلمُ اكتسابٍ[1].

فأمّا علمُ الاضطرارِ فهو ما أُدرِكَ ببداهةِ العقول وهو نوعان: حِسٌّ ظاهرٌ، وخبرٌ متواترٌ.

---

(١) أشرف العلوم هو العلم باللّه تعالى، سـواء كان علم اضـطرار على ما هـو مجبول عليـه كل مخلوق، أو علم اكتساب، وهو ما خُصَّ به الإنسان في تعلّمه من الأنبياء والرُّسل. والعلماء ثلاثة: عالم باللّه وبأمر اللّهِ، وعالم باللّه ليس عالماً بأمر اللّه، وعـالم بأمـر اللّه ليس عالمـاً باللّه. فالعالم باللّه الذي يخشَاهُ، والعالم بأمر اللّه الذي يعلم حـدوده وفرائضـه، وقد قـال اللّه تعالى: ﴿إنّما يخشَى اللّهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماءُ﴾ [سورة فاطر، آية ٢٨] وهذا يدلُّ على أنّ كلَّ مَنْ خشيَ اللّه تعالى فهو عالم. فالعلم يقوي العمـل، والعمل يقـوي العلم. [مجموع الفتاوى: لشيخ الإسلام ابن تيمية ج ٥٣٦/٧ و ٥٣٨].

وأفضل العلم المكتسب هو العلم الذي أنزلـه اللّه تعالى في كتـابه العـزيز، قـال سبحانـه: ﴿وأنزلَ اللّهُ عليكَ الكتابَ والحكمةَ، وعلّمَكَ ما لم تكن تعلم﴾ [سورة النساء، آية ١١٣] فبيَّنَ اللّه تعالى أنّ أفضل العلم وأشرفه وأنفعه هو ما أنزله في كتابه، وما أودعه في سنة رسوله الكريم ﷺ.

وعلمُ الحسِّ متأخر عن العقل، وعلمُ الخبرِ متقدِّم عليه. ولا يفتقرُ علمُ الاضطرار إلى نظرٍ واستدلالٍ لإدراكِه ببديهةِ العقلِ، ويشتركُ فيه الخاصَّةُ والعامَّةُ، ولا يتوجَّه إلى جُحْدٍ، ولا تَحْسُنُ المطالبةُ فيه بدليلٍ لأنّه غايةٌ لتناهِي النّظر.

فصل:

[العلم المكتسب]

وأمّا علمُ الاكتسابِ فطريقةُ النّظر والاستدلال[1]، لأنّه غيرُ مُدْرَكٍ ببديهةِ العقل، فصحَّ أن يتوجَّهَ إليه الاعتراضُ فيه بطلب الدليل عليه، فلذلك لم يتوصل إليه إلا بالنظر والاستدلال، وهو على ضربين:

أحدُهما: ما كان من قضَايَا العقول.

والثاني: ما كان من أحكام السمع.

فأمّا قضايا العقول فضربان:

أحدُهما: ما عُلِمَ استدلالاً بضرورة العقل.

الثاني: ما عُلِمَ استدلالاً بدليل العقل.

فأمّا المعلوم بضرورة العقل فهو: ما لا يجوز أن يكون على خلافِ ما هو به، كالتوحيد فيُوجبُ العلمَ الضَّروريَّ، وإن كان عن استدلال للوصول إليه بضرورة العقل.

وأمّا المعلوم بدليل العقل فهو: ما يجوز أن يكون على خلاف ما هو به كآحاد الأنبياء إذا ادَّعى النُّبوَّة، فيُوجبُ عِلْمَ الاستدلال، ولا يُوجبُ علمَ الاضطرارِ لحدوثِه

(١) إنَّ صِيَغَ الأدلّة العقلية [أي: الطريقة الاستدلالية] قد جاءت في القرآن الكريم بأبلغ عبارة وأوجزها وأجزلها وأقواها، أمّا الأدلة العقلية الكلامية منها والفلسفية والمنطقية، فقاصرةٌ عن بلوغ القوّة الكافية للاستدلال؛ لأنّ ضعف الدليل الذي يُسْتَدَلُّ به على الحقِّ يُؤدي إلى كثرة الشّكِّ والاضطراب والحيرة، كما هو شأن الفلاسفة والمتكلمين.

عن دليلِ العقلِ لا عن ضرورته[1].

واختلف في أصل النُبوَّات على العموم، هل يعلم بضرورة العقل أو بدليله، على اختلافهم في التَّعبد بالشَّرائع هل اقترن بالعقل أو بعقبه، فذهبَ مَنْ جعلَهُ مقترناً بالعقل إلى إثبات عموم النُّبوَّات بضرورة العقل، وذهبَ مَنْ جعلَهُ متأخراً عن العقل إلى إثباتها بدليل العقل[2]، وذهبَ أصحابُ الإلهام إلى إسقاط الاستدلال بقضايا العقول، وجعلوا إثباتَ المعارفِ بالإلهام أصلاً يغني عن أصلٍ، وهذا فاسدٌ بقول اللَّه تعالى: ﴿فاعْتَبِرُوا يا أُوْلي الأَبْصَارِ﴾[3] فجعله بالاعتبار مدركاً دونَ الإلهام. ويُقال لمن أثبتَ المعارفَ بالإلهام لِـمَ قلتَ بالإلهام؟ فإن استدلَّ نَاقَضَ، فإن قال: قلتُه بالإلهام، قيل له: انفصلْ عمَّن أسقط الإلهام بالإلهام، وعمَّن قال في الإلهام بغير إلهامك في جميع أقوالك فلا تجدْ فصلاً، وكفى بذلك فساداً.

---

(١) الفوارق بين علم الاستدلال وعلم الاضطرار لا تخضع لها النُّبوَّة؛ لأن إثبات النُّبوَّة ليس مجاله العقل المحض، بل مجاله الدَّلالات الإلٓهية التي تثبت صدقَها وتؤكِّد صحتها، فعنها يكون علم الاستدلال، كما يتولَّد منها علم الاضطرار.

(٢) العقل عند المتكلمين والفلاسفة المنطقيين أساسٌ في كل شيء، ومقدَّم على كل شيء، وهذا لا اعتراض عليه، إلاّ أنَّهم إذا قدَّمُوا العقل على الوحي ـ وهي طريقتهم، وذاك دَيْدَنُهم ـ فإنَّهم مخطئون، وعن الحقِّ معرضون، فكم من قضايا الوحي أخضعوها لعقولهم فخرجوا عن منهجه وخالفوا حقائقه وأعرضوا عن سبيله، وأقلُّ ما يُقال في هذا الخصوص: كيف فسروا كثيراً من الغيبيات التي أخبر بها الوحي، وكيف أخضعوا صفات اللَّه تعالى لقانون تأويلهم العقلي، فضلوا وأضلوا. وعلى هذا فإنه يجب أن يكون العقل دائماً من وراء الوحي يُدرك عنه حقائقه ولا يتقدَّم عليه.

(٣) سورة الحشر، الآية ٢.

فصـل:

[وجوب التوحيد والنبوة شرعاً وعقلاً]

فإذا ثبتَ أنَّ كِلَا الضَّربين مُدْرَكٌ بقضية العقل فيما عُلِمَ بضرورتهِ من التوحيد أو بدليله من النُّبوَّة[1]؛ صارَ بعدَ العلمِ به واجباً. واخْتُلِفَ في وجوبه، هـل وجبَ بما صار معلوماً به من قضية العقل أو بالسمع؟ فذهب قومٌ إلى وجوب التَّـوحيد والنُّبـوَّة بالعقل كما عُلِمَ بالعقل، ويكون التَّوحيد وعموم النُّبوَّات قبل السمع فَرْضاً. وذهب آخـرون إلى وجوبهمـا بالسمـع وإن عُلِمَا بـالعقل؛ لأنَّ الـوجوبَ تعبُّدٌ لا يثبت إلَّا بالسَّمع.

واختلف من قال بهذا في وجوب وُرُود السّمع به، فأوجبه بعضُهم، ولم يُوجبه آخرون منهم، وأسقطوا فرضَ التَّوحيد عن العقلاء إذا لم يرد سمعٌ بإيجابه.

وذهب آخـرون إلى أنَّ ما عُلِمَ بضـرورة العقل من التَّـوحيد واجب بـالعقل، وما عُلِمَ بدليـل العقل من النُّبـوَّة واجب بالسمـع؛ لأن التَّوحيـدَ أصلٌ والنُّبـوَّة فرعٌ،

---

(١) دليل النّبوّة قد سلكه القرآنُ الكريمُ في إثبات الحقائق الاعتقادية بالآيات الكونية على وجود الخالق سبحانه وتعالى وثبوت وحدانيَّته، كما سلك ذلك في إثبات قضايا النّبوّة، وذلك بإثبات لـوازم العلم بالشيء؛ لاستلزام العلم بشعـاع الشمس العلم بوجـودها من غيـر احتياج إلى الأقيسة المنطقية والبراهين الفلسفية التي أحدثوها لإثبات الحقائق.

والأدلّـة العقلية التي جـاء بها القـرآن الكريم لائق بجـلال اللّٰه تعالى وعـظيم سلطانه، فلم يستعمل القرآن قياس الشمول، وقياس التمثيل - كما هو حال الأقيسة الفلسفية والكلاميـة - الذي تستوي أفراده في حقِّ اللّٰه تعالى، لأنّه يلزم منها تسوية الخالق بالمخلوق. وكذلك إذا أخذَ القرآنُ في إثبات النّبوّة أتى بالطريقة اللائقة بالأنبياء والمرسلين.

وقد أتى في القرآن «قياسُ الأولى» في حقّ اللّٰه تعالى، الذي مضمونه: أنّ كلَّ كمال وجودي غير مستلزم للعدم ولا للنقص بوجهٍ من الوجوه اتصف به المخلوق، فالخالق أولى أن يتصف بـه؛ لأنّه هـو الذي وهب المخلوق ذلـك الكمال، ﴿ولِلّٰهِ المَثَـلُ الأَعْلَىٰ﴾ [سورة النحـل، آية ٦٠] على ما تتضمنه من القوّة القصوَى في الاستدلال.

وعلى هذا كانت طريقة القرآن الكريم في إثبات التوحيد والنّبوّة شرعاً وعقلاً معاً بلا انفصال، بلِ على الاتصال شريطة تقديم الشرع على العقل، وجعل العقل مقيّداً بالشرع.

والاجتهاد فيهما فُرِضَ على أعيان ذوي العقول إذا اقترن بكمال عقله قوّةُ الفطنة وصحةُ الرَّويَّة، فَيَسْتَغْنِي بكمال عقلِهِ وصحةِ رويَّتِهِ عن تنبيه ذوي العقول الوافرة ليصلَ باجتهادِهِ عقله من اضطرارٍ أو استدلال إلى قضايا العقول، ليصيرَ عالماً بها ومستغنياً عن عقل غيره فيها، وإن ضعفتْ فطنته وقلَّتْ رويَّتُه، لَزِمَهُ أن يتنبَّهَ بذوي العقول على الوصول إليها بعقله لا بعقولهم، فيعلمها بالتَّنبيهِ كما علمها غيرُهُ بالنظر، وإن لم يصل إليها بالتَّنبيه فليس بكاملِ العقل، ويصيرُ تبعاً لذوي العقول؛ لأنَّ عدم الْوُجِبِ دالٌّ على سقوط المُوْجِبِ.

فصل:

[تعريف العقل وأقسامه]

والعقلُ هو ما أفادَ العلمَ بموجباتِهِ[1]. وقيل: بل هو قوَّة التَّمييز بينَ الحقِّ والباطلِ. وقيل: هو العلمُ بخفيَّات الأمورِ التي لا يُوصل إليها إلَّا بالاستدلال والنظر. وهو ضربان، غريزي هو أصل، ومُكْتَسَبٌ هو فرع.

فأمَّا الغَرِيزيُّ: فهو الذي يتعلق به التكليف ويلزم به التَّعبد.

وأمَّا المكتسب: فهو الذي يُؤدِّي إلى صحة الاجتهاد وقوَّة النَّظر. ويمتنع أن يتجرَّد المكتسب عن الغريزي، ولا يمتنع أن يتجرَّد الغريزي عن المكتسب، لأنَّ

---

(١) إنَّ اختلاف الفلاسفة والحكماء وعلماء الكلام في تعريف العقل يدلُّ على أنَّهم لم يصلوا إلى معرفة حقيقته، ولا زال الفلاسفة المعاصرون مختلفين فيه كذلك، وحين جاء القرآن الكريم إلى ذكر العقل في آياته، جاء به بصورته البسيطة الخالية من التعقيد والإيهام أو الإبهام، فذكره بحقيقته التي يُدركها كلُّ ذي عقل من غير إشغاله بتعريفات متصوَّرة غالبها مصطنعة، فكانت طريقةُ القرآن في ذكر العقل طريقةً فريدةً لم يصل إليها الفلاسفة القدماء ولا الباحثون العلماء، فقدَّمه «عقلاً متأمِّلاً في الكون، دارساً لظواهره، مفكراً في نظامه الدقيق المحكم، مقارناً في النتيجة بين الحقائق البديهية والأوهام المصطنعة» ليصل بصاحبه إلى يقينٍ ثابتٍ في معرفة خالق الكون ومبدع نظامه، ثم تعظيمِهِ فطاعتِهِ وعبادتِهِ سبحانه وتعالى!!.

الغريزي أصلٌ يصح قيامه بذاته والمكتسب فرع لا يصح قيامه إلاّ بأصله. ومن النَّاس مَن امتنعَ من تسمية المكتسب عقلاً لأنَّه من نتائجه، ولا اعتبار بالنِّزاع في التَّسمية إذا كان المعنى مُسَلَّماً.

فصل:

[طاعةُ الرُّسُل والثّوابُ عليها]

وأمَّا أحكامُ السَّمعِ فمأخوذةٌ عمَّن يلزم طاعتُه من الرسل والعقل[1] مشروطٌ في التزامها، وإن لم يكن السمع مشروطاً في قضايا العقول.

وما يتضمنه السَّمعُ نوعان: تعبُّد وإنذار. فالتَّعبُّد: الأوَامرُ والنواهي، والإنذار: الوعد والوعيد. فإنْ جمعَ الرسولُ بين التَّعبُّد والإنذار فهو الشرع الكامل المُغْنِي عن غيره، وإنِ انفردَ بالتَّعبُّد دون الإنذار، فإن تقدَّمَهُ إنذار غيره كَمُلَ الشرعُ بتعبُّدِهِ وإنذارِ مَنْ تقدَّمَهُ. وإن لم يتقدمه إنذارٌ من غيره، إمّا في مبادىء النّبوّات أو في من لم تبلغهم دعوة الأنبياء، فقد اختلفَ في قضايا العقولِ هل تقتضي الثواب على الطاعة والعقاب عن المعصية، فذهبَ فريقٌ إلى اقتضائها لذلك، فعلى هذا يكون شرعاً كَمُلَ بتعبُّدِ الرسولِ وإنذارِ العقول.

وذهب فريقٌ إلى أنَّ قضايا العقول لا تقتضي ثواباً ولا عقاباً، فعلى هذا اختلف في التَّعبُّد هل يكون مستحقاً على ما تقدم من نِعَمِ اللَّه تعالى على خلقه، أو لجزاءٍ مستقبلٍ؟ فذهب فريقٌ إلى استحقاقهِ بسابق النِّعمة، فإنْ وَعَدَ اللَّهُ تعالى ثواباً عليه كان تفضُّلاً منه يُسْتَحَقُّ بالوعد دون التَّعبُّد. فعلى هذا يكون التَّعبُّد فرضاً مستحقاً

(١) لم يأت في نبوّات الرُّسل بما يُعلم بالعقل امتناعُهُ، وإن جاءت بما يعجز العقلُ عن دَرْكِهِ. والعقلُ شرط في معرفة العلوم وصلاح الأعمال، وبه يكمل العلمُ والعملُ، لكنَّه ليس مستقلاً بذلك، فهو بحاجة ماسّة ودائمة إلى الوحي، كحاجة العين إلى النور، فالقرآن نور العقول وبدونه فهي مظلمة. وإنِ انفردَ العقل عن القرآن لم يبصر الأمور التي يعجز وحده عن دركها، وإن عُزِل عنه بالكليّة كانت الأقوال والأفعال الصادرة عن العقل أموراً حيوانيَّةً، قد يكون فيها لذة ومحبة ووجد وذوق، كما قد يحصل للبهيمة.

يقتضي تركه عقاباً، وإنْ لم يقتضِ فعلُهُ ثواباً[1].

وذهب آخرون إلى استحقاقه بما يقابله من الجزاء بالثواب عليه وما تقدم من النعمة تفضُّلٌ منه. فعلى هذا يكون التزامُ التَّعبُّد مستحباً وليس بمستحِقٍّ، فلا يلزم على تركه عقاب كما لم يستحق على فعله ثواب؛ لأنَّه لم يقترن به وعدٌ بثوابٍ يُوجب التزامَ التَّعبُّد[2]. وإنِ انفردَ الرسولُ بالإنذار دون التَّعبُّد، فالإنذار لا يكون إلاّ على

---

(١) هذه الطريقة الكلامية في طرح المسائل الشرعية طريقة عقيمة، والطريقة السليمة الصحيحة ما جاءنا بها رسول اللّه ﷺ في إثبات وجوب إثبات التعبد للّه تعالى فرضاً مستحقاً للّه سبحانه، وأنَّ ثوابه عزَّ وجلَّ على الطاعة هو بمحض فضله سبحانه، في الصحيحين أنَّ رسول اللّه ﷺ قال: (لَنْ يُنجيَ أحداً منكم عملُهُ، قالوا: ولا أنتَ يا رسول اللّه؟ قال: ولا أنا إلاّ أن يتغمّدنيَ اللّهُ فيه برحمةٍ، فسدِّدُوا [أي نحو الحق] وقاربوا [أي إلى الطاعة] واغدُوا ورُوحُوا، وشيءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ، والقصدَ القصدَ تَبْلُغُوا) أي: بقصدكم طاعة اللّه تبلغوا رضوانه. [مصابيح السّنَّة للبغوي ج ٢/ ١٧٨، رقم الحديث ١٦٩٨].

(٢) هذا الاضطراب في الأقوال نتيجة الجدل الكلامي الذي وقع فيه «المتكلمون» وانساق وراءهم «المؤلف» رحمه اللّه تعالى ـ وكان الأولى به أن يعرض هذه المسألة على طريقة القرآن والسّنَّة الصافية الصحيحة السليمة الخالية من هذا الاضطراب الفكري والاختلاف العقلي ـ ويكفي دليلاً على فساد قول المتكلمين في قضايا الدِّين: أنَّه ليس لواحدٍ منهم قاعدة مستمرة، فيما يُحيله العقلُ، بل منهم من يزعم أنَّ العقل جوَّز وأوجب ما يدعي الآخر أنَّ العقل أحالهُ ورضي اللّه تعالى عن الإمام مالك بن أنس حيث قال: «أ كلّما جاءنا رجلٌ أجدلُ من رجلٍ تركنا ما جاء به جبريلُ إلى محمّدٍ ﷺ لجدلِ هؤلاء؟».
وإذا كان هذا واقع «علم الكلام» الذي يطرح المؤلف هذه المسائل على مقتضاه، فالواجب علينا تلقي علم ذلك من النّبوّة على ما هو عليه، ومن المعلوم للمؤمنين أنَّ اللّه تعالى بعث محمداً ﷺ بالهدى ودين الحقّ؛ ليظهرَهُ على الدِّين كلِّه وكفَى باللّه شهيداً، وأنه بيّنَ للناس ما أخبرهم به من أمور الإيمان باللّه واليوم الآخر [والثواب والعقاب]، ومن المعلوم للمؤمنين: أنَّ رسول اللّه ﷺ أعلم من غيره بذلك، وأنصح من غيره للأمّة، وأفصح عبارة من غيره، وأوضح بياناً، بل هو أعلم الخق بذلك وأنصح الخلق للأمّة، وأفصحهم، فقد اجتمع في حقّه كمالُ العلم والقدرة والإرادة. فهو ﷺ الغاية في كمال العلم، والغاية في كمال إرادة التبليغ المبين، مع وجود القدرة والإرادة الجازمة على تحقيق ذلك، فعُلِمَ قطعاً أنَّ ما بيّنه من أمر الإيمان والثواب والعقاب حصل به المراد من البيان، فلا يُلتفت في هذا إلى غيره!! [مجموع الفتاوى: لشيخ الإسلام ابن تيمية بتصرف يسيرج ٥/ ٢٩ ـ ٣٠ وج ٣/ ٣٣٨ ـ ٣٣٩].

فِعْلٍ ، وإلاّ كان عَبَثاً لا يصدرُ عن كليم ، فإنْ كان إنـذاره على شرعٍ تقـدّمه تضمَّنَ إنذارُهُ إثباتَ ذلك الشرع ، وكان هذا المنذِرُ من أمَّة ذلك المتعبِّد ، وإن كان المتعبِّد قد أُنْذِرَ كان هذا الإنذار تأكيداً ، ولم يحتجْ هذا المنذِرُ إلى إظهار معجزٍ ، وإن لم يكن المتعبِّد قد أُنذر تكامل شرعُ المتعبِّد بإنذار المتأخر ، وتكامـل إنذار المتـأخِّر بتعبُّد المتقدِّم ، واحتاج هذا المنذِرُ إلى إظهار معجزٍ إلى إنذارهِ موجب لكمال الشرع . وإن أنذر المتأخر على فعل الخير واجتناب الشَّرِّ خرجَ عن حكم الشرع إلى الوعظ والزجر بأمر إلَهيٍّ يستحق له بسط اليد في الإنكار واستيفاء ما تضمَّنه الإنذار.

الباب الثاني

في معرفة الله المعبود سبحانه وتعالى

لا يصحُّ التَّعبُّد ببعثة الرسل إلاّ بعد معرفة المعبود المُرْسِلِ[1]؛ لِيُعْلَمَ أنَّهم رُسُلُ مُطاعٍ معبودٍ فيُطَاعُوا، لفرضِ طاعةِ المعبُودِ. والمعبود هو اللَّه عزَّ وجلَّ المنعم على عباده بما كلفهم من عبادته وافترض عليهم من طاعته بعد النعمة عليهم بخلق ذواتهم، والإرشاد إلى مصالحهم، واستودعهم علمَ اضطرارٍ يُدرك ببداية العقول،

---

(١) طريقة المتكلمين في معرفة وجود اللَّه تعالى:
ينقسم المتكلمون إلى طوائف عديدة ومذاهب متباينة، ولكل طائفة آراؤها الخاصة بها.
وليس غرضي في هذا الفصل هو عرض آراء المتكلمين في مختلف المسائل والرد عليها، وإنَّما غرضي هو تناول موضوع مشترك بين المتكلمين جميعاً، ألاَ وهو استدلالهم على وجود اللَّه بحدوث الأعراض، ورأيت أولاً أن أعرض طريقة المتكلمين في الاستدلال على وجود اللَّه كما وردت عندهم، ثم أعرض ثانياً أهم مميزات هذه الطريقة والتي تتلخص فيما يلي:

١ - جعل المتكلمون هدفهم الأول هو إثبات توحيد الربوبية معتمدين في ذلك على دليل التمانع.
٢ - تقديمهم العقل على الشرع وجنوحهم إلى التأويل وإيجابهم النظر.
٣ - طريقتهم متعبة طويلة لاعتمادها على الجدل والاستدلالات المنطقية الجافة.
٤ - بُعد طريقتهم عن التوحيد الحقيقي المبعوث به الرسل.
٥ - طريقتهم غير عملية ولا تدخل الناس في دين اللَّه لعدم مناسبتها لجميع الناس ولاعتمادها على ألفاظ مستوردة من الأمم الأخرى.
٦ - طريقتهم نهايتها الشَّك والحيرة وندم أصحابها لسلوكها وقد ذمَّها السَّلفُ الصَّلح.

وعلمَ اكتسابٍ يُدرك بالفكر والنظر. ولمّا كانوا محجوبين عن ذاته لم يدركوه ببداية الحواس اضطراراً. وقد ظهر من إظهار آثار صنعته وإتقان حكمته ما يُوصل إلى معرفة ذاته وصفاته اكتساباً، لإدراكها بالاعتبار والنظر، ولو شاء لخلَقَ ما يُدرك ببداية الحواس، لكن معرفته بالاستدلال أبلغ في الحكمة لظهور التباين في الرتبة، فلذلك ما امتنع الوصولُ إلى معرفته اضطراراً، ووصل إليها استدلالاً واكتساباً يخرج عن بداية العقول إلى استدلالٍ معقول.

والذي يُؤدّي إلى معرفته جلّ جلاله ثلاثةُ فصول:

أحدها: أنَّ العالَم مُحْدَثٌ وليس بقديم.

الثاني: أنَّ للعالم مُحْدِثاً قديماً.

الثالث: أنَّه واحدٌ لا شريكَ له.

فأمّا الفصل الأول؛ في حدوثِ العالم، فالمحدَث ما كان له أوّل[1]، والقديم

---

(١) طريقة المتكلمين في إثبات الخالق هي الاستدلال على حدوث العالم بحدوث الأجسام ولا يستدل على حدوث الأجسام إلا بحدوث الأعراض، فهم لا يستدلون بحدوث ذات الأشياء وأعيانها من السحاب والمطر والحيوان والنبات، إنَّما يستدلون بحدوث الأعراض، لأن الأجسام عندهم مكونة من الجواهر الفردة والله إنما يحدث تأليفها وتركيبها، فإذا أثبتوا أن الأعراض القائمة بالأجسام حادثة قالوا: بأن ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث أو ما لا يسبق الحوادث فهو حادث بناء على أن هذه مقدمة ظاهرة، لأنَّ ما لا يسبق الحادث إمّا أن يكون مقارناً له أو متأخراً عنه، وما قارن الحادث أو تأخر عنه فهو حادث مثله.

مما سبق نستطيع أن نجمل دليل المتكلمين بالنقاط التالية:

١ - إن في الأجسام أعراضاً كالحركة والسكون والاجتماع والافتراق يجوز عليها العدم والبطلان، والقديم لا يجوز عليه العدم والبطلان.

٢ - إن الأعراض تشتمل على المختلف والمتماثل والمتضاد، والقديم لا يصح اشتماله على ذلك.

٣ - إن الأعراض تتجدد على الأجسام، وهذا التجدد هو الحدوث إذن فالأعراض حادثة.

٤ - إن الأعراض الحادثة لا تقوم إلا بالأجسام، فالأجسام حادثة مثلها وعليه فالعالم كله حادث. =

. . . .

= ٥ - إن العالم لا يحدث نفسه ولا يصح الدور والتسلسل، فيثبت بذلك أنه لا بد من محدث قديم لهذا العالم وهو اللّه تعالى.

وأرى ضرب مثال يوضح استدلال المتكلمين على حدوث الأجسام بحدوث الأعـراض وهو مثال خلق الإنسان.

إن المتكلمين لا يجعلون خلق الإنسان نفسه دليلاً على اللّه تعالى كما في آيات القرآن، بل جعلوا خلق الإنسان مستدلاً عليه وأخذوا يقيمون الأدلة على أن الإنسـان مخلوق عن طريق استدلالهم بحدوث أعراض النطفة فيقولون بأن الإنسان وغيره مكون من جواهر فردة، وخلْق الإنسان وغيره إنما هو إحداث أعراض في تلك الجواهر المنفردة بجمعها وتفريقها، وليس هو إحداث عين الإنسان أو عين الأجسام الأخرى، وبما أن النطفة لم تخل عن اجتماع وافتراق، وهما عرضان حادثان، فلم يخل الإنسان إذن من الحوادث، وما لم يخل من الحـوادث فهو حادث لامتناع حوادث لا أول لها، فثبت أن الإنسان مخلوق، وبما أنه لم يخلق نفسه فثبت أن له خالقاً.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللّه: لكن هؤلاء الذين استـدلوا بخلق الإنسـان فرضـوا ذلك في الإنسان ظناً أن هذه طريقة القرآن، وطولوا في ذلك ودققوا حتى استدلوا على كون عين الإنسـان وجواهـره مخلوق لظنهم أن المعلوم بـالحس وبديهـة العقل إنمـا هو حـدوث أعراض لا حدوث جواهر، وزعموا أن كل ما يحدثه اللّه من السحاب والمطر والزرع والثمر والإنسان والحيوان فإنما يحدث فيه أعراضاً وهي جمع الجواهر التي كانت موجودة وتفريقها. وزعموا أن أحداً لا يعلم حدوث غيره من الأعيان بالمشاهدة ولا بضرورة العقل، وإنَّما يعلم ذلك إذا استدل كما استدلوا فقالوا: هذه أعراض حادثة في جواهر، وتلك الجواهر لم تخل من الأعراض لامتناع خلو الجواهر من الأعراض، ثم قالوا: وما لم يخـلُ من الحوادث فهـو حادث. ولهذا كانت هذه الطريقة باطلة عقلاً وشرعاً، وهي مكابرة للعقل، فإن كون الإنسان مخلوقاً محدثاً، كائناً بعد أن لم يكن، أمر معلوم بالضرورة لجميع الناس، وكل واحد يعلم أنه حدث في بطن أمه بعد أن لم يكن، وأن عينه حدثت كما قال تعالى: ﴿وقد خلقتُكَ من قبْلُ ولم تَكُ شَيْئاً﴾ [سورة مريم، آية ٩]، وقال تعالى: ﴿أوَ لا يذكُر الإنسانُ أنَّا خلقناهُ من قبْـلُ ولم يَكُ شيْئاً﴾ [سورة مريم، آية ٦٧] ليس هذا مما يستدل عليه، فإنه أبين وأوضح مما يستدل به عليه لو كان صحيحاً فكيف إذا كان باطلاً.

فهذه الطريقة التي سلكها المتكلمون كانت سبباً في ضلالهم وانحرافهم عن المنهج السوي، وقد زادوا في تعنتهم عندما قرروا أن سلوكهم هذا الطريق موافق لطريقة القرآن الكريم، وقد أخطأوا في تقريرهم هذا، لأن طريقة القرآن الاستدلال على اللّه تعالى ووحدانيته بنفس آياته التي يستلزم العلم بها العلم به تعالى كاستلزام العلم بالشعاع العلم بالشمس من غير احتياج =

ما أوَّلَ له، والدليل على حدوثِ العَالَمِ شيئان:

أحدهما: أنَّ العَالَمَ جواهرٌ وأجسامٌ لا تنفك عن أعراض محدثة من اجتماع وافتراقٍ وحركةٍ وسكونٍ. وإنَّما كانت الأعرَاضُ محدثةٌ لأمرين: **أحدهما**: أنه لا يصح قيامُها بذواتها. **والثاني**: لوجودها بعد عدمها، وزوالها بعد وجودها، وما لم ينفك عن الأعرَاضِ المحدَثَةِ لم يسبقها، لأنَّه لو سبقها لكان لا مجتمِعاً ولا مفترِقاً ولا متحركاً ولا ساكناً، وهو مستحِيلٌ فاستحالَ سبقُهُ، وما لم يسبق المحدث فهو محدَث. فإن قيل: فليس يُستنكَرُ أن تكون الحوادثُ الماضيةُ لا أوَّلَ لها فلم يلزم حدوث العالم، قيل: إذا كان لكل واحد من الحوادث أوَّلٌ استحال أن لا يكون لجميعها أوَّلٌ لأنها ليستْ غير آحادها، فصارتْ جميعُها محدَثَةً لأنَّها ذواتُ أوائل مُحْدَثَة.

والدليل الثاني: على حدوث العَالَمِ وجودُهُ محدوداً متناهي الأجزاء والأبعاض، وما تناهت أجزاؤه وأمكن توهمُ الزيادة عليه والنقصان منه كان تقديره

= إلى قياس كلي يقال فيه: وكل محدَث فلا بد له من محدِث، أو كل ممكن فلا بد له من مرجح، أو كل حركة فلا بد لها من علة غائية أو فاعلية، ومن غير احتياج إلى القول بأن سبب الافتقار إلى الصانع هل هو الحدوث أو الإمكان؟ فأخطأوا في ذلك، لأن افتقار المخلوق وصف ذاتي له ولا علة لذلك إلا كونه مخلوقاً، ولا يقال علة هذا الافتقار هي الحدوث أو الإمكان، فكل إنسان يعلم فقر نفسه وحاجتها إلى خالقها من غير قول بالحدوث أو الإمكان، وافتقار المخلوق للخالق ليس بحاجة أن يستدل عليه بقياس كلي كقولهم: كل ممكن لا بد له من موجب أو كل محدَث لا بد له من محدِث، فكأنهم ساقوا الأدلة وأتعبوا أنفسهم للاستدلال على أمر بدهي فطري لا يحتاج كل هذا العناء، فبالفطرة يعلم الإنسان فقره للخالق، وإن لم يخطر بباله وصف الإمكان أو الحدوث، وعلى هذا جاء قوله تعالى: ﴿أم خُلِقوا مِنْ غيرِ شيءٍ أمْ هُمُ الخالِقُونَ؟﴾ [سورة الطور، آية ٣٥]، فلمّا سمعها جبير بن مطعم والنبي يقرأ بها في المغرب أحسَّ بفؤاده قد تصدع من غير استدلال بقياسات المتكلمين.

[مصدر هذا التعليق: مجموع الفتاوى: لشيخ الإسلام ابن تيمية ج ١٢/ ١٤٠ ـ ٥٠ و٢١٢/ وموافقه صحيح المنقول لصريح المعقول ج ١/ ١٨٦ ـ ١٨٨، مجموع الفتاوى ج ١٦/ ٢٦٩، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري ج ٨، رقم الحديث ٤٨٥٤].

على ما هو به دليلاً على أن غيره قدَّرَهُ، إذْ ليس كون ذاته على صفةٍ بأولَى من كـونه على غيرها لولا تدبرُ غيرِهِ لها. فإن قيل: فلِـمَ لا كانت طينتُهُ قديمةً، وأعراضُ تركيبه وتصويرِهِ حادثةً، كـأفعال اللَّه تعـالى حادثـة عن ذاته القـديمة؟ قيـل: لأن حدوث أعراضه فيه، وهو لا ينفك منها فصار مُحْدَثاً بها، وأفعال اللَّه تعالى حادِثَةٌ في غيرِهِ، فلم يمنع حدوثها من قدمهِ، ولو حدثت فيه لمنعت من قدمه.

وأمّا الفصل الثاني، أنَّ للعالَمِ مُحْدِثاً قديماً، فالدليل على أنَّ له محدِثاً قديماً شيئان: **أحدهما**: أنَّه لمّا استحال أن يكون العَالَمُ محدثاً لذاتهِ لإفضائهِ إلى وجـودهِ قبل حدَثِهِ دلَّ على أن محدثَهُ غيرُهُ. **والثاني**: أنَّ وجودَ ما لم يكن يُوجب أن يقتضي موجِداً كما اقتضى المبنَى بانياً والمصنوعُ صانعاً. والدليل على قدمِ محدِثِهِ شيئان: **أحدهما**: أنه لا أوَّلَ له وما لا أوّلَ له قديمٌ. **والثاني**: أنّه لو لم يكن قديماً لاحتاجَ إلى محدثٍ ولاحتاج محدثه إلى محدث، ولا تنتهي إلى ما لا غاية له، فامتنع وثبت قِدَمُهُ أنّه لم يزل، ولا يزال، فلم يكنْ له أول ولا يكون له آخر. وإذا كان محـدثه قـديماً وجب أن يكون قادراً مريداً. والدليل على قدرته أنه يصح منه أن يفعل، ولا يفعلُ مع انتفاء الموانع، وقد فعلَ دلَّ وجود الفعل منه على قدرته عليه، والدليل على أنَّه مريدٌ أنَّه لمّا وُجِدَ منه الفعلُ وهو غير ساهٍ ولا مكـرَهٍ ولا عابِثٍ لانتفـاء السهو عنـه بعلمه، وانتفاء الإكراه عنه بقدرته، وانتفاء العبث عنه بحكمته دلَّ على إرادته كما كانت كتابة الكاتب مع انتفاء هذه العَوارض دليلاً على إرادة كتابته، فصار إحداثـه للعالم دليـلاً على قدمه وحدوث أفعاله وقدمه يوجب أن تكون صفاتُ ذاتهِ قديمةً لقدمِهِ، وحدوث أفعاله يُوجب أن تكون صفاتُ أفعاله مُحْدَثَةً.

وأمّا الفصل الثالث، أنَّه واحد لا شريك له ولا مثل، فالدليلُ عليه شيئان:

أحدهما: أنَّ عموم قدرته شاملٌ لجميع المحدثات فوجبَ أن يكونَ مُحْـدِثُ بعضِها محدِثاً لجميعها، إذْ ليس بعضُـها بأخصَّ قـدرتهِ من بعضٍ، فـأوجبَ تكافؤُ الأمرين عمومَ الجميع.

والثاني: أنَّه لو كان معه غيرُهُ لم يخلُ أن يكون مُماثِلاً أو مُخَالِفاً، فإنْ خالفَـهُ

فصل :

[عقيدة النَّصَارَى]

فأمّا النّصارى فقد كانوا قبلَ أن تنصَّر قسطنطين الملك على دين صحيح في توحيد اللّه تعالى ونبوّة عيسى عليه السّلام. ثم اختلفوا[1] في عيسى بعد تنصُّر

(١) عقيدة التثليث بالأقانيم عقيدة وثنية شركية بحتة، لا صلة لها بوحي السماء ألبتة، قال اللّه تعالى: ﴿وقالتِ النّصارَى المسيحُ ابنُ اللّهِ ذلك قولُهم بأفواههم يُضاهِئون قولَ الّذين كفرُوا من قبلُ﴾ [سورة التوبة، آية ٣٠] في هذا إثباتٌ قاطع على أن عقيدة التّثليث عقيدة كفر باللّه تعالى وإلحادٍ في أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى عمّا يصفون.
يقول العالم الباحث «محمد طاهر التّنير ـ رحمه اللّه تعالى» في كتابه الوثائقي «العقائد الوثنية في الديانة النصرانية» ص ١٣: «ومن المعلوم أنّ الأمم الوثنية عبدت آلهةً متعدّدة، اخترعتها أوهامها، حتى أنّهم لم يتركوا قوّةً من قوى الطبيعة إلّا جعلوها إلّهاً عبدُوهُ، كإلّه الرعد، وإلّه الماء، وإلّه الهواء، وإلّه النّار، وإلّه الكواكب، وغير ذلك».
وقال اللّه تعالى: ﴿ولا تقولُوا ثلاثةٌ انتَهُوا خيراً لكم إنّما اللّهُ إلّهٌ واحدٌ﴾ [سورة النساء، آية ١٧١].
وقال رحمه اللّه تعالى: «التثليثُ عندَ الوثنيين: لقد أصبح من الحقائق المؤكّدة، أنَّ الدِّيانات الوثنية كثيرة التشابه جدّاً، وأسبابها عديدة». وينقل عن موريس في كتابه «الآثار الهندية القديمة ج ٦/ ٣٠» أنه قال: «كان عند أكثر الأمم البائدة الوثنية تعاليم دينية جاء فيها القول باللّاهوت الثالوثي «أي أنَّ الإلّه ذو ثلاثة أقانيم». وجاء في كتاب «سكان أوروبا الأُوَل ص ١٩٧»: «كان الوثنيون القدماء يعتقدون بأنّ الإلّه واحد، ولكنه ذو ثلاثة أقانيم». وقال العلامة «دوان في كتابه خرافات التوراة والإنجيل وما يماثلها في الديانات الأخيرة»: «إذا أرجعنا البصر نحو الهند نرى أنّ أعظم وأشهر عباداتهم اللّاهوتية هو التثليث» أي: القول بأن الإلّه «ذو ثلاثة أقانيم». وقد جاء في كتب البرهميين المقدّسة المعتبرة لديهم ذكر الأقانيم الثلاثة وهم: براهما الخالق، وفشنو الحافظ، وسيفا المهلك. ونقل عن كتاب أصل الوثنية للمستر فابر قوله: «وكما نجد عند الهنود ثالوثاً مؤلفاً من: براهما وفشنو وسيفا، وهكذا نجد عند البوذيين فإنَّهم يقولون: إنَّ بُوذا إلّه، ويقولون بأقانيمه الثلاثة»، ويذكر عن العلامة «دوان» في كتابه خرافات التوراة والإنجيل ص ٣٧٢: «البُوذيون الذين هم أكثر سكان الصين واليابان، يعبدون إلّهاً مثلَّث الأقانيم يُسمُّونه: «فو» ومتى ودُّوا ذكر هذا الثالوث المقدس، يقولون: الثالوث النّقي «فو». والمصريون القدماء كانوا يعبدون إلّهاً مثلّث الأقانيم [عن كتاب: الإيمان والعقل ص ٧٨ لهلسلي ستيفنس]. وذكر عن دوان أنه قال: «وكان الفرس =

قسطنطين، وهو أوَّل من تنصَّر من ملوك الروم. فقال أوائل النسطورية: إن عيسى هو اللَّه. وقال أوائل اليَعَاقبة: إنَّه ابن اللَّه، وقال أوائل الملكانية: إن الآلهة ثلاثة أحدهم عيسى. ثم عدلَ أواخرهم عن التَّصريح بهذا القول المستنكر حين استنكرته النفوس، ودفعتْهُ العقول، فقالوا: إنَّ اللَّه تعالى جوهر واحد هو ثلاثة أقانيم: أقنوم الأب، وأقنوم الابن، وأقنوم روح القدس، وأنَّها واحدة في الجوهرية وأنَّ أقنوم الأب هو الذَّات، وأقنوم الابن هو الكلمة، وأقنوم روح القدس هو الحياة. واختلفوا في الأقانيم، فقال بعضهم: هي خواص، وقال بعضهم: هي أشخاص، وقال بعضهم: هي صفاتٌ. وقالوا: إنَّ الكلمة اتَّحدتْ بعيسى، واختلفوا في الاتّحاد، فقال النَّسطورية: معنى الاتحاد أنَّ الكلمة ظهرتْ حتّى جعلته هيكلاً، وأنَّ المسيح جوهران: أقنومان أحدهما إلَهي والآخر إنساني، فلذلك صحَّ منه الأفعالُ الإلَهية من اختراع الأجسام وإحياء الموتَى، والأفعال الإنسانية من الأكل والشرب.

وقال اليَعَاقبة: الاتحاد هو المُمَازجةُ، حتى صار منها شيءٌ ثالثٌ نزل مَن السماء وتجسَّدَ من روح القدس، وصار إنساناً هو المسيح، وهو جوهر من جوهرين، وأقنوم من أقنُومين؛ جوهر لاهوتي وجوهر ناسوتي(١).

= يعبدون إلَهاً مثلث الأقانيم، مثل الهنود تماماً، وهم: أورمزد، ومترات، وأهرمان؛ فأورمزد: الخلّاق، ومترات: ابن اللَّه المخلّص والوسيط، وأهرمان: المهلك.

وإلى هذا ذهب أهل النصرانية فقالوا: «فإنَّ الذين يشهدون في السماء هم ثلاثةٌ: الآبُ، والكلمة، وروح القدس، وهؤلاء الثلاثة هم واحد» رسالة يوحنا الأولى: الإصحاح الخامس العدد ٧. وهذا الكلام لم يقله السيد المسيح عليه السَّلام، وإنما هو كلام مأخوذ عن كلام الوثنيين.

(١) الأطوار التي مرّت على النصارى في اعتقادهم بالمسيح: كانت تلك الأطوار على ثلاثة مراحل: مرحلة التوحيد، ومرحلة القول بالأقانيم، ومرحلة الانقسام وتنازع السلطة. أما المرحلة الأولى وكان فيها الموحدون: منهم «أريوس» وأتباعه، كان يقول: إنَّ الآب وحده هو اللَّه، والابن مخلوق له، وقد كان الآب إذ لم يكن الابن. ومنهم «بولس الشمشاطي» وأصحابه البولقانيون، وكان بطريكاً لإنطاكية، وكان يقول: إنّ عيسى عبد اللَّه ورسوله، كأحد الأنبياء عليهم السَّلام. ثم نشأ فيهم من يقول: إنَّ الآلهة ثلاثة: صالح، وطالح، وعدل =

وقال الملكانية: المسيح جوهران أقنومٍ واحدٍ.

وليس لهذه المذاهب شبهةٌ تقبلُها العقول، وفسادُها ظاهرٌ في المعقول. أمّا قولُهم: إنَّ اللَّه تعالى جوهر فقد دلَّلنَا على حدوث الجواهر، فاستحال أن يكون القديمُ جوهراً.

وأمّا قولهم: إنَّه ثلاثة أقانيم[1] فإنْ جعلوها أشخاصاً قالوا بالتثليث، وامتنعوا

= بينهما. وهم «المرقيون». والبربرانية: وهي فرقة كانت تقول: إنَّ المسيح وأمَّه إلٰهان من دون اللَّه. وأمّا المرحلة الثانية: فكانت تطويراً للقول بالأقانيم، وكانت حول فكرة التوحيد مع المزج بالتثليث. وأمّا المرحلة الثالثة: انقسام النصرانية إلى شطرين: شطر غربي لاتيني، وشطر شرقي يوناني. فالشطر الغربي وكان له الكنيسة الغربية اللاتينية، وتسمّى الكنيسة البطرسية، ورئيسها البابا بروما. والشطر الشرقي وله كنيسة الروم الأرثوذكسية. وكان سبب هذا الانقسام هو موضوع المجادلة في المجمع الثامن سنة ٨٧٩ م حول قضية انبثاق الروح القدس، هل انبثاقها من الآب فقط؟ كما هو رأي الكنيسة الشرقية، أو هو من الآب والابن معاً؟ وهو رأي الكنيسة الغربية اللاتينية. ونتيجة هذا الانقسام كان هناك النزاع على السلطة [انظر كتاب «أضواء على المسيحية» للدكتور رؤوف شلبي].

(١) القول بالأقانيم مأخوذ من الوثنيين كما تقدم ذكره فيما تقدَّم في التعليق الأول لهذا البحث، ونزيدُ الأمرَ هنا وضوحاً بما قاله العلامة «فسك» في كتابه «الخرافات ومخترعوها» ص ٢٠٥: «كان الرومانيون الوثنيون القدماء يعتقدون بالتثليث، وهو أولاً اللَّه، ثم الكلمة، ثم الروح». وقال «دوان» في كتابه «خرافات التوراة والإنجيل» ص ٣٧٧: «يُوجد في كتابات زوستر سانن الشرائع الفارسية هذه الجملة: «الثالوث اللاّهوتي مضيء في العَالَم، ورأس هذا الثالوث موناد»، ويقول: «وكان الآشوريون والفنيقيون يعبدون آلهة مثلَّثة الأقانيم»، وقال أيضاً: «وكان الإسكندنافيون يعبدون إلٰهاً مثلث الأقانيم، يدعونها «أودين، وتودا، وفري» ويقولون عن هذه الأقانيم: إنَّها إلٰه واحد، وقد وُجِد صنمٌ يُمثل هذا الثالوث المقدس بمدينة أوبسال من السويد. وكان الدرديون يعبدون إلٰهاً مثلث الأقانيم، وهم «تولاك، وفان، ومولاك» وسكان سيبيرية القدماء كانوا يعبدون إلٰهاً مثلث الأقانيم، ويدعون الأقنوم الأول من هذا الثالوث المقدس «خالق كل شيء» والأقنوم الثاني «إلٰه الجنود»، والأقنوم الثالث «روح المحبة السماوية» ثم يقولون: «أقانيم ثلاثة إلٰه واحد». والتتر الوثنيون عبدوا إلٰهاً مثلث الأقانيم، وعلى نقودهم الموجودة في متحف «بطرسبرج» صورة هذا الإلٰه المثلث الأقانيم المقدَّسة. والهنود الحمر في المكسيك وكندا كانوا يعبدون إلٰهاً مثلث الأقانيم، ويصوّرونه =

من التوحيد، وقد دلَّلنا على أن القديم واحد. وإن جعلوا الأقانيم خواصَّ وصفاتٍ لذاتٍ واحدةٍ، فقد جعلوه أباً وابناً من جوهرِ أبيه، فشَرَكُوا بينهما في الجوهر الإلٰهي، وفضَّلوه على الأب بالجوهر الإنساني، فلم يكن مع اشتراكِهما في الإلٰهي أن يتولَّد من الأب بأوْلَى أن يتولَّد منه الأب، مع تفضيله بالجوهر الإنساني. وكيف يكون قديماً ما تولد عن قديم، وإنما ظهرت منه الأفعال الإلٰهية لأنّها من قِبَلِ اللَّه تعالى إظهاراً لمعجزته، وليستْ من فعله، كفلق البحر لموسى عليه السّلام، وليس ذلك من إلٰهيَّة موسى. وقولهم: جوهر لاهوتي، وجوهر ناسوتي، فَنَاسُوتُ المسيح كَنَاسُوتِ غيرهِ من الأنبياء، وقد زَالَ ناسوتُهُ فبطَلَ لاهوتُهُ.

فصل:

[وحدانيّة اللَّه تبارك وتعالىٰ]

فإذا ثبت أنَّ اللَّه تعالى واحدٌ قديمٌ؛ فقدِ اخْتُلِفَ في معنى وحدانيَّتِهِ[1]، فقالت

= بشكل صنم له ثلاثة رؤوس على جسد واحد، ويقولون: إنّه ذو ثلاثة أشخاص بقلب واحد وإرادة واحدة». وهكذا كان التشابه بين ديانات الوثنيين، وقد كان بعضهم يعبد آلهةً متعدّدة. وهذه الديانات قديمة جداً، وكانت قبل نشوء النصرانية، ثم انتقلت هذه العقيدة الوثنية ذات الأقانيم الثلاثة إلى الديانة النصرانية بعد رفع المسيح عليه السّلام إلى السماء قرابة مائة عام، نتيجةً للتحريف الذي طرأ على الأناجيل المحرّفة والتي منها الأربعة المعروفة اليوم. وقد حفظ لنا التاريخ بحمد اللَّه تعالى نسخة «إنجيل برنابا» الذي يحكي أصل دين المسيح عليه السّلام بصدق وأمانة. [العقائد الوثنية في الديانة النصرانية ص ٣٠ ـ ٤٨].

(١) هذا الاختلاف نتيجة للجدل الكلامي المخالف لمنهج السلف الصالح، وكان الأئمة الأربعة رضي اللَّه عنهم شديدي الإنكار على أهله، قال الإمام مالك بن أنس: «أو كلّما جاءنا رجلٌ أجْدَلُ من رجل تركنا ما جاءنا به جبريل إلى محمّدٍ ﷺ لجدل هؤلاء»؟ [مجموع الفتاوى ج ٢٩/٥]. وإنَّ أول ما أُنزل على رسول اللَّه ﷺ بيان أصول الدِّين، وهي الأدلة العقلية الدّالة على إثبات صفات الخالق وإثبات توحيده. فأصلُ العلم بالتوحيد العلمُ الإلٰهي عند الرسول ﷺ وهو وحي اللَّه إليه، وعند المؤمنين هو الإيمان باللَّه وصفاته على مراده سبحانه، بلا زيادة ولا نقصان ولا تقسيم ولا تفريع. والتوحيد الذي جاءنا به رسول اللَّه ﷺ هو: توحيد اللَّه تعالى في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله. =

. . . .

= توحيد اللَّه تعالى في ذاته: أنَّه هو اللَّهُ الأحد الذي لم يلِدْ ولم يُولَدْ ولم يكنْ له كُفْواً أحد، وأنَّه هو وحده المتفرِّد في الخلق والإيجاد، والإحياء والإماتة والرزق والعطاء، وآيات هذا النوع من التوحيد كثيرة جداً في سور القرآن الكريم، وأنَّه سبحانه هو وحده المتفرِّد في الألوهيّة، فلا إله سواه، فهو الإلـه الحقُّ الذي يستحق العبادة والطاعة والمحبّة والإخلاص، وحده لا شريك له!!.

وهذا التوحيد يتضمَّن توحيدَهُ سبحانه في صفاته وأسمائه، وتوحيد الأسماء والصفات يقوم على أسس ثلاثة:

الأول: أن أسماء اللَّه تعالى وصفاته كلها توقيفية، لا يجوز إطلاق شيءٍ منها على اللَّه في الإثبات أو في النفي إلّا بوحي منه سبحانه، فهو وحده العليم، فلا نثبتُ للَّه سبحانه من الأسماء والصفات إلّا ما أثبته هو لنفسه، أو أثبته له رسوله ﷺ. ولا ننفي عنه كذلك من الأسماء والصفات إلّا ما نفاه هو عن نفسه، أو نفاه عنه رسوله ﷺ. فالأصل في معرفة اللَّه تعالى بأسمائه وصفاته هو الوحي، لأنَّ العقل لا سبيل له إلى معرفتها وحده، فهو بحاجة إلى معرفتها من مصدر موثوق، وليس في ذلك سوى القرآن والسّنّة الصحيحة. فيجب الاعتماد عليهما في معرفة أسمائه سبحانه وصفاته، فإنَّ اللَّه تعالى لم يكِلْنا في معرفة شيء من أسمائه وصفاته إلى شيءٍ وراء ما دَلَّ عليه ظاهرُ الكتاب والسُّنَّة، فَمَنْ عوَّل في شيء من ذلك على قضية فلسفية أو منطقية أو كلامية، أو على استحسان عقل أو دعوى إلهام أو زعم كشف، فقد قال على اللَّه تعالى بغير علم، وضلَّ عن سواء السبيل.

الثاني: أنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ في كل ما ثبتَ له من الأسماء والصفات لا يُمَاثِلُ شيئاً من صفات خلقه وسماتهم، ولا يُماثِلُهُ شيءٌ، بل كلُّ ما ثبتَ له من صفات الكمال التي وردت بها النُّصوص الصريحة من الكتاب والسُّنَّة، فهو مختصٌّ به لا يُشركه فيه أحدٌ من خلقه.

وما تسمَّى من الخلق ببعض أسماء الخالق سبحانه لا يُوجب المُمَاثلة، فتسمية اللَّه تعالى عالِماً وتسمية العبد عالِماً لا يُوجب مماثلة علم اللَّه لعلم العبد، وكذا تسمية اللَّه تعالى مريداً وحيّاً وسميعاً وبصيراً ومتكلِّماً إلى غير ذلك من الأسماء التي قد تُطلق على المخلوقين، لا يُوجب أن تكون إرادتهم كإرادته سبحانه ولا حياتهم كحياته تعالى، وهكذا..

والأصل في ذلك أنَّ ما يُوصف اللَّهُ عزّ وجلّ به، ويُوصف به العباد إنّما يُوصف اللَّهُ به على ما يليق بجلاله وعظيم قدره، ويُوصف به العباد على ما هم عليه من الصفات المخلوقة المحدودة. فالاشتراك هنا في التسمية اللفظية لا غير، مع اعتقاد الفارق بين صفات المخلوق وصفات الخالق.

فإذا ثبت ذلك فلا وجه أصلاً لنفي بعض الصّفات الثابتة للَّه تعالى في الكتاب والسُّنّة، أو =

طائفة: المراد بأنَّه واحدٌ وأن جميعَ المحدثَاتِ منسوبةٌ إلى قدرةٍ واحدةٍ أحدثَ القادرُ بها جميعَ المحدثات.

وقالت طائفة أخرى: المرادُ به نفيُ القسمة عن ذاته، واستحالة التَّبعُّض والتجزئة في صفته.

وقال الجمهور، هو المذهب المشهور: إنَّه واحدُ الذات قديمُ الصفات، تفرَّد بالقدم عن شريك مُمَاثِل، واختصَّ بالقدرة عن فاعل معادل، لا شِبْهَ لذاتِهِ، تنتفي عنه الحوادثُ والأعراض ولا تناله المنافع والمضار، ولا يُنعت بكل ولا بعض، ولا يُوصف بمكان يحلُّ فيه أو يخلو منه، لحدوث الأمكنة، واستحالة التجزئة،

= تأويلها أو تعطيلها، فإنَّ ورود الصفات في الكتاب والسُّنَّة هو للإثبات لا للكيف، فالمتكلمون عمدوا إلى تأويل الصفات بحجَّة إيهامها التشبيه، ولم يتفقوا على تأويل واحد لها، بل ذهب كل واحد منهم إلى تأويل الصفات بما يتفق مع عقلياتهم المتضاربة المتعارضة، فالفلسفي له فيها تأويل، والمعتزلي له فيها تأويل، والأشعري له فيها تأويل، والجهمي له فيها تأويل، وهكذا إلى لا رابط ولا ضابط. ولهذا لا يمكن اعتبارها في مجال الاعتقاد بأسماء اللَّه تعالى وصفاته، ولقد رسم الأئمة المهتدون المقتدون بالسَّلف الصالح القاعدة الراسخة الثابتة التي عبَّر عنها الإمام الشافعي بقوله: «آمنتُ باللَّه وبما جاء عن اللَّه، على مُرَادِ اللَّه، وآمنتُ برسول اللَّه ﷺ، وبما جاء به رسول اللَّه ﷺ، وعلى مُرَادِ رسول اللَّه ﷺ»!! [العين والأثر: للمواهبي الحنبلي ص ٦٢].

الثالث: أنَّ صفاتِ اللَّه تعالى صفاتُ كمال كلُّها، فهو موصوف بصفات الكمال التي لا غاية وراءَها، وهو سبحانه منزَّهٌ عن صفات المخلوقين وسمات المُحْدَثين، كما أنَّه سبحانه بريء من النقص والاحتياج، والواجب له سبحانه أن يثبت له أقصى الكمال وأتمُّ غاياته الذي لا يبلغه أحدٌ سواه سبحانه.

ولقد جاءت الصفات الجليلة الثابتة للَّه سبحانه مفصَّلةً في الكتاب العزيز والسُّنَّة المطهرة، أمَّا تنزيهه سبحانه فيهما فمجملٌ غير مفصَّل، وهذا هو اللَّائق باللَّه تعالى، ولا يجوز أن يكون الإثبات مجملاً والتنزيه مفصَّلاً، فلا يليق باللَّه تعالى أن نذكر صفات النقص ثم ننزِّهه عنها، بل اللائق به سبحانه أن نذكر صفات الكمال مفصَّلةً كما هي في القرآن والسُّنَّة، وأن نذكر تنزيهه عمَّا لا يليق به مجملاً، كما قال سبحانه: ﴿هل تعلم له سمياً﴾ [سورة مريم، آية ٦٥]، و﴿ليس كمثلِهِ شيء﴾ [سورة الشورى، آية ١١]، و﴿لم يلدْ ولم يُولدْ * ولم يكن له كفواً أحد﴾ [سورة الإخلاص، الآيتان ٣ ـ ٤].

﴿ليسَ كمثلِهِ شيءٌ وهو السميعُ البصير﴾[1]، كما وصف نفسه في كتابه، ودلَّتْ عليه آثارُ صنعتهِ، وإتقانُ حكمتهِ.

وقد سُئِلَ علي بن أبي طالب كرّم اللّه تعالى وجهه عن العدل والتَّوحيد، فقال: التَّوحيد أنْ لا تتوهَّمَهُ، والعدلُ أنْ لا تتَّهِمَهُ، ففَصَحَ بما بهَرَ إيجازُه، وقهرَ إعجازُه. وقد لحظَ دلائلَ التَّوحيد من السعداء مَنْ قال:

أيَا عجباً كيفَ يُعْصَى الإلَهُ | أمْ كيفَ يجحدُهُ جاحِدُ
وفي كلِّ شيءٍ لهُ شاهِدٌ | دَليلٌ علىٰ أنَّه وَاحِدُ

---

(1) سورة الشورى، الآية ١١.

الباب الثالث

في صحة التكليف(1)

[تمهيد في تعريف التكليف]:

التكليف هو إلزامُ ما وَرَدَ به الشَّرعُ تعبُّداً، وهو نوعان:

أحدُهما: ما تعلَّق بحقه تعالى من أمرٍ بطاعةٍ، ونهيٍ عن معصية(2).

والثاني: ما تعلَّق بحقوق عباده(3) من تقدير الحقوق وتقرير العقود؛ ليكونوا

---

(1) المقصود من التكليف إصلاح حال الإنسان في الدنيا والآخرة، وهو ما جاء في كتاب اللّه تعالى وسنة رسوله ﷺ من اعتقاد وعبادة وأخلاق وآداب وسلوك، وذلك من اللّه تعالى، قال سبحانه: ﴿رُسُلاً مبشِّرين ومنذِرين لئلاّ يكونَ للنَّاسِ على اللَّهِ حجةٌ بعدَ الرُّسُلِ﴾ [سورة النساء، آية ١٦٥]. وإنّما يقع التكليف على مَنْ كان أهلاً له، وهو العاقل المدرك لمعاني الأوامر والنّواهي، مع وجود القدرة على الالتزام والعمل بما كُلِّف به. ولا يسقط التكليف عن الإنسان العاقل المدرك القادر بعذر الجهل، لأنّ اللّه تعالى أنزل على رسوله ﷺ الكتاب وأنطقه ببيانه لتتلقاه عنه أمّتُه، والتّلقي سبيل العلم، وقد أوجبه الرسول ﷺ بقوله: (طلبُ العلم فريضةٌ على كل مسلم).

(2) حقُّ اللّهِ تعالى على خلقه أن يعبدوه وحده لا شريك له، بأن يشهدوا له بالرّبوبيّة والألوهيّة، بأنْ لا ربَّ سواه ولا إلَهَ غيره، وأن يُؤمنوا بما أنزله على رُسُلِهِ، وآخرهم محمد ﷺ فيؤمنون بكتابة وسنّته عقيدةً وشريعةً وآداباً وأخلاقاً، وأن يطيعوا أوامره وأوامرَ رسوله، وأن يجتنبوا نواهيَه ونواهي رسوله، كما أمر سبحانه بوجوب طاعته وطاعة رسوله في آيات كثيرة.

(3) حقوق العباد: الحقّ الأعظم للعباد أن ينالوا رَضَا اللّه سبحانه ليفوزوا برضوانه، وذلك لا يتحقق إلاّ بعبادتهم للّه تعالى وحده لا شريك له، بشرعه الذي أوحاه إلى رسوله محمد ﷺ، وما شرعه اللّه تعالى من التكاليف فإنّه يضمن مصالح العباد «أفراداً وجماعات» =

مُدَبَّرين بشرعٍ مسموع، ومنقادين لدينٍ متبوع، فلا تختلف فيه الآراء، ولا تتبع فيه الأهواء، وليعلَّوا به ابتداءَ النَّشأة وانتهاءَ الرجعة، فتصلحُ به سرائرُهم الباطنيَّة، وتخشع له قلوبُهم القاسية، وتجتمعُ به كلمتُهم المتفرِّقة، وتتفق عليه أحوالُهم المختلفة، ويسقطُ به تنازُعهم في الحقوق المتجاذبة، ويكونُوا على رَغَبٍ في الثَّواب يبعثُهم على الخير، ورَهَبٍ من العقاب يكفهم عن الشَّرِّ، وهذه أمور لا يصلح الخلقُ إلاّ عليها، ولا يُوصل بغير الدِّين المشروع إليها، إذْ ليس في طباع البشر أن يتفقوا على مصالحهم من غير وَازِع، ولا يتناصَفُوا في الحقوق من غير دَافع، لحرصهم على اختلاف المنافع، وبهذا يفسد ما ذهبتْ إليه البراهمة من الاقتصار على قضايا العقول وإبطال التعبُّد بشرائع الرُّسل، فالتكليفُ حَسَنٌ في العقول إذا توجَّهَ إلى من عُلِمَتْ طاعتُهُ، واختُلِفَ في حُسْنه إذا توجَّهَ إلى مَنْ عُلِمَت معصيتُه. واستحسنه المعتزلةُ لأنَّ فيه تعريضاً للثَّواب. ولم يستحسِنْهُ الأشعريةُ لأنَّه بالمعصية معرَّضٌ للعقاب، والأوَّل أشْبَهُ بمذهب الفقهاء، وإن لم يُعرف لهم فيه قولٌ يُحْكَى.

واخْتُلِفَ في التَّكليف هل يكون مُعْتَبَراً بالأصلح، فالذي عليه أكثرُ الفقهاء أنّه مُعْتَبَرٌ بالأصلح؛ لأنَّ المقصودَ به منفعةُ العباد[1].

= والتكاليف باعتبار ما فيها من مصلحة الفرد هي حقٌّ للفرد، وباعتبار ما فيها من مصلحة للجماعة هي حق لهم مناطة بحق اللّه تعالى، وعلى رأسها العقوبات والمصالح العامة. وما كان من الحق العامّ أو النّظام العامّ، فليس لأحد أن يتنازل عنه أو يتهاون في إقامته، فحدّ السرقة حقٌّ خالص للّه تعالى، وهو من النّظام العام، أي ليس لأحدٍ أن يتنازل عنه، أو يتهاون في إقامته، أمَّا قبل رفع السارق إلى الحاكم فإنه يجوز الستر على السارق لأنّ ثبوت السَّرقة لدى الحاكم يترتّب على ثبوت الحكم وهو حقٌّ للّه تعالى، فلا يسقط بالعفو ولا شفاعة فيه لأحد، كما لا يسقط الحدُّ بعد وجوبه بالتوبة، لأن التَّوبة لا تُسقط الحدود.

(1) المقصود من شرع اللّه تعالى هو تحقيق سعادة الناس وحفظ مصالحهم وتوفير حاجيّاتهم، وهذا يجب أن يكون متحقِّقاً دائماً غيرَ منقطع في الدنيا حتى الآخرة، فالتزام شرع اللّه سببٌ لسعادة الإنسان ولحفظ مصلحته ولتوفير ضرورياته، ولذلك جعل اللّه تعالى ذلك فرضاً لازماً. فالإنسانُ الذي يحيي على طاعة اللّه تعالى وطاعة رسوله ﷺ فإنَّ سعادته متحقِّقة ثابتة دائمة حتى إلى ما بعد الموت - إلى اليوم الآخر - والمجتمع الذي يُحكم بشرع اللّه تعالى هو =

وذهبَ فريقٌ من الفقهاء والمتكلمين إلى أنّه موقُوفٌ على مشيئةِ اللَّه تعالى من مصلحةٍ وغيرِها، لأنَّه مالك لجميعِها، فمن اعتبرَ الأصلح منعَ من تكليف ما لا يُطَاق، ومن اعتبرَهُ بالمشيئة جوَّزَ تكليفَ ما لا يُطَاق[1]، ويَصحُّ تكليفُ ما لحقتْ فيه المشقَّةُ المُحْتَمَلَة.

واختُلِفَ في صحةِ التّكليف فيما لا مشقّةَ فيه، فجوَّزَها الفقهاء، ومنعَ منها بعضُ المتكلمين، وقد وَرَدَ التَّعبُّد بتحويل القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة، وليس فيه مشقَّة، وإذا اعتُبِرَ التكليف بالاستطاعة، لم يتوجَّه إلى ما خرجَ عن الاستطاعة، واختُلِفَ في المانع منه، فقال فريقٌ: منعَ منه العقلُ لامتناعِهِ فيه، وقال فريقٌ: منعَ منه الشّرعُ وإن لم يمنعْ منه العقلُ بقوله تعالى: ﴿لا يُكلِّفُ اللَّهُ نَفساً إلاّ وُسْعَها﴾[2].

فصل:

[وجوب التكليف بالشّرع]

فإذا تقرَّرَ شروطُ التّكليف مع كونهِ حَسَناً فقد اختُلِفَ في وُجُوبه، فأوجبَهُ مَنِ اعتبرَ الأصلحَ، وجعلَهُ مقترَناً بالعقل؛ لأنَّه من حقوقِ حكمتهِ، ولم يُوجِبْهُ مَنْ حمَلَهُ على الإرادة؛ لأنَّ الواجبَ يقتضي عُلُوَّ الموجِب، وهذا مُنْتَفٍ عن اللَّه تعالى.

= المجتمع الذي تتحقّق فيه مصالحُ جميع أفراده، وتوفيرُ جميع حاجياتهم الضرورية، وذلك لأنَّ اللَّه تعالى أراد بشرعه حفظ مصالح الناس وتوفير حاجياتهم، ومن هنا كان الحكم بغير شرع اللَّه تعالى إفساداً لمصالح الناس وتضييعاً للحاجّيات.

(١) هذا الكلام من فرضيات المتكلمين، وكم تكَلَّموا في أمورٍ لم يتحقَّقُوا منها، وكم دخلوا في قضايا لا حقَّ لهم في بحثها، ومنها هذه القضية «البحث في مشيئة اللَّه تعالى وجواز التكليف بما لا يُطاق».

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٨٦.

واختَلَفَ مَنْ قال بهذا في تقدُّم العقل على الشرع[1]، فقال فريقٌ: يجوزُ أن يقترنَ بالعقل، ويجوزُ أن يتأخَّرَ عنه، بحسب الإرادة، ولا يجوز أن يتقدَّمَ على العقل لأنَّ العقل شرطٌ في لزوم التَّكليف.

وقال فريقٌ: بلْ يجب أن يكونَ التَّكليف وَارِداً بعدَ كمالِ العقل ولا يقترن به، كما لا يتقدَّم عليه لقول اللّه تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإنسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً﴾[2] وهذه صفةٌ متوجهةٌ إليه بعدَ كمالِ عقلِهِ.

فصل:

[الأحكام الشرعيّة: الواجب والمندوب والمباح والحرام والمكروه]

وقد استقرَّ بما قدَّمناه أنَّ التَّكليف الشَّرعي ما تضمَّنَتْهُ الأوامر والنواهي في حقوق اللّه تعالى وحقوق عباده، والمأمورُ به ضَرْبَان: واجبٌ ونَدْبٌ. فالواجبُ: ما وَجَبَ أن يُفْعَلَ[3]، والنَّدْبُ ما الأَوْلَى أنْ يُفْعَلَ. والمنهيُّ عنه ضَرْبَان: مكروهٌ ومحظورٌ؛ فالمحظورُ ما وَجَبَ تركُهُ، والمكروهُ ما الأَوْلَى تركُهُ، فأمّا المباح فما

---

(١) تقديم العقل على الشرع من طامات علم الكلام الذي ابْتُلِيَتْ به الفرقُ الكلاميّة. ولا يجوزُ تحكيمُ العقل بالشرع، لأنَّ العقل مَحدودُ العلم قاصرُ المعرفة، وواضعَ الشرع هو الخبيرُ العليم سبحانه وتعالى. ولا يُمكنُ إخضاعُ الواجبات والمنهيات الشرعية لتحسين العقل وتقبيحه، بمعنى أنَّ ما حسَّنَهُ العقل فهو الواجب، ما قبَّحه العقل فهو المحرَّم، لأن العقل عرضة للأهواء والشهوات والنزوات، فكم من حكم واجب في الشرع تستقبحه عقول الملحدين والفاسقين، وكم من محرَّم في الشرع تستحسنه عقولهم أيضاً، كما هو حالهم في حجاب المرأة والاختلاط بها وتسخيرها لإشباع الشهوات ـ كالمغنّيات والراقصات والخليلات والعشيقات ـ وكما هو حالهم في المشروبات للمسكرات، والمطعومات كلحم الخنزير ـ كل هذا عندهم حسن في عقولهم المريضة. ولهذا يجب على العقل أن يخضع للشرع، فما أوجبه أو أباحه فهو الحسن، وما حرَّمه أو منع منه فهو القبيح.

(٢) سورة القيامة، الآية ٣٦.

(٣) هذا تعريف قاصرٌ، والأكمل أن يقول: الواجب شرعاً هو ما أمر اللّه تعالى ورسوله ﷺ بفعله على وجه اللزوم، بحيث يُثاب فاعله، ويعاقب تاركه بغير عذر.

استوى فعلُهُ وتركُهُ، فلا يجب أن يُفْعَلَ ولا الأَوْلَى أن يُفْعَلَ، ولا يجب أن يُتْـرَك ولا الأَوْلَى أن يُتْرَك.

واختُلِفَ في دخول المباح في التَّكليفِ[1]، فذهبَ بعضُ أصحاب الشافعي رحمه اللَّه إلى دخوله في التّكليف، واختلف قائلُ هذا: هل دخل فيـه بإذنٍ أو بـأمرٍ على وجهين: أحدهما: بإذنٍ ليخرجَ حكمُ الندب. والثاني: بأمرٍ دونَ أمرِ النَّدب، كما أنَّ أمرَ النَّدب دون أمرِ الواجب. وذهبَ آخرون من أصحاب الشافعي رحمه اللَّه إلى خروجه من التَّكليف، بـإذنٍ أو أمرٍ، لاختصـاص التكليف بما تضمَّنَـهُ ثوابٌ أو عقابٌ. واتَّفَقُوا في المبـاح أنَّه لا يستحق عليـه حمدٌ ولا ذمٌّ، ويخـرجُ عن القبيح، واختلفوا في دخوله في الحُسْنِ فأدْخَلَهُ بعضُهم فيه وأخرجَهُ بعضُهم منه.

فصـل:

[الإرادة والأمـر]

والأمرُ بالتَّكليف هو استدعاءُ الطاعةِ بالانقيادِ للفعلِ[2]، واختلَفوا في اقتران الإرادة به هل يكون شرطاً في صحته، فـذهب الأشعري إلى أنَّ الإرادة غيـرُ مُعْتَبَرةٍ

---

(١) المباح لا يدخل في حيِّز التكليف على التَّعيين؛ لأنه تكليف على التخيير، وهذا على اعتبار المباح هنا هو «الحلال». أمّا إذا اعتُبر على أنَّه مجرَّد الإذن، فهو كل فعل مأذون فيه لفاعله، لا ثواب له في فعله ولا عقاب في تركه. أمّا باعتباره أنه هو «الحلال» فهو داخل في التكليف، ولكن ليس على التعيين؛ لأنَّ طلب الحلال فريضة، وتركه يُفضي إلى الحرام. وفي صحيح مسلم «رقم ١٠١٥» عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: (إنَّ الطَّيِّب لا يقبـلُ إلاّ طيباً، وإنَّ اللَّه أمرَ المؤمنين بما أمرَ بهِ المرسلين، فقال: ﴿يا أيُّها الرسلُ كلُوا مِنَ الطيباتِ واعملُوا صالحاً﴾ [سورة البقرة، آية ١٧٢] وقال: ﴿يا أيُّها الذين آمنُوا كلُوا من طيِّباتِ ما رزقنَاكم﴾) الحديث، وهو يدلُّ على وجوب طلب الحلال، وأنَّ اللَّه تعالى لا يرضى لكم غيرَه.

(٢) الأمرُ: هو القول المقتضي طاعة المأمور بفعل المأمور به. وله صيغ ترد محتملة لوجوه كثيرة: فمنه ما أريد به الوجوب كقول اللَّه تعالى: ﴿أقيمـوا الصلاة وآتُـوا الزكـاة﴾ [سورة البقـرة، آية ٤٣] ومنه للإرشاد إلى الأحـوط كقولـه تعالى: ﴿وأشْهِـدوا إذا تبايعتُم﴾ [سـورة البقرة، آية ٢٨٢]، ومنه التدرب كقوله تعالى: ﴿فكاتبوهم﴾ [سورة النور، آية ٣٣]، ومنه للتعجيز =

فيه، ويجوز أن يأمر بما لا يُريده[1]، ويكون أمراً كالذي يُريده. وذهب المعتزلةُ إلى أنّه لا يكون أمراً إلّا بالإرادة، فإن لم تُعْلَمْ إرادتُهُ لم يكن أمراً. واختلفوا هل تُعْتَبَرُ إرادةُ الأفرادِ إرادةَ المأمورِ بِهِ فاعتبرَ بعضُهم إرادةَ الأمر المنطوق به، واعتبرَ آخرُون منهم إرادةَ الفعلِ المأمور به، والذي عليه جمهورُ الفقهاء أنّ الأمرَ دليلٌ على الإرادة،

= كقوله تعالى: ﴿فأتُوا بسورةٍ من مثلِهِ﴾ [سورة البقرة، آية ٢٣]، ومنه التهديد كقوله تعالى: ﴿اعملوا ما شئتم﴾ [سورة فصلت، آية ٤٠]، ومنه الإباحة كقوله تعالى: ﴿فانتشِرُوا في الأرض﴾ [سورة الجمعة، آية ١٠].

(١) الأمر: إن كان كونياً فهو داخل في إرادة اللّه تعالى قطعاً، وهو حاصل بلا امتناع، وإن كان تكليفياً فهو داخل في الإرادة الشرعية، وبين الإرادتين فرق، فالإرادة الكونية في الأمر الكوني كقوله تعالى: ﴿إنّما أمْرُهُ إذا أرادَ شيئاً أن يقولَ له كُنْ فيكون﴾ [سورة يٰسٓ، آية ٨٢]، وكقوله تعالى: ﴿وكان أمراً مقضياً﴾ [سورة مريم، آية ٢١]، وكقوله تعالى: ﴿وإذا أردنا أنْ نُهلِكَ قريةً أمرنا مترفيها ففسقوا فيها﴾ [سورة الإسراء، آية ١٦] فهذا أمرٌ تقدير كوني، لا أمرٌ ديني شرعي، فإن الله تعالى لا يأمر بالفحشاء، والمعنى في الآية: قضينا ذلك وقدَّرنَاهُ، فتعلَّقَ الأمرِ بالإرادةِ في الإهلاك مقدَّرٌ من اللّه تعالى غير مردود، لما يعلمه سبحانه أنهم فاسقون، فتحتم عليهم الهلاك.

فيتعلّقُ الأمرُ الشرعي في مرضاة اللّه تعالى ومحبته، ولا يتعلّق بالإرادة الكونية، إذ لو كان الأمر الشرعي متعلّقاً بالإرادة الكونية لمَا كان في الوجود عاصٍ يردّه أو كافر يجحده، وعلى هذا يجب معرفة هذا الفارق، وهو: أنَّ اللّه تعالى إذا أرادَ أمراً غير تكليفي فهو حاصل غيرُ ممتنع، وإذا أراد أمراً تكليفياً فهو في هذا يُطاعُ ويُعْصَى، وهو سبحانه يعلم مَنْ يُطيعُ ومَنْ يعصي، لا يخفى عليه شيء، فمن أطاع أراد اللّه تعالى له الهداية وجزاءَها، ومن عصاه أرادَ اللّهُ له الضلالةَ وجزاءَها، وجميعُ ذلك مقدَّرٌ في علمه سبحانه وداخل في مشيئته وإرادته سبحانه. فإرادة اللّه تعالى واحدة لا تناقض فيها ولا اختلاف، فإذا صدر أمرُ اللّه تعالى إلى السمٰوات والأرض والملائكة وسائر المخلوقات فيكون هذا الأمر كونياً نافذاً، وإذا صدر أمرُ اللّه تعالى إلى خلق المكلّفين من الإنس والجنّ، من طاعة وعبادة، فيكون هذا الأمر ابتلائياً تكليفياً، يترتب عليه الثواب في فعله والعقاب على تركه، فأمرُ اللّه تعالى كونياً كان أم تكليفياً إنّما يصدر عن إرادته تعالى، فإرادة اللّه سبحانه واحدة يصدر عنها ما يشاؤه اللّه تعالى ويُقدّره.

ويجب التفريق بين الأمر الشرعي والتقدير الكوني، فالأمرُ يكون فيه طائعٌ وعاص، والتقدير لا يكون إلّا ما هو مقدَّرٌ فيه.

وليست الإرادةُ شرطاً في صحة الأمر، وإن كانت موجودةً مع الأمر، فيُستدلّ بـالأمرِ على الإرادةِ، ولا يُستدلُّ بالإرادة على الأمر.

فصـل:

[المأمورات ضمن الاستطاعات]

ومن صحة الأمر أن يكونَ بما لا يمنعُ منه العقلُ. فإنْ منعَ منه العقل لم يصحَّ الأمـرُ بهِ لخـروجِ التَّكليف عن محظوراتِ العقـول[١]. واختُلِفَ هل يُعتبـر صحته بحسنهِ في العقلِ، فاعتبرَهُ فريقٌ وأسقطَهُ فريقٌ. وإذا لم يكنْ يستوعِبُ نصوصَ الشَّرع قضَايَا العقول كلِّها، جازَ العملُ بمقتضى العقل فيها. واختُلِفَ في إلحاقها بـأحكام الشرع، فألحقَها فريقٌ بها وجعَلَها داخلةً فيها، لأنَّ الشرعَ لا يخرج عن مقتضَاهَا، وأخرجَها فريقٌ منها، وإنْ جازَ العملُ بها كالمشروع؛ لأنَّ الشَّرعَ مسموعٌ والعقلَ متبوعٌ[٢].

فصـل:

[الأمـر بالقـول]

والأمـرُ يكونُ بـالقول أو مـا قام مقـامَ القولِ، إذا عُقِـلَ منه معنَى الأمـر[٣].

---

(١) هذا لا ينطبق على الأحكام الشرعية الثابتة في الكتاب والسُّنَّة، فليس فيهما أمرٌ تكليفي يمنعُ العقلُ منه، وإنما هذا يكون في الأمور التي يفرضها العقليون، فما يـوجب هؤلاء يمنع منـه آخـرون، وهكذا. ولا يصـح شرعـاً التكليف بالمستحيـل، سواء أكـان مستحيلاً لـذاتـه أم مستحيلاً لغيره، فالمستحيل لذاته كالجمع بين الضِّـدَّين، مثل إيجـاب الفعل وتحـريمه في وقت واحد، على شخص واحد. والمستحيـل لغيره فهـو الممنوع منعـاً كونيـاً، أي لا يقدر الإنسان على فعله بما لديه من قدرة ذاتية. وعلى هذا ليس في التكليف الشرعي مـا تُحظِرُه العقولُ أو تمنع منه.

(٢) قال الإمام الشاطبي في الموافقات في أصول الشريعة ج ١/٨٧: «إذا تعارض النّقلُ والعقلُ على المسائل الشرعية، فعلى شرط أن يتقدّم النّقـلُ فيكون متبُوعاً، ويتـأخّر العقـلُ فيكون تابعاً، فلا يسرح العقل في مجال النظر إلاّ بقدر ما يُسرّحه النقل» وانظر تتمة هذا البحث عنده فإنّه هامّ.

(٣) الأمرُ: هو خطاب اللّه تعالى في كتابه الكريم وسنة رسوله عليه الصلاة والسّـلام للعباد على =

واختُلِفَ فيه مَتى يكون أمراً؟ فذهبَ جمهورُ الفقهاء والمتكلمين إلى أنّه يكون أمراً وقت القولِ ويتقدّمُ على الفعل، وذهب شاذٌّ من الفقهاء والمتكلمين إلى أنّه يكون أمراً وقت الفعلِ[1]، وما تقدَّمَهُ من القول إعلامٌ بالأمر وليس بأمرٍ، وهذا فاسد؛ لأنَّ الفعل يجبُ بالأمر، فلو لم يكنْ ما تقدَّمه أمراً لاحتاجَ مع الفعل إلى تجديد أمرٍ.

فصل:

[أقسام الأمر]

والأمرُ ضَرْبَان: أمرُ إعلام وأمرُ إلزَام. فأمّا أمرُ الإعلام فختصٌّ بالاعتقادِ دُونَ الفعل، ويجب أن يتقدَّ الأمرُ على الاعتقاد بزمانٍ واحدٍ، وهو وقتُ العلم به، وأمّا أمرُ الإلزام فمتوجِّهٌ إلى الاعتقاد والفعل، فيجمعُ بين اعتقادِ الوجوبِ وإيجادِ الفعل، ولا يجزئه الاقتصارُ على أحدهما[2]. فإنْ فعلَهُ قبل اعتقادِ وجوبهِ لم يُجزِهِ، وإن

= وجه التكليف. والأمرُ بالقول، أي بكلام مسموع من الآمر، وقد دلَّتْ نصوص القرآن والسُّنَّة على أنّ اللَّه تعالى يُسْمِعُ كلامَهُ من أراد، كما أسمع سبحانه موسى كلامه حين كلّمه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وكلّمَ اللّهُ موسى تكليماً﴾ [سورة النساء، آية ١٦٤]، وفي حديث النبي ﷺ: (إذا تكلَّم اللَّه بالوحي سمعَ صوتَهُ أهلُ السماء) الحديث، أخرجه أبو داود في كتاب السُّنَّة باب في القرآن ج ٢/٥٣٦ ـ ٥٣٧ وإسناده قويّ. فكلام اللَّه بصوت لا كالأصوات، ومن نفى ذلك عن اللَّه تعالى كان جهمياً، لأن جهماً كان أول من نفى عن اللَّه تعالى الكلام، ومَنْ قال: إن كلام اللَّه تعالى نفسي فهو مبتدع مخالف للكتاب والسُّنَّة.

(١) تقدُّم الأمر على وقت الفعل هو ما ذهب إليه أهل السُّنَّة والجماعة. والقول للشَّاذِّ من الفقهاء والمتكلمين، هو للمعتزلة، من أنَّ الأمرَ لا يكون أمراً إلاّ في حالة الفعل، وما يتقدّمه لا يكون أمراً، وإنَّما هو إعلام. [انظر العدّة في أصول الفقه: للقاضي أبي يعلى الفراء ج ٢/٤٠١ ـ ٤٠٢، تحقيق الدكتور أحمد المباركي ط ٢ الرياض].

(٢) قال الإمام الشاطبي في الموافقات في أصول الشريعة ج ١/٦٠ ـ ٦٨: «كلُّ علم شرعي فطلب الشارع له إنّما يكون حيث هو وسيلة إلى التَّعبُّد به للَّه تعالى، لا من جهة أخرى؛ فإن ظهر فيه اعتبارُ جهةٍ أخرى [أي غير ما كان من الضروريات وما قاربها] فبالتّبع والقصد الثاني، لا بالقصد الأول، والدليل على ذلك أمورٌ:

أحدها: أنّ كلَّ علمٍ لا يُفيد عملاً [كالفلسفة النظرية] فليس في الشرع ما يدلُّ على =

= استحسانه، ولو كان له غاية أخرى شرعية لكان مستحسناً شرعاً، ولو كان مستحسناً شرعاً لبحث عنه الأوَّلونَ من الصحابة والتابعين، وذلك غيرُ موجود، فما يلزم عنه كذلك.

والثاني: أنَّ الشرع جاء بالتَّعبُّد، وهو المقصود من بعثة الأنبياء عليهم السَّلام، كقوله تعالى: ﴿يا أيُّها النَّاسُ اتَّقُوا ربَّكم﴾، وقال تعالى: ﴿وأطيعُوا اللَّهَ وأطيعوا الرَّسُولَ﴾، ﴿وما أرسلنا من قبلِكَ من رسولٍ إلَّا نوحي إليه أنَّه لا إلَه إلَّا أنا فاعبدونِ﴾، ﴿إنَّا أنزلنا إليكَ الكتابَ بالحقِّ فاعبُدِ اللَّهَ مخلصاً له الدِّين * ألا للَّهِ الدِّينُ الخالصُ﴾ وما أشبه ذلك من الآيات التي لا تكاد تحصى، كلها دالٌّ على أنَّ المقصودَ التَّعبُّدُ للَّهِ، وإنَّما أُوتوا بأدلَّة التوحيد إلى المعبود بحقٍّ وَحْدَهُ سبحانه لا شريك له، ولذلك قال: ﴿فاعْلَمْ أنَّه لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ واستغفِرْ لذنبك﴾ وقال: ﴿فاعلمُوا أنَّما أُنزِلَ بعلم اللَّهِ وأنْ لا إلَهَ إلَّا هو، فهل أنتُمْ مسلمون﴾، وقال: ﴿هو الحَيُّ لا إلَهَ إلَّا هو فادْعُوهُ مخلصينَ له الدِّين﴾، ومثله سائر المواضع التي نصَّ فيها على كلمة التَّوحيد، لا بُدَّ أن أُعقب بطلب التعبُّد للَّهِ وحدَهُ، أو جعل مقدمة لها، بل أدلَّة التَّوحيد هكذا جرَى مساقُ القرآن فيها: إلَّا تذكِرَةً، إلَّا كذا؛ وهو واضح في أنَّ التَّعبُّدَ للَّه هو المقصود من العلم، والآيات في هذا المعنى لا تحصى.

والثالث: ما جاء من الأدلَّة الدَّالَّة على أنَّ روح العلم هو العمل، وإلَّا فالعلمُ عارية، وغيرُ منتفع به [إذا لم يُعمل به] فقد قال اللَّه تعالى: ﴿إنَّما يخشى اللَّهَ من عبادِهِ العلماءُ﴾، وقال: ﴿وإنَّه لَذُو علمٍ لما علَّمنَاهُ﴾، قال قتادة: يعني لذو عملٍ بما علَّمناهُ. وقال تعالى: ﴿أتأمُرُون النَّاسَ بالبرِّ وتَنْسَوْنَ أنفُسَكم وأنتم تتلُونَ الكتابَ﴾. وعن أبي هريرة قال: «إنَّ في جهنَّم أرحاء تدور بعلماء السُّوء، فيُشرف عليهم بعضُ من كان يعرفهم في الدنيا، فيقول: ما صيَّركم في هذا؟ وإنَّما كنَّا نتعلَّمُ منكم!؟ قالوا: إنَّا كنَّا نأمركم بالأمر ونُخالِفكم إلى غيرِهِ»، [وفي صحيح البخاري رقم ٣٠٩٤ قال رسول اللَّه ﷺ: (يُجاءُ بالرَّجُلِ يومَ القيامة فيُلقَى في النَّار، فتندَلِقُ أقتابُهُ في النَّارِ، فيدُورُ كما يدور الحمار برحَاهُ، فيجتمعُ أهلُ النَّار عليه فيقُولون: أيْ فلانُ ما شأنُكَ؟! أليسَ كنتَ تأمُرُنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنتُ آمرُكم بالمعروف ولا آتيهِ، وأنهاكم عن المنكر وآتِيه)». وعن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: (لا تزولُ قَدَمَا عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع ـ وذكر فيها: وعن علمه ماذا عملَ فيهِ) [أخرجه الترمذي بألفاظ أحدها بإسناد صحيح]، وقال الثوري: «إنَّما يُطلب الحديثُ ليتَّقى به اللَّهُ عزَّ وجلَّ، فلذلك فُضِّلَ على غيرِهِ من العلوم»، وذكر مالك أنَّه بلغه عن القاسم بن محمد قال: «أدركتُ النَّاس [يعني الصحابة] وما يُعجبهم القولُ، إنَّما يُعجبهم العملُ». والأدلَّة على هذا المعنى أكثر من أنْ تحصَى، وكل ذلك يحقِّق أنَّ العلم وسيلة من الوسائل، ليس مقصوداً لنفسه من حيث النظر الشرعي، وإنَّما هو وسيلة إلى العمل. وكل ما ورد في فضل العلم فإنَّما هو ثابت للعلم من جهة ما هو مكلَّف بالعمل به. وفي الحديث: (لا تعلَّمُوا العلمَ لِتُباهُوا به العلماءَ وتُماروا به =

اعتقَدَ وجوبَهُ ولم يفعلْهُ كان مأخُوذاً به، ولا يلزم تجديدُ الاعتقاد عند فعلِهِ إذا كان على ما تقدّم من اعتقاده؛ لأنَّ الاعتقادَ تعبُّدُ التزامٍ، والفعلَ تأديةُ مُسْتَحقٍّ، ويجب أن يتقدَّمَ الأمرُ على الفعل بزمانِ الاعتقادِ. واختُلِفَ في اعتبارِ تقديمِهِ بزمان التأهُّبِ للفعل على مذهبين:

أحدُهما: وهو قولٌ شاذٌّ من الفقهاء، يجب تقديمُهُ على الفعل بزمانين، أحدهما: زمانُ الاعتقاد، والثاني: زمان التأهب للفعل. وبه قال مِنَ المتكلمين من اعتبرَ القدرةَ قبلَ الفعل.

والمذهب الثاني: وهو قول جمهور الفقهاء، يعتبرُ تقديمَ الأمرِ على الفعل بزمان الاعتقاد وحدَهُ والتّأهب للفعل شروعٌ فيه، فلم يعتبر تقدُّمَهُ عليه، وبه قال من المتكلمين: من اعتبرَ القدرةَ مع الفعل[1].

= السفهاء، ولا تخيّروا به المجالس، فمن فعلَ ذلك فالنّارَ النّارَ) [أخرجه ابن حبان في صحيحه ج ١/رقم ٧٧، وإسناده رجاله ثقات رجال الصحيح]. وقال ﷺ: (مَنْ تعلَّمَ علماً ممّا يُبْتَغى به وَجْه اللَّهِ، لا يتعلَّمُهُ إلاّ ليصيبَ به عَرَضاً من الدنيا، لم يجدْ عَرْفَ الجنَّةِ يومَ القيامةِ) [أخرجه ابن حبان في صحيحه رقم ٧٨، والحاكم في المستدرك بإسناد صحيح ج ١/٨٥، وأحمد في المسند ج ٢/٣٣٨، وأبو داود في سننه رقم ٣٦٦٤ في العلم باب طلب العلم لغير اللَّه، وابن ماجه رقم ٢٥٢ في المقدمة].

ثم قال الشاطبي رحمه اللَّه تعالى: العلم الذي هو العلم المعتبر شرعاً ـ أعني الذي مَدَحَ اللَّهُ ورسولُهُ أهلَهُ على الإطلاق ـ هو العلم الباعث على العمل الذي لا يُخلّي صاحبَهُ جارياً مع هوَاهُ كيفما كان، [أي يجعله مقيَّداً بكتاب اللَّه تعالى وسنة رسوله ﷺ].

(١) هذه التّقسيمات التي ذكرها المؤلف في أقسام الأمر قائمة على تصوّر ذهني، وهذا التصوّر الذي يعتمد عليه المتكلمون عُرْضَةٌ للاختلاف، وبالتالي عُرضة للمنازعة الكلامية، فكان الأوْلى أن لا يسلك هذا المسلك، ويسلك طريقة السلف الصالح من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين، التي كانت ولا زالت أبعد شيء عن التّعقيد والاختلاف.

الباب الرابع

في إثبات النبوات[1]

[وظيفة الأنبياء عليهم السّلام]:

والأنبياءُ هم رُسلُ اللَّه تعالى إلى عباده بأوامرِهِ ونواهيهِ[2]، زيادةً على ما اقتضتْهُ العقولُ من واجباتِها، وإلزاماً لِمَا جوَّزتْهُ من مُباحَاتِها، لِما أرادَهُ اللَّه تعالى من كرامة العاقل وتشريف أفعاله واستقامة أحواله وانتظام مصالحه، حين هيَّأَهُ للحكمة وطبعَهُ على المعرفة، ليجعلَهُ حكيماً وبالعواقب عليماً، لأنَّ الناس بنظرِهم لا يُدركون مصالحهم بأنفسهم ولا يُشعرون لعواقب أمورهم بغرائزهم، ولا ينزجرون مع اختلاف أهوائهم، دون أن يَرِدَ عليهم آدابُ المرسلين وأخبارُ القرون المَاضِين، فتكونُ آدابُ اللَّه فيهم مستعملةً، وحدودُهُ فيهم متَّبعَةً، وأوامرُهُ فيهم ممتثلةً ووعدُهُ ووعيدُهُ فيهم زاجراً، وقَصَصُ مَنْ غَبَرَ من الأُمم وَاعظاً، فإن الأخبار العجيبة إذا

(١) إنَّ إثبات النُّبوّات لا يتحقّق إلَّا بآيات اللَّه تعالى لأنبيائه ورسله التي جعلها سبحانه علاماتٍ وبراهينَ منه على صدق نبوَّتهم وصحة رسالتهم.

(٢) إنَّ اللَّه تعالى دلَّ عباده بالدَّلالات العِيانيَّة المشهودة، والدلالات المسموعة وهي كلامه الحكيم، لكنَّ عامَّة الخلق يتعذَّر عليهم سماع كلام خالقهم منه مباشرة، فأرسل إليهم بكلامه رسلاً وأنزل عليهم في ذلك كُتُباً. ثم جعل سبحانه مع الرسل والأنبياء آيات هي علامات وبراهين على صدق ما جاؤوا به من عند اللَّه تبارك وتعالى، وهي كثيرة ومتنوّعة، وفي القرآن العظيم منها الكثير ولله الحمدُ وهي آياتٌ وبراهينُ على إثبات النبوّات والرسالات.
[النبوات: لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٣١٠ و ١٩١ - ١٩٢، ط. دار الكتاب العربي - بيروت].

طرقت الأسماعَ، والمعاني الغريبة إذا أيقظت الأذهان، استمدتها العقولُ فزادَ علمُها وصحَّ فهمُها، وأكثرُ النّاس سماعاً أكثرُهم خواطر، وأكثرُهم خواطر أكثرهم تفكُّراً، وأكثرهم تفكُّراً أكثرهم علماً، وأكثرُهم علماً أكثرُهم عملاً[1]، فلم يُوجدْ عن بعثة الرسل مَعْدِلٌ، ولا منهم في انتظام الحقّ بَدَلٌ.

[منكـرو النّبـوّات]:

وأنكرَ فريقٌ من الأُمم نبوَّاتِ الرُّسُل وهم فيها ثلاثةُ أصنافٍ:

أحدها: ملحدةٌ دهريـةٌ، يقولـون بقدم العـالم وتدبيـر الطبـائع، فهم بـإنكار المُرْسِلِ أجْدَرُ أنْ يقولوا بإنكار الرُّسُلِ.

والصّنف الثّـاني: براهمـة موحـدة يقولـون بحدوث العَـالَم ويجحدُون بعثة الرسل، ويُبطلون النّبوّات، وهم المنسوبون إلى «بهـرمن» صاحبِ مقـالتِهِم، وشذَّ فريقٌ منهم فادَّعى أنَّه آدم أبو البشر. ومنهم من قال: هو إبراهيم. ومن قال من هذه الفرقة الشّاذَّة منهم أنَّه أحد هذين أقرَّ بنبوتهما، وأنكرَ نبوَّةَ مَنْ سِوَاهما. وجمهورُهم على خـلاف هذه المقـالة في اعتـزائهم لصاحب مقـالتهم، وإنكار جميـع النّبوّات عُمُوماً.

والصنف الثالث: فلاسفةٌ[2] لا يتظاهرون بإبـطال النّبوّات في الـظاهر، وهم

---

(١) وهذا حال أهل السُّنَّة والجماعة [أصحاب الحديث] الذين ينهلون من علوم النُّبوَّة والرسالة ما لا يحظَى به غيرُهم على اختلاف مواردهم.

(٢) الفلاسفة هم أصحاب العقول المضطربة والأفكـار المختلفة والأبحـاث المتنافـرة والنتائـج المتناقضة، إذا عثروا على الحقائق ظنوها أباطيل، وإذا نظروا إلى الوهميات اتخذوها أصولاً للعقليات، وهكذا.. ومن جرَّب علم الفلسفة وقف في ساحة المتاهات وسـار في مسالـك الوهميات، ومن يُسمّي «الفلسفة» بأم العلوم فهو من أجهل الجهلاء.

ونذكر هنا تجربة الدكتور «فاروق أحمد الدسوقي» حفظه الله تعالى في دراسته الجامعية في قسم الفلسفة، حيث يقول: «ومع محاضرات الفلسفة الأولى فتح أستاذنا.. باب الأمل أمام نـاظريّ على مصراعيه للوصـول إلى بغيتي، حين علَّمنا أنَّ غـاية الفلسفـة هي البحث عن الحقيقة.. ثم أقبلتُ على دراسة الفلسفة مسروراً.. ولكن بمضي سنوات الدراسة ومراحلها =

مُبْطِلُوها في تحقيق قولهم[1]، لأنَّهم يقولون: إنَّ العلوم الرّبـانيَّة بعـدَ كمالِ العلوم الرياضية من الفلسفة والهندسة، ليضعها مَنْ كَمُلَتْ رياضتُه إذا كان عليها مطبوعاً.

[اختلاف منكري النبّوَات وإبطال مزاعمهم]:

واختلفَ من أبطلَ النبّوَات في علّة إبطالها، فـذهب بعضُهم إلى أنَّ العِلَّة في إبطالِها أنَّ اللَّه تعالى قد أغنَى عنها بما دلَّتْ عليه العقولُ من لوازم ما تأتي به الرسل، وهذا فاسدٌ من وجهين:

أحدهما: أنَّه لا يمنعُ ما دلتْ عليه العقولُ جوازُ أن تأتي به الرسل وجوباً، ولو كان العقل مُوجِباً لَمَا امتنع أن تأتي به الرسلُ تأكيداً كما تترادَفُ دلائلُ العقولِ على التَّوحيد، ولا يمنعُ وجودِ بعضِها من وجودِ غيرِها.

والثاني: أنَّه لا تستغني قضايا العقول عن بعثةِ الرُّسل من وجهين[2]:

= بـدأ رجائي يخيب شيئـاً فشيئاً.. وفي السنّـة النهائيـة، ودّعنا أستـاذنا الـدكتور.. بخـلاف ما استقبلنا به، قال لنا: إن الفلاسفة والمفكرين مختلفون، وسيظلون مختلفين، فالاختلاف روح الفلسفـة.. إنَّ الحقيقة الـوحيدة التي يمكن أن نخـرج بها من دراسـة تاريـخ الفلسفة ومذاهب الفلاسفة: هي أنّه لا يمكن الوصول إلى الحقيقة..» [من مقدمته لكتاب «القضاء والقدر في الإسلام» ط ٢ المكتب الإسلامي - بيروت].

(١) قال شيخ الإسلام في كتاب «النبوّات» ص ١٨٢ - ١٨٣: «إنَّ المتفلسفة جعلوا للنُّبوَّة ثلاث خصائص: حصول العلم بلا تعلُّم [لأنهم لا يؤمنون بالوحي] وقـوَّة نفسه المؤثـرة في هيولى العالم [وهذا عندهم تفسير للمعجزات التي تأتي من اللَّه تعالى على أيديهم] وتخيُّل السمع والبصر [وهذا فهمهم لِما ثبت عن الأنبياء في لقاء جبريل والسماع منه] وهذه الثـلاثة تـوجد لكثير من عوامّ النّاس، ولم يفرّقوا بين النبيِ والسّاحر، إلاَّ أنَّ هذا بَرٌّ وهذا فاجرٌ». هـذه هي نظرة الفلاسفة للنُّبوَّة. وابن سينا يبني أمرَ النُّبوَّة على أنها من قوى النَّفس [النبوات ص ٤٧، ط. دار الكتاب العربي - بيروت].

(٢) لقد بيَّن اللَّه تعالى الغاية من إرسال الرسل وبعث الأنبياء، وذلك في قوله سبحانـه: ﴿كانَ النَّاسُ أمَّةً واحدةً فبعثَ اللَّهُ النَّبيين مبشّرين ومُنذِرينَ وأنزلَ معهم الكتابَ بالحقِّ ليحكم بين الناس فيما اختلفُوا فيه، وما اختلف فيه إلاّ الذين أُوتُوه من بعدِ ما جاءَتْهُمُ البيِّناتُ بغياً بينَهُمْ، فهـدَى اللَّهُ الذين آمنـوا لِما اختلفـوا فيه مِنَ الحقِّ بـإذنِهِ واللَّهُ يهـدي مَنْ يشـاءُ إلى صـراطٍ =

أحدهما: أن قضايا العقول قد تختلف فيما تكافأتْ فيه أدلتُها، فانحسم ببعثةِ الرسل اختلافُها.

والثاني: أنَّه لا مدخل للعقول فيما تأتي به الرسل من الوعد والوعيد والجنَّة والنَّار، وما يشرعونه من أوصاف التَّعبُّد الباعث على التألُّهِ، فلم يُغْنِ عن بعثة الرسل.

وذهب آخرون منهم إلى أنَّ العلَّة في إبطال النبوّات أنَّ بعثة الرسل إلى من يُعْلَمُ مِنْ حالِه أنَّهم لا يقبلون منهم ما بلَّغوهُ إليهم، عبثٌ يمنعُ من حكمةِ اللَّه تعالى، وهذا فاسد من وجهين:

أحدهما: أنَّه ليس بعَبَثٍ أن يكون فيهم من لا يقبله، كما لم يكن فيما نصبَهُ اللَّه تعالى من دلائلِ العقول على توحيدِهِ عَبَثاً، وإنْ كان منهم من لا يستدلُّ به على توحيدِهِ، كذلك بعثةُ الرسل.

والثاني: أنَّ وجود من يقبلُهُ فيهم على هذا التعليل يُوجب بعثةَ الرسل، وهم يمنعون من إرسالهم إلى من يقبل ومن لا يقبل، فبَطُلَ هذا التَّعليل[1]. وقال آخرون

= مستقيم﴾ [سورة البقرة، آية ٢١٣]، فالنَّاس كانوا أمةً واحدةً على دين الحق الذي جاء به آدم عليه السَّلام فلمّا مضى عهودٌ طويلة من بعده واختلف النَّاس في معرفة الدِّين الحق بعث اللَّه تعالى النبيين ليخرج النَّاس من الضلال إلى الهداية، ومن الظلام إلى النور، ومن أرجاس الوثنية إلى طهر التوحيد، ومن براثن الظلم إلى رحمة العدل، ومن فساد الفوضى إلى استقرار الإصلاح.

(١) طريقة القرآن في الرَّدِّ على أمثال هؤلاء المنكرين للحكمة من بعث الأنبياء وإرسال الرسل أبلغ وأقوى وأحكم من هذه المجادلات الكلامية التي لا تنكأ عدوّاً ولا تقمع كافراً. والطريقة القرآنية ذات حجج وبراهين كونية، ومقارنات فطرية، ونتائج صحيحة، وانظر إلى هذه الآية/١٦ من سورة الرعد: ﴿قُلْ مَنْ ربُّ السمواتِ والأرضِ؟ قُلِ اللَّهُ، قُلْ أفاتخذتم من دونِهِ أولياءَ لا يملِكُونَ لأنفسِهم نفعاً ولا ضرّاً؟! قُلْ هَلْ يستوي الأعمَى والبصير؟ أمْ هلْ تستويَ الظلماتُ والنُّورُ؟! أم جعلوا للَّه شركاءَ خلَقُوا كخلقِهِ فَتَشابَهَ الخلقُ عليهم؟! قُلِ اللَّهُ خالِقُ كلِّ شيءٍ وهو الواحد القهّارُ﴾ إلى غير ذلك من الآيات، وما كان من الحجج والبراهين على إثبات الألوهية للَّه تعالى كان حججاً وبراهين على إثبات النُّبوَّات، انظر سورة إبراهيم عليه السَّلام من الآية الرابعة إلى الآية الثانية والعشرين، وغيرها كثير من سور القرآن العظيم، والحمدُ للَّه ربِّ العالمين.

منهم: بل العلَّة فيه أنَّ ما جاء به الرسل مختلفٌ ينقضُ بعضُه بعضاً، ونسخُ المتأخر ما شرعَهُ المتقدِّم. وقضايا العقول لا تتناقض، فلم يرتفع بما يختلف ويتناقض وهذا فاسدٌ من وجهين:

أحدهما: أنَّ ما جاء به الرُّسُلُ ضربان، **أحدهما**: ما لا يجوز أن يكون إلّا على وجه واحد وهو التوحيد وصفات الرَّبّ[1]، والمربوب، فلم يختلفوا فيه، وأقوالهم متناصرة عليه. **والضرب الثاني**: ما يجوز أن يكونَ من العبادات على وجهٍ، ويجوز أن يكون على خلافه، ويجوز أن يكونَ في وقتٍ ولا يجوز أن يكونَ في غيره، وهذا النوع هو الذي اختلفتْ فيه الرسلُ لاختلاف أوقاتهم، إمّا بحسب الأصلح وإمّا بحسب الإرادة وهذا في قضايا العقول جائز.

والوجه الثاني: أن قضايا العقول قد تختَلِفُ فيها العقلاء، ولا يمنع ذلك أن يكونَ العقل دليلاً، كذلك ما اختلفَ فيه الرُّسلُ لا يمنع أن يكون حجةً.

وقال آخرون منهم: بل العلَّة في إبطال النّبوّات أنَّه لا سبيل إلى العلمِ بصحتها لغيبها، وأن ظهور ما ليس في الطباع من معجزاتهم ممتنع الطباع الدافعة لها، فهذا فاسدٌ من وجهين[2]:

---

(١) دين الأنبياء والرسل جميعاً واحد، وعقيدتهم لا اختلاف فيها ولا مغايرة، وهي عقيدة التوحيد التي جاء بها رسول اللّه ﷺ كاملةً صحيحةً سليمةً. وهي: توحيد الرُّبُوبيَّة، وتوحيد الألوهيَّة، وتوحيد الأسماء والصِّفات [وقد تقدم بيانٌ لهذا التوحيد في التعليق رقم (١) لفصل «وحدانية اللّه تبارك وتعالى»]. وجميع الأنبياء والرُّسل قالوا لأقوامهم: ﴿اعبُدُوا اللّهَ ولا تشركوا بهِ شيئاً﴾، ﴿يا قوم اعبُدوا اللّهَ ما لكم من إلَهٍ غيرُهُ﴾. قاله نوح عليه السَّلام كما في سورة الأعراف آية ٥٩، وهودٌ عليه السَّلام كما في سورة الأعراف آية ٦٥، وصالح الآية ٧٤، وشعيب الآية ٨٥ من السورة ذاتها، وكذلك قالها إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السَّلام.

(٢) من الأَوْلَى عدمُ ذكر هذه الأضاليل ثم دفعها بهذه الحجج الكلامية، فمهما كانت ذات قدرة على دحضها، فإنَّ لها أثراً في الأذهان يُحييها الشيطان بوساوسه في قلوب الناس. فمن الحكمة أن لا آتي بالرجس ثم أقوم بتطهير مكانه. وأصحاب هذه الأضاليل يُقْمَعُون بآيات اللّه تعالى، فهي القاصمة لهم والقاضية عليهم بالخذلان والحاكمة عليهم بالخسران.

أحدهما: أنَّ المعجزات من فعل اللَّه تعالى فيهم فخرجتْ عن حُكْمِ طباعهم.

والثاني: أنهم لمّا تميَّزوا بخروجهم عن الطباع من الرسالة تميَّزوا بما يخرج عن عُرف الطباع من الإعجاز.

وقال آخرون منهم: بل العلَّة في إبطال النّبوّات أنّ ما يُظهرونه من المعجز الخارج عن العادة قد يُوجد مثلُهُ[1] في أهل الشعبذة والمَخْرَقة، وأهل النّارنجيّات، وليس ذلك من دلائل صدقهم، فكذلك أحكام المعجزات، وهذا فاسدٌ من وجهين:

أحدهما: أنَّ الشعبذة تظهر لذوي العقول وتندلس على الغُرِّ الجهول، فخالفت المعجزةَ التي تُذْهَلُ لها العُقول.

الثاني: أنَّ الشعبذة تُستفاد بالتَّعليم فيتعلمها من ليس يُحسنها، فيصير مكافئاً لمن أحسنها ويُعارضها بمثلها، والمعجزة مبتكرة لا يتعاطاها غيرُ صاحبها، ولا يُعارضُه أحدٌ بمثلها، كما انقلبت عصى موسى حيّةً تسعى تلتقف ما أفكه السحرةُ، فخرُّوا له سُجَّداً، ولئن كان في إبطاله هذه الشبهة دليلٌ على إثباتها. فيُستدل على إثبات النّبوّات من خمسة أوجه، وإن اشتملت تلك الأجوبة على بعضها:

أحدها: أنّ اللَّه تعالى مُنْعِمٌ على عباده بما يُرشدهم إليه من المصالح، ولمّا كان في بعثة الرُّسل ما لا تُدركه العقول[2] كان إرسالهم من عموم المصالح التي تكفَّلَ بها.

---

(١) ليس في أعمال المشعبذين والسَّحرة مثلُ ما عند الأنبياء والرُّسُل من المعجزات والآيات الدّالّات على صدقهم وصحة دعوتهم، أمَّا السحرةُ والمشعبذون فإنَّ عندهم من الدلائل والبراهين على كذبهم وبطلان دعوتهم وفساد أعمالهم وخبث نواياهم، ما ليس عند كثير من شياطين الإنس. [انظر بحث «آيات الأنبياء دالة على صدقهم» و «خوارق العادات» و «معنى خرق العادة لغير الأنبياء»، و «الفرق بين المعجزة وأفعال السحرة» في معالم النبوة.

(٢) ما لا تُدركه العقول هنا أي: ما لا تستطيع العقول إدراكه بمفردها، فهي بحاجة إلى مصدر صادق صحيح يزوّدها بالمعارف والحقائق، وليس ذلك إلَّا بالنُّبوَّة، ولم يأتِ في نبوّة الرُّسل بما يُعلم بالعقل امتناعُهُ، وإن جاءت بما يعجز العقلُ دَرْكَهُ، وذلك كأسماء اللَّه تعالى وصفاته، وكأنباء الغيب، وأحوال الآخرة، والأخبار عن الملائكة والجنّ.

والثاني: أنَّ فيما تأتي به الرسل من الجزاء بالجنَّة ثواباً على الرغبة في فعل الخير، وبالنَّار عقاباً يبعث على الرهبة في الكف عن الشَّرِّ، صَارَا سبباً لائتِلافِ الخلق وتعاطي الحق.

والثالث: أن في غيوب المصالح ما لا يُعْلَمُ إلاّ من جهة الرسل، فاسْتُفِيْدَ بهم ما لم يُسْتَفَدْ بالعقل.

والرابع: أن التَّألُّه لا يخلص إلاّ بالدِّين، والدِّين لا يصلحُ إلاّ بالرُّسل المبلِّغين عن اللَّه تعالى ما كلَّفَ.

والخامس: أنَّ العقول ربَّما استكبرت من موافقة الأكفَّاء ومتابعة النُّظراء، فلم يجمعهم عليه إلاّ طاعةُ المعبود فيما أدّاهُ رُسلُهُ، فصارتِ المصالحُ بهم أعمَّ، والإتقان بهم أتمَّ، والشملُ بهم أجمعَ، والتّنازعُ بهم أمنعَ(١)، ويجوزُ إثبات التّوحيد والنّبوّات

---

(١) لقد مضتِ الرسالاتُ واحدةً إثرَ واحدةٍ، تأخذ بيد البشرية، وتمضي بهم صُعُداً في طريق الهداية والنُّور والحق والعدل، والبشرية تشرد من هنا وتشرد من هنا، وتحيد عن النهج القويم، وتعاقبُ الرسالات يجدِّد لها المنهج إلى العودة إلى هدي بارئها وخالقها، فكان المستجيبُون لها يسيرون داخل هذا النطاق الشامل الذي يُسعدها دائماً، ويَسَعُ نشاطَها المتجدِّدِ في الوصولِ إلى الحقيقة التي لا تصل إليها عن أيِّ طريق آخر. ولقد جاءتِ الرُّسلُ ـ رسولاً بعد رسولٍ ـ بالتّوحيد الخالص، للَّه ربِّ العالمين، وبالتّوجيه الخالص لفطرة النّاس أجمعين. ولكنَّ الانحرافات في العقيدة والسلوك في الفترات التي تعقب غياب الرسل عن الحياة بوفاتهم، كانت تُعيدُ المجتمعات إلى جاهلياتها القديمة أو لجاهليات مستحدثة، فكان تجديد البعث للنّبوَّة من جديد ضرورة من ضرورات الحياة السَّعيدة.
وكان التركيز في كل رسالةٍ على أمرٍ واحدٍ: هو تعبيد النَّاس كلِّهم لربِّ العالمين وحده لا شريك له، وبهذه العبودية للخالق العظيم تحريرٌ للبشرية من استعبادها لسلطان الطواغيت وطغيان الشياطين. إنَّ قصص النَّبيين والرُّسل في القرآن العظيم تكشف حقائق وظائفهم ومهمات أعمالهم، وبمقدار معرفتنا لقصصهم يكن الإدراك العميق لعظيم رسالاتهم وبعثاتهم ووظائفهم، وكبير أثرهم البالغ في حياة أتباعهم والسالكين على منهاجهم، وهذا أكمل الطّرق لمعرفة الحكمة من بعثهم وإرسالهم عليهم الصلاة والسلام!! ولهذا يقول اللَّه تبارك وتعالى:
﴿نحنُ نقصُّ عليكَ أحسنَ القصَصِ بما أوحينا إليكَ هذا القرآنَ﴾ [سورة يوسف، آية ٣]، ﴿لقد كان في قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأولي الألباب، ما كان حديثاً يُفترى ولكنْ تصديقَ الذي بينَ يديهِ وتفصيل كل شيءٍ وهدىً ورحمةً لقومٍ يُؤمنون﴾ [سورة يوسف، آية ١١١].

بدقيق الاستدلال كما يجوز بجليَّةٍ، فإن ما دَقَّ في العقول هو أبلغ في الحكمة، وقد تلوَّح لابن الرومي هذا المعنى فنظمه في شعره فقال:

غموضُ الحقِّ حينَ يُذَبُّ عنه ... يُقلِّلُ ناصرَ الخَصْمِ المُحِقِّ

يجلُّ عن الدَّقيق عقولُ قوْمٍ ... فيُقضَى للمجلِّ على المُدِقِّ

فصل:

[إثبات وحي النّبوّات][1]

فإذا ثبتَ جوازُ النّبوّات[2]، وبعثةُ الرسل بالعبادات[3]، فهم رُسُلُ اللَّه تعالى

---

(١) قال اللَّه تبارك وتعالى في سورة الشورى، آيات ٥١ ـ ٥٣: ﴿وما كان لبشر أن يُكلِّمَهُ اللَّه إلاّ وحياً أو مِنْ وراءِ حجابٍ أو يُرسل رسولاً فيُوحِيَ بإذنِهِ ما يشاءُ إنَّه عليٌّ حكيم * وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرِنا ما كنتَ تَدْرِي ما الكتابُ ولا الإيمانُ ولكنْ جعلناه نوراً نهدي به مَنْ نشاءُ من عبادِنا، وإنَّك لتهدي إلى صراطٍ مستقيم * صراطِ اللَّهِ الذي لهُ ما في السمواتِ وما في الأرضِ، ألاَ إلى اللَّهِ تصيرُ الأمور﴾. ففي هذه الآيات الكريمة بيَّنَ اللَّه تعالى حقيقةَ الوحي والرسالة، وفي هذا البيان كشفٌ عن طبيعة الاتصال بين اللَّه تعالى والذين اصطفاهم من عباده لتلقي الوحي وحمل الرسالة.

وللوحي حالات: منها ما كان يُلقيه المَلَكُ في روع النَّبيِّ ﷺ وقلبه من غير أن يراه، ومنها أنَّ المَلَك يتمثَّل له في صورة رجل فيكلمه فيعي عليه ما لا يعيه عن أحدٍ غيره، ومنها أنه كان يأتي النَّبيِّ ﷺ في مثل صلصلة الجرس، وكان أشدَّه عليه [وهو وحي القرآن] حتى إنَّ جبينه ليتفصَّد عرقاً في اليوم الشديد البرد، وإذا كان على بعير يكاد يبرك من ثقله، ومنها أنه يرى المَلَك على هيئته التي خُلق عليها، فيوحي إليه ما شاء اللَّه أن يوحيه. [انظر كتاب بدء الوحي، من أول صحيح البخاري رقم ٢ و٣ و٤ و٥ و٧].

وقد سمَّى اللَّه تعالى الوحي «روحاً» للدلالة على إثبات حقيقة النُّبوَّة وأنَّها أمرٌ عظيم حقّاً، حيث لا حياة للبشرية بدونها، وهذا ما أثبتته حقائق التاريخ البشري: أنَّه حيثما كانت النُّبوَّة كانت الحياة الكريمة الصالحة السعيدة، وحيثما فُقِدَتْ كانت الحياة في ضياعِ الضلالةِ واضطرابِ الجهالةِ، وأوهامِ الوثنيّةِ وسَخائمِ العقائد الشركية.

(٢) إثبات النُّبوَّة لم يكن بدلائل الجائزات، بل كان بدلائل الواجبات، لأنَّ حقائقها من كبريات الحقائق الكونية، بل هي أعلاها!!.

(٣) العبادات: تشملُ كلَّ ما يُحبُّه اللَّه تعالى ويرضاه؛ عقيدةً وشريعةً وآداباً وأخلاقاً.

إلى خلقه إمّا بخطاب مسموع، أو بسفارة مَلَكٍ منزَّل. ومنعَ قومٌ من مثبتي النّبوّات أن تكون نبوَّتهم عن خطاب أو نزول ملَك لانتفاء المخاطبة الجسمانية عنه تعـالى لأنه ليس بجسم، والملائكةُ من العـالم العلوي بسيط لا تهبطُ، كما أنّ العَـالَم السُّفلي كثيف لا يعلُو[1].

واختلف من قـال بهذا فيمـا جعلهم به أنبيـاء، فقال بعضُهم: صـاروا أنبيـاء بالإلهام لا بالوحي، وهذا فاسدٌ من وجهين:

أحدهما: أنَّ ما بَطَلَ به إلهامُ المَعَارِفِ في التَّوحيد كان إبطالُ المَعَارِفِ به في النُّبوَّة أحقّ.

والثاني: أنَّ الإلهام خفيٌّ غامضٌ يدَّعيهِ المُحِقُّ والمُبْطِلُ، فإنْ ميَّزُوا بينهما، طُلبت أمارةٌ، وإنْ عدَلُوا عن الإلهام فذلك دليلٌ يُبطل الإلهام[2].

---

(١) هذا كلام الفلاسفة الذين هم أجهل الخلق بـأمر النُّبـوَّات، وهم أشدُّ الخلق فسـاداً للعقل، وفوق هذا هم أشدُّ الناس مخالفة للشرع، فما من قضية يبحثونها إلاّ ولهم فيها استطالة عليه، ولهم استعلاء على الأنبياء، ولهذا فهم يكرهون ظهور ما جاء به الرسول ﷺ بل يمنعون من قراءة الأحاديث النَّبويَّةِ وسماعها، كما يكرهون قراءة القرآن وتلاوته وحفظه، نعوذ باللَّه تعالى من ضلالات الكفر والإلحاد. وقد ثبت في الكتاب والسُّنَّة تنزُّل الملائكة وعروجها، كما ثبت عروج النبيِّ ﷺ إلى السموات السبع إلى سدرة المنتهى، كما ثبت رفع عيسى عليه السَّلام إلى السماء الثالثة، فثبت بطلان دعواهم وفساد زعمهم.

(٢) دعوى الإلهام في إثبات النُّبوَّة لا تصدر إلاَّ عن أنصاف العقلاء أو عن عقلاء الصبيان، الذين يخوضون في عظائم الأمور بعقولهم السفيهة وبتصوّراتهم الخيالية، وكان الأحرى بالمؤلف أن لا يذكر هذه الأقوال المريضة والآراء الهزيلة، فإنَّها واللَّه لمن المزعجات التي تأبى العقولُ الصحيحة والأفهام اللبيبة سماع التّرّهات ثم سوق الأدلة على بطلانها؟!.
والإلهـام ثابت للصـالحين من عبـاد اللَّه المخلصين، وقـد ثبت عن النبي ﷺ أنَّ أخبـر عن عمر بن الخطاب أنه منهم، وأبو بكـر أفضل منهم، إذْ هـو الصّدّيق رضي اللَّه تعـالى عنه. فالملهم وإن كان إلهامه من اللَّه تعالى فهو ليس من الوحي في شيء قطعاً، ولذلك يجب على صاحبه أن يعرضه على كتاب اللَّه تعالى وسنة رسوله ﷺ، لأن إلهامـه ليس بمعصوم، فـإذا وافق ما في القرآن أو السُّنَّة فإنه يعرف أنه من اللَّه تعالى، وإن خالفه فهو من هواجس النفس أو من وساوس الشيطان، كما قال أبو الحسن الشاذلي: «قـد ضُمِنَتْ لنا العصمـة فيما جـاء به =

وقال آخرون منهم: إنّما صَارُوا أنبياءَ لأنَّ للَّه تعالى في العالم خواصَّ وأسراراً تُخالف مجرَى الطبائع، فمَنْ أظفرَهُ اللَّهُ تعالى بها من خلقه استحقَّ بها النُّبوَّة، وهذا فاسد من وجهين:

أحدهما: خفاؤها فيه غيرُ دليل على صدقه.

والثاني: أنَّه يكون نبيّاً عن نفسهِ لا عن ربِّه، فصار كغيره.

وقال آخرون: بل صاروا أنبياء لأنَّ اللَّه تعالى خصَّهم من كمال العقول بما يتوصَّلُون به إلى حقائق الأمور، فلا يشتبه عليهم منها ما يشتبه على غيرهم، فصارُوا أنبياءَ عن عقولهم لا عن ربِّهم، وهذا فاسدٌ من وجهين[1]:

= الكتابُ والسُّنَّة، ولم تُضْمَنْ لنا العصمة في الكشوف والإلهام». ولهذا كان عمر رضي اللَّه تعالى عنه وَقّافاً عند كتاب اللَّه تعالى وسنة رسوله ﷺ، وكان يُشاور الصحابة، فتارة يرجع إليهم وتارةً يرجعون إليه، وربّما قال القول، فتردُّ عليه امرأة من المسلمين، ويتبيَّن له الحقّ فيرجع إلى قولها ويدع قوله. فإذا كان حال هذا «الملهم» المشهود له به من النبي ﷺ، فكيف يكون حال من هو دونه؟! [انظر مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللَّه تعالى ج ٢/٢٢٦ - ٢٢٧].

(١) هذا المسلك الكلامي القائم على الجَدَل المنطقي الفلسفي من إيراد هذه الأباطيل ولو كانت في أحطِّ دركات السُّخف ثم الأخذ في الرَّدِّ عليها. فلا يليق بمقام النُّبوَّة أن نأخذ بأقوال منكريها أو الملحدين فيها، ثم نقف أمامها موقف المدافع عنها، فمقامها أرفع من مقام جميع الحقائق بعد اللَّه تعالى وآياته، بل إنَّ حقائقها قد أثبتها اللَّه تعالى بعظيم آياته وساطع برهانه. ولقد ردَّ اللَّه تعالى على شبهات الكافرين التي أوردوها على الأنبياء والمرسلين، بالحجج الدّامغة والبراهين السّاطعة والآيات الباهرة، فمنها ما ذكره اللَّه تعالى من قولهم: ﴿فلولا أُلقِيَ عليه أَسْوِرَةٌ من ذهبٍ أو جاء معه الملائكة مُقْتَرِنين﴾ [سورة الزخرف، آية ٥٣]، وهذا الاعتراض كان من فرعون طاغية الدنيا. كما ذكر قولَ قومِ نوح: ﴿ما هذا إلاّ بشرٌ مثلكم يُريد أن يتفضَّلَ عليكم ولو شاءَ اللَّهُ لأنزل ملائكةً ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين﴾ [سورة المؤمنون، آية ٢٤]، وقول مشركي العرب: ﴿ما لهذا الرسولِ يأكلُ الطعامَ ويمشي في الأسواق لولا أُنزلَ إليه مَلَكٌ فيكونَ معه نذيراً * أو يُلْقَى إليه كنزٌ أو تكونَ له جنَّةٌ يأكلُ منها﴾ [سورة الفرقان، آيتان ٧، ٨]، وحكى سبحانه حالَ عامّة أهل الكفر والجحود فقال سبحانه: ﴿وما منَعَ النَّاسَ أن يُؤمنوا إذْ جاءَهُمُ الهُدَى إلاّ أنْ قالوا أبعثَ اللَّهُ بشراً رسولاً *﴾؟! قُلْ لو كان =

أحدهما: أنّ هذا يقتضي فضلَ العلم في حقِّهِ، ولا يقتضيه في حقِّ غيره.

والثاني: أنه إنْ أخبر عن نفسه لم يكن رسولاً، وإن أخبر عن ربِّه كان كاذباً.

وقال آخرون: إنّما صاروا أنبياء لأنَّ النُّور فيهم صفَا ونَمَا بالنُّور الأعظم الإلٰهي الذي تخلص به الأفهامُ وتصحُّ به الأوهام، حتى ينتقلوا إلى الطباع الروحانية، ويزولَ عنهم كدَرُ الطباع البشريَّة، فيخرجوا عن شبح الكائنات بصفاء نورهم، وخلاصهم وهذا قول الثّنوية وهذا فاسدٌ من وجهين:

أحدُهما: أنَّهم دفعوا أسهل الأمرين من بعثة الرُّسل بأغلظهما من إعطاء نوره، وأولى أن يدفعوا عن الأغلظ بما دفعوا به عن الأسهل.

والثاني: أنَّهم أثبتوا به ممازجة الباري سبحانه فيما اختصَّ بذاته، ومخالفة الذات تمنع من ممازجته.

والجواب عمّا قالوه من امتناع المخاطبة الجسمانيَّة عمَّن ليس بجسم من وجهين:

أحدُهما: أنَّه لا يمتنع أن يظهر منه كخطاب الأجسام وإن لم يكنْ جسماً.

والثاني: أنَّ اللَّه تعالى يجوز أن يُودع خطابَهُ في الأسماع حتى تعيَهُ الآذانُ، وتفهمه القُلوبُ بقدرتِهِ التي أخفَاهَا عن خلقه.

= في الأرض ملائكة يَمْشُون مُطْمَئِنِّينَ لنزَّلْنَا عليهم مِنَ السماء مَلَكاً رسولاً﴾ [سورة الإسراء، آيتان ٩٤، ٩٥]، وقال تعالى: ﴿وقالوا لولا أُنْزِلَ عليه مَلَكٌ ولو أنزلنا مَلَكاً لقُضِيَ الأمرُ ثم لا يُنْظَرُون * ولو جعلناهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً ولَلَبَسْنَا عليهم ما يلبِسُون﴾ [سورة الأنعام، آيتان ٨، ٩].

واستمعْ إلى قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لكم مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى به نُوحاً والَّذي أوحينا إليكَ وما وَصَّينَا به إبراهيمَ وموسى وعيسَى أن أقيمُوا الدِّين ولا تتفرَّقُوا فيه، كَبُرَ على المشركين ما تدعُوهم إليه، اللَّهُ يجتبي إليه من يشاءُ ويهدي إليه مَنْ يُنيب * وما تفرَّقُوا إلاّ مِنْ بعدِ ما جاءَهم العلمُ بغياً بينهم﴾ [سورة الشورى، آيتان ١٣، ١٤]. فذكر سبحانه أنَّ الذين ابتعدوا عن هداية الأنبياء والرسل اختلفوا بغياً بينهم، وهذه الأباطيل المتنوِّعة التي يذكرها المؤلف عن أهل الكفر والزندقة من ذلك البغي الذي اقترفُوه على أنفسهم، فكان الواجب عليهم أن يؤمنوا بأنبياء اللَّه على مقتضى آياته وحججه.

والجوابُ عمّا ذكرُوهُ من أن جُرْمَ الملائكة علويٌّ لا ينهبط من وجهين[1]:

أحدهما: أنّه ليس يمتنع أنْ ينتقل جرمٌ سماوي لطيف إلى جرم أرضي كثيف، إما بزيادة أو انقلاب كما يقولون في العقل والنفس؛ أنهما جرمان علويّان هَبَطَا إلى الجسم، فحلاَّ فيه.

والثاني: أنَّهم يقُولون بانقلاب الأجرام الطبيعيات، فيقولون: إنَّ الهواء المركَّب من حرارة ورطوبة إذا ارتفعت حرارتُهُ ببرودةٍ صار ماءً بارداً، وأنَّ الماء المركب من برودة ورطوبة إذا ارتفعت برودتُه بحرارةٍ صار هواءً، وأنَّ الهواء المركَّب من حرارة ورطوبة إذا ارتفعتْ رطوبتُهُ بيبوسةٍ صارَ ناراً، فإذا جازَ ذلك عندهم في انقلاب الطبائع كان في فعل اللَّه تعالى أجوز، وهو عليها أقدر، ولا يمكن أن ندفع أقاويلهم الخارجة عن قوانين الشرع إلاّ بمثلها، وإنْ خرج عن حجاج أمثالنا؛ لينقض قولَهم بقولِهم، فلا يتدلَّس به باطلٌ، ولا يضل به جهول، فما يضل عن الدِّين إلاّ قادحٌ في أصولهِ ومُزْرٍ على أهله[2].

---

(١) ماذا تغني هذه الوجوه التي يُثبت بها بطلانَ أباطيلهم، بعد إيمان المؤمنين الراسخ بأنبياء اللَّه تعالى ورسله، فالمؤمنون ينزِّهون أسماعَهم عن سماع هذه الأباطيل، وأصحاب الأباطيل لا يَنْصَاعُون لهذه الحجج العقلية الكلامية، فَرُدُودُ المؤلف هذه لم تكن للمؤمنين نافعة، ولا للكافرين قامعة، فالأَوْلى عدم إحيائها وبثِّها في عقول الأمَّة، والاكتفاء بآيات اللَّه تعالى وحججه في الإيمان بأنبيائهِ ورسلهِ.
لقد حَارَ أهلُ الكفر والزندقة قديماً وحديثاً كيف يُصوّرون النُّبوَّة بخيالاتهم وأوهامهم، فلم يثبتوا على صفة لها، ولا على رأي فيها، وإنَّما يتمحَّلُون في تعليلاتهم لها حائرين غير مستقرين، لم يخلصوا من متاهات ضياعهم ولا من تخبّطات ضلالهم. والذي يُؤسف له اهتمام المتكلمين ـ والمؤلف منهم ـ بمقالاتهم الفاسدة بدعوى الرَّدِّ عليها، حيث لا يجني منها أهلُ الإيمان فائدةً تُذكر، إن لم نقل: إنَّها ذات خطر جسيم على بسطاء النّاس يجب وقايتهم منها.

(٢) هذا إقرارٌ من المؤلف أنّ ما ذكره من أقوال أهل الباطل مُزْرٍ عليهم، فلِمَ تشويش أفكار المؤمنين بها طالما أنهم لا يعلمون بها ولا تخطر لهم على بالٍ؟!.
وأمَّا قوله: ولا يمكن أن ندفع أقاويلهم الخارجة عن قوانين الشرع إلاّ بمثلها، فهو غير مُسَلَّمٍ =

فصل:

[إثبات أدلّة النبوّات]

فإذا ثبت أنَّ النُّبوَّة لا تصحُّ إلاّ ممَّن أرسله اللَّه تعالى بوحيه إليه، فصحتُها فيه معتبرةٌ بثلاثة شروط تدلُّ على صدقهِ ووجوب طاعته:

أحدهما: أنْ يكونَ مدَّعي النبوَّة على صفات يجوز أن يكونَ مؤهلاً لها لصدق لهجتهِ، وظهور فضله، وكمال حاله، فإنِ اعْتَوَرَهُ نقصٌ أو ظهر منه كذبٌ[1] لم يجزْ أن يُؤهَّلَ للنبوَّةِ من عدمِ آلَتِها وفَقْدِ أَمَانَتِها.

بعثَ رسولُ اللَّه ﷺ خالد بن الوليد إلى بعض أحياء العرب يدعوهم إلى الإسلام فقالوا: يا خالد! صِفْ لنا محمداً، قال: بإيجاز أم بإطناب؟ قالوا: بإيجاز، قال: هو رسول اللَّه، والرَّسول على قَدْرِ المُرْسِل.

والشرط الثاني: إظهارُ معجزٍ يدلُّ على صدقه[2]، ويعجز البشر عن مثله

= به، بل ولا معتبر به في منهج الكتاب والسُّنَّة، فمَنْ لم يُذْعِنْ لحجج اللَّه تعالى ورسوله ﷺ، لن يُذعن لمن يراه مثله أو أقلَّ منه، وكم أضاع المتكلّمون من أعمارهم في مجادلة أهل الباطل بمثل حججهم المنطقية الفلسفية، فيُجابَهُون بالمسالك السُّفْسطائية القائمة على الحكمة المموَّهة، في ذكر المقدمات المغلوطة لاستخراج النتائج الباطلة التي تُرْبِكُ الخصمَ، وفي هذا عبرة لمن يعتبر بفساد الطرق الكلامية ـ ناهيك عن الطرق الفلسفية والمنطقية ـ في البحث لإثبات العقائد أو تصحيحها، فهذه طرقُهم ومناهجُهم وأساليبُهم كم جرَّتْ لهم من خلافات ومنازعات في أقدس قضايا الاعتقاد ألاَ وهي صفات اللَّه تعالى؟! فإذا ثبتَ فشلُها في الوصول إلى الحقِّ الصريح الواضح الذي جاء في كتاب اللَّه تعالى وسنة رسوله ﷺ، ففشَلُها أظهرُ في إقناع أهلِ الباطلِ والمُعْرِضينَ عن الحقِّ!؟.

(١) هذا الاعتراض في مساق الإثبات غير مستقيم، فالأَوْلَى إثبات صفات الأنبياء التي لا يماثلهم فيها أحد، ثم إثبات صفات مدَّعي النُّبوَّة فيما هم عليه من الكذب والباطل والضلال، فلا يمكن اعتبار هذه الفَرَضيات في النظر في أمر نبي من أنبياء اللَّه تعالى في إثبات صدقه ثم نورد عليه إمكان اعتراء النقص عليه أو ظهور الكذب منه، هذا غير لائق في مقام الأنبياء عليهم السَّلام.

(٢) القول بهذا الشرط على الأنبياء تكلُّفٌ لتحصيلِ حاصلٍ، فما من نبيٍّ أو رسولٍ إلاَّ أيَّدَهُ=

لتكون مضاهية للأفعال الإلّهية؛ ليعلم أنَّها منه، فيصح بها دعوى رسالته، لأنَّه لا يُظهرها مَنْ كذَبَ عليه، ويكون المعجز دليلاً على صدقه، وصدقُهُ دليلاً على صحّة نبوَّتِهِ.

والشرط الثالث: أن يُقرن بالمعجز دعوى النُّبوَّة، فإنْ لم يقترن بالمعجزة دعوى لم يصر بظهور المعجزة نبيّاً، لأنَّ المعجز يدلُّ على صدق الدعوى، فكان صفةً لها فلم يجز أن نُثبتَ الصفةَ قبل وجود الموصوف، فإن تقدَّمَ ظهورُ المعجز على دعوى النُّبوَّةِ كان تأسيساً للنُّبوَّة، ككلام عيسى عليه السّلام في المهد تأسيساً لنبوَّته، فاحتاج مع دعوى النُّبوَّة إلى إحداث معجزة يقترن بها ليدلَّ على صدقه فيها، وإنْ تقدمت دعوى النُّبوَّة على المعجز اكتفى بحدوث المعجز بعدها على اقترانه بها؛ لأنَّ اصطحابه للدعوى مقترِنٌ بالمعجز، فإن ظهرَ المعجزُ المقترنُ بالدعوَى لبعض الناس دون جميعهِم نُظِرَ؛ فإن كانوا عدداً يتواتر بهم الخبرُ، ويستفيض فيهم الأثرُ كان الغائب عنه محجوجاً بالمُشاهَدِ له في لزوم الإجابة والانقياد للطاعة، كما يكون العصر الثاني محجوجاً بالعصر الأول، وإن كان المُشَاهِدُ للمعجز عدداً لا يستفيضُ بهم الخبرُ، ولا يتواتر بهم الأثرُ لإمكان تواطئهم على الكذب، ويتوجَّه إلى مثلهم الخطأ والزلل؛ كان المعجز حجةً عليهم ولم يكن حجةً على غيرهم[1]، حتى

= اللَّه تبارك تعالى بالمعجزات الدَّالَّة على صدقه وصحه دعوته، أخرج البخاري في صحيحه رقم ٤٦٩٦ عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: (ما مِنَ الأنبياء نبيٌّ إلاَّ أُعطيَ ما مثلُهُ آمَنَ عليهِ البَشَرُ، وإنَّما كان الذي أُوتيتُهُ وحياً أوحَاهُ اللَّهُ إليَّ، فأرجُو أن أكونَ أكثرَهُمْ تابعاً يومَ القِيَامَةِ) فهذا الحديث الصحيح يُثبتُ وجودَ المعجزات لجميع الأنبياء، لتكون عوناً لأقوامهم على التصديق والإيمان بما جاؤوا به عن اللَّه تبارك وتعالى، وهذا من عظيم فضله سبحانه وكبير إحسانه على خلقهِ!!.

(١) هذا غير صحيح، بل إن توفَّر فيمن شاهَدَ المعجزةَ من قرائن الضبط والإتقان، وسلامة الحسِّ والعقل، وثبوت الأمانة والصدق، فخبره خبرٌ صادق يُفيدُ العلمَ ويوجب التّصديق، وقد ذكر المؤلف رحمه اللَّه تعالى قبلُ خبرَ بعث رسول اللَّه ﷺ لخالد بن الوليد إلى بعض أحياء العرب يدعوهم إلى الإسلام، فقالوا: «يا خالدُ! صِفْ لنا محمّداً، قال: بإيجاز أمْ بإطناب؟ قالوا: بإيجاز، قال: هو رسولُ اللَّه ﷺ». فشهادة خالد بأصل الرسالة كانت مقبولةً ومحتجاً =

يُشاهدوا على المعجز ما يكونوا محجوجين به، وسواء كان من الجنس الأوَّل أو من غير جنسه، فإن قصر من شاهد الأول عن عدد التواتر وقصر من شاهد الثاني عن عدد التواتر لم يثبت حكم التواتر فيهما ولا في واحد منهما لجواز الكذب على كل واحد من العددين.

فصل:

[المعجزات دلائل النّبوّات]

وإذا كان حجج الأنبياء على أُممهم هو المعجز الدّالُّ على صدقهم، فالمعجز ما خرق عادة البشر من خصال لا تُستطاع إلا بقدرة إلٓهية تدلُّ على أنَّ اللّه تعالى خصَّهُ بها تصديقاً على اختصاصه برسالته، فيصيرُ دليلاً على صدقه في ادِّعاء نبوَّته، إذا وصل ذلك منه في زمان التكليف، وأمّا عند قيام الساعة إذا سقطت فيه أحوال التّكليف فقد يظهر فيه من أشراطها ما يخرق ....

= بها، وهو خبر واحد، فكيف لا تقبل شهادته فيما يراه من معجزات الرسالة، لكونه خبرَ واحدٍ، ويلزم أن يكون معه جمع غفير لا يتواطؤون على الكذب؟! بل الحق الثابت الذي لا مرية فيه ـ إلاّ عند المتكلمين القائلين بالظنِّ ـ أنَّ خبر الواحد الثقة العدل الضابط حجة له ولغيره، وعليه وعلى غيره فيما يبلِّغ عن رسول اللّه ﷺ من أمر النُّبوَّة والرسالة وأحوالها وأحكامها ومعجزاتها وفي كل شؤونها، وهذا الذي كان عليه رسول اللّه ﷺ في حياته ومن بعده في عهود الخلافة الراشدة، أنَّ خبر الواحد الصادق الضابط الثقة العدل المتقن يُفيد العلم واليقين في معرفة الدِّين بلا تفريق بين أحكامه وآياته وأحاديثه. ودعوى التواتر المشروط في قبول المعجزات ساقط عند ذات المؤلف، في فصول ذكر فيها أحاديث وأخبار المعجزات النّبويَّة، حيث لم يُثبت خبراً واحداً تتوفَّر فيه شروط التواتر الذي يحكيه هنا. ومن هذا نعلم أن المتكلمين يشترطون شروطاً في هذا الخصوص من غير استنادٍ إلى أدلَّة صحيحة ثابتة، ولا يستطيعون إقامة أدلتهم على مقتضاها عند الاستشهاد بما يُريدون الاستشهاد به من الأحاديث، كحديث العشرة المبشرين بالجنة، فإنَّه حديث صحيح لم يبلغ حدَّ التواتر وهم يحتجون به في اعتقاد ثبوت الجنة للعشرة المبشرين بها من النبي ﷺ، فما كان مقبولاً في هذا كان مقبولاً في غيره، مثل قبول الأخبار في المعجزات وغيرها الثابتة عن رسول اللّه ﷺ.
[انظر أبحاث قبول السنة في العقيدة والشريعة من معالم النبوة في القرآن والسنّة].

العادة[١] فلا يكون معجز المدَّعي نبوَّةً، وإنَّما اعتُبِر في المعجز خرقُ العادة لأنَّ المعتاد يشمل الصادق والكاذب فاختصَّ غير المعتاد بالصادق دون الكاذب.

وإذا تقرَّرَ أن المعجز محدود بما ذكرناه من خرق العادة فقد ينقسم ما خرج عن العادة على عشرة أقسام:

أحدها: ما يخرج جنسُهُ عن قدرة البشر كاختراع الأجسام وقلب الأعيان وإحياء الموتى، فقليلُ هذا وكثيرهُ معجزٌ، لخروج قليله عن القدرة كخروج كثيره.

والقسم الثاني: ما يدخل جنسُهُ في قدرة البشر لكن يخرج مقدارُهُ عن قدرة البشر كطيِّ الأرض البعيدة في المدَّة القريبة فيكون معجزٌ لخرق العادة.

واختلف المتكلمون في المعجز منه[٢]، فعند بعضهم أنَّ ما خرج عن القدرة منه يكون هو المعجز خاصة لاختصاصه بالمعجز، وعند آخرين منهم أنَّ جميعه يكون معجزاً لاتِّصاله بما لا يتميَّز منه.

---

(١) ليس في معجزات الأنبياء والرسل معجزة لم تَخْرُقِ العادةَ، فقد كانتْ جميعُ المعجزات خارقةً للعادة ولا بدَّ، وهذه قضية ربَّانية لا علاقة للقدرة البشرية لدى الأنبياء والرسل حتى يشترط عليهم فيها: وجوب خرق العادة في معجزاتهم، فهذا حاصلٌ محقَّقٌ من قبلِ أن يشترطوه. وهذه الأبحاث عند المتكلمين فيها مجاراة لأبحاث الفلاسفة الذين هم أجهل الخلق بالنبوَّات والرسالات، فمن هذه المجاراة في سماع شبهات الفلاسفة التي كانوا يُثيرونها حول النُّبوَّة جاءت لدى المتكلمين هذه الردود المتضمِّنة لهذه الشروط، وكأنَّهم أمام تسابق في طرح المعجزات، فهي بين أخذٍ وردٍ وإثبات وإبطال، مع العلم لدى الخاصَّة والعامَّة أنَّ سبيل معرفة المعجزات الخبرُ الصادق والنَّقلُ الصَّحيح لا غير، فلا عمل بهذه الشروط ولا حاجة بها في قبولها أو ردِّها سوى التثبّت في النقل والبحث عن الصحيح فيه.

(٢) سبحان اللَّه!! كأنَّ المعجزات عند هؤلاء المتكلمين مصنوعات مكيَّفات بالشروط العقلية والقيود الوضعية، وعلى هذا فلا ضرر في جهلها، كما أنَّه لا نفع في معرفتها. والحق في قبول المعجزات الخبرُ الصادقُ والنَّقلُ الصَّحيحُ، ثم الاتِّعاظ بها والاستفادة منها في تقوية اليقين في إيماننا وتصديقنا بجميع الأنبياء والمرسلين على ما جاءنا في كتاب اللَّه تعالى وسنة رسوله ﷺ.

والقسم الثالث: ظهورُ العلم بما خرج عن معلوم البشر كالإخبار بحوادث الغيوب فيكون معجزاً بشرطين: **أحدُهما**: أن يتكرَّر حتى يخرج عن حدِّ الاتفاق. **والثاني**: أن يتجرَّدَ عن سبب يستدلُّ به عليه.

والقسم الرابع: ما خرج نوعُهُ عن مقدور البشر، وإن دخل جنسُهُ في مقدور البشر، كالقرآن في خروج أسلوبه عن أقسام الكلام، فيكون معجزاً بخروج نوعه عن القدرة، فصار جنساً خارجاً عن القدرة، ويكون العجزُ مع القدرة على آلته من الكلام أبلغَ في المعجز.

والقسم الخامس: ما يدخل في أفعال البشر ويُفضي إلى خروجه عن مقدار البشر، كالبُرْءِ الحادث عن المرض، والزرع الحادث عن البذر، فإن بُرِىءَ المرض المزمن لوقتهِ، واسْتُحْصِدَ الزرعُ المتأكل قبل أوانه[1]، كان بخرق العادة معجزاً، لخروجه عن القدرة.

والقسم السادس: عدمُ القدرة عمّا كان داخلاً في القدرة كإنذار الناطق بعجزه عن الكلام وإخبار الكاتب بعجزه عن الكتابة، فيكون ذلك معجزاً يختص بالعاجز ولا يتعدّاه، لأنَّه على يقين من عجز نفسه، وليس غيره على يقين من عجزه.

القسم السابع: إنطاق حيوانٍ أو حركة جماد، فإن كان باستدعائه أو عن إشارته كان معجزاً له، وإن ظهر بغير استدعاء ولا إشارة لم يكن معجزاً له، وإنْ خرق العادة[2]، لأنَّه ليس اختصاصُهُ به بأَوْلَى من اختصاصه بغيره، وكان من نوادر الوقت وحوادثه.

---

(١) لم يثبت في أخبار المعجزات أنَّ نبياً أو رسولاً زرعَ بذراً حادثاً، واستحصده قبل أوانه. فهذا مَثَلٌ من محض الخيال عند المتكلمين، كان الواجب عدم ذكره أو الاستشهاد به.

(٢) هذا غير صحيح، أو أن المؤلف يُناقضُ نفسَه وقواعدَ مذهبه الكلامي، حين اعتبر نطق الذئب في إخباره للراعي عن رسول الله ﷺ من المعجزات، فلم يكن نطقه باستدعاء ولا إشارة من رسول الله ﷺ. فهذا الخبر لا ينطبق عليه هذا الشرط، فهل هذا غير مُعتبر من المعجزات؟! إذن لِمَ إيراده في «الباب الثالث عشر: في معجزه ﷺ بما ظهر من البهائم»؟! فهذا يدلُّ على تناقض الطريقة الكلامية في إثبات الحجج الاعتقادية، واضطرابها بين النَّظرية والتَّطبيق.

القسم الثامن: إظهار الشيء في غير زمانه، كإظهار فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف، فإن كان استبقاؤهما في غير زمانهما ممكناً لم يكن معجزاً، وإن لم يكن استبقاؤهما كان معجزاً سواء بدأ بإظهاره أو طُولِبَ به.

القسم التاسع: انفجار الماء وقطع الماء المنفجر إذا لم يظهر بحدوثه إسباب من غيره فهو من معجزاته لخرق العادة به.

القسم العاشر: إشباع العدد الكثير من الطعام اليسير، وإرواؤهم من الماء القليل يكون معجزاً في حقِّهم وغير معجز في حق غيرهم، لِمَا قدَّمَناهُ من التعليل.

وهذه الأقسام ونظائرُها الداخلة في حدود الإعجاز متساوية الأحكام في ثبوت الإعجاز، وتصديق مُظْهِرِهَا على ما ادَّعاه من النُّبوَّة، وإن تفاوت الإعجاز فيها وتباين، كما أنَّ دَلَائل التَّوحيد قد تختلف في الخفاء والظهور، وإن كان في كل منها دليلٌ.

فأمَّا فعلُ ما يقدرُ البشرُ على ما يُقَارِبُهُ وإنْ عجزوا عن مثله، فليس بمعجز، لأنَّ الجنس مقدور عليه، وإنَّما الزيادة فضل حِذْقٍ به كالصنائع التي يختلف فيها أهلها، فلا يكون لأحذقهم بها معجزٌ يجوز أن يدَّعِيَ به النُّبوَّة[1].

فإن قيل: فقد جاء زرادشت وبولص بآيات مبهرة ولم تدل على صدقهما في دعوى النُّبوَّة[2].

قيل: لأنَّهما قد أكذَبَا أنفسَهُمَا ما ادَّعيَاهُ في اللَّه تعالى، ممَّا يدلُّ على جهلهما

---

(١) على نحو هذا بنى ابن سينا أمرَ النُّبوَّة أنَّها من قوى النفس، وقوى النفس متفاوتة. وهذا كلام من لا يعرف النُّبوَّة بل هو أجنبي عنها، وهو أنقص ممَّن أراد أن يُقرِّر أنَّ في الدنيا فقهاء وأطباء، وهو لم يعرف غير الشعراء، فاستدلَّ بوجود الشعراء على وجود الفقهاء والأطباء. وهذا هو حال الفلاسفة في تقريرهم أنه كان في الدنيا أنبياء.

(٢) لم يثبت عنهما شيء من المعجزات، وحاشا للَّه أن يُجريَ على أيديهما ما يُعتبر كرامةً ـ ناهيك عن أن يُجريَ على أيديهما معجزةً ـ وكلُّ ما يُحكَى عنهما فهو من مَخَارِيق المُغَالين فيهم، الذين يتقرَّبون إلى شياطينهم بالكذب على النَّاس والافتراء على اللَّه تعالى، خذلهم اللَّه وقطع دابر أتباعهم، آمين.

بـه. لأنَّ بولص يقـول: إنَّ عيسى إلـه، وزعمَ زرادشت أنَّ اللَّه تعـالى كـان وحـده ولا شيء معه، فحين طالت وحدته فكَّر فتولَّد من فكرته «أهرمن» وهو إبليس، فلمّا مُثِّلَ بينَ عينيه أرادَ قتله وامتنع منه، فلما رأى امتناعـه وَادَعَه إلى مـدتهِ وسَـالَمهُ إلى غايتهِ، ومَنْ قال بهذا في اللَّهِ تعالى ولم يعرفْهُ لم يَجُزْ أن يكون رسولاً له، ثم دَعُوا إلى القبائح والأفعال السيِّئة كما شرع زرادشت الوضوء بالبول، وغشيان الأمَّهات، وعبادة النِّيران، وكذلك بولص وماني، فخَذَلَهُمُ اللَّهُ تعالى، ولو دَعُوا إلى محاسن الأخلاق كـانت الشُّبْهَةُ بهم أقـوى والاغترار بهم أكثـر، ولكنَّ اللَّه تعالى عَصَمَ بـالعقول من اسْتَرْشَدَها، وقادَ إلى الحقِّ من أيقظه بها.

فصـل:

[معجزات النُّبوَّة تصديقات على صحتها]

ولا يجوز أن يُظْهِرَ اللَّهُ تعالى المعجزَ ممّا يجعلُهُ دليـلاً على صدقـه في غير النُّبوَّة[1]، وإن كان فيه مطيعاً، لأنَّ النُّبوَّة لا يُوصل إلى صدقه فيها إلاّ بالمعجز، لأنّه مغيبٌ لا يعلم إلاّ منه، فاضطر إلى الإعجاز في صدقه، وغير النُّبوَّة من أقواله وأفعاله قد يعلم صدقه فيها بالعِيَان والمُشَاهدة، وتخرج عن صورة الإعجاز، وإن نفذت لئلاّ تشتبه معجزات الأنبياء بغيرها، وأمّا مدَّعي الرُّبُوبيَّة إذا أظهرَ آياتٍ باهرةً فقد ذهبَ قومٌ إلى أنَّها قد تكون معجزةً بطلت بكذبهِ، فلم يمتنع لظهور بطلانها أن تُوجد منه، وإن

---

(1) هذا الحكمُ قد أوجبه اللَّه تعالى قدراً نافذاً وحتماً مقضياً، فلا يُظهر سبحانه المعجزات ممّا يجعله دليلاً على صدقه في غير النُّبوَّة، فالنُّبوَّة هي أصل الحقائق، وهي أم العلوم الدينيـة، وهي المـوجّهة في سـائر العلوم الكـونيّة والـدنيويـة قاطبـة، فجميـع الخلق على اختـلاف اختصاصاتهم وتنـوّع مهنهم مفتقرون إلى علوم الأنبياء التي جاؤوا بهـا من عند اللَّه تعـالى لإصلاح الخلق، فالملوك والقادة والأطباء والسَّادة بحاجة إلى هداية الأنبياء والرسل، وليس أحد بغني عنهم، ومن استغنى عنهم فهو الشقي المحروم في الدنيـا والآخرة. ولهـذا جعل اللَّه تعالى دعوتهم قائمةً على الحق والعدل والصدق والإحسـان والصلاح والفضيلة، وكـل هذا ضروري لتحقيق سعادة العباد.

لم تُوجدْ منه، إذا كان كاذباً في ادِّعاء النُّبوَّة لأنَّه لم يقترن بدعواه ما يبطلها، كمدَّعي الـربوبيـة، والذي عليـه قول الجمهـور أنّه لا يجـوز أن يظهـر المعجزُ على مـدَّعي الرُّبوبيّة، كما لا يجوزُ أن يظهرَ على مدَّعي النُّبوَّة، لأنَّ معصيته في ادِّعـاء الربـوبية أغلظ وإفكه فيها أعظمُ، فكان بأن لا تظهرَ عليه أجْدَرُ، وإذا استوضح ما أظهره مدَّعي الرُّبوبية من الآيات ظهر فسادُها وبانَ اختلاَلُها، فخرجتْ عن الإعجاز إلى سحرٍ أو شعبذة[1].

فصـل:

[إدراك الغائب للمعجزات بطريق الإخبار الصادق]

ولمَّا علم اللَّه تعالى أنَّ أكثر عباده لا يشهدُون حُجَجَ رسله ولا يحضرون آيات أنبيائه، إمّا لِبُعْدِ الدار، أو لتعاقب الأعصار، طبعَ كلَّ فريقٍ على الأخبار بما عَايَنَ، فيعلمُهُ الغائبُ من الحاضر، ويعرفُهُ المتأخِّرُ من المعـاصر، وقـد علم مع اختـلاف الهِمَمِ أنَّ خبر التَّواتـر إذا انتفتْ عنه الـرِّيَبُ حق لا يعترضـه شَكٌّ وصـدقٌ لا يشتبه بإفْكٍ، فصارَ وروده كالعِيان في وقوع العلم به اضطراراً، فثبتتْ به الحُجةُ، ولزم به العلم[2]، وقد قال الطفيل الغنوي مع أعرابيَّة في وقوع العلم باستفاضة الخبر ما دلتْهُ

---

(١) السحر: هو علم مكتسبٌ بمعاناة أقوال وأفعال، يقوم بها السّاحر لإجراء الخداع والتمـويه والتخييل كما يريد، وذلك لا يتم إلاّ بالاستعانة بالشياطين، فيحصل خداع الحواس والإيحاء إلى النفوس والمشاعر، من غير تغيير في طبيعة الأشياء، فلا يُنشىء حقيقة جديدة لها، ولكنَّه يُخيل للحواسّ والمشاعر بما يريده الساحر. والساحر لا ينال كل ذلك إلا بمعـونة الشيطان الذي يتقرَّب إليه بما يحبه من العقائد الفاسـدة والكفر والشـرك، والأعمال الضـالة الخبيثة وتناول المحرَّمات والنجاسات. وكلّما ازداد الساحر كفراً وجحوداً بـاللَّه وآياتـه ورسله كلّما ازداد عوناً من الشيطان الذي تولاّه.

وقد كان الأسود العنسي ومسيلمة الكـذاب اللّذان ادَّعَيَا النُّبـوَّة يستعينان بـالشياطين لمعرفة الأمـور الغيبية، وإجـراء بعض الأمور الغـريبة، كمـا ذكر ذلـك شيخ الإسـلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى ج ١١/٢٨٤.

(٢) وهذا ثابت لجميع ما صـحَّ عن رسول اللَّه ﷺ من الأحـاديث النَّبويَّـة في العقيدة والشـريعة والآداب والأخلاق.

عليه الفطرةُ وقادَهُ إليه الطبعُ فقال:

تـأوَّبَني هَـمٌّ مِـنَ الـليـل مـنـصب وجـاء مـن الأخبـارِ مـا لا يُـكـذَّبُ
تـظاهَـرْنَ حتّى لم يكـنْ لي رِيـبـةٌ ولـم يـكُ عمّـا أخبـرُوا مُـتعـقَّبُ

فصل:

[أنواع الوحي ومراتبه]

وأمّا ما يجوز لمدَّعي النُّبوَّة فينقسم ثلاثة أقسام: **أحدها**: أن يُكلِّمه اللَّهُ تعالى بغير واسطة. **والثاني**: أن يُخاطبه بواسطة من ملائكته. **والثالث**: أن يكون عن رؤيا منام.

فـأمّا القسم الأول: إذا كلَّمَـهُ اللَّه تعالى بغيـر واسطة مثـل كـلامـه لمـوسى عليه السَّلام حين نُودي من الشجرة على ما قدمناه في الاختلاف في صفته[1]، فيعلم اضطراراً أنَّه من اللَّه تعالى وفيما يقع به علم الاضطرار في كلامه لأهل العلم قولان:

أحـدهـمـا: أنّـه يضـطره إلى العلم بـه كمـا يضـطر خلقـه إلى العلم بسـائـر المعلومات، فعلى هذا يستدل بمعرفة كلامه على معرفته ويسقط عنه تكليف معرفته، ويجوز أن يكون كلامه من غير جنس كلام البشر للاضطرار إلى معرفة ما تضمنه.

---

(١) تكليم اللَّه تعالى لموسى عليـه السَّلام كـان حقيقة، والكـلام الذي سمعـه موسى هـو كلام اللَّه تعـالى حقيقةً، ولـذلك طمـع في رُؤية اللَّه سبحـانـه، أمّـا القـول المحكي عن بعض المتكلمين: أنَّ اللَّه تعالى أوجد كلاماً في الشجرة ونسبه إليه، أو أنَّ اللَّه أنطق الشجرة بأمره، فكله قول بالظن والهوى، واعتماد القائلين بهذا القول على ما زعم أنّ «كلام اللَّه نفسي» وهذا مـا لا صحة لـه ولا ثبوت، بـل نصوص القـرآن والسنة تثبت للَّه تعـالى التكليم بـالصـوت والحرف، ولكن لا كالأصوات ولا كالحروف؛ اللَّه أعلم بحقيقة كلامه، وكلامه سبحانه صفة من صفاته لا يجوز صرفه عن معناه الحقيقي، فنُؤْمِنُ به من غير تكييف ولا تمثيـل ولا تشبيه ولا تعطيل، هذا هو مذهب الصحابـة والتابعين والأئمـة المجتهدين رضي اللَّه تعـالى عنهم أجمعين.

والقول الثاني: أنْ يقترن بكلامه من الآيات ما يدلُّ على أنَّه منه فعلى هذا لا يسقطُ منه تكليفُ معرفتِهِ، ولا يصح أن يكلمه إلّا بكلام البشر لعدم الاضطرار إلى معرفته.

وأمّا **القسم الثاني**: وهو أن يكون خطابُه بواسطة من ملائكته الذين هم رسله إلى أنبيائه، فعلى الأنبياء معرفة اللّه تعالى قبل ملائكته في رسالته، وطريق علمهم به الاستدلال، ثم يصير بعد نزول الملائكة بمعجزاتهم الباهرة علم الاضطرار، وعلى الملائكة إذا نزلوا بالوحي على الرسول إظهار معجزتهم له، كما يلزم الرسول إظهار معجزته لأمته.

رُوِيَ أنَّ جبريل عليه السّلام لَما تصدى لرسول اللّه ﷺ بمكة في الوادي قال له: قل يا محمد للشجرة أقبلي! فقال لها ذلك، فأقبلتْ، وقال له: قُلْ لها أدبري! فقال لها ذلك، فأدبرتْ، فقال له رسول اللّه ﷺ: (حسبي)[1] يعني في العلم بصدقك فيما أتيتني به عن ربّي.

فتستدلّ الرُّسُلُ بالمعجزاتِ على تصديق الملائكة بالوحي، وتستدل الأمم بمعجزاتِ الأنبياء على تصديقهم بالرسالة. ويكون خطاب الملك لفظاً إن كان قرآناً، أو ما قام مقام اللفظ إن كان وحياً، ولا يجوز أن يؤدِّي الملكُ إلى الرسول ما تحمَّلَهُ عن ربِّه إلّا بلسان الرسول، كما لا يؤدِّي الرسول إلى قومه إلّا بلسانهم، ويكون المَلَكُ واسطةً بين الرسول وبينَ ربِّه، والرسولُ واسطةً بين المَلَكِ وبينَ قومه، وما يؤدِّيه المَلَكُ إلى الرسول ليؤدِّيَهُ الرسولُ إلى قومه ضربان: قرآنٌ ووحيٌ؛ فأمّا القرآن فيلزمُ المَلَكُ أنْ يُؤديَهُ إلى الرسول بصيغة لفظه، وليس للملك ولا للرسول أن

---

(١) أخرج الدارمي في سننه ج ١/٢٠/رقم ٢٣، عن أنس بن مالك قال: جاء جبريل إلى رسول اللّه ﷺ وهو جالس حزين، وقد تخضَّبَ بالدَّمِ من فعل أهل مكة من قريش، فقال جبريل: يا رسول اللّه! هل تُحِبُّ أن أريَكَ آيةً؟ قال: نعم، فنظر إلى شجرة من ورائه، فقال: ادْعُ بها، فدَعَا بها، فجاءت وقامت بين يديه، فقال: مُرْهَا فلترجع، فأمرها فرجعت، فقال رسول اللّه ﷺ: (حَسْبِي حَسْبِي)!! وأخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ج ٣/١١٣.

يعدِلَ بلفظِه إلى غيره، ويكون ما تضمنه من الخطاب المنزَّل متوجِّهاً إلى الرسول وإلى أمَّته[1].

وأمّا الوحي إذا تضمّن تكليفاً بأمرٍ أو نهيٍ فضربان:

أحدُهما: أنْ يكون نصّاً غير محتمل، وصريحاً غير متأول، فهذا يعلمه الرسولُ من المَلَكِ بنفس الخطاب، وتعلمه الأمَّة من الرسول بالبلاغ من غير نظر ولا استدلال، وليس للمَلَكِ ولا للرسول أن يعدِلَ بالنَّص إلى إجمال أو احتمال له.

والضرب الثاني: أن يكون من المجمل أو المحتمل لمعان مختلفةٍ، فهذا يُعلم المرادُ به من دليلٍ يقترن بالخطاب، ودليلُهُ ضربان؛ **أحدُهما**: عقلُ المستمع. **والثاني**: توقيف المبلِّغ.

فأمّا ما عُقِلَ دليلُهُ ببديهة العقل فمحمولٌ على مقتضى العقل، ويكفي فيه تبليغُ الخطاب، وأمّا دليلُهُ التوقيف الذي لا مدخل فيه لبداية العقول، كالعبادات، فمحمولٌ على التوقيف من اللّه تعالى إلى ملائكته، ومن الملائكة إلى الرَّسُول، ومن الرَّسُول إلى أمّته[2]. فأمّا معرفةُ المَلَكِ من ربِّه فهو غير مُشاهَدٍ لذاته، واختلفَ أهلُ

---

(1) قال اللّه تعالى في سورة الأعراف، آية ٢٠٣: ﴿قُلْ إنَّما أتبعُ ما يُوحَى إليَّ من ربّي﴾ أي فلا أقترحُ، ولا أبتدعُ، ولا أمْلِكُ إلّا ما يُوحيه إليَّ ربي، ولا آتي إلّا ما يأمرني به ﴿هذا بصائِرُ من ربِّكم وهدىً ورحمةٌ لقوم يُؤمنون﴾ إنّ هذا الوحي «القرآن» بصائر تهدي، ورحمة تفيض، لمن يؤمن به ويهتدي بهديه!! إنّه هذا القرآن الذي لا يبْلُغُ مراتب سُموِّه إلّا الذينَ آمنوا به وانقادوا لشرعه!!.

منهج هذا القرآن العظيم منهج فريد في الوجود، لا يدع جانباً من جوانبه إلّا ويشير إلى حقائق هذا الكون والغاية التي وُجد من أجلها، وهو يتناول قضايا الحياة والإنسان، فيكشف عن أسرار ما أودع اللّه سبحانه في هذه الحياة وهذا الإنسان!! وهو يأخذ بالفطرة الإنسانية خطوة خطوة، ومرحلةً مرحلةً، ويصعد بها في أعالي السعادة والصفاء والهناء!! هذا القرآن هو كلام خالق هذا الكون والحياة والإنسان!!.

(2) قال اللّه تعالى في سورة الإسراء، آيتان ٧٣، ٧٤: ﴿وإنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عن الذي أوْحَيْنا إليكَ لتفتريَ علينا غيرَهُ وإذاً لاتَّخذُوكَ خليلاً * ولَوْلَا أن ثبَّتناكَ لقدْ كِدْتَ تركنُ إليهم شيئاً قليلاً﴾ في هذا النَّصِّ القرآني بيانٌ للعصمة الإلَهيّة للنبي ﷺ من فتنة أهل الدنيا من السادة =

العلم في معرفته به على مذهبين، كالرَّسُول إنْ كلّمه، **أحدهما**: بأن يضطره إلى العلم به، **والثاني**: بسماع الخطاب المقترن بالآيات.

وأمّا معرفةُ الرَّسُول من المَلَكِ ومعرفةُ الأُمّة من الرَّسُول، فالرسولُ مُشاهِدٌ لذاتِ المَلَكِ، والأُمّة مُشَاهِدَةٌ لذات الرَّسُول[1]، ولمشاهدة الذوات تأثيرٌ في العلم بمراد الخطاب فيتنوّع بيان توقيفه فيما أريد بالخطاب أنواعاً، فيكون باللفظ الصريح، وبعضه بالرمز الخفي، وبعضه بالفعل الظاهر، وبعضه بالإشارة الباطنة، وبعضه بالأمارات التي تضطر المُشَاهِدَ إلى العلم بما أُريد بها وليس لها نعتٌ موصوف، ولا حَدٌّ مقدّرٌ، وإنَّما يعلمه المشاهِدُ بمفهوم أسبابه، فيصير البيان باختلاف أنواعه توقيفاً من المَلَكِ إلى الرَّسُول، ومن الرَّسُول إلى الأمة، ويجوز أن يختلف نوعُ بيانهما إذا عرف.

فأمّا القسم الثّالث: وهو أنْ يكون عن رؤيا منام[2]، فإنْ لم يكنْ ممّن تُصدَّقُ رؤياهُ لكثرةِ أحلامه لم يجزْ أن يدَّعي النُّبوَّة، وإن كان ممَّن تَصْدُقُ رؤياهُ فقد رُوِيَ عن النبي ﷺ أنّه قال: (أَصْدَقُكُمْ رُؤْياً أَصْدَقُكُمْ حَدِيثاً)[3]، لم يجزْ أن يدَّعي النُّبوَّة من

= والقادة، ليحفظ اللّه سبحانه على هذه الأمة كتابها وسنَّة نبيِّها، فكان الحفظ والعصمة والرعاية والعناية من اللّه تعالى لرسوله معجزة من أكرم المعجزات الباقية أبدَ الدّهر.

(١) هذه المشاهدة في القلب والبصيرة التي لا تبلى على كرِّ الدُّهور ومرِّ العُصُور، فمن شاهدَهُ في حياته ولم يُؤمن به، فهو لم يشهد له بما شهده اللّه له في قوله: ﴿محمّدٌ رسولُ اللّهِ﴾ ومَنْ آمن به وصدَّق الحقَّ الذي جاء به من عند اللّه تعالى «كتاباً وسنّةً» وشهد له بالنُّبوَّة والرسالة، فهو صاحب المشاهدة التي لا تبلى. والرؤية قسمان: رؤية بالبصر، ورؤية بالبصيرة، ورؤية البصر يمكن انخداعها بالمظاهر، أما رؤية البصيرة فلا تنخدع أبداً، لأنَّها قائمة على شهود الحق ومعرفة الحقائق!!

(٢) رؤيا الأنبياء حق، وهي لهم جزءٌ من النُّبوَّة، والوحي ربَّما يأتي عن طريقها، لأنَّ الرؤيا «حديث الروح»، فإذا رأى أحد الأنبياء رؤيا فهي وحي إليه من اللّه تعالى، وهذا ثابت بنصّ القرآن الكريم عن خليل الرحمن «إبراهيم» عليه السَّلام في «سورة الصافات، آية ١٠٢» ولو لم تكن وحياً لم يقم بتحقيق أمرها، كما ذكره سبحانه في هذه السورة الآيتان ١٠٤ ـ ١٠٥.

(٣) هذا جزء من حديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج ٢/٢٦٩ عن أبي هريرة قال: قال =

أوَّل رؤيا، لجواز أن يكونَ من حديث النفس، وأنَّ الرؤيا قد تصح تارةً وتبطل أخرى، فإن تكرَّرَتْ رؤياهُ مِراراً حتى قطعَ بصحتها، ولم يُخالِجْهُ الشَّكُّ فيها جازَ أن يدَّعي بها النُّبوَّة[1]، فيما كان حفظاً لِما تقدَّمَها من شرعٍ، وبعثاً على العمل بها من بعيد، ولم يجزْ أن يعتدَّ بها في نسخِ شرعٍ ولا استئناف تعبّدٍ، ويجوز أن يعملَ على رؤيا نفسِهِ فيما يلتزمُهُ من استئناف شرعٍ ولا يجوزُ أن يعملَ عليها في نسخِ ما لزِمَهُ من شرعٍ ليكونَ بها ملتزِماً، ولا يكونُ بها مُسْقِطاً.

فصل:

[شروط التَّبليغ في الرِّسالة]

وأمّا خطاب الرسول لأمَّته فيما بلَّغهم من رسالة ربِّه بعدَ ظهور معجزته، والإخبار بنبوَّته ولزومه للأمَّة، فمعتبَرٌ بخمسة شروط:

أحدُها: العلمُ بانتفاء الكذب عنه فيما ينقله عن اللَّه تعالى من خبر أن يُؤدِّيه من تكليف، كما انتفى عنه الكذبُ في ادِّعاء الرسالة، ويكون المعجز دليلاً على صدقِهِ في جميعِ ما تضمَّنَتْهُ الرسالة[2].

= رسول اللَّه ﷺ: (في آخر الزمان لا تكاد رؤيا المؤمن تكذب، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً..) الحديث.

(1) هذا لمن ثبتَتْ نبوّتُهُ، لا لكل من تكرَّرت رؤياه مراراً، وبعد النبي ﷺ لا تُقبل دعوى النبوَّة من أيِ أحدٍ كائناً من كان، ولو كان يرى في كل ليلة رؤيا صادقة لا يكون نبيّاً قطعاً، وإنِ ادَّعى النبوَّة أحدٌ بعد النبي ﷺ فهو كاذب قطعاً ولا شكَّ في كذبه. وكان على المؤلف رحمه اللَّه أن يحترز عن إطلاق هذا الكلام، وأن يذكر ما ثبت عن النبي ﷺ في صحيح البخاري رقم ٦٩٨٩: (الرؤيا الصالحة جزءٌ من ستة وأربعين جزءاً من النبوَّة)، ولم يقل من الرسالة، لأن الرسالة تبليغ، وهي تزيد على النبوَّة به، والنبوَّة اطلاع على المغيّبات. ومن هنا شابهت الرؤيا أجزاء النبوَّة، ولا يعني هذا أنَّ الرؤيا الصَّادقة تجعل صاحبها نبيّاً. [انظر فتح الباري ج ١٢/٣٦٩ ـ ٣٧٥، ط. السّلفية].

(2) هذه الصفات ملازمة لرسول اللَّه ﷺ ولكل رسولٍ قبله بلا تمييز، ولزوم هذه الصفات للرسالة كلزوم الضياء للنّهار، وهذه الصفات الجليلة للرسول ﷺ لتحقيق الالتزام الكامل لأمته =

الثاني: أن يُعلم من حاله أنَّه لا يجوز أن يكتم ما أُمر بأدائه، لأن كتمانه يمنع من التزام رسالته لجواز أن يكتم إسقاط ما أوجب، وإن جاز أن يكتّم بيانه قبل وقت الحاجة ولا يكون كتماناً.

الثالث: أن ينتفي عنه ما يقتضي التَّنفيرُ من قبول قولهِ، لأنَّ اللّٰه تعالى حَمَاهُ من الغِلظة لئلاَّ يُنفر من متابعته، وكان أولى أن لا يُنفر عن قبول خطابه.

الرابع: أن يقترن بخطابه ما يدل على المراد به لينتفي عنه التَّلبيس والتَّعمية في أحكام الرسالة حتى يعلم حقوق التَّكليف، وإن جاز تعمية خطابه فيما لم يتضمنه التكليف.

وقد اعترضَ رسولَ اللّٰه ﷺ رجلٌ في أطراف بدرٍ وقال له: ممَّن أنتَ؟ فقال: (مِنْ مَاءٍ)[1] فَوَرَّى عن نسبه بما اسْتُبْهِمَ على سائله لخروجه عمّا يؤديه شرعاً إلى أمَّته.

الخامس: العلم بوجوب طاعته لِيُعْلَمَ بها وجوب أوامره واختُلف في طاعته هل وجبتْ عقلاً أو سمعاً بحسب اختلافهم في بعثة الرسل هل هو من موجبات العقل أم لا.

= برسالته ﷺ، لأنَّ ما جاءنا به ﷺ هو الحقُّ الذي لا حقَّ في الوجود سواه، ولقد أقام اللّٰه تعالى البراهين الساطعة والبراهين القاطعة على أنَّ رسوله منزّه عن الخطأ والباطل، ومحفوظ من العيوب المنفرة، والصفات الناقصة، بما خصَّه سبحانه من العصمة والحفظ والرعاية والعناية والسلامة والكمال!!

وتتلخّص هذه الصفات فيما يلي: الصّدق، والأمانة، والتّبليغ، والسلامة من الأمور المنفّرة، والذكورة، والفطانة، والذكاء، والشجاعة، والكرم، والصبر، والرحمة، والحلم، والتواضع، والأدب الرفيع، والخُلُق العظيم الذي يشمل كل ما تقدَّم وما يتبعه أو يتعلق به.

(١) كان هذا حين استطلاع رسول اللّٰه ﷺ قبل بدء معركة بدر الكبرى، فصادف ركباً، فسألوه: من هو؟ فأجابهم فهذه التورية قاصداً أنّ اللّٰه تعالى خلقه «من ماء» وهذا من لوازم المعركة، وهو إخفاء جميع المعلومات عن العدو بكل وسيلة. انظر تفصيل هذا الخبر في السيرة النبوية لابن هشام ج ٦١٦/١، والسيرة لابن كثير ج ٣٩٦/٢.

فصل:

[أنواع خطاب التَّبليغ للنَّبيِّ ﷺ][1]

وإذا تكاملت شروط الالتزام لم يخلُ خطابُهُ[2] من أن يكون مفهوماً أو مبهماً، فالمفهوم أربعة: النص وفحوى الكلام ولحن القول ومفهوم اللفظ.

وفحوى الكلام ما دَلَّ على ما هو أقوى من نطقه.

ولحن القول ما دَلَّ على مثل نطقه.

ومفهوم اللفظ مأخوذ من معنى نطقه.

فهذه الأربعة مفهومة المعاني بألفاظها مستقلة بذواتها معلومة المراد بظواهرها، فلا احتياج بعد البلوغ إلى بيان، وأمّا المبهم فثلاثة: المُجْمَلُ والمُحْتَمَلُ والمُشْتَبَهُ.

فأمّا المجمل فما أُخِذَ بيانُهُ من غيره، ولا يدخل العقلُ في تفسيرِهِ، فلا يُعلم إلّا بسمعٍ وتوقيفٍ.

---

(١) برهان هذه الأنواع المعجزة الدّالة على صدق الرسول ﷺ الآتي بها، فإذا ثبت برهان المعجزة ثبتَ الصِّدقُ، وإذا ثبت الصِّدقُ ثبتَ التكليفُ على المكلّف. ولهذا أدخل المؤلف رحمه اللّه تعالى هذه الأنواع في قسم المعجزات على هذا الاعتبار.

(٢) إنّ النبي ﷺ كان مبيِّناً بقوله وفعله وإقراره، لِما كان مكلّفاً بذلك بقوله تعالى: ﴿وأنْزَلْنا إليكَ الذِّكْرَ لِتُبيِّن للنّاسِ ما نُزِّلَ إليهم﴾ [سورة النحل، آية ٤٤] فكان بيانُهُ ﷺ من أنواع «خطاب التكليف». وأمّا خطاب القرآن للرسول ﷺ فإنّه إذا اشتمل على ما يدل على أنّه خاصٌّ به ﷺ؛ كان خاصّاً به، كقوله سبحانه: ﴿وامرأةً مؤمنةً إنْ وهبتْ نفسَها للنبي﴾ [سورة الأحزاب، آية ٥٠]، وقوله سبحانه: ﴿ومِنَ اللّيلِ فتهجَّدْ بهِ نافلةً لكَ﴾ [سورة الإسراء، آية ٧٩]. وإنِ اشتملَ الخطاب القرآني على ما يدلُّ على تناوله للأمة، كانت داخلةً فيه قطعاً، كقوله تعالى: ﴿يا أيُّها النبي إذا طلّقتم النساءَ فطلِّقوهُنَّ لِعِدَّتِهِنّ﴾ [سورة الطلاق، آية ١]. وإذا خلا الخطاب القرآني من الأمرين؛ فإنّه يتناول الأمَّةَ شرعاً، وإن لم يتناولها لفظاً، لأنّ اللّه تعالى أرسله لهداية خلقه، ولا يكون ذلك إلّا باقتدائهم به ﷺ ولهذا أمرهم بطاعته، ومن هذا قوله تعالى: ﴿يا أيُّها النّبيّ اتّقِ اللّهَ ولا تطعِ الكافرين والمنافقين إنّ اللّه كان عليماً حكيماً﴾ [سورة الأحزاب، آية ١].

وأمّا المحتمل فهو ما تردَّدَ بين معانٍ مختلفةٍ، فإن أمكنَ الجمعُ بين جميعها، حُمل على جميع ما تضمنه واستغنى عن البيان، إلاّ أنْ يرد بـالاقتصار على بعضهـا بيانٌ، وإن لم يمكن حملها على الجميع لتنافيها، وكان المقصودُ أحدَ معانيها، فإن أمكن الاستدلال عليه بمخرج الخطاب أو بمشاهدة الحال كان فيه بيانٌ أو تعذَّرَ بيانُه من هذا الوجه حُمِلَ على عُرْف الشرع، فإن تعذَّرَ حُمِلَ على عُرف الاستعمال، فإن تعذَّر حُمِلَ على عُرْف اللُّغة، فإن تعذَّر فبيانُه موقوفٌ على التَّوقيف.

وأمّا المشتَبَهُ فما أشكل لفظُهُ واسْتَبْهَمَ معناهُ.

روي أنَّ عمر رضي اللّه عنه قال: يا رسول اللّه! إنَّك تـأتينا بكـلام لا نعرفـه ونحن العـرب حقّـاً؟! فقـال رسـول اللّه ﷺ: (إنَّ ربِّي علَّمني فتعلمتُ، وأدَّبني فتأدَّبتُ)[1]. فإن تلوح في المشتبه إشارةٌ إلى معناه جاز أن يكون استنباطه موقوفاً على الاجتهاد، وإن تجرَّدَ عن إشارة كان موقوفاً على التوقيف، وعلى الرسول تبليغُ بيانه كما كان عليه تبليغُ أصله، وعلى من سمعه من الرسول أن يبلِّغه من لم يسمعْهُ حتى ينتقل إلى عصرٍ بعدَ عصرٍ على الأبد، فيعلمُهُ القرنُ الثاني من الأول، والثـالثُ من الثاني، وكذلك أبداً لتـدومَ الحُجَّةُ بهم إلى قيـام السـاعـة، ولذلـك قال النَّبيُّ ﷺ: (لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ الغَائِبَ)[2].

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق عن محمد بن عبد الرحمن الزهري عن أبيه عن جدّه أنَّ أبا بكر قال: يا رسول اللّه! لقد طفتُ في العـرب وسمعتُ فصحاءَهم، فمـا سمعتُ أفصحَ منـك!! فمن أدَّبـكَ؟ قـال: (أدْبني ربِّي، ونشـأتُ في بني سعـد). وفي لفظ: (أدَّبني ربِّي فأحسنَ تأديبي). قال الشيخ محمد ناصر الدين الألبـاني في الضعيفة: ضعيف، قـال شيخ الإسلام في «مجموعة الرسائل الكبرى ج ٢/٣٣٦: «معناه صحيح، ولكن لا يُعرف له إسناد ثابت» وأيَّدَهُ السخاوي والسيوطي فراجع كشف الخفا ج ١/٧٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ج ١/٢٦ و٣٧ وج ٢/٢١٦ وج ٣/١٨، ومسلم في صحيحه في كتاب الحج باب رقم ٨٢ حديث رقم ٤٤٦، والترمذي رقم ٨٠٩، والنسائي في كتاب الحج باب ١١٠، وابن مـاجه ٢٣٣ و٢٣٤، وأحمـد ج ٥/٤٥. والتبليـغ يشمـل القرآن الكريم، والسُّنَّة النَّبويَّة المطهرة في كل ما ثبت عنه ﷺ في العقيدة والشريعة.

فصـل:

[الفرق بين الأنبياء والرُّسُل]

فأمّا الفرق بينَ الأنبياء والـرسل فقـد جاء بهمـا القرآنُ جمعـاً ومفصّلاً بقـول اللّه تعالى: ﴿وما أرسلنَا مِنْ قِبلِكَ مِنْ رَسُولٍ ولا نبيٍّ إلاّ إذا تمنّى ألقَى الشّيطانُ في أمنيَّتِهِ فينسَخُ اللّهُ ما يُلقِي الشَّيطانُ ثم يُحكم اللّهُ آياته﴾[١]. واختلفَ أهلُ العلم في الأنبياء والرسل[٢] على قولين:

أحدُهما: أنَّ الأنبياء والرسل واحد، فالنَّبيُّ رسول والـرسول نبيٌّ، والـرسول مأخوذٌ مِنْ تحمَّل الرسالة، والنَّبيُّ مأخوذٌ من النَّبأ، وهو الخبرُ إن هُمِزَ، لأنَّه مخبر عن اللّه تعالى ومأخوذ من النُّبوَّة إن لم يهمـز، وهو المـوضع المـرتفع، وهـذا أشبه لأنَّ محمداً ﷺ قد كان يُخاطب بهما.

والقـول الثاني: أنَّهمـا يختلفـان لأنَّ اختـلاف الأسمـاء يـدلُّ على اختـلاف المسمَّيات، والرسول أعلى منزلـةً من النَّبيِّ، ولذلـك سميت الملائكـة رُسُلاً، ولم يسمَّوا أنبياء. واختلفَ من قالَ بهذا في الفرق بينهما على ثلاثة أقاويل:

أحدُها: أنَّ الرسول هو الذي تُنَزَّلُ عليه الملائكة بـالوحي، والنَّبيُّ هـو الذي يُوحَى إليه في نومه.

---

(١) سورة الحج، الآية ٥٢.

(٢) النَّبيّ هو الذي يُنبِّئُهُ اللّهُ، وهو يُنبّىء بما أنبأ اللّهُ به، فإن أرسل مع ذلك إلى مَنْ خالفَ أمـر اللّه تعالى ليبلِّغه رسالةً من اللّه إليه، فهو رسول، وأمّا إذا كان إنّما يعمل بالشريعة قبله، ولم يُرْسَلْ هو إلى أحدٍ يُبلِّغُهُ عن اللّه رسالةً، فهو نبي، وليس برسول.

والأنبياء يأتيهم الوحي من عند اللّهِ بما يفعلونه ويأمرون بـه المؤمنين الذين عنـدهم لكونهم مؤمنين بهم، كما يكون أهل الشريعة الواحدة يقبلون ما يبلِّغه العلماء عن الرسول ﷺ. فأنبياء بني إسرائيل كانوا يـأمرون بشـريعة التـوراة، وقد يُـوْحَى إلى أحدهم وحيٌ خـاصٌ في قصّة معينة، ولكن كانوا في شرع التوراة.

ومن الأنبياء من أرسلوا إلى أقوامهم يدعونهم إلى توحيد اللّه تعالى وعبادته، وليس من شرطه أن يأتي بشريعة جديدة، فإنّ يوسف كان رسولاً، وكان على ملّة إبراهيم، وداود وسليمان كانَا رسولين، وكانَا على شريعة التوراة.

والقول الثاني: أن الرسول هو المبعوثُ إلى أُمَّة، والنَّبيُّ هو المحـدَّثُ الذي لا يبعث إلى أمَّةٍ. قاله قُطرب.

والقول الثالث: أن الرسول هو المبتدىء بوضع الشرائع والأحكام، والنَّبيُّ هو الذي يحفظُ شريعةَ غيره. قاله الجاحظ.

فصـل:

[وجوب التَّبليغ على الرَّسُول ﷺ][1]

وإذا نزل الوحيُ على الرسول، وعُيِّنَ له زمانُ الإبلاغ لم يكن له تقديمه عليه ولا تأخيره عنه. وإن لم يُعَيَّنْ له زمانُهُ فعليه تبليغه في أول أوقات إمكانه، فإن خاف من تبليغ ما أُمِرَ به شدة الأذَى وعِظَمَ الضرر لزِمَهُ البلاغ، ولم يكن الأذَى عذراً له في الترك والتأخير، لأنَّ الأنبياء يتكلَّفُون من احتمال المشاق ما لا يتكلَّفه غيرُهم، لِعِظَمِ منزلتهم وما أُمدّوا به من القوَّة على تحمل مَشَاقِّهم. وإن خافَ منه القتلَ فقد اختلفَ المتكلمون في وجوب البلاغ، فذهب بعضُهم إلى اعتبار أمره بالبلاغ، فإن أُمِرَ به مع

---

(١) قال اللَّه تعالى في سورة المائدة، آية ٦٧: ﴿يا أيّها الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنزِلَ إليكَ مِنْ ربِّكَ، وإنْ لم تفعلْ فما بلّغتَ رسالتَهُ واللَّهُ يعصمِكُ مِنَ النَّاسِ إنَّ اللَّه لا يهدِي القومَ الكافرين﴾، ففي هذه الآية الأمرُ الحاسمُ للرسول ﷺ ليُبلّغ ما أنزلَ إليه من ربِّهِ كامِلاً، وألاّ يجعل لأيّ اعتبار من الاعتبارات حساباً وهو يصدع بكلمة الحق، وإلاّ فما بلّغَ وما أدّى وما قام بواجب الرسالة، واللَّه يتولّى حمايتَهُ وعصمتَهُ من النَّاس، ومَنْ كان اللَّهُ له عاصماً فما يُصيبـه شرٌّ يؤذيـه، ولن يمنعه من قيامه بواجبه الذي فرضه عليه.

إنَّ كلمة الحق في العقيدة لا ينبغي أن تحجم؛ إنَّها يجب أن تبلغ أسماع النـاس لتصل إلى قلوبهم كاملةً صحيحةً، فإنّ كلمة الحق في العقيدة حين تُصْدَعُ تصلُ إلى مكامن القلوب التي يكمن فيها الاستعداد للهدى. وهذه الكلمة يجب أن يُصْدَعَ بها بالحكمة والموعظة الحسنة، فهي الوسيلة والطريقة في تبليغ الرسالة، لأنّ الوسيلة والطريقة من جنس الفكرة التي جاء بها الرسول ﷺ، فليس فيها ما لدى «الغرب» الغاية تبرّر الوسيلة، فيسلكون في سبيل غاياتهم كل وسيلة محرّمة، ولهـذا امتاز الإسـلام بطريقتـه المنبثقة عن فكـرته، على جميـع الدعـوات المطروحة بين البشر!!.

تخوُّف القتلِ لزِمَهُ أن يُبلِّغَ وإن قُتِلَ، وإن أُمِرَ به مع الأمن لم يلزمْهُ البلاغ إذا خاف القتلَ[١]، وذهبَ آخرون منهم إلى اعتبار حاله، فإن لم يَبْقَ عليهِ مِنَ البلاغ سوى ما يُخافُ منه القتلُ لزِمَهُ البلاغُ، وإن قُتِلَ، وإن بقي عليه من البلاغ سوى ما يُخاف منه القتل، فإن لم يكن الأمرُ بالبلاغ مرتباً لزِمَهُ أن يقدم بلاغَ ما يَأْمَنُ منه القتل، ثم يبلِّغُ ما يخاف منه القتل، فإن قتل، فإن كان الأمرُ بالبلاغ مرتباً بابتداء ما يخاف منه القتل فإنَّ اللّه تعالى يعصمه من القتل حتى يبلِّغَ جميعَ ما أُمِرَ بـه، لِما تكفَّل به من إكمال دينه واللّه تعالى أعلم.

---

(١) هذا الاحتمال الذي تصوّره المتكلمون هو من محض الخيال والوهم، فإن مثل هـذا الأمر الخطير لا يعود إلى تقدير أحد من الخلق، وإنّما تقديره إلى الله تبارك وتعالى وحده، وهـذه المسألة الفَرَضيَّة تكشفُ عُمْقَ تكلّفِ المتكلمين لِما لا يتعلق بواجباتهم، وذلك لأنّ قضايا الأنبياء والمرسلين متعلقة بالله تعالى وحده.

الباب الخامس

في مدة العالم وعدة الرسل

مدَّة الدنيا من ابتداء خلق العالم إلى انقضائه وفنائه سبعة آلاف سنة[1]، على ما جاءت به التوراةُ المنزَّلة على موسى عليه السّلام. وذكره أنبياء بني إسرائيل، وقد وافق عليه من قال بتسيير الكواكب، وأنَّها مسير الكواكب السبعة، فسيرُ كل كوكب منها ألف سنة، وقد رُوي عن رسول اللّه ﷺ أنَّه قال: (الدُّنيا سبعةُ آلاف سنة أنا في آخرها ألفاً)[2].

وقال ﷺ: (بُعثتُ والسّاعة كهاتين)[3] وجَمَعَ بينَ أُصبعيه الوسطى والسَّبَّابة، يعني أنَّ الباقي منها كزيادة الوسطى على السَّبَّابة.

---

(1) ليس على هذا التحديد دليلٌ على صحته وثبوته، بل أثبتت العلوم الحديثة ومكتشفاتها خلاف ذلك، وقدَّر علماء العصر الحديث أنَّ عُمْرَ الكون يبلغ الملايين من السنين. فالقول بمدَّة الدنيا من ابتداء خلق العالم إلى انقضائه وفنائه سبعة آلاف سنة ليس له دليل عقلي ولا دليل نقلي، وهو قول مزعوم لا يثبت ولا يصح. والقول بأنَّ عمر الكون يُقدَّر بالملايين، فهو أقرب إلى الصحة، ولكن تحديده برقم معيَّن مختلف فيه عند العلماء، أي التحديد فيه من الظنون العلمية، والصحيح أنَّ عُمْرَ الكون على التحديد من علم الغيب الذي لا يعلمه غيرُ اللّه تبارك وتعالى. والزعم أنَّ هذا التحديد مذكور في التوراة لا يصح، لأنَّ التوراة ثبت تحريفها.

(2) قال الشيخ محمد ناصر الدين الألباني: حديث موضوع [الضعيفة رقم ٣٦١١]. وانظر كتاب «اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة» ج ٢/٤٤٣، وكتاب «تذكرة الموضوعات» ٢٢٣ - ٢٢٤.

(3) هذا الحديث في صحيح مسلم رقم ٨٦٧ بلفظ: (بُعِثْتُ أنا والسّاعةَ كهاتين)، ويَقْرُنُ بين أصبَعيْهِ السَّبَّابةِ والوسطى.

ورَوَى سَلَمَةُ بن عبد اللّه الجُهنيُّ عن أبي مسجعة الجُهَني عن أبي رحاب الجُهَنيِّ أنه قال للنبي ﷺ: رأيتُك على منبرٍ فيه سبعُ درجات، وأنتَ على أعلاها، فقال: (الدُّنيا سبعة آلاف سنة، أنا في آخرها ألفاً)(١).

وروى أبو نضرة عن أبي سعيد الخدري قال: سمعتُ رسولَ اللّه ﷺ بعد صلاة العصر يقول: (أيُّها النَّاس إنَّ الدنيا خَضِرَةٌ حلوةٌ وإنَّ اللّه مستخلِفُكُمْ فيها، فناظرٌ كيفَ تعملون)، وأخذ في خطبته إلى أن قال: (لأعرفنَّ رجلاً منعتْهُ مهابةُ النّاس أن يتكلَّمَ بحقٍّ إذا رآه وشهده)، ثم قال وقد أزف غروبُ الشمس: (إنَّ مثلَ ما بقي من الدنيا فيما مضَى منه كبقيَّة يومِكُم هذا فيما مضى منه. يوفى بكم سبعُون أُمَّةً، قد توفي تسع وستون وأنتم آخرها)(٢). فصارت هذه المدَّة المقدَّرة في عمر الدنيا سبعة آلاف سنة متفقاً عليها فيما تضمَّنَتْهُ الكتبُ الإلَهيَّة، ووردتْ به الأنباءُ النَّبوية، مع ما سلك به الموافق من تسيير الكواكب السبعة، وإن كان المعول في المغيب على الأنباء الصادقة الصادرة عن علاّم الغيوب الذي لم يُشْرِكْ في غيبه إلاّ من أطلعه عليه من رسله، فخلق العالم في ستة أيام ابتداؤها يوم الأحد وانقضاؤها يوم الجمعة.

واختلف أهلُ الكتب السالفة وأهل العلم في شرعنا فيما ابتدى بخلقه على ثلاثة أقاويل(٣):

---

(١) ليس لهذا الإسناد ذكرٌ في كتب الحديث، ولا ذكرٌ لرجاله في كتب التراجم، وليس لأبي رحاب الجهني ذكرٌ في أسماء الصحابة، فالظاهر أنه إسناد مركب مختلق، وتقدم قبلُ الحكمُ على هذا اللفظ بالوضع.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه ج ٤/٤٨٣ ـ ٤٨٤، تحقيق أحمد شاكر، وهو حديث طويل، وقال الترمذي: هذا حديث حسنٌ صحيح، رقم الحديث ٢١٩١، وبنحو لفظه أخرجه ابن ماجه في سننه ج ٢/١٤٣٣، وذكره الشيخ محمد ناصر الدين الألباني في صحيح ابن ماجه ج ٢/٤٢٦، رقم ٢٤٦٠ و ٢٤٦١.

(٣) هذه الأقاويل إن كانت من أهل الكتاب فلا نصدّقهم بها، لثبوت تحريفهم لكتابهم وعدم الوثوق بهم وبعلومهم. وإن كانت هذه الأقاويل من أهل العلم في الإسلام، فمصدرها إما أن يكون من نقولهم عن أهل الكتاب، وحكم هذا حكم أصله، أو مصدره اجتهادهم وظنّهم، وهذا ممّا لا يمكن القطع به ولا الجزم بثبوته، فحكمه أنه لا يصدق به تصديقاً جازماً، ولا ردّه =

. . . .

= لاحتماله، والحقُّ في ذلك كلّه راجعٌ إلى علاّم الغيوب سبحانه وتعالى. ولو كان لنا كبيرُ نفع في معرفة ذلك بالتفصيل لأعلمنا ذلك بوحيه إلى أنبيائه، فهو سبحانه العليم الخبير، فيجب علينا أن نقف عند آياته وأحاديث رسوله، ولا نتقدّم عليهما برأي أو ظن، فهذا هو الطريق الأسلم والأحكم!! وسنذكر قصّة بداية الكون في القرآن الكريم: ففي سورة «قَ: آية ٣٨»: ﴿ولقد خلقنا السمٰوات والأرضَ وما بينهما في ستّةِ أيام﴾، وفي سورة الأنبياء، آية ٣٠: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الذينَ كفروا أنَّ السمٰواتِ والأرضَ كانتا رَتْقاً ففتقناهُمَا﴾، وفي سورة البقرة، آية ٢٩: ﴿هو الذي خلقَ لكم ما في الأرضِ جميعاً ثم استوى إلى السماء فسوَّاهُنَّ سبعَ سمواتٍ وهو بكل شيءٍ عليمٌ﴾، وفي سورة فُصِّلت، آيات ٩ ـ ١٢: ﴿قُلْ أئنّكم لتكفرون بالذي خلقَ الأرضَ في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك ربُّ العالمين * وجعلَ فيها رواسيَ مِنْ فوقِها وباركَ فيها وقدَّرَ فيها أقواتَها في أربعة أيام سواءً للسائلين * ثم استوى إلى السَّماءِ وهي دُخَانٌ فقال لها وللأرضِ ائْتِيَا طَوْعاً أو كَرْهاً قالَتَا أتينا طائعين * فقضاهُنَّ سبعَ سمواتٍ في يومين وأوحَى في كلِّ سماءٍ أمرها وزيَّنّا السماءَ الدنيا بمصابيحَ وحِفْظاً ذلك تقديرُ العزيزِ العليم﴾، وفي سورة النازعات، آيات ٢٧ ـ ٣٣: ﴿أأنتم أشدُّ خلقاً أم السماءُ بَنَاها * رفَعَ سمكَها فسوّاها * وأغطشَ ليلها وأخرجَ ضُحَاها * والأرضَ بعدَ ذلك دَحَاها * أخرجَ منها ماءَها ومَرْعَاها * والجبالَ أرْسَاها * متاعاً لكم ولأنعامكم﴾، وفي سورة الذاريات، آية ٤٧: ﴿والسماءَ بنينَاهَا بأيْدٍ وإنَّا لموسِعُون﴾، وفي سورة الأنبياء، آية ١٠٤: ﴿يومَ نطوي السَّماءَ كطيِّ السِّجلِ للكتب، كما بدأنا أوّلَ خلقٍ نُعيدُهُ﴾.

فهذه الآيات القرآنية تتحدّث عن بداية الكون إيجاداً وتكويناً، وهي وإن كانت مفرَّقة في عدَّة سُوَرٍ، فإنّها بمجموعها تبيِّن قصّةَ المراحل المختلفة والعامة التي مرَّ بها هذا الكون إلى أنِ استقرَّ على ما هو عليه الآن.

فالآية الأولى: تُشير إلى أنّ اللّه تعالى خلق السمٰوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، واليوم عند اللّه سبحانه منه: ﴿كألف سنة مما تعدُّون﴾ [سورة الحج، آية ٤٧] ومنه: ﴿كان مقدارُهُ خمسين ألف سنةٍ﴾ [سورة المعارج، آية ٤]، فاللّه تعالى أعلم بمقدار ذلك اليوم الذي كان.

ثم تفصِّلُ الآياتُ التي بعدها المسألةَ أكثر، فتبيِّن أنَّ الأرضَ خُلقت في أربعة أيام من الأيام السِّتَّة، وأنَّ السماء خُلقتْ في يومين منها. وتذكر هذه الآيات أنَّ السمٰواتِ والأرضَ كانتَا في أول مراحل الخلق كتلة واحدة، ففتقت، وكوّن منها الأرض والنجوم والأجرام السماوية، وبناءً على حركة الفتق هذه فالكون يتوسَّع، وبناءً على أنّه يتوسَّعُ فإنّه يوم القيامة سوف يُطوى ويُضم ويُعاد كما كان عند بدئه.

ثم إنَّ اللّه تعالى بعد أن خلق الأرض في يومين حيث كانت متصلة بمادة الكون الأساسية، =

أحدُها: وهو قول طائفة أنَّـه بدأ بخلق الأرض في يـوم الأحد والاثنين لقـول اللّه تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لتكفرُون بالَّذي خلقَ الأرضَ في يـومين﴾[1] وخلق الجبال في يوم الثلاثاء، وخلق الشجر في يوم الأربعاء، وخلق السماء في يوم الخميس، وخلق الشمس والقمر والنجوم والملائكة وآدم في يوم الجمعة.

قال الشعبي[2]: ولذلك سُمّي يوم الجمعة لأنَه جُمِعَ فيه خلقُ كلِّ شيء.

الثاني: وهو قـول فريق أنـه بدأ بخلق السمٰوات قبل الأرض في يـوم الأحد والاثنين لقول اللّه تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سمٰواتٍ في يومين وأَوْحَى في كـلِّ سماءٍ أَمْرَها﴾[3] في ثلاثة أوجه:

أحدُها: أسكنَ في كل سماء ملائكتَها.

الثاني: خلقَ في كلِّ سماءٍ ما أَوْدَعَهُ فيها من شمس وقمر ونجوم.

الثالث: أوحى إلى أهل كلِّ سماء من الملائكة مـا أمرهم بـه من العبادة، ثم خلقَ الأرضَ والجبالَ في يوم الثلاثاء والأربعاء، وخلق ما سواهما من العَالَم في يوم الخميس والجمعة.

= استوى إلى السماء وهي دخان، فسوّاها سبع سمـوات في يومين آخـرين، ثم خلق ما على الأرض في يومين.

هذا مجمل خبر الخلق، واللّه تعالى وحده الذي يعلم تفصيـل مراحله، فنحن نؤمن بـذلك على ما جاء في كتاب اللّه تعالى وسنة رسوله ﷺ.

(١) سورة فصلت، الآية ٩.

(٢) الشعبي: هو عامر بن شراحيل الهمداني الكوفي، مولده في خلافة عمر بن الخـطاب. كان إماما حافظاً فقيهاً متقناً متفنّناً ثبتاً. روى عن كبار الصحابة: عبد اللّه بن عباس وأم المؤمنين عائشة رضي اللّه عنها، وأبي هريرة وعبد اللّه بن عمر وعدي بن حـاتم والمغيرة بن شعبـة، وعمـران بن حصين وجريـر بن عبـد اللّه، وفـاطمـة بنت قيس. وروى عنـه الأعمش، وأبو حنيفة، وكان أكبر شيخ له، وخلق آخرون. قال أحمد العجلي: مرسل الشعبي صحيح، لا يكاد يرسل إلاّ صحيحاً. [تذكرة الحفاظ: للذهبي ج ١/٧٩ ـ ٨٨] توفي رحمه اللّه تعالى سنة أربع ومائة [سير أعلام النبلاء للذهبي أيضاً ج ٤/٢٩٤ ـ ٣١٨].

(٣) سورة فصّلت، الآية ١٢.

والثالث: وهو قولُ آخرين أنَّه خلَقَ السماء دخاناً قبل الأرض ثم فتقَها سبع سمٰوات بعد الأرض، لقول اللّه تعالى: ﴿ثم استوى إلى السَّماءِ وهي دُخَانٌ فقال لها وللأرض ائتِيَا طَوْعاً أو كَرْهاً﴾[1] فيه ثلاثة تأويلات:

أحدُها: أي أعطيا الطاعة في السَّير المقدَّر لكما باختيارٍ أو إجبارٍ. قاله سعيدُ بنُ جُبير[2].

والثاني: أخرجا ما فيكما طَوْعاً أو كَرْهاً.

الثالث: كُوْنا كما أردتُ من شدَّةٍ ولينٍ وحزن وسهلٍ وممتنعٍ وممكن، قالتَا أتينا طائعين كما أردتَ أن نكونَ، وفي قولهما ذلك وجهان:

أحدهما: أنَّ ظهور الطاعة منهما قام مقامَ قولهما.

والثاني: أنَّه خلق فيهما كلاماً نَطَقَ بذلك.

قال أبو النَّضر السكسي: فنطق من الأرض موضع الكعبة، ونطقَ من السماء ما بحِيَالها، فوضعَ اللّهُ فيها حَرَمَهُ.

فصل:

[خلقُ اللّه تعالى لآدم عليه السّلام]

فأما آدم فهو آخر ما خلق اللّه تعالى في يوم الجمعة، خلقه من تراب الأرض[3]،

---

(١) سورة فصّلت، الآية ١١.

(٢) سعيد بن جُبير: أحد الأئمة الأعلام، الحافظ المقرىء المفسِّر الشهيد ـ قتله الحجاج ظلماً ـ روى عن عبد اللّه بن عباس فأكثر، وعن عبد اللّه بن مُغَفَّل، وعائشة أم المؤمنين رضي اللّه تعالى عنها، وعدي بن حاتم وأبي موسى الأشعري، وأبي هريرة وغيرهم. وروى عنه كبار التابعين وأعلامهم. قرأ القرآن على عبد اللّه بن عباس. وكان من العلماء العاملين الذين لا يخافون في اللّه تعالى ظالماً ولا جائراً ولا لائماً، وموقفه أمام الحجاج يدلُّ على عظيم شجاعته وعدم مهابته للظالمين، وكان قتله سنة خمس وتسعين في شعبان، رحمه اللّه تعالى ورضي عنه. [سير أعلام النبلاء ج ٤/ ٣٢١ ـ ٣٤٣].

(٣) قال اللّه تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسانَ من سلالةٍ من طين﴾ [سورة المؤمنون، آية ١٢]، =

ونفخ في أنفه من نسمة الحياة، فهو أَنْفَسُ من كل ذِي حياةٍ.

روى أبو زهر عن أبي موسى قال: قال رسول اللّه ﷺ: (خُلِقَ آدمُ من قبضةٍ قبضَها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض منهم الأحمر والأبيض والأسود، وبين ذلك، والحزن والسهل والخبيث والطيب وبين ذلك)[1]. وفي تسميته بآدم قولان:

أحدهما: أنّه اسم عبراني نُقل إلى العربية[2].

والقول الثاني: أنه اسم عربي وفيه قولان:

أحدهما: أنَّه سُمِّيَ بذلك لأنَّه خُلِقَ من أديم الأرض، وأديمُها وَجْهُهَا[3].

= وأخبر سبحانه أنه: ﴿الذي أحسنَ كلَّ شيءٍ خلقه وبدأ خَلْقَ الإنسانِ من طين﴾ [سورة السجدة، آية ٧]، وقوله سبحانه: ﴿إذْ قال ربُّكَ للملائكة إنّي خالقٌ بشراً من طين﴾ [سورة صّ، آية ٧١]. فهذه الآيات تبيِّن أنَّ الأصل المادِّي في التكوين البشري هو الطين، ومن عناصره الرئيسة تتمثل بذاتها في تركيب الإنسان الجسدي، وتركيب الأحياء أجمعين.
والعلم الحديث بما وصل إليه من تقدم في مجالات العلوم الطبيعية والحيوية والكيميائية ما زال عاجزاً كل العجز عن إدراك كيفية نشوء الحياة من المادَّة «اللاَّحيَّة» وعن سبيل تحوّل الطين إلى مستوى الحياة العضوية المتمثلة في الخليّة الحيّة، وما زال حتى الآن سرُّ الحياة ووجود الخلية الأولى خافياً لا يزعمُ زاعمٌ أنه قد اهتدى إليه، ومع هذا العجز عن الوصول إلى ذلك يخبرنا القرآن العظيم عن مجمل الخلق في قوله سبحانه: ﴿الذي أحسنَ كلَّ شيءٍ خلقه، وبدأ خلقَ الإنسانِ من طين * ثم جعل نَسْلَهُ من سُلاَلةٍ من ماءٍ مهين * ثم سَوّاهُ ونفخَ فيه من روحِهِ﴾ [سورة السجدة، آيات ٧ ـ ٩].

(١) أخرجه الترمذي في سننه ج ٥/٢٠٤ تحقيق أحمد شاكر، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، رقم ٢٩٥٥، والحَزْنُ: الصعب الذي لا يمكن صحبته ولا تلين أخلاقُهُ كالأرض القاسية. وأخرجه أبو داود في سننه ج ٤/٢٢٢، وأحمد في مسنده ج ٤/٤٠٠ ـ ٤٠٦.

(٢) لا يصح القولُ بهذا، لأنَّ تسميته من اللَّه تعالى وليست من سواه حتى تخضع تسميته للغة العربية أو اللغة العبرية. وحين تَسمَّى آدم باسمه هذا لم تكن العربية أو العبرية موجودة قطعاً، وإنّما وجدت اللُّغة بعد الخلق والتسمية، مع العلم أنَّ اللغة العبريّة نشأت متأخرة جداً، فقد تشكلت بعد خروج بني إسرائيل من التيه ودخولهم الأرض المقدسة.

(٣) هذا القول والذي بعده لا اعتبار لهما لأن التسمية كانت من اللَّه تعالى، فلا سبيل إلى تعليل سبب تسميته بهذا الاسم «آدم».

والثاني: أنَّهُ سُمِّيَ بذلك لاشتقاقه من الأدمة، وهي السمرةُ.

فلمّا تكامل خلقُ آدمَ استوحش فخَلَقَ له حوّاء. واختُلِفَ فيما خُلِقَتْ منه على قولين:

أحدهما: أنّه خلقَها من مثلِ ما خلقَ منه آدم، وهذا قول تفرّدَ به ابن بحر.

والقول الثاني: وهو ما عليه الجمهور أنَّه خلقَها من ضلع آدم الأيسر بعد أن ألقى عليه النومَ حتى لم يجد لها مسّاً.

قال ابن عباس: فلذلك تَوَاصَلا، ولذلك سُمّيت امرأة؛ لأنَّها خُلقت من المَرْءِ، وفي تسميتها حواء قولان:

أحدهما: لأنّها خُلِقت من حيٍّ.

والثاني: لأنّها أمُّ كلِّ حيٍّ، فقال آدم لما خُلقتْ منه حواء: هذا الشخص عظمُهُ من عظمي ولحمه من لحْمي فلذلك صار الرجل والمرأة كجسد واحد من شدة الميل وفضل الحُنُوِّ، قال اللّه تعالى: ﴿يا أيُّها النّاسُ اتَّقُوا ربَّكم الّذي خلقكم من نفسٍ واحدةٍ﴾ يعني آدم ﴿وخلقَ منها زَوْجَها﴾[1] يعني حوَّاء، فرُوي عن النبي ﷺ أنه قال: (خُلِقَ الرجلُ من التراب فهمُّهُ في التراب وخُلِقت المرأةُ من الرّجلِ فنهمتُها في الرجل)[2]. واختُلِفَ في الوقت الذي خُلِقَتْ فيه حوّاء على قولين:

أحدهما: أنّها خلقت منه في الجنة بعد أن استوحش من وحدته، وهذا قول

---

(١) سورة النساء، الآية ١.

(٢) الثابت في الصحيح أنَّ المرأة خُلقت من «ضِلَعٍ» كما في صحيح البخاري رقم ٣١٥٣، ولم يرد أنه ضلع آدم صراحة، وإنما هذا من مفهوم العبارة، فليس شيء في الأرض اسمه الضلع، فينصرف الاسم إلى ضلع آدم، لأنَّ اللّه تعالى ذكر أنه خلقها منه، كما في قوله سبحانه: ﴿هو الذي خلقكم من نفسٍ واحدةٍ وجعلَ منها زوجها﴾ [سورة الأعراف، آية ١٨٩]، وقوله سبحانه: ﴿يا أيُّها النَّاسُ اتَّقُوا ربَّكم الذي خلقكم من نفسٍ واحدةٍ وخلقَ منها زوجها﴾ [سورة النساء، آية ١]، وفي سورة الزُّمَر، آية ٦: ﴿خلقكم من نفسٍ واحدةٍ ثم جعلَ منها زوجها﴾ فعلى هذا يحمل الضلع على أنه ضلع آدم عليه السَّلام، والمرأة بفطرتها تحنّ إلى صدر الرجل إشارة إلى أصل خلقها، واللّه تعالى أعلم. =

ابن عباس وابن مسعود.

والقول الثاني: أنها خُلِقتْ من ضلعِهِ قبل دخوله الجنَّة، ثم أُدْخِلَا معاً إليها، وهو أشبه بقول اللَّه تعالى: ﴿وقلنا يا آدمُ اسْكُنْ أنتَ وزوجُك الجنّة وكُلَا منها رَغداً حيثُ شئتُمَا، ولا تَقْرَبَا هذه الشَّجرةَ فتكُونَا مِنَ الظّالمين﴾[1].

قال ابن عباس: خُلق آدم يوم الجمعة[2] وأُدخل الجنة يوم الجمعة، وأُخْرِجَ منها يوم الجمعة، وفيها تقوم الساعة. واختُلِفَ في الجنة التي أُسْكِنَها على قولين:

أحدهما: أنّها جنّةُ الخُلْدِ.

والقول الثاني: أنها جنّة أعدَّها اللَّهُ تعالى لهما دار ابتلاءٍ، وليست جنّةَ الخُلْدِ التي جعلها دارَ جزاء[3]، وفيها على هذا قولان:

= وحديث البخاري في صحيحه رقم ٣١٥٣ عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: (اسْتَوْصَوا بالنّساءِ، فإنّ المرأةَ خُلِقتْ مِنْ ضِلْعٍ، وإنّ أعوج شيءٍ في الضِّلع أعلاه، فإنْ ذهبتَ تقيمُهُ كسرتَهُ، وإن تركتَهُ لم يزَلْ أعوجَ، فاستوصَوُا بالنساءِ). وأعوج ما في المرأة أعلاها: عقلها ولسانها، إلاّ مَنْ رحم اللَّه تعالى. وأمّا هذه الرواية التي ذكرها المؤلف رحمه اللَّه تعالى فلا ذكر لها في كتب السنة المعتبرة بهذا اللفظ، وإنّما جاء قريباً منها في كتاب «الدر المنثور» ج ١١٦/٢ للحافظ السيوطي.

(١) سورة البقرة، الآية ٣٥.

(٢) ففي صحيح مسلم في كتاب «المنافقين» باب ٢٧: «وخَلَقَ آدَمَ بعدَ العصرِ من يومِ الجمعة».

(٣) لا مجال للاجتهاد في معرفة هل الجنّة التي أسكنها اللَّه تعالى لآدم في الأرض أم في السماء، لأنّ الإخبار جاء من اللَّه تعالى عن دخول آدم الجنة والخروج منها بسبب معصيته، هو للاعتبار والاتّعاظ، وأمام هذا لا سَعَةَ للاختلاف في مكان الجنة أو في نوع الشجرة التي أكل منها هو وزوجه.

وقصّة آدم التي ذكرها اللَّه تعالى في القرآن المجيد تتضمن دروساً وعِبَراً لبني آدم في هذه الحياة الدنيا، وذلك أنّ اللَّه تعالى حين أسكن آدمَ الجنّة كان بينه وبين إبليس عداوة بالغة، حيث كان إبليس يسعى إلى إخراج آدم من نعيمٍ أكرمَهُ اللَّه تعالى به، وحقق اللعين ذلك بمكره وخداعه، بعد أن انساق آدم إلى وساوس إبليس، وما زال الإنسان يواجه أخطار وساوس هذا الشيطان لإخراجه من رضوان اللَّه تعالى إلى سخطه، وفي هذا تكمن العبرة والعِظة بقصة آدم عليه السَّلام.

أحدهما: أنَّها في السماء لأنَّه أهبطهما منها.

والقول الثاني: أنها في الأرض لأنَّه امتحنهما فيها بالأمر والنهي.

واختُلف في الشجرة التي نُهِيَا عن أكلها. فقيل: إنّها شجرة الخلد. وقيل: إنَّها شجرة العلم، وفي هذا العلم قولان:

أحدُهما: علم الخير والشر.

والثاني: علم ما لم يُعْلم.

وقيل في الشجرة غير ذلك من الأقاويل. فلما أكلَا منها بدتْ لهما سوآتهما بالمعصية وطَفِقَا يخصِفَان عليهما مِنْ وَرَقِ الجنّة قال اللّه تعالى: ﴿فأزَلَّهُما الشّيطانُ عنها﴾[1]، حين بعثهما على أكل الشجرة ﴿فأخرجهما ممّا كَانَا فيه﴾ وفيه تأويلان:

أحدهما: عمّا كَانَا فيه من الطاعة إلى ما صَارَا إليه من المعصية.

والثاني: عمّا كَانَا فيه من النعيم في الجنَّة إلى ما صَارَا إليه من النكد في الأرض، فحزن آدمُ حينَ أُهبط إلى الأرض وبقي في حُزْنِهِ مائة سنة لا يقرب فيه حوّاء، ثم غشيها فولدتْ له بعد المائة قابيل، ثم غشيها فولدت له هابيل، فقتل هابيلُ قابيلَ، فحزن آدم لذلك حزناً شديداً. وقيل: إنه جعل حزنه جزاءً على معصيته في الأكل، وقد يُصاب الآباء في أولادِهم من أجل معاصيهم. ثم خفَّ حزنُهُ فغشي حوّاء فولدتْ له شيئاً.

وعُلّم آدم الأسماء كلها كما ذكره اللّه تعالى في كتابه[2]، وفيما علمه من

---

(١) سورة البقرة، الآية ٣٦.

(٢) سورة البقرة، الآية ٣١: ﴿وعلَّمَ آدمَ الأسماءَ كلَّها﴾.

قال ابن عباس: علَّمه اللّه تعالى الأسماءَ كلَّها، وهي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس. وقال مجاهد: علَّمه اسمَ كلِّ شيء. وكذلك قال سعيد بن جبير، والحسن البصري وقتادة: علّمه اسمَ كلِّ شيء. قال الربيع بن أنس: وعلّمه أسماءَ الملائكة. وقال ابن زيد: وعلّمه أسماءَ ذرِّيته. [تاريخ الطبري ج ١/٩٧ ـ ٩٩] ط. دار المعارف.

الأسماء قولان:

أحدهما: عِلْمُ النجوم، قاله حميد.

الثاني: أنها أسماء مسماة وفيها أقاويل:

أحدُها: أسماء الملائكة، قاله الربيع بن أنس.

والثاني: أسماء جميع ذرِّيته. قاله عبد الرحمن بن زيد.

والثالث: أسماء جميع الأشياء. وفيه على هذا قولان:

أحدهما: أن تعليمه كان مقصوراً على الأسماء دون معانيها.

والثاني: أنه علَّمه الأسماء ومعانيها لأنَّه لا فائدة في علم الأسماء بلا معانٍ، لأنَّ المعاني هي المقصودة والأسماءُ دلائلُ عليها[1].

فصل:

[الفترة بين آدم وإدريس عليهما السّلام]

ولمّا أُهبطَ آدمُ إلى الأرض، قيل: إنّه أهبط إلى شرقي أرض الهند وحواء بجدَّة وإبليس على ساحل نهر الأُبلة، والحية في البرية[2]، وكانت نبوَّة آدم مقصورةً عليه، وما نزلَ عليه من الوحي متوجهاً إليه، فكان من المصطفين دون المرسلين. واختلف فيه أهل الكتاب هل خلق في ابتدائه قابلاً للموت، أو جعل الموت عقوبةً له على معصيته.

فقال بعضهم: خُلِقَ آدمُ في ابتداء نشأته على الطبيعة الباقية والطبيعة الميتة، ليكون إنْ مَالَ إلى الشهوات الجسمانيّة وآثرَهَا وقع في التغايير الجسمانية وناله

---

(١) ما نقلناه عن الطبري فيما ذكره عن السَّلف في تعليم اللّٰه تعالى آدم الأسماء كفاية عن هذه الاحتمالات، فهي داخلة في مقاصد الأسماء.

(٢) هذا قول أهل التاريخ، واعتمادهم في كثير من هذه الأقوال على نقول أهل الكتاب، وعلمُ ذلك غيرُ مقطوعٍ به ولا ثابت، فاللّٰه تعالى أعلم بذلك.

الموت، وإن آثَرَ فضائلَ النفس الأمّارة بالخير نال البقاءَ الذي سعدتْ به الملائكةُ فلم تمت. فلمّا عَصَى بأكل الشجرة عدل إلى التغايير فنالَهُ الموتُ. واستشهدوا عليه من التوراة بما ذُكِرَ فيها: أنَّك إن أكلتَ من الشجرة يوم تأكل منها فموتاً تموت[1]. فلم يجز أن يتوعده بالموت عند معاقبته، وهو يموت لو لم يعاقب.

وقال آخرون منهم: وهو أشبه بمقتضى العقول أنَّه خُلِقَ في ابتداء إنشائه قابلاً للموت في الدنيا، وإن لم يَعْصِ، لأنَّه أحوجَهُ إلى الغذاء كذرِّيته، وليس شيءٌ من الجواهر التي لا ينالها الموت محتاجةً إلى الغذاء، ولم يجعل الموتَ عقوبةً على المعصية[2]، ولذلك لم يمت من عصَى من الملائكة[3]، وإنَّ في التوراة مكتوباً: أنَّ مَنْ مَدَّ يَدَهُ في الجنَّة إلى شجرةِ الحياةِ وأكلَ منها حيي الدَّهر كلَّه. فدلَّ على أنَّه مطبوع على قبول الموت، ولمَّا خلقَ اللَّه تعالى آدم ابتداءً ولم يخلقه بتوسط طبيعة كما خَلَقَ نسلَه كان على أفضل اعتدال وأكمل عقل، فصار قلبه معدناً للحكمة الإنسانية، وجسدُهُ مهيَّأً للأفعال البشرية فلم يمتنع عليه شيءٌ منها حتى أحاطَ علماً وقدرةً بجميعها، ولذلك علِم الأسماءَ كلَّها وألهم الحكمةَ بأسرها، واطلع على أسرار النجوم وعَمَلِها، وعرفَ منافعَ الحيوان والنَّبات ومضارَّها، ولولا ذلك لَمَا فرّق بين

---

(١) الأَوْلَى ألاّ ينقل مثل هذه الأقاويل لعدم الاعتماد عليها، واستحالة تصديقها، لثبوت وقوع التحريف في التوراة عن زيادة فيها ونقص منها، وتعديل لنصوصها.

(٢) قال اللَّه تبارك وتعالى: ﴿تبارك الذي بيدِهِ المُلْكُ وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ * الذي خلقَ الموتَ والحياةَ ليبلوكم أيُّكُمْ أحسنُ عملاً وهو العزيزُ الغفور﴾ [سورة الملك، آيتان ١ ـ ٢]، والآية الثانية دليلٌ على أنَّ الموت أمرٌ وجودي، لأنَّه مخلوق. وفي تقديم ذكر الموت على الحياة للدّلالة على أنَّ الموت قَدَر اللَّه تعالى على الأحياء، فالإحياء البداية والإماتة النهاية، وكلاهما مخلوق للَّه تعالى، فكما أنَّ الحياة قد خلقها اللَّه سبحانه، كذلك الموت يخلقه سبحانه، فلا محيي إلاّ هو، ولا مميت إلاّ هو سبحانه وتعالى هو المحيي والمميت، ولذلك جاء هذان الفعلان في أشرف صيغة وأكملها على لسان رسول اللَّه ﷺ في تمجيد اللَّه تعالى وتوحيده وتعظيمه: ﴿لا إله إلاّ اللَّه وحدَهُ لا شريكَ له، له المُلْكُ وله الحمدُ، يُحيي ويُميتُ وهو على كل شيءٍ قدير﴾.

(٣) هذا على قول المؤرخين، وليس له دليل نقلي صحيح.

الغذاء والدواء ولا بينَ السموم القاتلة، ولا اهتدى بالنجوم في بَرٍّ ولا بحر، وكان هو المدبر لأولاده مدة حياته حتى مات بعد تسعمائة وثلاثين سنة من عمره، ثم قام بالأمر من بعده شيثُ بنُ آدم[1] فبرع في الحكمة وفاقَ في علم النجوم بما أخذه عن أبيه آدم، وبما استفاده بالتجربة ومرور الزمان.

واختلفَ أهلُ الكتاب في نبوَّة شيث فادَّعَاها بعضُهم، وأنكرَها آخرون منهم. وولد بعد مائتين وثلاثين سنة من عمر أبيه آدم ومات وله تسعمائة واثنتا عشرة سنة، فكان قيامه بالأمر بعد موت آدم مائتين، واثني عشرة سنة.

واتفق أهل الكتاب أنَّه لم يكن بين شيث وإدريس نبيٌّ غير إدريس، ثم قام بالأمر بعد شيث ولده أنوش بن شيث، وكان مولده بعد مائتين وخمسين سنة من عمر شيث، ومات أنوش وله تسعمائة وخمسون سنة فكان قيامه بالأمر بعد شيث مائتين وثماني وثمانين سنة.

ثم قام بالأمر بعد أنوش ولده قينان بن أنوش وولد بعد مائة وتسعين سنة من عمر أنوش ومات قينان، وله تسعمائة وعشرون سنة، فكان قيامه بالأمر بعد أنوش مائة وتسعين سنة.

ثم قام بالأمر بعد قينان ولده مهلاييل وولد بعد ثمانمائة وخمس وسبعين سنة، فكان قيامه بالأمر بعد قينان مائة وعشر سنين.

ثم قام بالأمر بعد مهلاييل ولده يارد بن مهلاييل، وولد بعد مائة وخمس وستين سنة من عمر مهلاييل، ومات يارد وله تسعمائة واثنان وستون سنة، فكان قيامه بالأمر بعد مهلاييل مائتين واثنين وخمسين سنة[2].

---

(١) انظر خبر شيث في تاريخ ابن كثير «البداية» ج١/٩٨، وقد أثبت ابن كثير أن شيثاً عليه السَّلام كان أول نبي بعد أبيه آدم. [انظر «البداية» ج ١/٩٩].

(٢) ليتَ المؤلف رحمه الله تعالى أعرض عن ذكر هذه الأخبار التي لا يستطيع أحدٌ من العلماء =

ثم قام بالأمر بعد يارد ولده أخنوخ بن يارد، وهو إدريس، وولد بعد مائة واثنين وستين سنة من عمر يارد، وهو نبي في قول جميع أهل الملل، واختلف أهل الكتاب هل هذا أول الأنبياء أو ثانيهم، فقال مَنْ زعمَ: أنَّ شيثاً نبي هو ثاني الأنبياء. وقال مَنْ زعم: أنَّ شيثاً ليس بنبيٍّ أنَّ إدريس أَوَّلُ الأنبياء، وهو أوَّلُ من شرَّع الأحكام وأوَّلُ من اتّخَذَ السلاح وجاهد في سبيل اللّه تعالى، وسَبَى وقتلَ بني قابيل، ولبس الثياب وكانوا يلبسون الجلود، وأوَّلُ مَنْ كتبَ الخطَّ في قول الأكثرين، وأوَّلُ من وضعَ الأوزانَ والكُيول، ثم رفعه اللّه تعالى إليه حيّاً بعد سبعمائة وخمس وثمانين سنة من عمره، أقام فيها داعياً وأبوه حيٌّ على ما يقتضيه تاريخ هذه المواليد والأعمار المأخوذة من التوراة المنزَّلة.

قال ابن قتيبة: وسُمّي إدريس لكثرة ما كان يدرس من كتب اللّه تعالى وسُنَنِ الإسلام.

فصل:

[الزمن ما بين إدريس وعيسى عليهما السّلام]

ثم كثر النّاسُ فافترقوا بعد إدريس، وزادوا إلى زمن نوح بن لَمَكٍ بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس[1]، وهو آخر نبي بعث قبل الطوفان على قول من زعم

= التأكد من ثبوتها وصحتها، فكيف حال غيرهم من عامَّة الناس، فإنهم يصدِّقون بها وهي غير ثابتة، فالواجب عدم الاعتماد على ما في أيدي أهل الكتاب، وبالتالي يجب الابتعاد عنها وعدم الانشغال بها.

(١) إدريس عليه السَّلام نبي من أنبياء اللّه تعالى، ذكره سبحانه في سورة مريم، آيتان ٥٦ ـ ٥٧: ﴿واذْكُرْ في الكتابِ إدريسَ إنَّه كان صدّيقاً نبياً * ورفعنَاهُ مكاناً علياً﴾ فوصفه اللّه تعالى بالنبوَّة والصدّيقية. وكان أول بني آدم أعطي النُّبوَّة بعد آدم وشيث. وذكر ابن إسحاق: أنَّه أول مَنْ خطَّ بالقلم، وقد أدرك من حياة أبيه آدم ثلاثمائة سنة وثماني سنين.

قال الحافظ ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿ورفعنَاهُ مكاناً علياً﴾ هو كما ثبت في الصحيحين في حديث الإسراء أنّ رسول اللّه ﷺ مرَّ به ـ وهو في السماء الرابعة ـ. «البداية» لابن كثير ج ١/٩٩.

أنّ شيثاً نبي، ونزلَ الطوفان بعدَ ستمائة سنة من عمره، وأنذرَ قومه فكذَّبُوه، وصنعَ السفينة فسخِرُوا منه[1]، وأمره اللّٰه تعالى أن يصنعها في طول ثلاثمائة ذراع، وعرض خمسين ذراعاً وعلو ثلاثين ذراعاً، وتكون ثلاث طبقات ليركب فيها هو وأهله ويأخذ من كل جنس من الحيوان زوجين ذكراً وأنثى ليكونوا أصولاً لنسلهم، فيحيا بهم العَالَمُ، ثم وعده أن يستمطره بعد سبعة أيام، أربعين يوماً وأربعين ليلة، فلم يبق في الأرض ذو روح إلاّ مَنْ ركبها[2]، وغاض الطوفان بعد مائة وخمسين يوماً فاستوت على الجودي، وهو جبل بأرض الجزيرة شهراً، وسُمِّي الماء طوفاناً لأنَّه طَفَا فوقَ كلِّ شيء.

واختُلف فيما عاش نوح بعد الطوفان فقال الأكثرون: ثلاثمائة وخمسين سنة وهو ظاهر ما نزل به القرآن. وقال آخرون: ستمائة وخمسون سنة، لأنَّه لبث تسعمائة وخمسين سنة داعياً لقومه، وكان له قبلَ دعائه ثلاثمائة سنة. واختُلِفَ فيما بين هبوط آدم من الجنة إلى مجيء الطوفان، فقال اثنان وسبعون حَبْراً من بني إسرائيل نقلوا التوراة إلى اليونانية: بينهما ألفان ومائتان واثنان وأربعون سنة، ثم تبلبلتِ الألْسُنُ بعدَ الطوفان بستمائة وسبعين سنة، فافترق اثنان وسبعون لساناً في اثنتين وسبعين أُمَّة.

قال وهب بن منبِّه: منها في ولد سام بن نوح تسعة عشر لساناً، وفي ولد حام سبعة عشر لساناً، وفي ولد يافث ستة وثلاثون لساناً من تبلبل الألْسُنِ، إلى مولد إبراهيم الخليل عليه السّلام أربعمائة وأحد عشر سنة، ومن مولد إبراهيم إلى موسى

---

(١) قصّة نوح مفصلة في تاريخ الطبري [ج ١/١٨٢]، وتاريخ ابن كثير [ج ١/١٠٠]. واللّٰه سبحانه أمره بصنع السفينة فأوحى إليه: ﴿واصْنَعِ الفُلْكَ بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلمُوا إنَّهم مغرقون﴾ [سورة هود، آية ٣٧]، وكان قومه كلَّما مرُّوا به سخروا منه في صنعه للسفينة فأمره اللّٰه تعالى أن يقول لهم: ﴿إنْ تسخَرُوا مِنَّا فإنَّا نَسْخَرُ منكم كما تسخرون * فسوف تعلمون﴾ [سورة هود، آيتان ٣٨ ـ ٣٩].

(٢) قال اللّٰه تعالى في سورة هود، آية ٤٠: ﴿إذا جاءَ أمرُنَا وفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فيها من كلٍّ زوجينِ اثنينِ وأهلَكَ إلاّ مَنْ سَبَقَ عليه القولُ ومَنْ آمَنَ وما آمَنَ معه إلاّ قليلٌ﴾، قيل: وكانوا عشرة. واللّٰه تعالى أعلم. [تاريخ الطبري ج ١/١٨٣ ـ ١٨٨].

ابن عمران عليه السّلام أربعمائة وخمس وعشرون سنة. وأخرج بني إسرائيل من مصر بعد ثمانين سنة، ودبَّرَ أمرهم أربعين سنة، ومات وله مائة وعشرون سنة، فصار من هبوط آدم إلى وفاة موسى ثلاثة آلاف وثمانمائة وثماني وستين سنة.

وقال آخرون من بني إسرائيل المقيمين على التوراة العبرانية التي يتداولها جمهورُ اليهود في وقتنا: إنَّ من هبوط آدم من الجنة إلى مجيء الطوفان ألفاً وستمائة وستاً وخمسين سنة، ومن انقضاء الطوفان إلى تبلبل الألْسُنِ مائة وإحدى وثلاثين سنة، ومن تبلبل الألْسُن إلى مولد إبراهيم مائة وإحدى وستين سنة، ومن مولد إبراهيم إلى وفاة موسى خمسمائة وخمساً وأربعين سنة، فصار من هبوط آدم إلى وفاة موسى ألفين وأربعمائة وثلاثاً وتسعين سنة.

وقالت السامرة من اليهود عن تاريخ توراتهم: إنَّ من هبوط آدم من الجنة إلى مجيء الطوفان ألفاً وثلثمائة وسبعاً وستين سنة، ومن الطوفان إلى تبلبل الألْسُن خمسمائة وستاً وعشرين سنة، ومن تبلبل الألسن إلى مولد إبراهيم أربعمائة وإحدى عشرة سنة، ومن مولد إبراهيم إلى وفاة موسى خمسمائة وإحدى وأربعين سنة، فصار من هبوط آدم إلى وفاة موسى ألفين وثمانمائة وتسعاً وأربعين سنة[1].

وأول نبي بعد نوح إبراهيم[2]، وهو أول من قصَّ شاربه واستحدَّ واختتن وقلَّم أظفاره واستاكَ وتمضمض واستنشق واستنجى بالماء، وأول من أضاف الضيف

---

(١) جميع هذه التقديرات لا تثبت بنقل صحيح، وهي منقولة عن أهل الكتاب، ونُقُولهم لا يُوثَقُ بها، فاللّه تعالى أعلم بحقائق الأمور، وذكر هذه الأخبار لا ينفع كما أن الجهل بها لا يضر. فعدم ذكر هذا أولى، لأنه لو كان لنا فيه كبير نفع لأعلمنا اللّه تعالى به على لسان رسوله ﷺ.

(٢) إبراهيم عليه السَّلام من أهل بابل، وكان النمرود في السنة التي ولد فيها إبراهيم قد أمر بذبح جميع من ولد فيها من الذكور، فولدته أمه في المغارة وأخفته. فلمّا بلغ الفتوّة أخذ ينظر ويُفكر في خلق السموات والأرض، فزعم حين رأى كوكباً فقال: ﴿هذا ربّي﴾ ثم أتبعه النظر والفكر ﴿فلمّا أفلَ قال لا أحب الآفلين﴾ ثم قال عن القمر حين رآه بازغاً: ﴿هذا ربّي﴾ ثم أتبعه النظر والفكر ﴿فلمّا أفلَ قال لئن لم يهدني ربّي لأكونَنّ من القوم الضالين﴾ ثم قال عن =

وأطعم المساكين وثَرَدَ الثريد. وكان داعياً إلى عبادة اللّه تعالى وتوحيده.

ثم ولده إسحاق بن إبراهيم، ولد له عيصو ويعقوب توأمين في بطن واحد، فخرج عيصو ثم خرج بعده يعقوب ويده عالقة على عَقِبِهِ فسُمِّي يعقوب.

فعيصو أبو الروم، وكان أصفر اللون فلذلك سُمّيت الروم بني الأصفر. ويعقوب هو إسرائيل أبو الأسباط.

وأيوب بن بولص كان أبوه ممن آمن بإبراهيم يوم أُحرق وكان في زمن يعقوب، وكان صهره، زوَّجه يعقوب بنته ليا وهي التي ضربها بالضِّغْث.

وأول نبي من بني إسرائيل موسى وآخرهم عيسى، وكانت نبوَّة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ومن بعده من ولده قبل موسى مقصورة على أنفسهم، حتى دعا موسى إلى نبوَّته بني إسرائيل، ومن وفاة موسى إلى ملك بختنصر تسعمائة وثمان وسبعون سنة، وإلى ملك الإسكندر ألف وأربعمائة وثلاث عشرة سنة، وولد عيسى ليلة الأربعاء الخامس والعشرين من كانون الأول لسبعمائة وتسع وثلاثين سنة من ملك بختنصر، ولثلاثمائة وأربع سنين من ملك الإسكندر.

ومن ملك بختنصر إلى ابتداء الهجرة ألف وثلثمائة وتسع وستون سنة، ومن ملك الإسكندر إلى ابتداء الهجرة ألفان وثلثمائة وسبع وأربعون سنة فكان بين موت موسى وابتداء الهجرة ألفان وثلثمائة وسبع وأربعون سنة، ومولد عيسى بعد ألف

= الشمس: ﴿هذا ربِّي هذا أكبر، فلمَّا أَفَلَتْ قال يا قوم إني بريءٌ ممَّا تشركون * إنِّي وجهتُ وجهِيَ للّذي فطَرَ السمٰواتِ والأرضَ حنيفاً وما أنا من المشركين﴾ [سورة الأنعام، آيات ٧٦ - ٧٩]. ثم أخذ يجادل قومه في الأرباب والأصنام التي كانوا يعبدونها، ثم خلا بأصنامهم فكسرها وكان من أمرهم ما كان من السعي لإحراقه، فأنجاه اللّه تعالى من النار، ثم هاجر إلى بلاد الشام، ثم إلى بلاد الحجاز، وأمره اللّه تعالى ببناء الكعبة المشرفة وعلمه مناسك الحج. [انظر قصة إبراهيم عليه السَّلام في تاريخ الطبري ج ١/٢٣٣ إلى ٣٢١، وتاريخ ابن كثير ج ١/١٣٩ - ١٨٣].

وسبعمائة وسبع عشرة سنة من موت موسى. وقيل: بعد ستمائة وثلاثين سنة من ابتداء الهجرة.

فصل:

[عمر الدنيا وقيام الساعة]

فإذا تقرر ما ذكرناه من مدَّة الدنيا أنَّها مقدرة في الكتب الإلّهية بسبعة آلاف سنة[1]، كان الماضي منها إلى ابتداء الهجرة محمولاً على ما قدمناه من اختلاف أهل التوراة، فيكون على القول الأول المأخوذ عن الأحبار الناقلين لها إلى اليونانية ستة آلاف ومائتين وست عشرة سنة، والباقي من عمر الدنيا على قولهم بعد الهجرة سبعمائة وأربعاً وثمانين سنة وهو موافق لقول رسول اللَّه ﷺ: (الدّنيا سبعةُ آلافِ سنة، بُعِثتُ في آخرها ألفاً)[2] ويكون الماضي منها على القول الثاني المأخوذ عن التوراة العبرانية أربعة آلاف وثمانمائة وإحدى وأربعين سنة، والباقي من عمر الدنيا على هذا القول بعد الهجرة ألفين ومائة وتسعاً وخمسين سنة. وقيل: إنهم قالوا ذلك ليكون رسول اللَّه ﷺ في خامسها ألفاً فيدفعون بنقصان التاريخ عن صفته في التوراة أنه مبعوث في آخر الزمان، ويكون الماضي على القول الثالث في توراة السامرة خمسة آلاف ومائة وسبعاً وثلاثين سنة، والباقي من عمر الدنيا على هذا القول بعد الهجرة ألفاً وثمانمائة وثلاثاً وثلاثين سنة ليكون الرسول في سادسها ألفاً لِما قيل من سِنِيّهِ.

---

(١) سبق أن أوضحنا عدم ثبوت الأخبار التي تحدّد عمر الدنيا بسبعة آلاف سنة، وأنه لا يصح الاعتماد عليه قطعاً، لعدم الثقة بما في كتب أهل الكتاب، فإنهم حرَّفوا وزيَّفوا وزادوا وأنقصوا.

(٢) حديث موضوع، تقدم الكلام عليه في التعليق على أول الباب الخامس من هذا الكتاب، فارجع إليه، فإنَّه هام في إبطال هذه المزاعم التي نقلها المؤلف عن أهل الكتاب، وعن الكذابين الذين وضعوا أحاديث توافق ما في أيدي أهل الكتاب ونسبوها إلى النبي ﷺ زوراً وبهتاناً. [انظر التعليق رقم ١ و ٢ و ٣ من ص ٥٢].

والسامرةُ قومٌ ناقلة من بلاد المشرق سموا بذلك لأن تفسيره بالعربية الحفظة، وهم لا يقبلون من كتب الأنبياء إلّا التوراة وحدها. والأول لأجل قول الرسول بالأشبه وإن كان قيام الساعة وانقراض مدة الدنيا وقيام العالم على هذا التاريخ الذي أثبتوه والتقدير الذي حققوه مدفوعاً عندنا بقول الله تعالى: ﴿إنّ اللَّهَ عندَهُ عِلْمُ السّاعة﴾[1]، وفيه تأويلان:

أحدهما: أنّ قيامها مختص بعلمه فامتنع أن يشاركه في علمها أحدٌ من خلقه.

والثاني: أنّ قيامها موقوف على إرادته فامتنع أن يُوْقَفَ على غير إرادته.

وقال تعالى: ﴿هل ينظرون إلاّ السّاعة أنّ تأتيَهُمْ بَغْتَةً﴾[2] يعني فجأة، والبغتة غير معلومة فامتنع أن تكون عندهم معلومة، ثم قال: ﴿فقدْ جاءَ أشْراطُها﴾[3]، فيه وجهان:

أحدهما: نبوة محمد ﷺ وهذا يدل على أنه مبعوث في آخرها ألفاً.

والثاني: أن أشراطها الآيات المنذِرَة بها كما قال: ﴿وما نُرْسِلُ بالآياتِ إلاّ تخويفاً﴾[4] فلا تقوم الساعة إلاّ بعد أن ينذر اللَّه تعالى بآياتها.

روى سفيان بن عُيينة، عن فرار، عن أبي الطفيل، عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: أشرف علينا رسول اللَّه ﷺ من علية ونحنُ نتذاكر أمْرَ الساعة، قال: (ما كُنْتُمْ تَذَاكرون)؟

---

(١) سورة لقمان، الآية ٣٤.

(٢) سورة الزخرف، الآية ٦٦.

وقد ثبت بالنصوص القاطعة من الكتاب والسنة أنّ علم السّاعة لا يعلمه إلاّ اللَّه تعالى وحده. ولقد جعل اللَّه تعالى لقرب السّاعة علاماتٍ وأشراطاً، فإن وقعت فإن قيام السّاعة قريب. وقد جمع الحافظ ابن كثير كتابه «النهاية» لهذا الشأن، فذكر في كتابه هذه الآيات والأحاديثَ في أمر السّاعة وأشراطها وعلاماتها، فهو كتاب فريد في نوعه، يلزم الاعتماد عليه في هذا الخصوص.

(٣) سورة محمد، الآية ١٨.

(٤) سورة الإسراء، الآية ٥٩.

قلنا: قيام الساعة.

قال: (إنَّ السَّاعةَ لنْ تقومَ حتى يكونَ قبلَها عشرُ آياتٍ، ـ قال: لا يدري بأيِّهنَّ بدأ ـ طلوع الشمس من مغربها والدجال والدخان ودابة الأرض، ونزول عيسى ابن مريم، وخروج يأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسفٌ بالمشرقِ وخسفٌ بالمغربِ وخسفٌ بجزيرة العرب، وآخر ذلك نارٌ تخرجُ من قِبَلِ اليمن أو من عَدَن تطردُ النَّاسَ إلى محشرهم)[1].

وروى برد عن مكحول عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (يخرج الدجال في الثمانين فإن لم يخرج ففي ثمانين ومائتين، فإن لم يخرج ففي ثلاثمائة وثمانين، فإن لم يخرج ففي أربعمائة وثمانين)[2].

وروى معاذ بن جبل أنَّ النبيَّ ﷺ ذكر الدجال فقال: (يُقيم فيكم أربعين سنة أول سنة كالشهر ثم الثانية كالجمعة ثم الثالثة كاليوم وسائر سنيه كالساعة حتى ينزل عيسى ابن مريم فيُوجِرُهُ بالحربةِ فيذوب كما يذوب الرصاص)[3]. وفي هذا دليل على تقدم يأجوج ومأجوج ....

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج ٤/٦ ـ ٧، والحافظ ابن كثير في «النهاية» ج ١ ص ٤٢ ط. دار الكتب العلمية ـ بيروت، واللفظ عند الإمام: (ما تذكرون)؟ قالوا: نذكر السَّاعة، فقال: (إنّها لن تقومَ حتى ترون عشرَ آيات: الدّخان والدّجّال والدّابة وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاث خسوف: خسفٌ بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من قبلُ تطردُ النَّاسَ إلى محشرِهم). قال أبو عبد الرحمن: سقط كلمة [لعلّها التي في رواية ابن كثير: (وآخر ذلك نارٌ تخرج من قِبَلِ المشرق، تسوقُ الناسَ إلى محشرهم)].
وأخرج هذا الحديث بألفاظ متقاربة: مسلم في صحيحه ج ١٧٨/٨، وأبو داود ج ١١٤/٤، والترمذي ج ٤٧٧/٤، وابن ماجه ج ١٣٤٧/٢.

(٢) هذا اللفظ لم أجد له أصلاً في كتب الحديث المعتبرة.

(٣) هذه الرواية خلاف ما ثبت عن رسول الله ﷺ: (أنّ إقامته أربعون يوماً، يومٌ كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم) انظر صحيح مسلم ج ١٩٧/٨، ومسند أحمد ج ٢١٦/٤ ـ ٢١٧.

الدجال[1]، وآخرها الذي تقوم به السَّاعة ظهور النَّار. واللَّه أعلم بمن استأثر بغيبه ثم من أطلعه عليه من رُسُلِهِ.

فصل:

[الأنبياء بين موسى وعيسى عليهما السّلام]

وبين موسى وعيسى عليهما السّلام من الأنبياء: شَعْيَا وهو الذي بشَّرَ بني إسرائيل بنبوَّة محمد ﷺ ووصفه بعد أن بشَّرَ بعيسى فقتله بنو إسرائيل.

ثم حزقيل وهو الذي أصابَ قومَهُ الطاعونُ فخرجُوا من ديارهم حذر الموت فأَمَاتَهُمُ اللَّهُ ثم أحياهم.

ومنهم: دانيال سَبَاهُ بختنصر مع العُزَيْر ونزل من بختنصر أفضل منزل لرؤيا عبرها له، وقبره بناحية السوس، وَجَدَهُ أبو موسى الأشعري فأخرجه وكفَّنَهُ وصلّى عليه ودفنَهُ.

ومنهم: إلياس بعث إلى أهل بعلبك وكانوا يعبدون صنماً يقال له بعل، وكان ملكهم اسمه أجب وامرأته أزبيل وكان يستخلفها على ملكه، وهي بنت ملك سبأ وعمرتْ عمراً طويلاً، وتزوجها سبعة من ملوك بني إسرائيل وهي التي قتلت يحيى بن زكريا عليهما السّلام ثم رفع اللَّه تعالى إلياس.

ثم أليسع، كان تلميذ إلياس فدعا له إلياس فنبَّأه اللَّه بعده.

ثم يونس بن متى.

ثم زكريا قتله بنو إسرائيل في الشجرة.

ثم عيسى ويحيى. فأمّا يحيى فإن أجب الملك قتله بحيلة امرأته أزبيل. وأمّا

---

(١) ليس ظهور «يأجوج ومأجوج قبل الدّجّال» بل ظهور الدجال أولاً، ثم نزول عيسى بن مريم، ويقتله، ثم يظهر يأجوج ومأجوج في عهد عيسى عليه السَّلام. انظر «النهاية» لابن كثير ص ٩٦ ـ ١٠٢.

عيسى فإنَّ أمَّهُ هربت به من أجب الملك إلى مصر وعاد به يوسفُ النجار مع أمِّه إلى قرية تدعى ناصرة فلذلك قيل لأصحابه نصارى لأنَّهم سموه عيسى النَّاصري.

وأصحاب الكهف[1]، هم فتية من الروم دخلوا الكهف قبل المسيح عيسى، وضرب اللَّه على آذانهم فيه، فلما بعث المسيح أخبر بخبرهم ثم بعثهم اللَّه تعالى بعد المسيح في الفترة بينه وبين النبي ﷺ.

وجرجيس من أهل فلسطين أدرك بعض الحواريين وبُعث إلى ملك الموصل.

فأمّا لقمان[2] فكان عبداً حبشياً لرجل من بني إسرائيل، وكان في زمن داود، واسم أبيه ثاران، واختلف في نبوته، فزعم الأكثرون أنَّه لم يكن نبيّاً. وقال سعيد بن المسيب: كان نبياً وكان خياطاً.

وذو الكفل[3] من بني إسرائيل بعث إلى ملك كان فيهم يُقال له كنعان دعاه إلى الإيمان، وكفل له الجنَّة وكتب له كتاباً، وسُمّي ذا الكفل لذلك.

وذكر وهب بن منبه أن الأنبياء كلهم مائة ألف نبيّ وأربعة وعشرون ألف نبيٍّ، الرسل منهم ثلاثمائة نبيٍّ وخمسة عشر نبيّاً.

منهم خمسة عبرانيون: آدم وشيث وإدريس ونوح وإبراهيم[4]، وخمسة من

---

(١) أصحاب الكهف هم من قوم يعبدون الأصنام، فنظروا بعين البصيرة فكشف اللَّه عن قلوبهم حجاب الغفلة، وألهمهم رشدهم، فعلموا أنّ قومهم ليسوا على شيء، فخرجوا عن دينهم، وانتَمُوا إلى عبادة اللَّه وحده لا شريك له. ويُقال: إنَّ كلَّ واحدٍ لمَّا أوقع اللَّه في نفسه ما هداه إليه من التوحيد انحاز عن النّاس، واتفق اجتماع هؤلاء الفتية في مكان واحد. [انظر تفصيل خبرهم في كتاب البداية للحافظ ابن كثيرج ٢/١١٣ ـ ١١٧].

(٢) انظر تفصيل خبر لقمان في كتاب البداية للحافظ ابن كثيرج ٢/١٢٣ ـ ١٢٩.

(٣) انظر تفصيل خبر ذي الكفل في كتاب البداية للحافظ ابن كثيرج ١/٢٢٥ ـ ٢٢٦.

(٤) دعوى أنَّ هؤلاء من العبرانيين لا تبت ولا تصح، فلفظ: «العبري» مرتبط ببني إسرائيل، ولا يُعقل أن يكون الأنبياء والرسل الذين تقدموهم بقرون أن يكونوا منهم، وقد نفى اللَّه تعالى عن إبراهيم أن يكون يهودياً كما في سورة البقرة، آية ١٤٠، وسورة آل عمران، آية ٦٧.

العرب: هود وصالح وإسماعيل وشعيب ومحمد ﷺ.

وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: بعث اللَّه إلى أهل الرَّس، والرَّس البئر، نبياً منهم يقال له حنظلة بن صفوان[1] فكذبوه وقتلوه، فأوحى اللَّه تعالى إلى نبيٍّ كان مع بختنصر يُقال له: أرميا بن برخيا: مُرْ بختنصر يغزو العرب الذين لا أغلاق لبيوتهم فيقتلهم بما صنعوا بنبيِّهم. وخالد بن سنان روى أنّ رسول اللَّه ﷺ قال: (ذاك نبيٌّ أضاعَهُ قومُهُ)[2] وذلك أنه قال لقومه: ادْفُنُوني فإذا جاءت الظباء بعد ثلاث فأخرجوني فسأنبئكم بما أُمرت، فجاءت الظباء إلى قبره بعد ثلاث فلم يخرجوه، وقالوا: تتحدَّثُ العرب عنّا أنّا نبشنا موتانا، وأتتْ بنتُهُ رسولَ اللَّه ﷺ فسمعتْهُ يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[3] فقالت: قد كان أبي يقرأ هذا. ولا يضبط ذكر من سلف من الأنبياء، وقول اللَّه تعالى لنبيّه ﷺ: (منهم مَنْ قَصَصْنَا عليكَ ومنهم مَنْ لم نَقْصُصْ﴾[4].

---

(١) خبره في كتاب «البداية» للحافظ ابن كثير ج ١/٢٢٧.

(٢) هذا حديث لا يصح، أخرجه الحاكم في المستدرك ج ٢/٥٩٨ ـ ٥٩٩، والهيثمي في «مجمع الزوائد» ج ٨/٢١٤، وضعفه. انظر الأحاديث الضعيفة للشيخ محمد ناصر الدين الألباني ج ١/٢٩٨ رقم ٢٨١.

(٣) سورة الإخلاص، الآية ١.

(٤) سورة غافر، الآية ٧٨.

الباب السادس

في إثبات نبوة محمد ﷺ[1]

الكلام في إثبات نبوَّته يتقرر مع المعترفين ببعثة الرسل، لأنَّ منكريها يعمُّون الجميع بها، ويدفعون كلَّ مُدَّعٍ لها، والكلام معهم قد قدَّمناه في إثبات النّبوّات على العموم.

فأمّا نبوَّة محمد ﷺ فقد اختلف فيها مخالفُوه من مثبتي النّبوّات على أقوال شتى. فمنعتِ اليهودُ من نبوَّته[2]، لامتناعهم من نسخ الشرع، واختلفوا في المانع من نسخه، فمنع منه بعضُهم بالعقل، لأنَّ نَهْيَ اللَّه تعالى عمّا أمرَ به وأمْرَهُ بما نهى عنه إنَّما يكون لخفاء المصلحة عليه في الابتداء، وظهورها له في الانتهاء،

---

(١) ثبتت نبوّة محمّد ﷺ بالدلائل القاطعة والحجج السّاطعة والبراهين النّاصعة، وهي تكاد لا تعدُّ ولا تحصى إلا بجمع كلِّ ما جاء به ﷺ، وما كان عليه من الخلق العظيم، والسيرة الكريمة النّاصعة، فدلائل صدق نبوّته ﷺ تثبتُ بكل صفة من صفاته ﷺ، وبكل حالٍ من أحواله، وبكل آية من قرآنه، وبكل حديث من أحاديثه، فليس في حياته الطاهرة إلاّ ما يُثْبِتُ نبوَّته، وليس في أخلاقه الكريمة وسيرته العطرة إلاّ ما يدلُّ على صدقه، وليس في كلامه ﷺ إلاّ ما يثبت نورَ النُّبوَّة، وليس في دعوته إلاّ ما يُثبت صحة الرسالة التي أرسله اللَّه تعالى بها.

(٢) لا يُنظر إلى اليهود في دعوى نفيهم وتكذيبهم نبوَّة رسول اللَّه ﷺ، فإنهم قوم بُهت أفّاكون دجّالون كافرون منكرون للحقائق، أثبت ذلك تاريخهم، وأحبارهم الذين هداهم اللَّه تعالى إلى الاعتراف بالنُّبوَّة والرِّسالة، وعلى رأسهم «الحبر العظيم» عبد اللَّه بن سلام رضي اللَّه تعالى عنه. انظر خبر إسلامه في «موسوعة عظماء حول الرسول» ج ١٢١٣/٢ - ١٢٢٠، ط. دار النفائس ـ بيروت.

واللَّه تعالى عالم بها في الحالتين لتباين الضِّدين، ومنعَ منه بعضُهم بالشرع وإن جوَّزُوهُ في العقل بما نقلوه عن موسى عليه السّلام، وذكروه في التوراة أنَّه قال: تمسَّكُوا بالسَّبت أبداً سُنَّة الدَّهر. وكلا الوجهين فاسدٌ من وجهين:

أحدُهما: أنَّ العقل لا يمنع من الأمر بالشيء في زمانٍ والنهي عنه في غيره، بحسب المصلحة في قول من اعتبرها أو بالإرادة في قول من اعتمدها، ولا يكون مستقبحاً من فعل حكيم كما يغني من أفقرَ ويفقر مَنْ أغنَى، إمَّا للمصلحة أو بالإرادة ولا يكون ذلك منه لاستبهام المصلحة وإشكال الإرادة.

والثاني: أنّ موسى قد نسخَ شرعَ مَنْ تقدَّمه، لأنَّ آدم زوَّج بنيه بناته، وجوَّزَ يعقوبُ الجمعَ بين الأختين، ونكح إبراهيم بنت أخيه، وكل هذا عند موسى منسوخٌ بشرعه، فجاز أن يُنسَخَ شرعُهُ بشرعِ غيرِهِ.

وقال آخرون: محمد ﷺ نبيٌّ مبعوثٌ إلى قومه من العرب وليس بنبيٍّ لغيرهم، وهذا فاسدٌ من وجهين:

أحدُهما: أنَّه تخصيص بغير دليل.

والثاني: أنَّ ثبوت نبوَّته في قومه موجب لصدقه. وقد قال: إنَّه بُعِثَ إلى كافَّة الخلق، وأنَّه خاتم الأنبياء، فلم يجزْ رَدُّ قوله مع ثبوتِ صدقِهِ.

وقال آخرون: هو نبيٌّ مبعوثٌ إلى مَنْ لم يتمسَّك بشرعٍ مِنْ عَبَدةِ الأوثان، وليس بمبعوثٍ إلى مَنْ تمسَّك بشرعٍ من اليهود والنّصارى[1]. وهذا فاسد من وجهين مع الوجهين المتقدمين:

---

(١) لقد أقام اللَّه تبارك وتعالى الحجة القاطعة في إرساله محمداً ﷺ إلى النّاس كافَّةً كما في قوله سبحانه: ﴿وما أرسلنَاكَ إلاّ كافَّةً للنّاس بشيراً ونذيراً﴾ [سورة سبأ، آية ٢٨]، وقوله تعالى في سورة النساء، آية ٧٩: ﴿وأرسلناك للنّاسِ رسولاً وكفَى باللَّه شهيداً﴾. ولفظ «النّاس» لا يخص ناساً دونَ ناسٍ، وإنَّما يعم الجميع من دون اعتبارٍ لأيِّ تمييز يتميَّز به الناس فيما بينهم، فالنّاس: هم العرب والعجم، والأسود والأبيض، ولفظ «كافَّة» أي كلّهم جميعاً.

أحدُهما: أنَّه يُدْفَعُ به عن نسخِ الشرعِ، وقد دلَّلنا على جوازِهِ.

والثاني: أنَّ من اعترفَ بالنّبوّاتِ كان ألزم له ممَّن جحدها[1].

وقال آخرون: ليس بنبيٍّ لأنه لم يأتِ بمعجزة قاهرة يُضطرُّ إلى صدقه كمعجزة موسى وعيسى[2]، وإن جازَ نسخُ الشرائع بمثلها من الشرائع، وفي هذا يتعيَّن إقامة الدليل على إثبات نبوَّته، وهو معتبر بثلاثة شروط:

أحدُها: وصف المستدل.

والثاني: حكم المدلول عليه.

والثالث: صفة الدليل.

فأمّا الشرط الأول: في صفة المستدل فقد اختُلِفَ فيه، فذكر الجاحظ أنَّه العقل، لأنَّه المميِّز للحقِّ، وقال الأكثرون: المستدل هو العاقل، والعقل آلة استدلاله ليتوصَّل به إلى صحة مدلوله.

وأمّا الشرط الثاني: ففي حكم المدلول عليه، فعند فريقٍ أنَّه إثباتُ نبوَّتِهِ ليعلم بها صدق قوله. وعند الأكثرين أنَّه إثبات صدقه ليعلم بقوله صحةُ نبوَّتِهِ.

وأمّا الشرط الثالث: وهو الدليل فحجاج يتنوَّع أنواعاً لأنَّ المستدل واحد والمدلول عليه واحد، والدليل يشتمل على أعدادٍ متنوِّعة وشواهدَ مختلفة، فرَّق اللَّه تعالى بينهما لتكونَ الحججُ متغايرة، والبراهين متناظرة بحسب ما علمه من المصلحة، ورآه من أسباب الإجابة، كما قال تعالى: ﴿وكَذلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ﴾[3]

---

(١) من عادة المتكلمين أنَّهم يذكرون الشّبهات لدى أهل الباطل في كتب العقيدة ثم يذكرون عليها الردود، وكثيراً ما تأتي الرّدود هزيلةً ضعيفةً أمام فُحْش الشُّبهة، ويا ليتَهُمْ ردُّوا على أصحابها بآيات اللَّه تعالى؛ لكانوا دَحَضُوا الباطلَ بالحقِّ، ولكنَّهم يذكرون حججهم الكلامية التي لا تغني عن آيات اللَّه تعالى شيئاً.

(٢) هذا الكلام من أسخف كلام الكفر والجحود والإنكار والمكابرة، يجب إسقاطه وعدم اعتباره.

(٣) سورة الأنعام، الآية ١٠٥.

أي نخالفُ بينهما في المعجزات، فكان بعضُها حجةً قاطعةً، وبعضُها أمارةً لائحةً تجري عليها أحكام ما قَارَبَها، فَتَقْوَى بعدَ الضعف، وتُحِجُّ بعدَ الكشف وإن لم تكنْ للإنذار بانفرادها من قواطع الحجج المغنية عن دليل، فهـذا القول في نبـوَّةِ غيرهِ، فلا يلزم تطابقُ حججهم كما لم يلزمْ اتفاقُ شرائعهم[1]. وقد قدَّمنا أقسامَ المعجزاتِ فإذا ظهرتْ إحداهُنَّ حجَّتْ ودلَّتْ على صحة النُّبوَّة.

وقد ظهر في نبوَّة محمد ﷺ أكثرُها مع ما تقدَّمها من إنذار، وظهرَ بها من آثار وتحقق بهـا من أخبار، فصـارتْ أعمَّ النّبوّات إعجـازاً وأوضحها طـريقةً وامتيـازاً، وأكثرُها تأييداً إلَهيّاً، وتعبُّداً شرعياً، تُقْهِرُ شَوَاهدُها مَنْ بَايَنَ وعَانَدَ، وتُحِجُّ دلائِلُها مَنْ ناكَرَ وجاحَدَ، لأنَّ المهيَّأ من مطبوع على آلته ومنفاد إلى غايته حتى يتدرَّج إليه بغير تكلُّف، ويستقرُّ فيه بغير تصنُّع، فلا يشتبه من تعاطَاهُ بمن طُبِعَ له فصحَّ التَّطبع بشيمة المطبوع، ولم تزلْ أمارات النُّبوَّة لائحة في رسول اللَّه ﷺ حين تدرَّج إليها وهو غافلٌ عنها، وغيرُ متصنِّعٍ لها، فنهضَ بأعبائها حينَ أَتَتْهُ، وقام بحقوقهـا حينَ لزمتْـهُ، غيرُ ذاهلٍ فيها ولا عاجزٍ عنها، إلى أنْ تكامَلَ به الشَّرعُ، فتمَّ على أصل مستقـر وقياس مستمر لا يدفعه عقلٌ ولا يأبَاهُ قلبٌ ولا تنفر منه نفس، وهذا وهو أُمّيٌّ لم يقرأ كتاباً،

---

(١) هذا الأسلوب الكلامي الذي اعتمده المؤلف في إبطال كلام منكـري رسالـة رسول اللَّه ﷺ لا ينكأ عدوّاً ولا يدحض باطلاً، فلا للكفر قمع، ولا للحقِّ نفع، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللَّه تعالى في أهل الكلام: «لمّا تكلَّموا في إثبات النُّبوَّة صاروا يُوردُون عليها أسئلةً في غاية القوّة والظهور [كما يتراءى لهم] ولا يُجيبُون عليها إلاّ بأجوبة ضعيفة [كما فعل المصنف هنا] فصار طالبُ العلمِ والإيمانِ والهُدَى مِنْ عندِهم ـ لا سيما إذا اعتقدَ أنَّهم أنصار الإسلام ونُظّاره، والقائمون ببراهينِهِ وأدلته ـ إذا عرف حقيقة مـا عندَهم لم يجـد ما ذكـروه يدلُّ على ثبوت نبوَّة الأنبياء، بل وجدَهُ يقدحُ في الأنبياء، ويُورث الشَّـكَّ فيها أو الـطعن، وأنَّها حجة تقدح في الأنبياء، وتورث الشَّكَّ فيها والطعن فيها، وأنها حجة لمكذِّب الأنبياء، أعظم ممّا هي حجة لمصدِّق الأنبياء، فانسدَّ طريقُ الإيمان والعلم [بالأسلوب الكلامي] وانفتح طريق النفـاق والجهـل.. ويظنّ الـظَّانُّ أنَّـه ليس في الأمـر على نبـوَّة الأنبيـاء بـراهين قـطعية» النُّبـوَّات/٣٨٣، ط. دار الكتاب العـربي ـ بيروت. وفي هـذا دلالـة واضحـة على ضعف الأسلوب الكلامي في إثبات النّبوّات.

ولا اكتَسَبَ علماً، فأوضح كلَّ ملتَبَسٍ وبيَّنَ كلَّ مُشْتَبَهٍ، حتى رجع كثير من المِلل إلى شريعته في علم ما قصروا عنه من حقوقٍ وعقودٍ استوعب أقسامها وبيَّنَ أحكامَها، وما ذاك إلّا بعونٍ إلَهيٍّ، وتأييدٍ لَاهُوتيّ[1]، وحسبُكَ بهذا شاهداً لو اقتصرنَا عليه، وحِجَاجاً لو اكتفينَا بهِ، ولكن سنذكرُ من معجزاتِهِ الفاخِرَةِ وبراهينهِ الوَاضحةِ ما يَرُدُّ كلَّ جاحدٍ ويصدُّ كلَّ معانـدٍ من أنواعٍ متغـايرة، وأخبـار متواتـرةٍ، وآثارٍ متـظاهرةٍ، يُصدِّقُ بعضُها بعضاً؛ ليكونَ تغايرُها جامعاً لكلِّ برهانٍ وتظاهرُها دافعاً لكلِّ بُهْتانٍ، فمنها ما تقدَّمه من نذيرٍ وبشيرٍ، ومنها ما تعقَّبه من تغيير وتأثيـر، ومنها مـا قارنـه من أقوالٍ وأفعالٍ صدرتْ منه وإليه، فلم يبقَ من الآيات مـا أخلَّ بـه، ولا من الإعلام ما قصر فيه[2]، وسنذكرها أبواباً مفصَّلةً وأنواعاً متميِّزةً لتكونَ أصحَّ بيانـاً وأوضحَها بُرْهَاناً.

وأحقُّهـا بالسَّـابقة والتَّقـديم إعجازُ القـرآن[3]، لأنَّه أصـلُ شِرْعَتِـهِ ومستـودَعُ

---

(١) اللّاهُوت: كلمة غير إسلامية، وهي مستعملة عنـد أهل الكتـاب من النّصارى. وهي تعني عندهم «الخالق» ويستعملون معها في أمر المسيح عليه السَّلام «النّاسُوت». واللّاهوتي نسبة إلى «اللّاهُوت». وربَّما يُطلق عندهم اللّاهوت على «الروح» وعلى «العَالَم العلوي. وعلم اللّاهُوت عند أهل الكتاب: هو العلمُ الذي يبحث في اللَّه تعالى وصفـاته وعـلائقه بـالعَالَم والإنسان، ويُرادفه عند المتكلمين «علم الكلام». وبما أنّ المؤلف رحمه اللَّه يذهب مذهب المتكلمين في العقيدة، استعملَ لفظ «اللّاهوتي» فإنَّ علم الكلام نشـأ عن مفاهيم فلسفيـة واصطلاحات منطقية، وهمـا علمان غيـرُ إسلاميين، ومن هنـا دخل على علمـاء الكلام في الإسلام الكثيرُ من المفاهيم اللّاهوتية لدى الفلاسفة اليونان، وإن كانوا يضعونهـا في صيغة إسلامية، لكنّ منشأها فلسفي. وعلى هذا يجب التَّنبُّه لأسلوب المتكلمين وعدم أخذ العقيدة عنهم، لأنَّ الواجب في الإسلام أخذُ العقيدة من الكتاب والسُّنَّة وسَلَفِ الأُمَّة فحسب.

(٢) إنَّ جميع ما ثبت عن رسول اللَّه ﷺ وصحَّ عنه شاهدُ صدقٍ على نبوَّته ورسالته، فكلُّ سَجيَّةٍ من سَجايَاهُ تشهدُ بذلك، وكلُّ كلمةٍ قالها، وكلُّ عملٍ فعلَهُ، وكلُّ قصدٍ سَعى إليه، لم يكن له ﷺ من البشر مَنْ يُماثِلُهُ في كلِّ ذلك، فصحَّ بها أنَّه رسول اللَّه حقّاً وصدقاً، يظهر ذلك في أحاديثه النَّبويَّة الشريفة الثابتة عنه ﷺ، ومن هنا كـانت ضرورةُ الـرجوع إلى كتب الصحـاح مُلِحَّةً ـ بل وواجبةً ـ للتَّعرف على أنوار النُّبوَّة وحقائقها!!.

(٣) إعجاز القرآن: قال أبو حيَّان التوحيدي: سُئل بُندار الفارسي عن موضع الإعجاز من القرآن؟ =

رسالتِهِ، ثم نتلوه بما يقتضيه، وإن كان لو ذكرناه أول مَبَادِيْهِ على سياقٍ ينتهي إلى غايته لكان نظاماً، ولكنَّ هذا بابُ حجاج لرسالته وليسَ بشرحٍ لسيرتِهِ فوجبَ ابتداؤه بأخصِّها، ثم ذكرُ سيرتهِ على ترتيبِها.

= فقال: هذه مسألة فيها حَيْفٌ على المفتي؛ وذلك أنَّه شبيه بقولكم: موضع الإنسان من الإنسان، فليس للإنسان موضع من الإنسان، بل متى أشرتُ إلى جملته فقدتُ حقيقتَهُ ودَلَّتْ على ذاته، كذلك القرآن لشرفه لا يُشار إلى شيءٍ منه إلاّ وكان ذلك المعنى آيةً في نفسه ومعجزةً لِمُحَاوِلِهِ، وأهدَى لقائلِهِ، وليسَ في طاقة البشر الإحاطةُ بأغراض اللّه في كتابه، فلذلك حارت العقولُ وتاهتِ البصائرُ عندَهُ!! [معترك الأقران في إعجاز القرآن للحافظ السيوطي ج ١/١٠ ط. دار الكتب العلمية ـ بيروت].

الباب السابع

فيما تضمنه القرآن من أنواع إعجازه

والقرآنُ أوَّلُ معجزٍ دَعَا بِهِ محمد ﷺ إلى نبوَّته، فصدَعَ فيه برسالتِهِ، وخُصَّ بإعجازِهِ من جميع رُسُلِهِ. وإن كان كلاماً ملفُوظاً وقولاً محفُوظاً، لثلاثة أسباب صارَ بها من أخصِّ إعجازِهِ وأظهر آياتِهِ[1].

---

(١) هذه العلامات إنَّما هي نماذج لأضعاف أضعافها، وتتعاضَدُ دلائلُ النُّبوَّة الأخرى التي قامت عليها الدعوة المحمَّديَّة، ومن أهم هذه الدلائل: معجزة القرآن العظيم!!.
لقد كان أهل مكة يطلبون إلى النَّبي ﷺ أن يُجري ربُّهُ على يديه المعجزات إذا أرادهم أن يُصدِّقُوه، ولم يرد في القرآن الكريم ذكرٌ لمعجزة أراد اللَّه بها أنْ يُؤمنَ الناس كافة على اختلاف عصورهم برسالة محمد ﷺ إلاّ القرآن الكريم، هذا مع أنه ذكر المعجزات التي جرت بإذن اللَّه على أيدي مَنْ سبَقَ محمَّداً من الرُّسُل.
القرآن الكريم هو معجزةُ النبي ﷺ الدائمة إلى يوم الدِّين، وأهمُّ دليلٍ على نبوّته ﷺ.
وقد فرض القرآن الكريم إعجازَهُ على كلِّ مَنْ سمعَهُ على تفاوت مراتبهم في البلاغة، وقد تحيَّرَ المشركون في وصفه وحرصوا على أن يصدُّوا العرب عن سماعه، عن يقين بأنَّه ما من عربي يخطئه أن يميِّز بين هذا القرآن، وقول البشر.
وقد أعجز الخلقَ في أسلوبُهُ ونظمُهُ!! وفي علومهِ وحِكَمِهِ!! وفي تأثير هدايته!! وفي كشفه الحُجُبَ عن الغُيوب الماضية والمستقبلة!! وفي كل باب من هذه الأبواب للإعجاز فصولٌ!! وفي كل فصلٍ منها فروعٌ ترجع إلى أصول، وقد تحدَّى العربَ بإعجازِهِ!! ونقلَ العربُ هذا التَّحدِّي إلى كلِّ الأممِ فظهر عجزها!!!.
وقد نقل بعض أهل التَّصانيف عن بعض الموصوفين بالبلاغة في القول أنهم تصدَّوْا لمعارضة القرآن في بلاغته، ومحاكاته في فصاحته دون هدايته، ولكنَّهم على ضعف رواية النَّاقلين =

أحدُها: أنَّ معجزَ كلِّ رسولٍ موافق للأغلب من أحوال عصرهِ والشائع المنتشر في ناسِ دهرهِ، لأنَّ موسى عليه السّلام حين بُعثَ في عصرِ السَّحَرةِ؛ خُصَّ من فلق البحر يَبَساً، وقلبِ العَصَا حيَّةً ما بَهَر كلَّ ساحرٍ وأذلَّ كلَّ كافرٍ، وبُعِثَ عيسى عليه السّلام في عصرِ الطُّبِّ؛ فخُصَّ من إبراء الزَّمْنَى، وإحياء الموتَى، بما أدْهَشَ كلَّ طبيبٍ وأذهلَ كلَّ لبيبٍ، ولمَّا بُعِثَ محمّدٌ ﷺ في عصرِ الفَصَاحَةِ والبَلاَغةِ، خُصَّ بالقرآنِ في إيجازهِ وإعجازهِ، بما عجزَ عنه الفُصَحاءُ، وأذْعَنَ له البلغاء وتَبَلَّدَ فيه الشُّعراءُ، ليكونَ العجزُ عنه أقهرَ، والتقصيرُ فيه أظهرَ، فصارت معجزاتهم وإنِ اختلفتْ مُتَشَاكِلَةَ المعاني، مُتَّفقةَ العِلَل.

والثاني: أنَّ المعجز في كلِّ قومٍ بحسب أفْهَامِهِم، وعلى قدرِ عُقُولهم وأذهانِهم، وكان في بني إسرائيل من قوم موسى وعيسى بَلاَدَةً وغَبَاوَةً، لأنَّه لم ينقل عنهم ما يُدَوَّنُ من كلامٍ مستحسَنٍ، أو يستفاد من معنىً مبتكرٍ، وقالوا لنبيِّهم حينَ مرُّوا بقومٍ يعكِفُون على أصنامٍ لهم: اجْعَلْ لنَا إلَهاً كما لهم آلهةً، فخُصُّوا من الإعجاز بما يصلون إليه ببدايةِ حواسِّهم. والعرب أصحُّ الناس أفهاماً، وأحدُّهم أذهاناً قد ابتكروا من الفصاحة أبلَغَها، ومن المعاني أغْرَبَها، ومن الآداب أحسَنَها،

= عنهم لم يأتوا بشيء تقرُّ بهِ أعينُ الملاحدة والزَّنادِقَةِ فيحفظوه عنهم، ويحتجُّوا به لإلحادِهم وزندقتِهم!! والحمد للّه ربِّ العالمين.

ويظلُّ إعجاز القرآن قائماً ما دامتِ السَّمٰواتُ والأرضُ، تتعاقبه الأجيالُ كلَّما تقدَّمت العلوم فكشفتْ عن أسرارِ اللّه الكونيَّة!! وكلَّما حسبَ جيلٌ أنَّه بلغَ منه الغايةَ، امتدَّ القرآنُ عالياً سَامِقاً متحدِّياً: ﴿قُلْ لئنِ اجتمعتِ الأنسُ والجنُّ على أنْ يأتُوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يأتُونَ بمثلِهِ ولو كانَ بعضُهم لبعضٍ ظهيراً!!﴾ [سورة الإسراء، آية ٨٨].

ولو أنَّ أُمَّةً غير مسلمةٍ آمنتِ اليوم بهذا القرآن العظيم، وبما صحَّ عن رسول اللّه ﷺ لما قدر العَالَمُ بأسره أن يُنغِّص عليها في إيمانها أو أن يصدَّها عنه!! وذلك لِما تجده من الحقائق في كتاب ربِّها سبحانه وسنَّة رسولها ﷺ التي أجمع الناس عليها، في العصر الذي نعيش فيه على اختلاف مشاربهم، وتباين تخصصاتهم، فقد استطاعوا أن ينهلوا من فيضه، ويقبسوا من نوره، ويرى كل واحد منهم به سراً من أسراره.

فخُصُّوا من معجزةِ القرآن بما تجول فيه أفهامُهُمْ، وتصلُ إليه أذْهانُهُم، فيُدْرِكُوهُ بالفِطْنَةِ دونَ البديهة، وبالرَّويَّة دونَ البَادِرَةِ، لتكون كلُّ أُمَّة مخصوصةً بما يشاكل طَبْعَها ويُوافِقُ فهمَهَا.

والثالث: أنَّ معجز القرآن أبقى على الأعصار، وأنْشَرُ في الأقطار، من معجزٍ يختصُّ بحاضِرِهِ ويَنْدَرِسُ بانقرَاضِ عصرِهِ، وما دَامَ إعجازُهُ فهو أحَجُّ وبالاخْتِصَاصِ أحقُّ!!.

فصل:

[وجوه الإعجاز القرآنيّ]

وإعجاز القرآن في خروجه عن كلام البشر وإضافته إلى اللَّه تعالى يكون من عشرين وَجْهاً: أحدُها: فصاحته وبيانُه، وذلك مُعْتَبَرٌ بثلاثة شُروط:

أحدُها: بلاغةُ ألفاظِهِ.

والثاني: استيفاءُ معانيِهِ.

والثالث: حُسْنُ نظمهِ.

فأمّا بلاغةُ ألفاظِهِ فتكونُ من وجهين:

أحدُهما: جَزَالَتُها حتى لا تلينُ.

والثاني: انطبَاعُها حتى لا تَخْبُو.

وأمّا استيفاء معانيهِ فيكونُ من وجهين:

أحدُهما: أنْ يكونَ المعنى لائحاً في مبادىء ألفاظِهِ غير مُفْتَقِرٍ إلى مقاطعه.

والثاني: أن يكونَ المعنَى مطابقاً لألفاظِهِ فلا يزيدُ عليها ولا يقصر عنها، فإنْ زَادَ كانَ الاختلال في اللَّفظ، وإنْ نقصَ كان الاختلالُ في المعنَى، وأمَّا حُسْنُ نظمهِ فيكون من وجهين:

أحدُهما: أنْ يكونَ الكلامُ متناسباً لا يتنافر.

والثاني: أن يكون الوزن معتدلاً لا يتباين.

فإنْ قيل: قد يجتمع في كلام البشرِ ما يستكملُ هذه الشروط، فبطلَ به الإعجاز؟ فالجوابُ عنه من وجهين:

أحدُهما: أنّ أسلوبَ نظمهِ على هذهِ الشروطِ معدومٌ في غيرهِ فافْتَرقَا.

والثاني: أنَّ لنظمِ ألفاظهِ بهجةً لا تُوجدُ في غيرهِ، فاختَلَفا، لأنَّك إذا جمعتَ بين قولِ اللَّه تعالى: ﴿وَلَكُمْ في القِصَاصِ حَيَاةٌ﴾[1]، وبينَ قولهم: القتلُ أنْفَى للقتلِ، وجدتَ بينهما فُرُوقاً في اللَّفظِ والمعنَى.

فصل:

[الإيجاز القرآنيّ][2]

والوجه الثاني: من إعجازه، إيجازُهُ عن هذا الإكثار، واستيفاءُ معانيهِ في قليل الكلامِ، كقولهِ تعالى: ﴿وقِيْلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ويا سَمَاءُ أَقْلِعِي وغِيْضَ المَاءُ

---

(1) سورة البقرة، الآية ١٧٩.

(2) معجزات القرآن يقف عليها قرن بعد قرن إلى يوم القيامة.
وفي هذا المقام يمكن أن أوجز أوجه إعجاز القرآن الكثيرة فيما يلي:
١ ـ ما يشتمل عليه من الفصاحة والبلاغة في الإيجاز والإطالة. فتارة يأتي بالقصة باللفظ الطويل، ثم يعيدها باللفظ الوجيز، فلا يُخِلُّ بمقصود الأولى.
٢ ـ مقارنته لأساليب الكلام، وأوزان الأشعار، وبهذين المعنيين تحدثت العرب، فعجزوا وتحيَّروا، وأقروا بفضله.
٣ ـ ما تضمنه من أخبار الأمم السالفة، وسِيَر الأنبياء التي عرفها أهل الكتاب مع كون الآتي بها أمياً لا يكتب ولا يقرأ، ولا علم له بمجالسة الأحبار والكهان.
٤ ـ إخباره عن الغيوب المستقبلة الدالة على صدقه قطعاً، والكوائن في مستقبل الزمان نحو قوله سبحانه:
﴿الٓمٓ * غلبت الروم * في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * في بضع سنين﴾.
وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فتمنّوا الموت﴾، ثم قوله: ﴿ولن يتمنوه أبداً﴾. =

وقُضِيَ الأمْرُ واسْتَوَتْ على الجُودِيِّ وقِيْلُ بُعْداً للقومِ الظَّالِمِين﴾[1].

فإنْ قيلَ: ليس جميعُهُ وجيزاً مختصراً وفيه المبسوطُ، والمكرَّرُ بعضُهُ أفصحُ من بعضٍ، ولو كان من عندِ اللَّهِ لَتَماثَلَ ولم يتَفَاضَلَ، لأنَّ التَّفَاضُلَ في كلامِ من يَكِلُّ خاطِرُهُ، وتَضْعُفُ قريحَتُهُ، فعنْهُ جوابان:

أحدُهما: أنَّ اختلافَهُ في البسطِ والإيجازِ ليس للعجزِ عن تماثلِهِ، ولكنْ لاختلافِ النَّاسِ في تصوُّرِهِ وفهمِهِ، وتفاضُلُهُ في الفَصَاحةِ بحسبِ تفاضُلِ معانيهِ لا للعجزِ عن تَسَاوِيْهِ.

والثاني: أنَّه خالَفَ بينَ معانيه ومختصرِهِ وبينَ أفصحِهِ وأسهلِهِ ليكونَ العجزُ عن أسهلِهِ وأبسطِهِ أبْلَغَ في الإعجازِ من العجزِ عن أفْصَحِهِ وأخْصَرِهِ، ولذلك فَاضَلَ بينَ خلقِهِ ليُعْرَفَ بهِ فرقُ ما بينَ الفاضلِ والمفضولِ.

وقد حكى أبو عبيدة أنَّ أعرابيّاً سمع رجلاً يقرأ: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾[2] فسجدَ وقال: سجدتُ لفصاحةِ هذا الكلام!!!.

= وقوله: ﴿قل للذين كفرو ستغلبون﴾ وغلبوا.
وقوله: ﴿لتدخُلنَّ المسجد الحرام إن شاء اللَّه آمنين﴾ ودخلوا.

٥ ـ أنه محفوظ من الاختلاف والتناقض.
﴿ولو كان من عند غير اللَّه لوجدوا فيه اختلافاً﴾. وقال تعالى: ﴿إنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنا له لحافظون﴾.
قال ابن عقيل: حُفِظَ جميعه، وآياتُه وسوره التي لا يدخل عليها تبديل، من حيث عجز الخلائق عن مثلها، فكان القرآن حافظ نفسه من حيث عجز الخلائق عن مثله.
قال أبو الوفاء علي بن عقيل: وإذا أردت أن تعلم أنَّ القرآن ليس من قول رسول اللَّه ﷺ وإنَّما هو ملقىً إليه، فانْظُرْ إلى كلامه كيف هو إلى القرآن، وتلمَّحْ ما بين الكلامين والأسلوبين، ومعلوم أن كلام الإنسان يتشابه، وما للنبيِّ ﷺ كلمةٌ تُشاكِلُ نمطَ القرآنِ العظيم!.

(١) سورة هود، الآية ٤٤.
(٢) سورة الحجر، الآية ٩٤.

فأمّا تكْرَارُ قصصه وتكرَارُ وعدِه ووعيدِه فلأسبابٍ مُسْتَفَادَةٍ منها أنها في التَّكرار أوْكَدُ وفي المبالغة أَزْيَدُ، ومنها أنَّها تتغايَرُ ألفاظُها فتكونُ إلى القبول أسْرَعُ، وفي الإعجاز أبلغُ، ومنها أنَّها إنْ أخلَّ بالوقوف عليها في موضعٍ أدْرَكَها في غيرهِ فلم يَخْلُ من رَغَبٍ ورَهَبٍ.

فصل:

[إعجاز نظم القرآن]

والوجه الثالث: من إعجازهِ أنَّ نظمَ أسلوبهِ، ووصفَ اعتدالهِ يخرجُ عن منظومِ الكلامِ ومنثورهِ، ولا يدخلُ في شعرٍ ولا رجزٍ ولا سجعةٍ ولا خطبةٍ، حتى تجاوَزَ محصورَ أقسامهِ وبَايَنَ سائرَ أنواعهِ، بأسلوبٍ لا يُشَاكَلُ ونظمٍ لا يُماثَلُ، فصارَ وإنْ كان من حروف الكلام، خارجاً عن أقسام الكلام، فقدْ قال أنيس الغفاري، وهو أخو أبي ذَرٍّ الغفاري، وكان من الموصوفين بالتَّقدُّم في البلاغة والفصاحة: عرضتُ القرآنَ على السَّجعِ والشِّعرِ والنَّظْمِ والنَّثْرِ فلم يُوافِقْ شيئاً مِنْ طُرُقِ كلامِ العربِ!!!.

وحُكِيَ عن الوليد بن المغيرة المخزومي[1]، وكان سيِّدَ عشيرته وأفصحَ قومهِ،

---

(١) إنَّ الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفرٌ من قريش ـ فتحاوروا في شأن محمد ﷺ ـ فقالوا له: قُلْ لنا رأياً نقول به، قال: بل أنتم فقولُوا اسمعُ؛ قالوا: نقولُ كاهن؟ قال: لا واللَّه ما هو بكاهن، لقد رأينا الكُهَّانَ فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه. قالوا: فنقول مجنون؟ قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقِهِ ولا تخالجهِ ولا وسوسته، قالوا: فنقول شاعر؟ قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كلَّه رجزَه وهزجه وقريضَهُ ومقبوضَهُ ومبسُوطَهُ، فما هو بالشعر، قالوا: فنقول ساحر؟ قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السُّحَّار وسِحْرَهم، فما هو بنَفْثِهم ولا عقدِهم، قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: واللَّهِ إنَّ لقولهِ لحلاوَةً! وإنَّ أصله لَغدَق، وإنَّ فَرْعَهُ لجَناة! وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرِفَ أنَّه باطل. هذا الخبر في سيرة ابن هشام ج ١ / ٢٧٠ ط. دار الكنوز الأدبية.

أنَّه جاءَ إلى أصحاب رسول اللَّه ﷺ وهو على كفرِهِ فقال: اقرأوا عليَّ شيئاً من القرآن، فقرأوا عليه فقال: ليسَ هذا من كلامِ البشرِ وليس بشعرٍ، فمضى إليه أبو لهب، وقال: أفسدتَ قريشاً بهذا القول فارجعْ عنه فقال: أقول: إنَّه سحرٌ.

وقد تَعَاطَاهُ مِنَ الشعراء ما خرجَ عن أسلوبِهِ إلى طريقةِ شعرِهِ فقال في قصَّة الفيل:

أَلاَ مـن مـهـلَكِ الـفـيـلِ ... ومَـنْ سَـارَ مـع الـفـيـلِ

بـطـيـرٍ صـبَّـهُ الـلّـهُ ... عـلـيـهـم مِـنْ أبـابـيـلِ

رَمَـتْـهُـمْ بـجـنَـادِلٍ ... تُـرَى من طـيـنِ سجـيـلِ

فـأضْحَى الـقـومُ في الـقَـاعِ ... كَـعَـصْـفٍ غـيـرِ مـأكُـولِ

فلم يُساعِدْهُ الطَّبعُ عليه مع أخذِ معانيه واستعمالِ ألفاظِهِ، حتى عَادَ إلى مطبوعِ شِعْرِهِ. وضمَّنَ آخرُ من الشعراء شيئاً منه في شعرِهِ فخرجَ عن أسلوبِهِ حيث يقول:

وقـرأ مُـعْـلَنَـاً لـيـصـدعَ قـلـبـي ... والـهـوَى يصـدعُ الـفؤادَ السَّـقـيـمَـا

أرأيـتَ الَّـذي يُـكَـذِّبُ بـالـدِّيـنِ ... فَـذَاكَ الَّـذِي يَـدُعُ الـيَـتِـيْـمَـا

فإنْ قيلَ: لو كان لنظم القرآنِ أسلوبٌ معجزٌ[1] لَمَا طلبَ عمرُ بنُ الخطاب رضي اللَّه تعالى عنه، عند جمع القرآن، من يأتيه بالآية والآيتين شهوداً أنَّه سمعَهُ من

(١) هذا الاعتراض لأحد الزنادقة، كان الأحرى بالمؤلف رحمه اللَّه ألاّ يذكره، ولا يصح ذكر فعل عمر بن الخطاب في شدَّة تثبُّته في كتابة المصحف الشريف إلاّ بعد شهادة رجلين من الصحابة أن هذه الآية كُتِبَتْ بين يدي النبي ﷺ؛ لأن اللَّه قد رخَّص لأهل القبائل بقراءة القرآن على لهجاتها، فطلب الشاهدين ليس لإثبات القرآن وإنما لإثبات اللهجة التي كُتِبَ بها المصحف الشريف بين يدي رسول اللَّه ﷺ، فلا يصلح هذا الخبر حجةً لمنكري إعجاز القرآن الكريم، فإنَّ إعجازه معلوم كالشمس في رابعة النهار، ولكنَّ دأب الملحدين العبث بدين اللَّه تعالى وآياته، فيلزم عدم الإصغاء إليهم.

رسولِ اللّه ﷺ بأسلوبِ نظمِهِ عن بيِّنةٍ تشهدُ به، ولكانَ لا يشتبه على ابن مسعود في المعوذتَين حين أخرجهما من القرآن[1]، ولا على أبيٍّ بن كعب في القنوت حين أدخله في القرآن، ولا على امرأة ابن رواحة في شعره حتى توهمته من القرآن، فعنْهُ جوابان:

أحدُهما: أنَّ عمر الْتَمس الشهادةَ في الآية والآيتين ممَّا لا يكون بانفرادِهِ معجزاً، لأنَّ الإعجاز مختصٌّ بما وقعَ به التَّحدي كأقصر سورة في القرآن آيات وحروفاً وهي سورة الكوثر، وما قصر عنه لا إعجازَ فيه، فكان طلبه للشهادة متوجهاً إليه[2].

والثاني: أنَّه طلبَ الشهادةَ على محلِّها من أيِّ سورة هي، وفي أيِّ موضع منها، وإنْ كان معلوم الأسلوب بالمباينة، لأنَّ اللّه تعالى كان يأمر بوضع ما أنزله فيما يراه من السُّوَرِ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾[3]. فأمَّا ابن مسعود فلم يشكل عليه أسلوب المعوذتين أنَّهما من القرآن وإنَّما حذفَهُمَا من مصحفه[4] لأنَّه ظنَّ أنَّ

---

(١) لم يصح أن عبد اللّه بن مسعود أخرج المعوذتين من مصحفه، فهذه الرواية التي تذكر هذا الخبر ليس لها إسنادٌ صحيحٌ يحتجُّ به، فيجب التَّنبُّه لهذه الفِرية.

(٢) هذا الرَّدُّ مقدِّمته مركَّبةٌ على احتمال مجهول، ونتيجتُهُ تحصيل حاصل. فإنَّه لم يُؤْثَر على أحدٍ من الصحابة ـ ناهيك عن عمر ـ خفاءُ إعجازِ الآيةِ والآيتين على الانفراد، لأنهم كانوا يُدركون كلام اللّه ويميِّزونه عن كلام رسوله ﷺ، فكيف يخفى عليهم معرفة إعجاز الآية لوحدها؟ أمَّا دعوى أنَّ الآية والآيتين لا إعجاز فيهما، فهذا باطل قطعاً، فإنَّ لكل آية إعجازاً وإن لم يكن التحدي بهما، بل كان التحدي قائماً على الإتيان بسورة من مثله، وذلك لهيبة القرآن ولجلالته وعظمته.

(٣) سورة القيامة، الآية ١٧.

(٤) مصحف عبد اللّه بن مسعود لا وجود له بعدما جمع عثمان بن عفان رضي اللّه عنه النَّاسَ جميعاً على مصحف واحد، وكان الخليفة عثمان قد أحرقَ جميعَ مصاحف الصحابة التي جُمعت في عهد النبي ﷺ أو في عهد أبي بكر أو في عهد عمر، خلا المصحف الذي كُتِبَ بين يدي رسول اللّه ﷺ، والمصحف الذي كُتب في عهد أبي بكر الصديق، وكان عثمان أخذه من عند أم المؤمنين حفصة بنت عمر، حين جمع الأمة على مصحفٍ إمامٍ، يكون على =

تلاوتَهُمَا قد نُسِخَتْ.

وأمَّا أُبَيُّ بنُ كعب فظنَّ أن تلاوة القنوتِ باقيةٌ، ولم يعلم أنَّها قد نُسِخَتْ، وأمَّا امرأة ابن رواحة فلم تكن من ذوي الفَصَاحَةِ والبلاغةِ، فتفرِّقُ بينَ الشِّعْرِ وأسلوبِ القرآنِ، فلم يكن لوهمها تأثيرٌ.

فصل:

[إعجاز القرآن في كثرة معانيه]

والوَجْهُ الرابعُ: من إعجازه كثرةُ معانيهِ الَّتي لا يجمعُها كلامُ البشرِ، وذلك من وجهين:

أحدُهما: ما يجمعه قليلُ الكلامِ من كثيرِ المعاني كقولِهِ تعالى: ﴿وأوْحَيْنَا إلى أُمِّ موسَى أنْ أرْضِعِيْهِ فإذا خِفْتِ عليهِ فألْقِيْهِ في اليَمِّ ولا تَخافي ولا تَحْزَني إنَّا رَادُّوهُ إليكِ وجَاعِلُوهُ مِنَ المُرْسَلِين﴾[1] فجمع في آيةٍ واحدةٍ بينَ أمرين، ونهيينِ وخَبَرينِ وبِشَارَتَيْن.

والثاني: أنَّ ألفاظَهُ تحتملُ معاني متغايرة تَحَارُ فيها العُقُولُ، وتَذْهَلُ فيها الخَوَاطِرُ وتكِلُّ فيها القرائِحُ، ثم لا تبلغُ أقْصَاهُ، ولا تُدرك منتهاه حتى اختلفتْ فيه الوجُوهُ وتقابلتْ فيه النَّظائر.

فإنْ قيلَ: فهذا إلْغَازٌ ورمزٌ هو بالذَّمِّ منه أوْلى بالحمد، فعنه جوابان:

= العَرْضَةِ الأخيرة التي عارضَهُ بها جبريل مرتين في رمضان عام وفاته ﷺ. فدعوى وجود «مصحف ابن مسعود» باطلة، وجميع ما يترتب عليها باطل أيضاً، ولكنّ أهل الفتنة كانوا يروّجون بين النّاس الأخبار التي تُثير الشكوكَ حولَ القرآنِ والإسلام. [انظر العواصم من القواصم: لابن العربي - تحقيق محبّ الدِّين الخطيب - تقديم خالد عبد الرحمن العك - ط. دار البشائر - دمشق - ص ٨٣ وحتى ٨٨ منه، فإنه هام في هذا الخصوص.

(١) سورة القصص، الآية ٧.

أحدُهما: أنَّ الإلْغَازَ، وإنْ ذُمَّ، فالرمزُ ليس بمذموم وليس فيه لغزٌ، وإن كان فيه رَمْزٌ.

والثاني: أنَّ ما اختلفتْ معانيهِ يخرجُ عن اللّغزِ والرَّمْزِ لأنَّ اللّغزَ ما أُريدَ بِهِ غيرُ معناهُ والرَّمزُ ما خفيَ معنَاهُ.

فصـل:

[إعجاز القرآن العلميّ]

والوجه الخامس: من إعجازهِ مـا جمعَهُ القـرآنُ من علومٍ لا يُحيط بها بَشَرٌ ولا تجتمعُ في مخلوق[1]، فلم يكن إلّا من عند اللّهِ المحيطِ بكلِّ شيءٍ علماً، حتى علمه من لم يكن به عالماً.

فإن قيل: فضلُ العلم لا يكون إعجازاً في النُّبوَّات لأنَّ العلماء قد يتفاضلون، ولا يكون للأفضل إعجازٌ على المفضول، فعنْهُ جوابان:

أحدُهما: أنَّ التَّفاضل في العلم موجودٌ والإحاطةُ بجميع العلوم مفقودَةٌ.

---

(١) إنَّ ممَّا لا شكَّ فيه، ولا ريب لكل ذي بصيرة، أنَّ القرآن العظيم قد أودع اللّه تعالى فيه من العلوم والحقائق ما لا يوجد في كتاب سواه مهما علا شأنه وشاع ذكره، فهذا كتاب اليهود كثيراً ما يفرُّ من أخطائه العلمية علماؤهم، أو يغضون الطرف عنها، وهذا كتاب النَّصارى كثيراً ما يعتذر من أخطائه العلميـة ومتناقضـاته علمـاؤهم، أو يتكلَّفون عنهـا بالأجوبة المنطقية القائمـة على الظنـون والتخيلات، وأمَّـا كتاب الإسـلام والمسلمين «القرآن العظيم» فهو وحده الذي يرفع به المؤمن رأسه عالياً وصوته مدوياً بما فيـه من العلوم الكونية، إضافة إلى العلوم الشرعية والآداب والأخلاق!! لقد جرت عدَّة دراسات للكتب السماوية الثلاث من قبل علماء غربيين كانت نتائجها واحدة مـوحدة، وهـو أنَّه لا يمكن لواحد منها أن يقف أمام العلوم الحديثة ومكتشفاتها سوى القرآن العظيم!! إنَّ القرآن كان، ولا زال، جامعاً للعلوم والحقائق على كافة مستوياتها وعلى تعدُّد أنواعها، ومتقدِّماً على جميع المكتشفات الحديثة، وسيبقى الكتاب الوحيـد الذي يملك قيـادة التوجيه العلمي على أعلى مستويات الدراسات والمخترعات العصرية القادمة!!.

والثاني: أنَّ ظهور العلم فيمن يتعاطَاهُ ليسَ بمعجزٍ لظهورهِ من جهتهِ وظهور العلم فيمن لم يتعاطاه معجزاً لظهورهِ من غير جهتهِ، وقد كان أُمِّيّاً من أُمَّةٍ أُمِّيَّةٍ لم يقرأ كتاباً ولم يتعاطَ علماً، فصارَ ما أظهرَ معجزاً.

فصـل:

[إعجاز القرآن في حُجَجهِ وبَرَاهينِهِ]

والوجه السادس: من إعجازهِ ما تضمَّنَهُ مِنَ الحُجَجِ والبراهين على التَّوحيد والرَّجْعَةِ[1]، وعلى الدَّهرية[2] والثَّنويَّة[3]، حتى قطعَ بحِجَاجِهِ كلَّ محتجٍّ، وخَصَمَ بجَدَلِهِ كلَّ خَصْمٍ أَلَدَّ.

فـإنْ قيل: فـدلائل التَّـوحيد[4] مُسْتَفَـادَةٌ بالعقـول فلم يكنْ فيهـا إعجـازٌ من وجهين:

---

(١) الحجج والبراهين على الرجعة: أي الرجوع إلى اللَّه تعالى في الآخرة كما في قوله تعالى: ﴿هو يحيي ويُميتُ وإليه تُرْجَعُون﴾ [سورة يونس، آية ٥٦]، وقوله تعالى: ﴿أفَحَسِبْتُمْ أنَّما خلقنَاكُمْ عَبَثاً وأنَّكم إلينا لا تُرْجَعُون﴾؟! [سورة المؤمنون، آية ١١٥]، وقوله تعالى: ﴿كلُّ نفسٍ ذائِقَةُ الموتِ ثم إلينا تُرْجَعُون﴾ [سورة العنكبوت، آية ٥٧].

(٢) الدهرية: يُطلق هذا الاسم، عند المتقدِّمين، على الذين جحدوا الخالق تبارك وتعالى، وقالوا بقِدَمِ الدَّهر الذي يدور عليه مذهبهم، وزعموا أنَّ العالَمَ لم يزلْ موجوداً كذلك بنفسه بلا صانع، ولم يزل الحيوان من النطفة، والنطفة من الحيوان، كـذلك كـان وكذلـك يكون أبداً. وفي العصر الحـديث استعمل لفظ «الـدَّهرية أو الدَّهـريين» للدَّلالة على المـذاهب المادِّية التي لا تؤمن بالخالق العظيم سبحانه وتعالى، وقد رَدَّ اللَّهُ تعالى عليهم فقال: ﴿وقَالُوا ما هِي إلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنيا نموتُ ونَحْيا وما يُهْلِكُنا إلاّ الدَّهْرُ، وما لهم بذلك مِن علمٍ إنْ هُمْ إلاّ يظنُّون﴾ [سورة الجاثية، آية ٢٤].

(٣) الثنويَّةُ: مذهب يقول بمبدأين يدبّران العالم، أو يدبِّره أحدهما، ويُفسده الآخر، ويرجع هذا المذهب إلى أوائل عهد الفلسفة، وهو مذهب فاسد العقيدة فساداً فاحشاً.

(٤) إنَّ إعجاز القرآن دليل على وحدانية اللَّه تعالى، ودليل على صدق نبوَّة رسوله ﷺ، إذْ كانت رسالته لتوحيد اللَّه تعالى التوحيـد الخالص، فـدَعَا رسـول اللَّه ﷺ النَّاسَ جميعـاً للتوحيـد الخـالص، وعلى ذلك كـان تحدِّي القـرآن للمشركين دليـلاً على صدق الـرسـول وصحـة =

أحدُهما: وجودُها من ذاته.

والثاني: مشاركته فيها لغيره، والجوابُ عنه من وجهين:

أحدُهما: أنَّه لم يكنْ من أهلِ الجَدَلِ فيقطعُ كلَّ مجادلٍ.

والثاني: أنَّه احتجَّ للرجعة بما زَادَ على قضَايَا العقولِ فخصَمَ كلَّ عاقلٍ.

فصـل:

[إعجازه في إخباره عن القرون الخالية]

والوجْهُ السّابعُ: من إعجـازِهِ ما تضمَّنَـهُ من أخبارِ القـرونِ الخاليـةِ وقصصِ الأُمَمِ السَّالفةِ، ومـا تَحَدَّاهُ بـه أهل الكتـاب من قصةِ أهـل الكهـف، وشأنِ مـوسى والخضر، وحديثِ ذي القرنين فكان على ما ذكره أنبياؤهم وتضمَّنَتْهُ كتبهم.

فإن قيل: فالإخبارُ بما كان ليسَ بمعجزٍ لأنَّ علم غير الأنبياء به ممكنٌ، فعنْـهُ جوابان:

أحدُهما: أنَّـه ممكنٌ فيمن علِمَها[1]، وممتنعٌ فيمن لم يعلَمْهَا ولم يكنْ من

= الرسالة، فإن صدَّقوا الرسول وآمنوا برسالته وحَّدوا اللَّه تعالى ولم يُشركوا به أحداً؛ فالتَّحدي بالقرآن إذنْ دليلٌ لإثبات التوحيد، يقول اللَّه تعالى: ﴿قُلْ لئِنِ اجتمعتِ الإنسُ والجِنُّ على أن يأتوا بمثلِ هذا القرآن لا يأتونَ بمثلِهِ ولو كـان بعضُهم لبعضٍ ظهيراً﴾ [سـورة الإسراء، آية ٨٨]، ويقول تعالى: ﴿وإنْ كنتم في ريبٍ ممّا نزلنا على عبدنا فأتُوا بسورةٍ من مثلِهِ وادْعُوا شهداءَكم مِن دُونِ اللَّهِ إنْ كنتُمْ صادقين * فإنْ لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتَّقُوا النَّارَ التي وَقُودُها النَّاسُ والحجارةُ أُعدّتْ للكافرين﴾ [سورة البقـرة، آيتان ٢٣ ـ ٢٤]. وأخـرج البخاري في صحيحه رقم ٤٩٨١ عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: (ما مِنَ الأنبياء نبيٌّ إلاَّ أعطي ما مثلُهُ آمَنَ عليه البشر، وإنَّما كان الذي أوتيتُهُ وحياً أوحَاهُ اللَّهُ إليَّ، فأرجو أن أكونَ أكثرَهم تابعاً)، والوحي الذي آتـاه اللَّه تعالى هـو القرآن العـظيم الذي يبقى أبـد الدهـر دليلاً على وحدانية اللَّه وصدق رسالة رسوله ﷺ!!.

(١) علم النبي ﷺ لأخبار الأمم السابقة ممتنع عن غيره، إذْ علمه ليس منقولاً عن غيره، بـل هو منزَّل من عند اللَّه تعالى، وهذا معصوم محفوظ، أمّا غيره فليس معصوماً. فكثيـر من أخبار =

أهلِها فيعلَمُها فصارَ معجزاً ممتنعاً .

والثاني : أنَّهم اقترحوا تحدِّيه ممَّا لم يكنْ مبتدئاً، ولا كان له متناهياً من غَوَامض أسرارٍ وغرائب أخبارٍ جعلُوها حِجَاجاً له وعليه، ففَصَحَ بالجواب عن سرائِرِها وصدعَ بنعتِ غَوامِضِها، فخرجَ عن العُرف إلى ما ليسَ بعُرفٍ فصارَ معجزاً .

فصل :

[إعجازه في الإخبار بما سيكون]

والوجه الثامن : من إعجازِهِ ما تضمَّنَهُ من علمِ الغيبِ بأخبارٍ تكونُ فكانتْ كقوله لليهود: ﴿قُلْ إنْ كانتْ لكُمُ الدَّارُ الآخِرةُ عندَ اللَّه خَالِصَةً من دونِ النَّاس فتمنَّوا المَوْتَ إنْ كنتم صادقين﴾[1]، ثم قال: ﴿ولنْ يتمنَّوْهُ أبداً بما قدَّمتْ أيديهم﴾[2]، فما تمنّاه أحدٌ منهم، وكقولِهِ لقريش: ﴿فإنْ لم تَفْعَلُوا ولنْ تفعَلُوا﴾[3]، فقطعَ بأنهم

= أهل الكتاب فيها الزيادة والنقصان والتناقض والاختلاف، وهذا ظاهر جداً في «أناجيل النّصارى»، والنبي ﷺ «أميٌّ» لا يقرأ ولا يكتب، ولم يسمع بأخبار الأمم من أهل الكتاب، كما هو ثابت في تاريخ حياته قطعاً، فكان ﷺ إذا أورد أخبار الأمم السابقة من كلام ربِّه عزَّ وجل؛ يُورده على وجهه ويأتي به على نصِّه، ولا يستطيع سامعه إنكاره أو إبطاله، وعلى الأخص «أهل الكتابَيْن». وكان ﷺ إذا ذكر قَصَصَ الأنبياء وأخبار الأمم نجدها أحياناً يكرِّر القصَّة نفسَها، وأحياناً يأتي بمادَّة تاريخيَّة خاصَّةٍ به، مثل قصَّة هود وصالح ولقمان، وغيرهم. وكان فيها من الأخبار ما لا علم لأحدٍ بها، كقصَّة ذي القرنين، فالتوراة لم يرد فيها شيء من ذلك، وهذا دليل واضح وبرهان قاطع على صدق رسول الله ﷺ فيما أتى به عن اللَّه تعالى الذي أرسله، وقد تضمن القصص القرآني العِبَرَ والعِظات والحِكم للاستفادة منها والاتِّعاظ بها، وهذا ما تفقده قصص أهل الكتاب وأخبار كتبهم. انظر «كتاب الظاهرة القرآنية» لمالك بن نبي، ترجمة عبد الصبور شاهين ط. دار الفكر ـ دمشق: «بحث العلاقة بين القرآن والكتاب المقدّس» ص ١٩٧ ـ ٢٤٩؛ لترى الفارق بين الحق والباطل!!.

(١) سورة البقرة، الآية ٩٤.

(٢) سورة البقرة، الآية ٩٥.

(٣) سورة البقرة، الآية ٢٤.

لا يفعلُون، فلم يفعلُوا، وكقوله: ﴿سَيُهْزَمُ الجَمْعُ ويُولُّونَ الدُّبُرَ﴾[1]، وكان ذلك في يوم بدرٍ، وكقوله تعالى في هجرته من مكة إلى المدينة: ﴿إنَّ الَّذي فَرَضَ عليكَ القُرْآنَ لَرَادُّكَ إلى مَعَادٍ﴾[2]، فأعَادَهُ اللَّهِ إلى مكة عامَ الفتح، إلى غير ذلك من نظائرِهِ[3].

فإن قيل: فقد يكون ذلك حَدَساً بشواهدِ الأفعالِ وفرَاسَة بفضل الألمعيَّة، وقوَّة الفطنة[4]، فعنْهُ جوابان:

أحدُهما: أنَّ الحدسَ والفراسةَ[5] وإن أصاب بهما تارةً فقد يُخطىء بهما أخرى، وهذا إصابة في الجميع فخرجتْ عن الحدثِ والفراسةِ إلى علم من لا تخفى عليه الغُيوبُ!!.

---

(١) سورة القمر، الآية ٤٥.

(٢) سورة القصص، الآية ٨٥.

(٣) كقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ المسجدَ الحرامَ إن شاءَ اللَّهُ آمنين﴾ [سورة الفتح، آية ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿وهم مِنْ بعدِ غَلَبِهم سَيَغْلِبُون * في بِضْعِ سِنِيْنَ﴾ [سورة الروم، آيتان ٣ ـ ٤]، وقوله تعالى: ﴿ليظهِرَهُ على الدِّينِ كلِّهِ﴾ [سورة التوبة، آية ٣٣]، وقوله تعالى: ﴿وعَدَ اللَّهُ الذين آمنوا منكم وعمِلُوا الصَّالحات﴾ [سورة النّور، آية ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿إذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ والفتحُ﴾ [سورة النصر، آية ١]، فكان جميع هذا كما قال سبحانه، فغلبت الرومُ فارس في بضع سنين، ودخل النّاسُ في الإسلام أفواجاً، فما مات ﷺ وفي بلاد العرب كلها موضع لم يدخله الإسلام!! واستخلف أصحابه في الأرض، ومكَّنَ لهم فيها دينَهُم، وملَّكهم مشارق الأرض ومغاربَها!!.

(٤) الأليق بمقام إثباتِ النُّبوَّة، وإظهار خصائصها ألَّا تُذْكَرَ هذه الاعتراضاتُ الباطلة السَّخيفة.

(٥) الحَدَس: الظَّنُّ والتخمينُ. وتحدَّثتُ الأخبارَ وعن الأخبار: إذا تخبَّرتَ عنها وأردتَ أن تعلمها من حيثُ لا يُعْلَمُ بك. [الصحاح في اللغة والعلوم ج ٢٤٣/١، للمرعشلي]. والفِرَاسَةُ: نوعٌ من المعرفة تُعْلَمُ بالدَّلائل والتجارب والخَلْقِ والأخلاق، فتُعرف به أحوالُ النَّاس. [النهاية في غريب الحديث لابن الأثيرج ٤٢٨/٣]. وأمّا حديث: (اتَّقُوا فِرَاسَةَ المؤمن فإنّه ينظرُ بنور اللَّه) فهو لا يصح ولا يثبت عن النبي ﷺ. انظر الأحاديث الضعيفة للشيخ محمد ناصر الدِّين الألباني رقم ١٨٢١.

والثاني: أن الحدسَ والفراسةَ تَوَهُّمٌ غيرُ مقطوعٍ بهما قبلَ الوجود، وهذه أخبارٌ بأنَّه مقطوعٌ بها قبلَ الوجود فافترَقُوا.

فصل:

[إعجازه في إخباره عمَّا في القلوب]

والوجهُ التَّاسعُ من إعجازه: ما فيه من الأخبارِ بضمائرِ القُلوبِ التي لا يصلُ إليها إلَّا علَّامُ الغُيوب كقوله: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾[1]، من غير أن يظهرَ منهم قولٌ أو يُوجد منهم فَشَلٌ، وكقوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾[2]، فكان كقولِهِ، وإنْ لم يتكلموا به، إلى غير ذلك من نظائره.

فإن قيل: فالجمعُ الكثير تخلف ضمائرهم في العرف، فإن وُجِدَ ذلك في بعضِهم لم يُوجدْ في جميعِهم، فإن لم يخلُ أنْ يعقدَهُ بعضُهم خَلاَ منهُ بعضُهم، فتقابَلَ القولَانِ فيهم، وبطلَ إعجازُهُ معهم[3]، فعنْهُ جوابان:

أحدُهما: أنَّهم وُجِّهُوا بهذا الخبر على العموم فلم يُنكِرُوهُ، فزال هذا التفصيل، فصارَ معجزاً.

والثاني: أنَّه جعلَهُ ذنباً لهم، فلم يتنصلوا منه، فدلَّ على وجودهِ من جميعهِ.

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٢٢.

(٢) سورة الأنفال، الآية ٧.

(٣) ذِكْرُ هذه الاعتراضات الباطلة السَّخيفة مدعاةٌ لضعاف الإيمان للتخلي عمَّا عندهم من آثاره، ولهذا يسعى أصحاب الدعوات الهدَّامة إلى تَسَقُّطِ مثل هذه الأباطيل لردِّ المسلمين عن إسلامهم. وكما ذكرتُ في عدَّة تعليقات أنَّ من منهج المتكلمين الخوض في مثل هذه الأقاويل الباطلة للردِّ عليها، وهم في ذلك لا للإسلام نصروا ولا للأعداء كسروا، وجلُّ عملهم كان يدور في الجدل الذي يسعى أصحابه إلى كسر كل واحد منهم لخصمه؛ ولهذا لم يكن لمنهجهم أثرٌ بالغٌ في الدعوة إلى الله تعالى.

فصـل :

[إعجازه في جزالة ألفاظه][1]

والـوجهُ العـاشـرُ من إعجـازهِ : أنَّ ألفـاظَ القـرآن قـد تشتمـلُ على الجـزل المُسْتَغْرَبِ، والسَّهْلِ المستَقْرَبِ، فلا يتوعَّر جزلُهُ ولا يُسْتَرْذَلُ سَهْلُهُ، ويكونـان إذا اجتمعَا مطبوعين غير متنافِرَين، ولا نجد ذلك في غيرهِ من كلامِ البشرِ، لأنَّ جَزْلَهُ يتوعَّر وسهلَهُ يسترذَلُ، والجمع بينهما يتنافر، فصار من هذا الوجه مُبَايِناً وفي الإعجاز داخلاً.

فـإن قيل : إنَّمـا كان القـرآن كذلـك، لأنَّه قـد تَوَطَّـأ بكثرة التـلاوة فاستلذتْـهُ الأسماعُ، واسْتَحْلَتْهُ الألْسُنُ، ولولاه لتَبَايَنَ واختلفَ، فعنه جوابان :

أحدُهما : أنَّ صفتَه عند أوَّل سماعهِ لو كانت لِما ذُكر من العلّة لاختـلافٍ في مباديهِ وغايتهِ.

والثاني : أنَّ غيرَه من الكلام المختلف لا يتوطَّأ بكثرة ذكرهِ فبطلتِ العِلَّة[2].

---

(١) من عظيم إعجاز القرآن الكريم «الرَّوْعَةُ» التي تلحقُ قلوبَ سامعيه، والهَيْبَةُ التي تعتريهم عندَ تلاوتِهِ!! لقوَّة حاله وعلوِّ مقاله!! فالمؤمن يسعدُ قلبُهُ بروعته وهيبته وجلاله، والظالم المكذِّب بآيات ربِّهِ يشتثقل سماعه، ويزداد نُفُوراً من رحمته عند تـلاوة آياتـه. كما قـال اللّه تعالى : ﴿وأمَّا الذين في قلوبهم مرضٌ فزادتْهُمْ رِجْساً إلى رِجْسِهِم﴾ [سورة التوبة، آية ١٢٥]، وكما قال تعالى في أهل الإيمان : ﴿فأمَّا الذين آمنوا فزادَتْهُمْ إيماناً وهم يستبشِرُون﴾ [سورة التوبة، آية ١٢٤]. إنَّ القلوب المؤمنة الحيَّة تتذوَّق كلام اللّه تعالى، وتدرك آياته في مغزاها القريب والبعيد، وهي تحسُّ بهذا كله إحساساً دقيقاً. فهذا القرآن الكريم بخصائصه العظيمة «روحٌ من اللّه تعالى» يُحيي به سبحانه المؤمنين الحياة الطيبة الهانئة السَّعيدة بكـل معاني الحيـاة القويَّة، قال سبحانه : ﴿وكذلك أوحينا إليـك رُوحاً من أمـرنا مـا كنتَ تدرِي مـا الكتابُ ولا الإيمان ولكنْ جعلناه نوراً نُهدي به من نشاء من عبادنا وإنَّك لتهدي إلى صـراطٍ مستقيم * صـراطِ اللّهِ الذي لـه ما في السمٰوات ومـا في الأرض ألا إلى اللّهِ تصيـرُ الأمـورُ﴾ [سـورة الشورى، آيتان ٥٢ ـ ٥٣].

(٢) إعجاز القرآن العظيم فوق كلِّ اعتراض، وهو غني عن كلِّ دفاعٍ مصطنعٍ بألسنة أهل الكلام على هذه الطريقة من التعليل والعلل، فإذا نظرنا إلى حال عُتْبَةَ بن ربيعة ـ وهـو من رؤوس =

فصـل:

[إعجاز القرآن في تلاوته وترتيله][1]

والوجهُ الحـادي عشر من إعجـازهِ: أنَّ تلاوتَـهُ تختصُّ بخمسة بـواعث عليه لا تُوجَدُ في غيرهِ، أحدُهـا: هَشَاشَـةُ مَخْرَجِـهِ. والثاني: بَهْجَـةُ رَوْنَقِهِ. والثـالث: سَلاسَةُ نَظْمِهِ. والرابع: حُسْنُ قُبولِهِ. والخامسُ: أنَّ قارِئَهُ لا يَكلُّ وسَامِعُهُ لا يَمَلُّ، وهذا في غيرهِ من الكلام معدومٌ.

فإن قيل: إنَّما وقعَ في النُّفوس هذا الموقع فعنْهُ جوابان:

أحـدُهما: أنَّ هـذا موجـودٌ في غيرهِ من كتبِ اللّه تعـالى كالتَّـوراة والإنجيل والزَّبور، وليس يوجد ذلك فيها مع وجودِ هذا التَّعليل، ولذلك ما اسْتَعَانَ أهلُها على اسْتِحْلَاء تلاوتِها بما وَضَعُوهُ لها من الألحان واسْتَعْذَبُوهُ لها من الأصـوات، والقرآنُ مستغْنٍ عن هذا بصيغةِ لفظِهِ، فلذلك ما رَاعَ وَهيْجَ الطِّباع.

= الشرك والكفر ـ لمَّا كلَّم النبيِ ﷺ فيما جاء به من عندِ اللّه تعالى، فتـلا عليه ﷺ من سـورة «حَـمٓ» فصِّلت، فأمسك عتبةُ بيده على فِـيْ النبي ﷺ، وناشدَهُ الرحمَ أن يكفَّ. وقامَ عتبةُ بما لا يدري بما يراجعه، ورجع إلى أهله، ولم يخرج إلى قومه حتى أتوه، فاعتذر إليهم، وقال: لقد كلَّمني بكلامٍ واللّهِ ما سمعتْ أذنايَ بمثلِهِ قط!! فما دريتُ ما أقولُ له.

وقد ثبت في التاريخ أنَّ مَنْ أراد معارضةَ القرآن الكريم كانت تعتريه روعةٌ وهيبةٌ كفَّ بها عن ذلـك. ومن كابـر على تحدي إعجـازه يُصبح أضحـوكة الصبيـان فيمـا يـزعمـه أنَّـه آيـات كالقرآن!!.

(١) من إعجاز القرآن العظيم أنَّ سامعه لا يمجه وقـارئه لا يملّه، فتلذُّ لـه الأسماع وتشغف لـه القلوب، فلا تزيده تلاوته إلّا حلاوة، ولا ترديده إلّا محبةً، ولا يزال غضّاً طريّـاً، وغيره من الكلام يُمل مع الترديد ويُعادَى إذا أُعيد؛ لأنَّ إعادة الحديث على القلب ثقيل، وكتـابُ ربِّنا سبحانه لا يملّه السمع ولا يسأمه القلب!! يُستلذ به في الخلوات، ويُؤنس به في الأزمات، وسواه من الكتب لا يُوجد فيها ذلك، ولقد وصفه رسول اللّه ﷺ فقال: (لا يخلَقُ على كثرة الرَّدِّ، ولا تنقضي عِبَرُهُ، ولا تفنَى عجائبه، ليس بالهزل، لا يشبع منه العلماء، ولا تزيـغ به الأهـواء، ولا تلتبس به الألسنـة) الحديث. [معتـرك الأقـران في إعجـاز القـرآن: للحـافظ السيوطي ج ١/١٨٤].

والثاني: التَّدَيُّن لا يسلبُ العقولَ تمييزَها ولا يُفسدُ عليها تصوُّرَها وهو بأن يزيدَها بصيرةً أَوْلى من أن يُنقصها، ولو كان لهذه العِلَّةِ لجحدَهُ مَنْ كفَر كما اعترف بهِ من آمَنَ، وقولُ الجميعِ فيه سَوَاء.

فصل:

[إعجازه في حفظه وصونه وعصمته]

والوجه الثاني عشر من إعجازهِ: أنَّه منقول بألفاظٍ منزَّلَةٍ، ومعانٍ مُسْتَوْدَعَةٍ، وبلَّغَهُ المَلَكُ بلفظِهِ، وعلى نظمِهِ[1]، وأدَّاه الرسول إلى الأُمَّةِ بمثلِه، فلم ينخرمْ فيه لفظٌ، ولا اختلَّ فيه معنىً، ولا تغيَّر له ترتيبٌ، حتى صارَ من الزلل مَضْبُوطاً، ومن التَّبديل مَحْفُوظاً، تستمرُّ به الأعصارُ على شاكلتِهِ، وتتداوَلُهُ الألْسُنُ مع اختلافِ اللُّغاتِ على نظمِهِ وصفتِهِ، لا يختلف بتعاقب الأَزْمِنَةِ، ولا يختلُّ بتباعُدِ الأمْكِنَةِ، ولا يتغيَّرُ باختلافِ الألسنَةِ، وغيرُهُ من الكتب مقصورةٌ على حفظ معانيها، وإنْ غُوْيِرَتْ ألفاظُها، فإنَّ التَّوراةَ ألقى اللَّه تعالى معانيها إلى موسى عليه السَّلام، فذكرها بلفظِهِ وعبَّر عنها بكلامهِ[2].

وأمَّا الإنجيل فهو ما أخبرَ به عيسى عليه السَّلام عن ربِّهِ، وعن نفسهِ، فجمعَهُ

---

(١) إنَّ ترتيب ألفاظ القرآن بهذا الإحكام هو علم اللَّه تعالى بإحاطته أيَّ لفظة تصلح أن تلي الأولى، وتبيِّن المعنى بعد المعنى، وهكذا من أول القرآن إلى آخره، ولو نُزِعَتْ منه لفظة ثم أدير لسان العرب على لفظةٍ أحسنَ منها لم يُوجدْ!!!

ومن إعجاز القرآن العظيم: أنَّ من اقتصرَ على معانيه وغيَّرَ حروفَهُ أذهبَ رونقَهُ، ومن اقتصرَ على حروفه وغيَّر معانيَهُ أبطلَ فائدته، فكان ذلك أبلغ في الدَّلَالة على إعجازه!!!.

(١) التوراة: كلام اللَّه تبارك وتعالى لفظاً ومعنىً، وموسى عليه السَّلام لم يُعبِّر بكلامه عن كلام اللَّه تعالى، وإنَّما بلَّغَ كلامَ اللَّه تعالى المكتوب في التوراة، فقارئُهُ قارئٌ لكلام اللَّه تعالى حقيقةً، وسامعُهُ سامعٌ لكلام اللَّه تعالى حقيقةً. ونعني بالتوراة هنا: «التوراة التي أنزلها اللَّه تعالى في الألواح على موسى عليه السَّلام» لا التي بأيدي اليهود اليوم.

تلامذتُهُ بألفاظِهِم وجعلُوها كتاباً متلوّاً[1].

وأمَّا الزَّبُورُ فأدْعِيَةٌ بتحاميد وتسابيح تُنْسَبُ إلى داود عن لفظهِ[2]، ولئن كانت معاني هذه الكتب مضافَةً إلى اللّه تعالى فليستْ بصيغةِ لفظهِ ولا على نظمِ كلامهِ[3]، كما نزلَ القرآنُ جامعاً لألفاظهِ ومعانيهِ وترتيبه، فصارَ مُبايناً لجميعِ كتبهِ، وما هذا إلاَّ بمعونةٍ إلَهيَّةٍ حفظ اللّه تعالى بها إعجازَهُ وأمدَّ بها رسولَهُ، كما قال تعالى: ﴿إنَّا نحنُ نَزَّلْنا الذِّكْرَ وإنّا لهُ لحافِظُون﴾[4].

فإن قيل: فحفظ الكلام على صيغة لفظهِ واشتمالِ معانيهِ لا يكونُ معجزاً كأشعار الجاهلية القدماء، وأمثال مَنْ سَلَفَ من الحكماء، فعنْهُ جوابان:

أحدُهما: أنَّ في هذا محولاً ومتروكاً فلم ينحفظ.

والثاني: أنه لا يُعْلَمُ حالُهُ فلم ينضبط، والقرآنُ مخالفٌ لهما في حفظهِ وضبطهِ.

فصل:

[إعجاز القرآن في شموليّة معانيه]

والوجهُ الثالث عشر من إعجازهِ: اقترانُ معانيهِ المتغايرةِ واقترانُ نظائرِها في

---

(١) الإنجيل: كلام اللّه تبارك وتعالى حقيقةً، أوحاه اللّه سبحانه إلى «عيسى عليه السَّلام» فجمعه تلامذته بعدما سمعوه وتلقَّوْهُ من «رسول اللّه عيسى عليه السَّلام»، ولم يجعلوه هم كتاباً متلوّاً، بلِ اللّهُ تعالى جعله كتاباً متعبَّداً بتلاوته. فتنبَّه.

(٢) الزَّبور: هو كلام اللّه تعالى قد أثبته سبحانه في القرآن حيث يقول: ﴿وآتينا داودَ زَبُوراً﴾ [سورة الإسراء، آية ٥٥] فقول المؤلف: «تُنسب إلى داود» فيه احتمال الثبوت، واللّه تعالى أثبته له عليه السَّلام.

(٣) هذا التمييز لا يصح، بل الصحيح الثابت أنّ الزبور هو كلام اللّه تعالى بلفظه ومعناه، مضافاً إليه سبحانه.

(٤) سورة الحجر، الآية ٩.

السُّوَر المختلفة، فيخرجُ في السورة من وَعْدٍ إلى وَعِيدٍ ومن ترغيبٍ إلى ترهيبٍ، ومن ماضٍ إلى مستقبلٍ، ومن قصصٍ إلى مَثَلٍ، ومن حِكَمٍ إلى جَدَلٍ، فلا ينبُو ولا يتَنَافَرُ، وهي في غيرهِ من الكلام متنافرةٌ فتتجَانَسُ معانيها، وكذلك هي في غيرهِ من الكتب المنزَّلَة مفصَّلة لكل نوع سفر، فإن التَّوراة مقسومة على خمسة أسفارٍ، وكلُّ سِفْرٍ منها مُفْرَدٌ بمعنًى واحدٍ من المعاني المستودعة فيها[1].

فالسِّفْرُ الأوَّل لذكرِ بدء الخلق، والسِّفْرُ الثاني لخروج بني إسرائيل من مصر، والسِّفْرُ الثالث لأمر القرابين، والسِّفْرُ الرابع لإحصاء موسى بني إسرائيل وما دبَّرهم به، والسِّفْرُ الخامس لتكرير النَّواميس. وجعل اختلاف معانيها موجباً لتفاضلها، فكان أفضل ما في التوراة عند اليهود العشر الكلمات المشتملة على الوصايا التي خَاطَبَ اللَّهُ تعالى بها موسى وبها يستحلِفُون دونَ غيرِها.

وأفضل ما في الإنجيل الصحف الأربعة المنسوبةُ إلى تلامذة المسيح الأربعة[2] وهي المخصوصة بالقراءة في الصلاة والأعياد.

وأفضل ما في الزَّبُور ما اتفق أهلُ الكتابَيْن على اختيارهِ، وما اشتمل عليه

---

(١) هذه الأسفار لا نقطع بثبوتها أنها كانت هكذا فيما أوحاه اللَّه تعالى إلى رسوله موسى عليه السَّلام في التوراة لأنَّ اللَّه تعالى أخبر عنهم أنهم يُحرِّفون الكَلِم، عن مواضعه. وقد ثبت في تاريخهم أنَّ تدوين الأسفار قد جاء على فترات متباعدة من الزمن. وقد تمَّ جمع ما في أيدي اليهود بعد السبي البابلي، وإنَّ ما حفظ من توراة موسى عليه السَّلام هو قليل جداً نسبة إلى ما دوَّنه اليهود من تخيُّل عقائدي، ولذلك ورد في سفر التكوين عقائد وثنية، وكذلك في سفر الخروج، وفي سفر التثنية [انظر كتاب «عقائد الوثنية في الديانة اليهودية» لحسن الباش ط. دار قتيبة دمشق ص ٢٠ و٣٣ و٤٦].

(٢) الأناجيل الأربعة المنسوبة إلى «متى» و«مرقص» و«لوقا» و«يوحنّا» هذه على اختلافها وتناقضها تُعنى بشرح الظروف التاريخية لحياة المسيح عليه السَّلام وحوارِيِّيه. وقد أُدخل على نصوصها الكثيرُ من عقائد الوثنية. [انظر كتاب «عقائد الوثنية في الديانة النصرانية» لمحمد طاهر التَّنِّير ـ رحمه اللَّه تعالى ـ الذي ألفه وجعله هدية للمبشرين في ديار المسلمين الذين يريدون تنصيرهم وإخراجهم من عقيدة التوحيد التي جاء بها رُسُلُ اللَّه أجمعين].

القرآن من تغايرها، أولى من وجهين:

أحدُهما: أنْ لا يختصَّ قارِئُهُ بأحدِها فيعدلُ عن غيره.

والثاني: أن يستوعِبَ إذا أرادَ جميعها قراءةَ جميعِهِ فيستكمل فوائِدَهُ ويستجْزِلُ ثوابَهُ.

فإن قيل: فالتفصيلُ أبلغُ في البَيَانِ من الامتزاج، فالجواب عنه ما ذكرناه من الوجهين.

فصل:

[إعجاز القرآن في أسلوب فصاحته]

والوجهُ الرابعَ عشر من إعجازِهِ: أنَّ اختلافَ آياتِهِ في الطُّول والقِصَرِ لا يخرجُ عن أسلوبهِ ولا يزولُ عن اعتدالِهِ، وغيرُهُ من نظمِ الكلامِ ونثرِهِ إذا تفَاضَلتْ أجزاؤُهُ زالَ عن وَزْنِ منظومِهِ واعتدالِ منثورِهِ، فصارَ ذلكَ من إعجازِهِ.

فإن قيل: زيادةُ طولِهِ هَذْرٌ، ونقصانُ قصرِهِ حَصْرٌ[1]، فكيف يكون معجزاً إذا تردَّدَ بين هَذْرٍ وحَصْرٍ، فعنْهُ جوابان:

أحدُهما: أنَّ الزيادةَ تكون هذراً إذا لم تُفِدْ، والنُّقصانُ يكونُ حصراً إذا لم يُقنعْ، والزيادَةُ من طولِهِ مفيدةٌ والنُّقصانُ من قَصْرِهِ مُقْنِعٌ؛ فخرجَ عن الهَذْرِ والحَصْرِ[2].

---

(١) هذه الأقاويل الباطلة يتنزَّه عن ذكرها أهل الإسلام، فلا يليق بجلال عظمة القرآن المجيد أن نُورد هذه الأباطيل في معرض الدفاع عنه، بل هي ساقطة باطلة من أصلها، فلا حاجة في إيرادها ثم الرَّدِّ عليها، وهذه الطريقة التي سلكها المؤلف، غفر الله تعالى له، هي طريقة أهل الجدل من الكلاميين الذين فتحوا على المسلمين أبواب إيراد الشبهات وإشغالهم بردِّها، والمسلمون بغنىً عنها بما لديهم من حقائق القرآن والسُّنَّة والحمد للَّه ربِّ العالمين.

(٢) مَثَلُ هذا الصنيع الجدلي الذي سلكه المؤلف في الدفاع عن القرآن ـ والقرآن غنيٌّ عن دفاع الجدليين ـ كمثَلِ من سقى رجلاً عسلاً ثم أذاقه حنظلاً، ثم قال له: هل عرفتَ طِيْبَ العسل؟! فالمسلمون في غنىً عن هذه الطريقة الجدلية الكلامية الحنظلية، فكان الأَوْلى أن =

والثاني: أنَّ الطويل لو انفردَ لم يكن هَذْراً، والقصيرَ لو انفردَ لم يكن حصراً، فلم يكن اجتماعُهُمَا موجباً لهذرٍ وحصرٍ كاختلافِ السُّـورِ في القَصْرِ والـطُّولِ، فإنَّ أقْصَرَ السورِ سورةُ الكوثرِ، وتشتمل مع قَصْرِهَا على أربعةِ مَعَانٍ: إخبارٌ بنعمةٍ، وأمرٌ بعبادةٍ، وبُشْرَى بمسرَّةٍ، وأسلوب هو معجزةٌ، فلم تخرج إذا قرنت بما هو أطولُ أن تكونَ معجزةً.

فصـل:

[إعجازه في خروجه عن طباع البشر]

والوجهُ الخامس عشر من إعجازِهِ: أنَّ مُكْثِرَ تِلَاوتِهِ لا يزَادُ بِهِ فصاحةً وإنْ ازْدَادَ بغيْرِهِ من فصيحِ الكلام لخروجهِ عن طباع البشرِ، فمازَجَها فصارَ أسلوبُهُ معجزاً في الحالين، وعلى كِلَا الوجهين.

فإنْ قيل: ما لا يُؤثِّرُ في الطِّباع ناقصٌ عن الكمال، فكيف يُوصَفُ بالكمـال؟ فعنْهُ جَوابَان:

أحدُهما: أنَّ كَمَالَهُ فيه، فلم يلزمْ تعدِّيه.

والثاني: أنَّ كَمالَهُ يُوجِبُ المنعَ مِنْ تَسَاوِيهِ.

فصـل:

[إعجازه في يُسْر حفظه]

والوجهُ السَّادس عشر من إعجـازِهِ: تيسيرهُ على جميـع الألسنة حتّى حَفِظَهُ الأعجمي الأبْكَمُ، ودَارَ به لِسَانُ القبطي الألْكَنُ، ولا يُحفظ غيرُهُ من الكتب كحفظِهِ،

= نُبقي على القارىء حلاوة القرآن وسلامةَ الإيمان.

إنَّ القرآنَ العظيمَ: حُجَجٌ تدحض مذاهب الكفر، ودلائـلُ تُقيمُ أركان الحق!! فهـو العالي الذي لا يناله المبطلون!! وهو السَّامي الذي لا يُضيره الجاحدون!!!.

ولا تجري به ألسنة البُكْمِ كجريها بهِ، ومـا ذَاكَ إلاَّ بخصائِص إلَهيَّـةٍ فضَّلَهُ بها على سائرِ كُتبهِ[١].

فإن قيل: فقـد يُحفظ الشِّعْرُ كحفـظهِ، والعلَّةُ فيه اعتـدالُ وَزْنِهِ الَّـذي يحفظ بعضُهُ بعضاً، فلم يكنْ ذلك معجزاً، فعنْهُ جوابان:

أحدُهما: أنَّ ما انْدرَسَ من الشِّعرِ أكثرُ ممَّـا حُفِظَ، وهذا محفـوظٌ لم يندرسْ فاختلَفا.

والثاني: ما لم تستعذْبُهُ الأفوَاهُ متروكٌ، والقرآن مُسْتَعْذَبٌ غيرُ متروكٍ فافترَقا.

فصـل:

[إعجازه في سمُوِّه على فصيح الكلام نثره وشعره][٢]

والوجهُ السّابع عشر من إعجازهِ: أنَّ الكلام يترتب ثلاث مراتب: منثورٌ يدخلُ في قدرةِ الخلقِ، وشِعْرٌ هو أعلى منه يقدرُ عليه فريقٌ ويعجزُ عنـه فريقٌ، وقـرآنٌ هو أعلى من جميعها وأفضلُ من سائرِها، تجاوَزَ رتبةَ النَّوعين فخرجَ عن قدرةِ الفريقين.

---

(١) قال اللَّه تعالى: ﴿ولقد يسَّرْنا القرآنَ للذِّكرِ﴾ [سورة القمر، آية ٢٢] وهذا من عظيم فضـل اللَّه تعالى على هذه الأمة الإسلامية حيث يسَّرَ لها حفظ القرآن عن ظهـر قلب، حتى حفظه الغلمان في أقرب مدَّة، فكان الكثير منهم من يحفظ القرآن وهـو دون العاشـرة من العمر، وجيء إلى المـأمون بصبي ابن خمس سنين وهـو يحفظ القرآن!! ومن المعـروف أن الإمام الشافعي قد حفظ القرآن وهو في الثامنة من عمره، وكذلك شيخ الإسلام ابن تيمية حفظه وهو ابن سبع سنين، والذي حفظوه في هذه الأعمار يكاد لا يُحصون على مرِّ القرون!!.

(٢) إنَّ اللَّه تعالى نزَّه كلامه عن الشعر الموزون، ورفع مرتبته عن النثر المرموق، فليس هو كالنثر ولا كالشعر، بل هو نسيج وحده!! ولهذا فقد حارت فيه عقول الفصحاء، وكلَّت عن وصفـه ألسنة البُلغاء! فهو كما قال اللَّه تعالى فيه: ﴿إنَّه لقرآن كريم * في كتـابٍ مكنون﴾ [سـورة الواقعة، آيتان ٧٧ ـ ٧٨]، ﴿بلْ هو قرآنٌ مجيدٌ * في لوحٍ محفوظٍ﴾ [سورة البروج، آيتان ٢١ ـ ٢٢]، ولهذا قال سبحانه: ﴿وما كان هذا القرآنُ أنْ يُفترَى مِن دُونِ اللَّهِ ولكنْ تصديقَ الذي بينَ يديهِ وتفصيلَ الكتابِ لا ريبَ فيه من ربِّ العالمين﴾!! [سورة يونس، آية ٣٧].

فإن قيل: لو كان القرآن برهاناً معجزاً لخرجَ كثيرُهُ وقليلُهُ على القدرةِ، وقليلُهُ مقدورٌ عليه، وهو أن يجمع بين ثلاث كلمات منه أو أربع، فكذلك كثيرُهُ لأنَّ الشيءَ إذا دخلت أوائله في جنسِ الممكن خرجتْ أواخِرُه من جنسِ الممتنع، فعنْهُ جوابان[1]:

أحدُهما: أنَّ قليلَهُ وكثيرَهُ خارجٌ عن القدرةِ، إذا انتظمَ إعجازُهُ وهو كأقصر سورةٍ منه فبطلَ هذا الاعتراض.

والثاني: أنَّه ليس القدرةُ على الكلمةِ والكلمتين منه قدرةً على استكمال ما يقعُ من التَّحدِّي كالمفحم في الشِّعْرِ لا تكونُ قدرتُهُ على الكلمة والكلمتين من بيتٍ من الشِّعْرِ قدرةً على نَظْمِ بيتٍ كاملٍ من الشّعْرِ.

فصل:

[إعجازه في عدم قبوله الزيادة فيه أو الإنقاص منه]

والوجهُ الثامن عشر من إعجازه: أنَّ الزيادةَ فيه [ممتنعة][*] وتغييرَ ألفاظِهِ منه مفتضحةٌ، ولو كان في القدرةِ لالْتَبَسَ ولو أمكنَ لاشْتَبَهَ[2].

(*) في الأصل: [ممتازة] وهي غير مستقيمةٍ، والأصح [الزيادة فيه ممتنعة] وبهذا تستقيم العبارة.

(١) لقد أغنانا اللّه تبارك وتعالى عن مثل هذه الإيرادات والمُدافعات، حيث يقول سبحانه: ﴿أمْ يقولُون افْتَراهُ؟! قُلْ فأتُوا بسورةٍ مِثْلِهِ وادْعُوا مَنِ استطعتُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ إنْ كنتُم صادقين * بلْ كذَّبُوا بما لم يُحيطُوا بعلمِهِ ولمّا يأتِهِمْ تأويلُهُ، كذلكَ كذَّبَ الذينَ من قبلِهِمْ، فانظُرْ كيفَ كان عاقبةُ الظالمين * ومنهم مَنْ يُؤمِنُ بـه ومنهم مَنْ لا يُؤمِنُ بهِ وربُّـكَ أعلمُ بالمفسـدِين﴾ [سورة يونس، الآيات ٣٨ و ٣٩ و ٤٠].

(٢) من عظيم إعجاز القرآن الكريم أنَّ الزيادة فيه مستحيلة، غيرُ مقدورٍ عليها، كما أنَّ النقصَ منه مُحَالٌ، لا يمكن بقاؤه ولا يستمرّ إجراؤه، فكم من تالٍ قد تفلَّتْ منه بعضُ ألفاظه فذُكِّرَ بها، وكم من ناسخ قد فاتته بعض كلماته فنُبِّهَ إليها، كلٌّ ذلك في حينهِ قبلَ تفشيهِ، وذلك على مدى القرون ومرِّ الدُّهور!! وفي هـذا يقول اللّه تبارك وتعالى: ﴿إنّـا نحنُ نزَّلْنـا الذِّكْـرَ وإنّا لـهُ لَحَافِظُون﴾ [سورة الحِجْر، آية ٩]!! فهو سبحانه المتكفل بحفظه والضامن في تخليدِهِ!!.

فإن قيل: فقد زِيْدَ فيه فالتبسَ واشتبَهَ، وهو أن النبي ﷺ لمّا نزلتْ عليه سورة النجم بمكّة قرأها في المسجد الحرام حتى بلغَ إلى قولـه تعالى: ﴿أفـرأيتم اللاّت والعُزّى * ومَنَاةَ الثّالِثَةَ الأُخْرَى﴾[1].

ألقى الشيطانُ على لسانـهِ: تلك الغرانيقُ العُلَى وإنّ شفـاعتهنّ لترتجَى، ثم تمم السورة وسجد فسجدَ معه المسلمون، وفرح المشركون فسجـدوا معه ورضيتْ كفارُ قريشٍ بـه، وسمعَ بـه مَنْ هاجَـرَ إلى أرض الحبشةِ فعـادوا إلى أنْ أنكر عليـه جبريل، فشقّ عليه[2]، ونزلَ فيـه قولُـهُ تعالى: ﴿ومـا أرْسَلْنا من قَبْلِكَ من رسـولٍ ولا نبيٍّ إلاّ إذا تمنّى ألقى الشّيطانُ في أمنيَّتِهِ فينسخُ اللّهُ ما يُلْقِي الشّيْطانُ ثم يُحْكِمُ اللّه آياتِهِ﴾[3]. قالوا: ومعلومٌ أنّ هذه الزيادة هي في مثل أسلوب السورة وليستْ من اللّه تعالى، وقد اشتبهتْ، فلِـمَ لا كان ما سواها بمثابتها، فعنْهُ جوابان:

أحدُها: أنّ هذه زيادة لا تبلغُ قَدْرَ التّحدّي فخرجتْ عن حكمِهِ.

والثـاني: أنه أنـزل فيها: التي عنـدهم أيّهـا الغـرانيقُ العُلَى وإنْ شفـاعتهنّ لترتجى، فاشتبه على قريش وحذفوا منـه قولـه التي عندهم فنسخَ اللّه تعالى لهـذا الاشتباه تلاوةَ هذه الزيادة.

فصل:

[إعجازه في عجز الخلق عن الإتيان بمثله]

والوجهُ التّاسع عشر من إعجازِهِ: عجزُ الأممِ عن معارضتِهِ وقد تحـدّاهم أن

---

(١) سورة النجم، آيتان ١٩ و ٢٠.

(٢) قصة الغرانيق هذه باطلة لا تثبت ولا تصح، فلا يصلح الاستشهاد بها في إثبات عصمة القرآن من الزيادة فيه.

ولقد ألّف الشيخ المحدِّث ناصر السُّنّة «محمد ناصر الدِّين الألباني» رسالـةً في بيان بـطلان قصة الغرانيق وأسماها «نصب المجانيق لنسف قصّة الغـرانيق» جزاه اللّه تعـالى كلَّ خيـرٍ، وبارك اللّه في عمره، ونفع المسلمين بعلومه وتحقيقاته، آمين.

(٣) سورة الحج، الآية ٥٢.

يأتوا بسورةٍ مثلِه[1]، فلم تخرجْهُم أنَفَةُ التَّحدِّي، وصبروا على نَغْصِ العجزِ مع شدَّةِ حميَّتِهم وقوَّةِ أنَفَتِهم، وقد سفَّهَ أحلامَهم وسبَّ أصنامَهم، ولو وجدوا إلى المعارضة سبيلاً، وكان في مقدورِهم داخلاً، وقد جعلَهُ حجةً لهم في ردِّ رسالتِهِ؛ لَعَارَضُوه، ولَما عَدَلُوا عنه إلى بذلِ نفوسِهم في قتالِهِ وسفك دمائهم في محاربته.

فإن قيل: فليسَ يمتنعُ أن يكونُوا قد عارضوه بمثلِهِ فكُتِمَ كما كُتِمَ ما هُجِيَ به من الأشعار، وقرف به من المُعَار، فعنه جوابان:

أحدُهما: أنَّهم لو عَارَضُوه لظهرَ، ولو ظهرَ لانتشرَ، لأنَّ تكاتُمَ الاستفاضة لا تُسْتَطاعُ لِما في الطِّباع من الإذاعة، وفي نفثات الصُّدور من الإشاعة، ولقيلَ؛ قد عُورِضَ فكُتِمَ، كما قيل: هُجِيَ فكُتِمَ، ولو جاز هذا في معارضة القرآنِ لجازَ مثلُهُ في معجزةِ كلِّ نبيٍّ أن يُقَالَ قد عُورِضَ معجزةٌ فكُتِمَ فيُفضِي إلى إبطالِ كلِّ معجزٍ، وهذا مدفوعٌ في معارضة غيرِ القرآن، فكان مدفوعاً في معارضة القرآن.

---

(١) إنَّ هذا التحدِّي قد جعله اللّه تعالى حُجَّةً ساطعةً وبرهاناً واضحاً على أنّ هذا القرآن ﴿لكتابٌ عزيزٌ * لا يأتيهِ البَاطِلُ مِنْ بينِ يديهِ ولا مِنْ خلفِهِ تنزيلٌ مِنْ حكيمٍ حَمِيدٍ﴾ [سورة فُصِّلت، آيتان ٤١ ـ ٤٢]، وآيات التحدِّي هي قوله تعالى في سورة الإسراء آية ٨٨: ﴿قُلْ لئِنِ اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآنِ لا يأتونَ بمثلِهِ ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظهيراً﴾، وقوله سبحانه في سورة هود آية ١٣: ﴿أمْ يقولُون أفتراهُ قُلْ فأتُوا بعَشْرِ سورٍ مِثْلِهِ مفترَياتٍ وادْعوا مَنِ استطعتم من دُونِ اللّهِ إنْ كنتُمْ صادقين﴾، وقوله سبحانه في سورة يونس آية ٣٨: ﴿أمْ يقُولُون أفتَرَاهُ قُلْ فأتُوا بسورةٍ مثلِهِ وادْعوا مَنِ استطعتُمْ من دُونِ اللّهِ إنْ كنتم صادِقين﴾، وقوله تعالى في سورة البقرة، آيتان ٢٣ ـ ٢٤: ﴿وإنْ كنتُمْ في ريبٍ ممّا نزَّلنا على عبدِنا فأتُوا بسورةٍ مِنْ مثلِه وادْعُوا شُهَداءَكم مِنْ دُونِ اللّهِ إنْ كنتُمْ صادقين * فإنْ لم تفعلوا ولنْ تَفْعَلُوا فاتَّقوا النّارَ التي وَقودُها النّاسُ والحجارَةُ أُعِدّتْ للكافرين﴾.
فلمّا دَعَاهم اللّه تعالى إلى ذلك وهم أهل الفصاحة والبلاغة، وأصحاب البيان وبديع الكلام، هَامُوا في معانيه، فعجزوا عن الإتيان بمثله، وضعفُوا عن معارضته!! فلم يخفَ عن مكابرهم ولا عن جاحدهم أنّ صارفاً إلّهيّاً قد صرفهم عن ذلك. وأيُّ إعجازٍ أعظم من أن يكون كافة البلغاء وجميع الفصحاء عاجزين في الظاهر عن معارضته، ومصروفين في الباطن عن مجاراته!!! فثبتَ أنّ القرآنَ العظيم كلامُ ربِّ العالمين!!! فالحمد للّه في كلِّ حين!!!.

والثاني: أنَّه قد جعل معارضَتَهُ حجةً لهم في رَدِّ رسالتِهِ، فلو عارضوهُ لاحتجُّوا عليه بالمعارضة، ولما احتاجُوا معه إلى القتال والمُحاربةِ، مع بذلِ النفوسِ واستهلاكِ الأموال، ولَدَفَعُوهُ بالأهونِ دونَ الأصعب، وقد نُقِلَ ما عُورِضَ به فظهرَ فيه العجزُ، وبانَ فيه النَّقص، حتى فضحته ركاكةُ لفظِهِ وسخافَةُ نظمِهِ.

فحكى ابن قتيبة عن مسيلمة أنّه قال في معارضة القرآن: يا ضفدعُ نقي، كم تنقين، لا الماء تُكَدِّرين، ولا الشَّرابَ تمنعين. فلمَّا سمعَ هذا أبو بكر رضي اللّه عنه قال: إن هذا الكلام لم يخرج من إلٍّ.

وحُكي عن غيرِهِ، وأحسبه العنسي، أنَّه قال: ألم تَرَ كيفَ فعلَ ربُّكَ بالحُبْلَى أخرجَ من بطنِها نسمةً تسعَى من بينَ شراسِيفَ وحَشَى.

وحُكي عن آخر: الفيل ما الفيل له ذنب وثيل، ومشفَرٌ طويل، فإن ذلك من خلقِ ربِّنا لقليل.

وحكى الحكم عن عكرمة أن النَّضْرَ بن الحرث، وكان من فصحاءِ قريش، عارض القرآن فقال: والزَّارِعَاتِ زرعاً، والحاصدات حصداً، والطاحنات طحناً، والعاجنات عجناً، والخابزات خبزاً، فاللاقمات لقماً.

وقال آخر: قد أفلحَ مَنْ هَيْنَمَ في صلاتِهِ وأطعمَ المسكين من مخلَّاته، وأخرجَ الواجب من زكاته.

وقال آخر: في معارضة سورة النجم: والنجم إذا سما والبحر إذا طَمَا، ما زاغَ مُنْذِرُكم وما طغى وما كذب بها وغوى فيما نطقَ به وروَى.

فأنزل اللّه تعالى في ذلك: ﴿ومَنْ أظْلَمُ ممَّنِ افترى على اللّه كَذِباً أو قالَ أوْحِيَ إليَّ ولم يُوحَ إليهِ شيءٌ﴾[1]. فهذه المعارضة وقد احتذوا فيها مثالاً عدلُوا بها

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٩٣.

عن طِوَالِ السُّور إلى قصارها، فأتوا بسقيم الكلام، دونَ سليمِهِ وبسخيفهِ دون جميلِهِ، فكيف يُقابل به غايته القُصْوَى ويُوازي به طبقتَهُ العُليَا[1]، وهل ذلك إلّا كمن عارض فصاحةَ سحبانٍ بعِيٍّ بَاقِلٍ، أو تخليطِ مجنونٍ بحزمِ عاقلٍ، أو قاس الدُّرَّ بالمَدَرِ، وشاكل بينَ الصَّفْوِ والكَدَرِ، ومَنْ تعاطى ما ليس في طبعهِ افتضح، فخرَّ صريعاً وهوَى سريعاً.

فصل:

[إعجازه في الصَّرف عن معارضته]

الوجهُ العشرون من إعجازِهِ: الصَّرْفَةُ عن معارضتِهِ، واختلفَ مَنْ قال بها هل صُرِفُوا عن القدرة على معارضته أو صُرِفُوا عن معارضته مع دخولِهِ في مقدورِهم على قولين:

أحدُهما: أنَّهم صُرِفُوا عن القدرة، ولو قدروا لعَارَضُوهُ.

والقولُ الثاني: أنَّهم صُرِفُوا عن المعارضة مع دخولِهِ في مقدورِهم. والصَّرفَةُ إعجازٌ على القولين معاً في قول مَنْ نَفَاهَا وأثبتها، فخرقها للعادةِ فيما دخلَ في القدرة.

فإن قيل: فإنْ عجزوا عن معارضتِهِ بمثلِهِ لم يعجَزُوا عن معارضتِهِ بما تقاربَهُ، وإن نقصَ عن رتبتِهِ، والمعجز ما لم يمكن مقاربتُهُ كما لا يمكن مماثلتُهُ، فعنه جوابان:

أحدُهما: أنَّ مقاربتَهُ تكون بما في مثلِ أسلوبِهِ إذا قَصُرَ عن كمالِهِ، والأسلوب ممتنعٌ، فبطلتِ المقاربةُ وثبت الإعجازُ.

---

(١) في هذه المقارنة التي ساقها المؤلف رحمه الله تعالى كشفٌ تاريخي عن المحاولات التي جرت لمعارضة القرآن الكريم كيف جرَّت أصحابها إلى مهاوي الذُّلِّ والخزي حيث أصبحوا أضحوكة الصبيان على مرِّ الزمان على هذا الهذيان!!.

والثاني: أنَّ المقاربـةَ تمنعُ من المُمَـاثَلَةِ، والتَّحدِّي إنَّمـا كان بـالمثل دون المقاربة.

فصـل:

[استمرار الإعجاز في التَّحدِّي](1)

فإذا ثبت إعجازُ القرآن من هذهِ الـوجوهِ كلِّهـا صحَّ أن يكـونَ كلُّ واحـدٍ منها معجزاً، فإذا جمع القرآنُ سائِرَها كان إعجازُهُ أقهرَ، وحجـاجُهُ أظهـرَ، وصارَ كفَلْقِ البحرِ، وإحياءِ الموتَى، لأنَّ مَدَارَ الحُجَّـة في المعجزةِ إيجـادُ ما لا يستـطيعُ الخلقُ مثلَهُ، سواء كان جسماً مختَرعاً أو جُرْماً مُبْتَدَعاً، أو عَرَضاً مُتَوهَّماً.

فإن قيلَ: أفيعتبرون عجزَ العربِ العَاربةِ عنه دون المولَّدين أو عجزَ الجميع؟

قيلَ: فيه خلافٌ بين أهل العلم على وجهين:

أحدُهما: أن المعتَبَر فيه عجزُ الجميعِ ليكون أعمَّ.

والوجه الثاني: معتبَرٌ فيه عجزُ العرب العاربة دونَ المولَّدين ليكون معتبَراً بمن يلجأ إلى طبعه ولا يُعَوَّل على تكلُّفِهِ وتعلُّمِهِ. وهكذا اختلفوا هل يُعتَبَرُ فيه عجزُ أهلِ

---

(1) لقد كـان القرآن العظيم وما زال قائماً بإعجازه، وافياً بحاجات البشر في الإقناع والتحـدِّي كلَّما انفتح قـرنٌ بما عنـده من العلم، وما زالَ العلمُ يكشف عن أسـرار القرآن كـل يوم عن جديد، بل ويكشف القرآن عن أخطاء العلماء في أحـدث نظريَّـاتهم. لقد صحَّـح، القرآنُ العظيم كثيراً من النظريات العلمية التي كانت سائدة في كل عصر، وهو يسجِّلُ في مكان تلك النظريات حقائقه الثابتة التي لا تقبل التغيير ولا التبديل، فكـان ذلك، إلى جـانب الحقائق القرآنية الكونية في الدعوة إلى الخالق العظيم الحكيم المبدع، تحدِّياً للعقل البشري بإحقاق الحق وإزهاق الباطل.

وصدق اللّه العظيم في تحدي إعجاز كلامه، كما تحدَّى سبحانه العـالمين بخلق ذُبَابَـةٍ في قوله: ﴿إنّ الـذين تَدْعُـون من دُونِ اللّهِ لن يخلقُوا ذُبَـاباً ولـو اجْتَمَعُوا لـهُ﴾ [سورة الحج، آية ٧٣]، فلم يقدروا ولن يقدروا، وستبقى آيات اللّه الكونية وآياته القرآنية إعجازاً يتحدّى المؤمنون بها جميعَ أهلِ الكفر والطغيان على مرِّ الدُّهور والأزمان!!.

عصرِهِ أو في جميعِ دهرِهِ على هذين الوجهين:

أحدُهما: يُعتَبَرُ فيه عجزُ أهلِ العصرِ لأنَّهم حُجَّةٌ على أهلِ كلِّ عصرٍ.

والوجه الثاني: أنَّه يُعتبَرُ فيه عجزُ أهلِ كلِّ عصرٍ لعمومِ التَّحدِّي فيه لأهلِ كلِّ عصرٍ.

فإن قيل: فليس عجزُ كلِّ الإنس عن مثلِهِ موجباً لإضافتهِ إلى اللَّه تعالى لجوازِ أن تكونَ الشياطين أعانتْ عليه[1]، حتّى خرج عن مقدورِ الإنس، كما أعانت سليمان على ما عجز عنه الإنس، فعنْهُ أجوبةٌ:

أحدُها: أنَّ هذا يتوجَّهُ على موسى في فلقِ البحرِ، وعلى عيسى في إحياء الموتى، ويقدحُ في جميع النُّبوَّات، فلم يجزْ لمن أثبتَها أن يَخُصَّ به بعضَ المعجزات.

والجواب الثاني: أن الشَّياطين لم يُعْرَفُوا إلاَّ مِنَ الرسل، ولولاهم لَما عَلِمَ الناسُ أن في الدنيا شيطاناً ولا جنّاً ولا جَانّاً، وقد جهرَ الرسلُ بلعنِهم، ودَعَوْا إلى معصيتهم، ولو كانوا أعواناً لدعوا إلى طاعتِهم وموالاتِهم؛ لأنَّ معونة من أطيعَ ووليَ أحقُّ من معونة من عُصِيَ وعُودِيَ.

والجواب الثالث: أن الشَّياطين لا يقدرون على ذلك إلاّ بمعونة اللَّه تعالى لهم، وهو لا يُعين كاذباً عليه، فإن كان عن أمرِهِ كان معجزاً لأنَّه من فعلِهِ، وعلى هذا كان تسخيرُ سليمان للجن، واللَّه تعالى غني عن الشياطين أن يكونوا سفراءَ إلى رسلِهِ وأعواناً لأنبيائه، وهم ينهون عن طاعته ويدعون إلى معصية هذا القرآن، وقد تحدَّى

---

(١) هذا الاعتراض ظاهر البطلان، فمن اللائق بجلال عظمة القرآن الكريم أنْ لا يُذكر، ومثل هذه الأباطيل والأضاليل يجب دفنها في نفايات الزمان، فكم كان في الأرض من أهل الكفر والباطل، فلم يضرُّوا دين اللَّه تعالى شيئاً!!.
والذي يدحض هذا الزعم الباطل والقول الفاجر قولُ اللَّه تعالى في سورة مريم، آيتان ٨٣ - ٨٤: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطينَ على الكافرينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً * فلا تَعْجَلْ عليهم إنّما نَعُدُّ لهم عَدّاً﴾، فالشياطين لا تُرْسَلُ إلاّ على الكافرين.

به الجنَّ، كما تحدَّى به الإنسَ، بقوله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجتمعتِ الإنْسُ والجنُّ على أنْ يأتُوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يأتُونَ بمثلِهِ ولو كانَ بعضُهم لبعضٍ ظهيراً﴾[1]، وحكي عنهم عجزُهم عنه بقوله سبحانه: ﴿إنَّا سمِعْنَا قرآناً عجباً * يهدِي إلى الرُّشْدِ فآمنَّا بهِ﴾[2][3].

فصل:

[القرآن الكريم كلام ربِّ العالمين]

فإذا تقرَّرتْ هذه الجملةُ في إعجازِ القرآن فإعجازُهُ يُعلم أنَّه من غير كلام البشر ولا يعلم أنَّه من عندِ اللَّه تعالى إلاّ بقول الرَّسُول، فلو أرادَ الرسولُ أن يقول مثلَهُ لم يقدرْ عليه لأنَّه من البشر، إلاّ أن يمدَّهُ اللَّه تعالى بعون منه فيصير قادراً عليه ومعجزاً له، لو لم يضف القرآنُ إلى اللَّه تعالى، فأمّا مع إضافته إليه فلا يكون معجزاً له، ويكون مصروفاً عنه، لأنَّ ما أُضِيفَ إلى اللَّه تعالى يمتنعُ أن يكون من غيرهِ، لدخوله في جملة الكذب، ثم يصير القرآنُ أصلاً للشرع ومعجزاً للرسول، فيجب على الأمة التزام أحكامه وطاعة الرسول.

واختُلِف في لزوم طاعتِهِ هل وجبتْ بعدَ ثبوتِ رسالتِهِ بالعقلِ أو بالشرع؟ على وجهين:

---

(1) سورة الإسراء، الآية ٨٨.

(2) سورة الجن، الآيتان ١ و ٢.

(3) فالقرآن الكريم إذن هو آية اللَّه تعالى في الأرض!! آيتُهُ المعجزة الباهرة السَّاطعة على مدى الدهر لجميع البشر، بل للثقلين جميعاً، فلا يجحد بها إلاّ مَنْ ملأ قلبه بظلام الكفر والضلال.

أمّا أهل الإيمان والإسلام فإنَّهم يرون القرآنَ «كتابَ اللَّه» الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلاً من لدن حكيم حميد، فيه الحقُّ والهدى المبين، وفيه دليل صدق الرسالة ورسولها الأمين، وما زالت آياته ناطقةً بأن الإسلام هو الصراط المستقيم ودين اللَّه القويم: ﴿ومَنْ يبتَغِ غيرَ الإسلامِ ديناً فلنْ يُقبلَ منه وهو في الآخرةِ مِنَ الخاسرين﴾ [سورة آل عمران، آية ٨٥]!!.

أحدُهما: بالعقل لأنَّ طاعةَ الرسول طاعة المُرْسِل.

والوجهُ الثاني: بالشرعِ لقولِهِ تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أَطيعُوا اللَّهَ وأَطيعُوا الرَّسُولَ وأُولِي الأَمْرِ منكُمْ﴾[1] لأنَّ الرسولَ مبلِّغٌ.

وإذا كان القرآنُ أصلاً للشرع فقد اختلف العلماء في حدِّ الأصل والفرع على وجهين:

أحدُهما: أنَّ حدَّ الأصلِ ما دلَّ على غيرِهِ، وحدُّ الفرع ما دلَّ على غيرُه، فعلى هذا يكون القرآنُ فرعاً لعلم الحِسِّ لأنَّه الدَّالُ على صحته.

والوجهُ الثاني: أنَّ الأصل ما تفرَّعَ عنه غيرُه، والفرعُ ما تفرَّعَ عن غيره، فعلى هذا يمتنعُ أن يكون القرآن فرعاً لعلم الحسِّ، لأنَّ اللَّه تعالى تولّاه وجعلَهُ أصلاً دلَّ العقلُ عليه.

واختلفَ العلماءُ في إبلاغ الرسول هل يكون أمراً أو إعلاماً؟ فقال بعضُهم: يكون أمراً لا يلزمُ الأمَّةَ أحكامَهُ، لو عرفوه قبل إبلاغه. والوجه الثاني: يكون إعلاماً ويلزمُهُمْ أحكامُهُ لو عرفوهُ قبل إبلاغه. ويجوز أن يعلم جميع الأحكام الشرعية من القرآن، ولا يجوز أنْ يعلم جميعها من الإجماع ولا من القياس؛ لأنَّهما ينعقدان عن أصل مسموع.

واختلف في جواز العلم بجميعها من سنة الرسول، فجوَّزَهُ بعضُهم لقوله تعالى: ﴿وما آتَاكُمُ الرَّسُولُ فخذُوْهُ وما نَهاكُمْ عنهُ فانْتَهُوا﴾[2]، وامتنع منه بعضُهم لقوله تعالى: ﴿وَمَا ينطِقُ عن الهوَى * إنْ هُوَ إلاَّ وَحْيٌ يُوْحَى﴾[3]، واللَّهُ تعالى أعلمُ.

---

(1) سورة النساء، الآية ٥٩.

(2) سورة الحشر، الآية ٧.

(3) سورة النجم، الآيتان ٣ و ٤.

الباب الثامن

في معجزات عصمته ﷺ(١)

أظهرَ اللَّهُ تعالى لرسوله ﷺ من أعلامِ نبوّتِهِ بعدَ ثبوتِها بمعجز القرآن، واستغنائه عمَّا سواه من البرهان، ما جعله زيادةَ استبصارٍ يحجُّ بها من قلَّتْ فطنتُهُ، ويُذْعِنُ لها من ضَعُفَتْ بصيرتُهُ؛ ليكونَ إعجازُ القرآن مُدْرَكاً بالخواطر الثَّاقبة تفكراً واستدلالاً، وإعجاز العِيَان معلُوماً ببداية الحواسِّ احتياطاً وإظهاراً، فيكون البليدُ مقهوراً بوهمِهِ وعِيانِهِ، واللَّبيبُ محجوجاً بفهمِهِ وبيانِهِ، لأنَّ لكلِّ فريق من النَّاس

(١) عصمته ﷺ هنا: حفظه من كيد أعدائه. فرسول اللَّه ﷺ مع عصمة اللَّه تعالى له من كيد أعدائه تعرَّض كثيراً لأذاهم، غير أنَّ أذاهم لم يبلغ منه المبلغ الذي يريده الأعداء، فظل ثابتاً صابراً محتسباً لا يهاب أعداءه ولا يخشاهم. ولقد ثبت من سيرة رسول اللَّه ﷺ أنَّ المشركين لم يفتر أذاهم عنه ﷺ منذ أن صدعَ بدعوة التوحيد إلى أن هاجر إلى المدينة المنوَّرة. ويدلُّ على مبلغ أذى أعدائه هذه الآيات التي أمره اللَّه تعالى بها بالصبر والتحمّل في سبيل تبليغ رسالته، ففي سورة المزمِّل، آية ١٠: ﴿واصْبِرْ على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً﴾، وفي سورة الطور آية ٤٨: ﴿واصْبِرْ لحكم ربِّكَ فإنَّكَ بأعْيُنِنا﴾!! وفي سورة غافر آية ٥٥: ﴿فاصْبِرْ إنَّ وَعْدَ اللَّهِ حقٌّ﴾، وفي سورة النمل آية ٧٠: ﴿ولا تكُنْ في ضيقٍ ممَّا يمكرون﴾، وفي سورة فصلت آية ٤٣: ﴿ما يُقالُ لكَ إلاّ ما قدْ قِيْلَ للرسلِ مِنْ قبلِكَ﴾.
فمن هذه الآيات يبدو كم كان رسول اللَّه ﷺ في شدَّةٍ من أذى قومه، فصبر كما أمر اللَّه تعالى، وكان سبحانه هو الحافظ له وراعيه وعاصمه، فلم يبلغ أذى المشركين للرسول ﷺ كما يريدون ويتوقَّعُون، فثبت حتى بلَّغ الرسالة، وصبرَ حتى أدَّى الأمانة، وما ذلك إلّا بعصمة اللَّه تعالى وتوفيقه إيّاه لِما يُحبُّهُ ويرضاه، فللَّه تعالى وحده الحمد والمِنَّة على نعمة الإسلام والإيمان!!!.

طريقاً هي عليهم أقرب ولهم أجْذَبُ، فكانَ ما جمعَ انقيادَ الفِرَقِ أوضحُ سبيلاً وأعم دليلاً.

فمن معجزاته: عصمتُه من أعدائِهِ، وهم الجمُّ الغفيرُ والعددُ الكثيرُ، وهم على أتمِّ حِنْقٍ عليه، وأشدِّ طلبٍ لنفسهِ، وهو بينهم مسترسل قاهر، ولهم مخالط ومكاثر، تَرْمُقُه أبصارُهم شذراً، وترتعدُ عنه أيديهم ذُعْراً، وقد هاجرَ عنه أصحابُهُ حذراً حتى استكمل مدَّتَهُ فيهم ثلاثَ عشرةَ سنة، ثم خرجَ عنهم سليماً لم يُكْلَمْ في نفسٍ ولا جَسَدٍ، وما كان ذاك إلاّ بعصمةٍ إلَهِيَّةٍ، وعدَهُ اللّه تعالى بها، فحقّقَها حيثُ يقولُ: ﴿ واللّهُ يعصِمُكَ مِنَ النّاسِ ﴾[1] فعصمه منهم.

فصل:

[عصمة اللّه تعالى له من أذى المشركين][2]

وأن قريشاً اجتمعتْ في دَارِ النّدوة، وكان فيهم النَّضْرُ بن الحرث بن كنانة، وكان زعيمَ القوم، وساعدَهُ عبد اللّه بن الزبعري، وكان شاعر القوم، فحضَّهم على قتل محمد ﷺ، وقال لهم: الموت خيرٌ لكم من الحياة، فقال بعضُهم: كيف نصنعُ؟ فقال أبو جهل: هلْ محمد إلاّ رجلٌ واحدٌ؟ وهلْ بنو هاشم إلاّ قبيلة من قبائل قريش؟ فليس فيكم من يزهد في الحياة فيقتلُ محمَّداً ويُريح قومَهُ؟ وأطرق ملياً فقالوا: مَنْ فعلَ هذا سادَ!؟ فقال أبو جهل: ما محمد بأقوى من رجل منّا وإنِّي أقوم إليه فأشدخ رأسَهُ بحجر فإن قُتِلْتُ أرحتُ قومي وإن بقيتُ فذاك الذي أوثر.

فخرجوا على ذلك، فلما اجتمعُوا في الحطيم خرج عليهم رسول اللّه ﷺ

---

(١) سورة المائدة، الآية ٦٧.

(٢) انظر أخبار عصمة رسول اللّه ﷺ من كيد الكفار وأذى المشركين في «دلائل النُّبوَّة» للحافظ البيهقي ج ١٨٤/٢ ـ ١٩٧، ط. دار الكتب العلمية بيروت، و«السيرة النبوية» لابن هشام ج ٢٨٩/١ ـ ٢٩١، تحقيق السقا وزملائه، والسيرة النبوية للحافظ ابن كثير ج ٢٤٦/١ ـ ٢٥١، ط. دار الكتب العلمية ـ تعليق أحمد عبد الشافي.

فقالوا: قد جاء، فتقدَّم من الركن فقام يصلي فنظروا إليه يُطيلُ الركوعَ والسجودَ، فقال أبو جهل: فإنِّي أقوم فأريحكم منه، فأخذ مهْراشاً عظيماً ودَنَا من رسولِ اللَّه ﷺ وهو ساجدٌ لا يلتفتُ ولا يهابُهُ وهو يَرَاهُ، فلمّا دَنَا منه ارْتَعدَ وأرسلَ الحجرَ على رجلهِ فرجعَ وقد شُدخت أصابعُهُ، وهو يَرْتَعِدُ وقد دوخت أوداجُهُ، ورسول اللَّه ﷺ ساجدٌ، فقال أبو جهل لأصحابه: خذوني إليكم فالتزَمُوهُ وقد غُشِيَ عليه ساعةً، فلمّا أفاقَ قال له أصحابُهُ: ما الَّذي أصابَكَ؟ قال: لمَّا دنوتُ منه أقبل عليَّ من رأسه فحلٌ فاغرٌ فَاهُ فحمَلَ عليَّ أسنَانَهُ، فلم أتمالَكْ وإنِّي أرى محمداً محجوباً. فقال له بعضُ أصحابه: يا أبَا الحكم رغبتَ وأحببتَ الحياةَ ورجعتَ. قال: ما تغروني عن نفسي، قال النَّضْر بن الحرث: فإن رجع غداً فأنا له، قالوا له: يا أبا سهم لئنْ فعلتَ هذا لتسودَنَّ!.

فلما كان من الغَدِ اجتمعُوا في الحطيم منتظرينَ رسولَ اللَّه ﷺ، فلما أشرفَ عليهم قامُوا بأجمعهم فواثَبُوه، فأخذَ حفنةً من ترابٍ وقال: شَاهَتِ الوُجُوهُ، وقال: حَمَ لا يُنْصَرُون، فتفرَّقُوا عنه. وهذا دفع إلَهي وُثِّقَ بهِ مِنَ اللَّهِ تعالى فصبرَ عليه حتَّى وقَاهُ اللَّه، وكان من أقوى شاهدٍ على صدقهِ ﷺ[(١)].

ومن أعلامه: أنَّ معمر بن يزيد، وكان أشجعَ قومِهِ، استغاثتْ به قريشٌ وشكوا إليهِ أمرَ رسول اللَّه ﷺ، وكانتْ بنو كنانة تصدرُ عن رأيه وتطيعُ أمرَهُ، فلما شكوا إليه قال لهم: إنِّي قادم إلى ثلاث وأريحكم منه وعندي عشرون ألف مُدَجَّجٍ، فلا أرى هذا الحي من بني هاشم يقدر على حربي، وإن سألوني الدِّيَةَ أعطيتُهم عشرَ دياتٍ ففي مالي سَعَةٌ، وكان يتقلَّدَ بسيفٍ طولهُ سبعة أشبارٍ في عرض شبرٍ، وقصَّتهُ في العرب مشهورةٌ بالشجاعة والبأس.

---

(١) لقد وردَ الكثير من أخبار رسول اللَّه ﷺ مع قومه، وشدَّة أذاهم له، مع عظيم صبره وحلمه عليهم، وذلك في صحيح البخاري ج ٦/٢١٦ ط م. دار الجيل، وفي صحيح مسلم ج ٨/١٣٠ ط. بولاق، وسنن الترمذي ج ٥/٤٤٣، تحقيق أحمد شاكر، ومسند الإمام أحمد ج ١/٢٤٨، ط م. المكتب الإسلامي. وانظر الخصائص الكبرى للحافظ السيوطي ج ١/١٢٧، ط م. دار الكتاب العربي.

فلبس يومَ وعدِهِ قريشاً سلاحَهُ وظاهرَ بين درعين فوافقهم بالحطيم ورسول اللّه ﷺ في الحجر يصلي، وقد عرف ذلك فما التفتَ ولا تزعزعَ، ولا قصَّر في صلاته، فقيل له: هذا محمد ساجدٌ فأهوي إليه. وقد سَلَّ سيفَهُ وأقبل نحوَهُ، فلمّا دَنا منه رَمَى بسيفهِ وعَادَ، فلمّا صارَ إلى باب الصفا عَثَرَ في درعِهِ فسقطَ، فقام وقد أُدْمِيَ وجهُهُ بالحجارة يَعْدُو كأشدِّ العَدْوِ حتَّى بلغَ البطحاءَ ما يلتفتُ إلى خلْفٍ، فاجتمعُوا وغسلوا عن وجهِهِ الدَّمَ وقالُوا: ماذا أصابَكَ؟ قال: ويحكم، المغرورُ مَنْ غَرَّرْتُمُوهُ، قالوا: ما أصابَكَ يا أبا اللَّيْثِ؟ قال: إنِّي لمَّا دنوتُ من محمَّدٍ فأردتُ أن أهوي بسيفي إليه أهوَى إليَّ من عندِ رأسِهِ شُجَاعَان أقرعان ينفخان بالنيران وتلمعُ من أبصارِهما، فعدوتُ، فما كنتُ أعودُ في شيءٍ من مَسَاءَةِ محمّدٍ.

ومن أعلامِهِ: أنَّ كلدة بن أسد أبا الأشدِّ[1]، وكان من القوة بمكان، خاطر قريشاً يوماً في قتل رسول اللّه ﷺ فأعظمُوا له الخطرَ إنْ هو كفَاهُمْ، فرأى رسول اللّه ﷺ في الطريق يُريدُ المسجدَ ما بين دَارِ عقيلٍ وعقالٍ، فجاء كلدةُ ومعه المزراق، فرجعَ المزراق في صدره، فرجع فزعاً، فقالتْ له قريش: ما لك يا أبا الأشدِّ؟ فقال: ويحكم ما ترون الفحلَ خَلْفِي؟ قالوا: ما نرَى شيئاً، قال: ويحكم فإنِّي أراه، فلم يزلْ يَعْدُو حتى بلغ الطائِفَ فاستهزأتْ به ثقيفٌ، فقال: أنا أعذركم، لو رأيتم ما رأيتُ لهلكتم.

ومن أعلامِهِ: أنَّ أبا لهب خرجَ يوماً، وقد اجتمعتْ قريشٌ فقالُوا: يا أبا عُتبَة إنَّك سيِّدُنا وأنت أولى بمحمَّدٍ منا، وأن أبا طالب هو الحائل بيننَا وبينَهُ ولو قتلتَهُ لم ينكر أبو طالب ولا حمزة منك شيئاً، وأنت بريء من دمهِ، فنؤدِّي نحنُ الدِّيَةَ وتسودُ قومَك، فقال: إنِّي أكفيكم، ففرِحُوا بذلك ومدحته خطباؤهم، فلمَّا كان في تلك اللَّيلة وكان مشرفاً عليه، نزل أبو لهب وهو يُصلي وتسلَّقتِ امرأتُهُ أمُّ جميل الحائط حتَّى وقفتْ على رسولِ اللّه ﷺ وهو ساجدٌ فصاحَ بِهِ أبو لهب فلم يلتفتْ إليه، وهما

---

(١) لم أجد لهذه الرواية أصلاً، لا في كتب السيرة ولا في كتب التاريخ المعتبرة.

كانَا لا ينقلَان قَدَماً ولا يقدران على شيءٍ حتى تهجر الصبح، وفَرَغ رسولُ اللّه ﷺ فقال له أبو لهب: يا محمَّـدُ أطلقْ عَنَّا، فقـال: ما كنتُ لأطلِقَ عنكُمَـا أو تضمنا لي أنكما لا تُؤْذِيَانِي؟ قالا: قد فعلنا، فدعَا ربَّهُ فرجَعَا[1].

ومن أعلامه: أنَّ قريشاً اجتمعُوا في الحطيم فخَطَبَهُمْ عُتْبَةُ بن ربيعة فقال: إنَّ هذا ابن عبد المطلب قد نَغَّصَ علينا عيشَنَا وفرَّقَ جماعتَنَا وبدَّدَ شملنَـا وعاب ديننَـا وسفَّهَ أحلامَنَا وضلَّلَ آباءَنا. وكان في القوم الوليـدُ بنُ المغيرة وأبـو جهل بن هشـام وشيبـةُ بن ربيعة والنَّضْـرُ بن الحارث ومنبِّـه ونبيه، ابْنَـا الحجّاج، وأميَّـةُ وأُبيّ، ابْنَا خَلَف، في جماعةٍ من صَنَاديدِ قريش، فقال له: قل مـا شئتَ فإنَّـا نطيعـك، قال: سأقوم فأكلمه فإنْ هو رجع عن كلامه وعمَّا يدعو إليه وإلاَّ رأينا فيه رأيَنَا، فقالوا لـه: شأنَكَ يا أبا عبد شمس، فقام فتقدَّم إلى النَّبيِّ ﷺ، وهو جالسٌ وحدَهُ، فقال: أنعمْ صبَاحاً يا محمد، قال: يا عبد شمس إنَّ اللّه قد أبدلَنا بهذا السلام تحيَّة أهل الجنَّة، قال: يا ابن أخي إنِّي جئتُك من عند صناديدِ قريشٍ لأعرضَ عليكَ أمورَهُم، إن أنتَ قبلتَها فلَكَ الحظُّ فيها ولنا الفسحةُ، ثم قال: يا ابن عبد المطلب إنَّك دعوتَ العربَ إلى أمرٍ ما يعرفونَهُ فاقبلْ منِّي ما أقولُ لك، قال: قُلْ، قال: إن كان ما تدعُو إليه تطلبُ به مُلْكاً فإنّا نُملِّكُكَ علينَا من غير تعبٍ ونتوِّجُكَ، فارجعْ عن ذلك، فسكتَ، ثم قال له: وإن كان ما تدعو إليه أمراً تريدُ به امرأةً حسناءَ فنحنُ نزوِّجُك، فقال: لا قوَّةَ إلاَّ باللّه، ثم قال له: وإنْ كان ما تتكلَّمُ به تريدُ مالاً أعطينَاكَ من الأموال حتَّى تكونَ أغنى

---

(١) هذه القصة على غير الثابت عن أبي لهب، فإنه على شدَّة عداوته لرسول اللّه ﷺ لم يرد في رواية ثابتة أنّه همَّ بقتلِ رسول اللّه ﷺ. ففي تهذيب السيرة لعبد السلام هـارون ج ١/٦٥ - ٦٨، و ٧٣ - ٧٤: أنَّ زوجة أبي لهب - أم جميل - كانت تحمل الشوك وتطرحه على طريق رسول اللّه ﷺ حين يمرّ، وحين سمعتْ ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن [سورة تبَّت] أتتْ رسول اللّه ﷺ وهو جالس عندَ الكعبة، ومعه أبو بكر الصديق، وفي يدها فِهْرٌ من حجـارة، فلمّا وقفت عليهما قالت: يا أبا بكر أين صاحبُكَ؟ فقد بلغني أنه يهجوني، واللّه لو وجـدته لضربتُ بهذا الفهر فاهُ. ثم انصرفت. فقال أبو بكر: يا رسول اللّه! أمَا تَرَاهَا رأتْكَ؟ فقـال: (لقدْ أخذَ اللّهُ ببصرِها عنّي)!!.

رجلٍ في قريش، فإنَّ ذلك أهون علينا من تشتيتِ كلمتِنا وتفريقِ جماعتِنا وإنْ كان ما تدعُو إليه جُنوناً دَاوَيْنَاكَ كما تُدَاوِي قيسُ بنُ ثعلبة مجنونَهُمْ، فسكتَ النَّبيُّ ﷺ فقال: يا محمد ما تقولُ؟ وبِمَ ارجعُ إلى قريش؟ فقال النبي ﷺ: ﴿حـمٓ * تنزيلٌ مِن الرحمٰنِ الرحيم * كتابٌ فُصِّلتْ آياتُهُ قرآناً عربياً لقومٍ يعلمُون * بشيراً ونذيراً فأعْرَضَ أكثرُهُمْ فهُمْ لا يَسْمَعُون﴾[1] حتى بلغ إلى قوله: ﴿فإن أعرضوا فقُلْ أنذرتُكم صاعقةً مثلَ صاعقةِ عادٍ وثمودٍ﴾ [2].

وقال عتبةُ: فلمّا تكلم بهذا الكلام فكأنَّ الكعبة مالتْ حتى خفتُ أن تمسَّ رأسي من إعجازها، وقام فزعاً يجرُّ رِدَاءَهُ، فرجعَ إلى قريشٍ وهو ينتفضُ انتفاضَ العصفورِ، وقام النَّبيُّ ﷺ يُصلِّي، فقالتْ قريشُ: لقد ذهبتَ من عندنا نشيطاً ورجعتَ فزعاً مرعوباً فما وَرَاءَكَ؟ قال: ويحكم دعوني، إنَّه كلَّمني بكلام لا أدري منه شيئاً ولقد رعدت عليَّ الرعدة حتى خفتُ على نفسي، وقلت الصاعقة قد أخذتني، فنَدِمُوا على ذلك[3]!!.

قال ابن عرفة: الصَّاعقة اسم للعذاب على أيِّ حال كان، وإنَّما أُهلكتْ عادٌ بالريح وثمود بالرجف فسمَّى اللَّهُ تعالى ذلك صاعقةً.

قال الأزهري: الصَّاعقة صوتُ الرعد الشديد الذي يُصْعَقُ منه الإنسانُ، أي يُغْشَى عليه.

ومن أعلامه: أنَّه لمَّا أرادَ الهجرةَ خرجَ من مكَّةَ، ومعه أبو بكر، فدخل غاراً في جبل ثور ليستخفي من قريش وقد طلبتْهُ، وبذلت لمن جاءَ به مائةَ ناقةٍ حمراء، فأعانَه اللَّه تعالى بإخفاء أثره، وأنبتَ على باب الغار ثمامة، وهي شجرة صغيرة، وأُلهمت

---

(١) سورة فصلت، الآيات ١ ـ ٤.

(٢) سورة فصلت، الآية ١٣.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ط. البابي الحلبي ـ تحقيق السقا وزملائه. والدر المنثور للحافظ السيوطي ج ٣٥٨/٥ ـ ٣٥٩، ط م. دار المعرفة بيروت. وانظر «دلائل النبوة» للحافظ البيهقي ج ١٨٨/٢ ـ ١٩٧ تحقيق القلعجي ط. دار الكتب العلمية.

العنكبوتُ فنسجتْ على باب الغار نسجَ سنينَ في طرفةِ عينٍ، ولُدِغَ أبو بكر هذه اللَّيلة غير لدغة فخرق ثيابه وجعلها في الشقوق وسدَّ بعضها بقدمه اتقاءً لرسول اللّه ﷺ وأقام فيه ثلاثة أيام ثم خرج منه فلقيه سُرَاقةُ بن مالك بن جعشُم، وهو من جملة مَنْ توجَّه لطلبه، فقال له أبو بكر: هذا سراقةُ قد قرب، فقال رسول اللَّه ﷺ: (اللَّهمَّ أكفنَا سُرَاقَةَ)، فأخذت الأرضِ قوائم فرسهِ إلى إبطها، فقال سراقةُ: يا محمد ادْعُ اللَّه أن يطلقني ولك عليَّ أن أردَّ من جاء يطلبك ولا أعينُ عليك أبداً، فقال: (اللَّهمَّ إنْ كانَ صادقاً فاطلقْ عن فرسَهُ)، فأطلق اللَّهُ عنه، ثم أسلم سراقةُ وحَسُنَ إسلامُهُ[1]!!.

ومن أعلامهِ: أنَّ رسولَ اللَّه ﷺ انفردَ في غزوةِ ذي أمْرٍ عن أصحابهِ واضطجع وحدَهُ فوقفَ عليه دَعْثُورٌ فسلَّ سيفَهُ وقال: يا محمَّدُ مَنْ يمنعُكَ منِّي؟ فقال: (اللَّه)، فسقطَ السيفُ من يدهِ، فأخذَهُ رسولُ اللَّه ﷺ ثم قال له: (مَنْ يمنعُكَ منِّي)؟ قال: لا أحدَ، أشهدُ أنْ لا إلَهَ إلاَّ اللَّه وأنَّ محمَّداً رسولُ اللَّه، وعادَ إلى قومه يدعُوهم إلى الإسلام، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿يا أيُّها الَّذين آمنوا اذكرُوا نعمةَ اللَّهِ عليكم إذْ همَّ قومٌ أن يَبْسُطُوا إليكم أيديَهُم فكفَّ أيْدِيَهُمْ عَنْكُم﴾[2][3].

ومن أعلامهِ: أنَّ النَّاسَ لمَّا انهزَمُوا عن رسولِ اللَّه ﷺ يومَ حُنين وهو معتزلٌ عنهم رآه شيبةُ بن عثمان بن أبي طلحة فقال: اليومَ أُدْرِكُ ثأري وأقتلُ محمَّداً، لأنَّ أباه قُتِلَ يوم أحدٍ في جماعة أخوتهِ وأعمامه، قال شيبةُ: فلما أردتُ قتلَهُ أقبل شيءٌ حتى تغشَّى فؤادِي فلم أطق ذلك فعلمتُ أنَّه ممنُوع.

---

(١) انظر خبر هجرة رسول اللَّه ﷺ وما جرى معه من آيات ومعجزات في «السيرة النبوية» لابن هشام ج ١/٤٨٠ ـ ٤٩٠، تحقيق السقا وزملائه. و «دلائل النبوة» للحافظ البيهقي ج ٢/٤٦٥ ـ ٤٩٨، تحقيق القلعجي، و «السيرة النبوية» للحافظ ابن كثير ج ١/٣٦٢ ـ ٣٨٠، د. دار الكتب العلمية.

(٢) سورة المائدة، الآية ١١.

(٣) انظر أسباب النزول: للحافظ السيوطي ص ١٠١ ـ ١٠٢، ط. دار قتيبة ـ دمشق.

ومن أعلامِهِ: أنَّ عامرَ بن الطفيل وأربد بن قيس[1]، وهو أخو لبيد بن ربيعة الشَّاعر لأمِّهِ، وَفَدا على رسول اللَّه ﷺ في قومهما من بني عامر، فقال عامر لأربد: إذا قدمنا على محمَّدٍ فإني شاغلٌ عنكَ وَجْهَهُ، فاعْلُهُ أنتَ بالسيفِ حتى تقتلَهُ، قال أربد: أفعلُ، ثم أقبلَ عامرُ يمشي وكان رجلاً جميلاً حتى قامَ على رأس رسولِ اللَّه ﷺ فقال: يا محمَّدُ ما لي إنْ أسلمتُ؟ فقال: لكَ ما للإسلامِ وعليكَ ما على الإسلام، قال: ألاَ تجعلني الوالي من بعدك؟ قال: ليسَ ذلكَ لكَ ولا لقومِكَ ولكن لكَ أعنَّةَ الخيلِ تغزُو بها، قال: أوليستَ لي اليومُ، ولكن اجعلْ لي ولكَ المددَ، قال: ليس ذلكَ لكَ، فقال: قُمْ يا محمَّد إلى هٰهُنَا، فقام إليهِ فوضعَ عامرٌ يدَهُ بين منكبيهِ ثم أوْمأ إلى أربد أنِ اضربْ، فسلَّ أربد سيفَهُ قريباً من ذراعٍ، ثم أمْسكَ اللَّه يَدَهُ، فلم يستطع أن يُسلَّهُ ولا يُغْمِدَهُ، فالتفتَ رسولُ اللَّه ﷺ إلى أربد فرآه على ما هو عليه فقال: (اللَّهمَّ اكفِنِيْهِمَا بما شئتَ اللَّهمَّ اهدِ بني عامر واغنِ الدِّين عن عامر) فانطلقَا وعامرٌ يقولُ: واللَّه لأملأنَّها عليكَ خيلاً دهماً ووردا. فقال رسول اللَّه ﷺ: (يأبى اللَّه ذلك وأبناء قَيْلَةَ)، يعني الأنصار، ثم قال عامر لأربد: ويلكَ لِمَ أمسكتَ عنه؟ فقال: واللَّه ما هممتُ به مرَّةً إلَّا رأيتُك ولا أرى غيرك أفأضرِبُكَ بالسيفِ؟ وسَارَا.

فأمَّا عامر فطرحَ اللَّه عليه الطاعون في عنقه فقتَلَهُ في بيت امرأة من بني سَلُولٍ فجعلَ يقولُ: أغُدَّةٌ كغدَّةِ البَكرِ في بيت امرأة من بني سَلُولٍ، وركب فرسه فركضَهُ حتى ماتَ.

وأمَّا أربد فقدم على قومه فقالوا: ما وراءَكَ يا أربد؟ فقال: واللَّه لقد دَعَانَا محمَّدٌ إلى عبادة شيء لوددتُ أنَّه عندي الآن فأرميه بنبلي هذا حتى أقْتُلَهُ، ثم خرجَ بعد مقالتِهِ بيوم أو يومين ومعه جمال له تتبعه، فأرسَلَ اللَّهُ عليه وعلى جماعته صاعقةً

---

(1) ذكر خبرهما الحافظ البيهقي في «دلائل النبوة» ج ٣١٨/٥ ـ ٣٢١، تحقيق القلعجي ط. دار الكتب العلمية. والحافظ ابن كثير في تاريخه. انظر «السيرة النبوية» لابن كثير ج ٣١٣/١ ـ ٣١٥، ط. دار الكتب العلمية ـ تعليق أحمد عبد الشافي.

أحرقتهم. وقيل: نزلَ في صاعقتِه[1] قولُ اللّه تعالى: ﴿هو الَّذي يُريكُمُ البَرْقَ خَوْفاً وطَمَعاً﴾[2]، يعني خوفاً من الصواعق وطمعاً في المطر، وفيه يقول لبيد بن ربيعة وهو أخو أربد لأمِّهِ:

أخشَى على أربد المحتُوف ولاَ | أرهبُ نوْءَ السِّمَاكِ والأسد
أفجعني الرعدُ والصواعقُ بالفَا | رسِ يومَ الكريهةِ النَّجد
كل بني حُرَّةٍ مصيرُهُم | قل وإنْ أكثرتَ من العدد
إنْ يغبطُوا يهبطُوا وإن أُمِرُوا | يوماً يصيرُوا للهلك والنّكد[3]

فإنْ قيلَ: فهذا أخبار آحادٍ لا يُقْطَعُ بمثلِها؟! قيل: العَدَاوَةُ ظاهرةٌ والطَّلبُ معلُومٌ والسَّلامَةُ موجودَةٌ، فلم تَدْفَعْ جملةَ الأخبارِ، ولم يصحَّ في جميعها توهم الكذب، وإنْ جازَ في آحادِهَا تَوَهُّمُ الكذبِ كالمحكيِّ من سخاءِ حاتم وشجاعةِ عنترةَ[4].

---

(1) ذكر هذه الرواية الطبري في تفسيره ج ١٣/١٢٦ بنحوه. والواحدي في أسباب النزول ١/١٥٦ ـ ١٥٧، وذكره السيوطي في الدر المنثور ج ٤/٥٢، وابن الجوزي في تفسيره «زاد المسير» ج ٤/٣١٤. ط. المكتب الإسلامي، وفي هامشه: وذكره ابن كثير ج ٢/٥٠٦ من رواية الطبراني مطوّلاً بنحوه، وفي سنده عبد العزيز بن عمران الزهري المدني، قال البخاري: لا يُكتب حديثه، وقال النسائي وغيره: متروك.

(2) سورة الرعد، الآية ١٢.

(3) الأشعار التي قالها لبيد بن ربيعة عند ابن كثير أطول ممّا هنا، مع اختلاف في اللفظ، وقد بلغت في روايته خمسة عشر بيتاً.

(4) لا شكَّ فيما ثبتَ من أخبار عصمة اللّه تعالى لرسوله ﷺ، ولكنّ المؤلف رحمه اللّه تعالى ذكر أخباراً فيما سبق لم أجدْ من أخرجها من أئمة الحديث والسِّيَر، فيا ليته ذكر مصادرها لنقف على حقيقة سندها.

الباب التاسع

فيما شوهد من معجزات أفعاله ﷺ

إنَّ اللّه تعالى قدَّر لعباده أفعالاً كما قدَّرَ لهم أجساماً وآجالاً انتهى إلى غايةٍ أعجزهم عن تجاوزِها، لتكون أفعالهم مقصورةً على عُرْفٍ مألُوفٍ وحدٍّ معروفٍ، يتواصَلُون بها إلى مصالحهم، فيعلمون أنَّ ما تجاوَزَها وخرجَ عن عُرفها من أفعال اللّه تعالى فيهم لا من أفعالهم إن أظهرَها في أحدهم دلَّ على اختصاصه باللّه تعالى دونَهم فكان بها ممتازاً وإليه تعالى منحازاً ليخصَّ بطاعةٍ إلَهيّة كما اختصَّ بأفعالٍ لاهوتيَّةٍ[1]، فلذلك صارتِ الأفعالُ المعجزة شاهدةً على صحة النُّبوَّة.

فمن أعلامهِ: ما رواه البخاري[2] عن عبد الواحد بن أيمن عن أبيهِ قال: قلتُ لجابرِ بنِ عبد اللّه: حدثني بحديث عن رسول اللّه ﷺ سمعتَهُ منه أرويهِ عنكَ، فقال جابر: كُنَّا مع رسول اللّه ﷺ يوم الخندق نحفر فلبثنَا ثلاثةَ أيَّام لم نُطعم طعاماً ولا نقدر عليه فعرضَتْ في الخندق كَدْيَةٌ غليظةٌ لا يعملُ فيها الفأسُ فجئتُ إلى رسولِ اللّه ﷺ فقلتُ: هذه كَدْيَةٌ قد عرضتْ في الخندق، ورَشَشْنَا عليها الماءَ فقام

(١) هذه اللفظة غير إسلامية، وقد تكرّرت منه في أواخر الباب السادس. وقد علَّقت عليها بما هو كافٍ، فارجع إليه ص ١٢٣.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي باب غزوة الخندق، ومسلم في صحيحه في باب الأشربة ج ٦/١١٧ ـ ١١٨، ط. بولاق ـ مصر، وأبو نعيم في الدلائل، رقم ٤٣٠، ط. دار النفائس ـ بيروت.

وبطنُهُ مُعْصَبٌ بالحجر، فأخذَ المعولَ والمسحاةَ ثم سمَّى ثلاثاً ثم ضرب فعادتْ كثيباً أهيَلَ، فلما رأيتُ ذلك منه قلتُ: يا رسولَ اللَّه إئذَنْ لي، فأذِنَ لي، فجئتُ إلى امرأتي فقلتُ: ثكلتْكِ أمُّكِ إنِّي رأيتُ من رسول اللَّه ﷺ شيئاً لا صَبْرَ لي عليهِ فما عندَكِ، قالتْ: عندي صاعٌ من شعيرٍ وعَناقٌ، قال: فطحنَّا الشَّعير وذبحنَا العَناقَ وطبخنَاهَا وجعلنَاهَا في البُرْمَةِ[1] وعجنَّا العجين ثم رجعت إلى رسول اللَّه ﷺ فلبثتُ ساعةً ثم استأذنتُ ثانيةً فأذِنَ لي، فجئتُ فإذا بالعجين قد أمكن فأمرتُها بالخبز، وجعلتُ القِدْرَ على الأثافي ثم جئتُ إلى رسول اللَّه ﷺ فشاورتُهُ وقلتُ: عندَنَا طَعيمٌ لنَا فإنْ رأيتَ أن تقومَ معي أنتَ ورجلٌ أو رجلان معكَ فعلتَ، فقالَ: ما هو؟ وكم هو؟ قلتُ: صاعٌ من شعيرٍ وعَنَاقٌ، فقال: ارجع إلى أهلك فقُلْ لها: لا تنزع البُرْمَةَ من الأثافي، ولا يخرج الخبز من التنور حتى آتي، ثم قال للنَّاس: قُومُوا إلى بيتِ جابرٍ، فاستحييتُ حياءً لا يعلمُهُ إلاّ اللَّه تعالى، فقلتُ لامرأتي: قد جاء رسولُ اللَّه ﷺ بأصحابهِ أجمعين، فقالتْ: أكان سألك كم الطَّعامُ؟ قلتُ: نعم، قالتْ: اللَّهُ ورسولُهُ أعلمُ، قد أخبرتَه بما كان عندنا، فذهبَ عني بعض ما أجده، وقلتُ لها: صدقتِ، وجاءَ رسولُ اللَّه ﷺ فدخلَ، ثم قال لأصحابه: (لا تضاغَطُوا)، ثم بَرَكَ على التَّنُورِ والبُرْمَةِ، فجعلنَا نأخذُ من التَّنُور الخبزَ، ونأخذُ من البُرْمَةِ اللَّحمَ فنثردُ ونغرفُ ونقرِّبُ إليهم، فقال رسول اللَّه ﷺ: (ليجلسْ على الصحفة سبعةٌ أو ثمانيةٌ)، فلما أكلُوا كشفنَا التَّنُورَ والبُرْمَةَ فإذا هُمَا قد عادَا إلى أملأ ممَّا كانَا عليه حتَّى شبعَ المسلمون كلُّهم وبقيتْ طائفةٌ من الطعام، فقال لنَا رسولُ اللَّه ﷺ: (إنَّ النَّاس قد أصابَهُم مخمصةٌ فكُلُوا وأطعِمُوا)، فلم نَزَلْ يومنَا نأكُلُ ونُطْعِمُ، قال: فأخبرني أنَّهم كانُوا ثمانمائة، أو قال: مئينَ أقلَّ من الثمانمائة، وهذا نظيرُ معجزة عيسى عليه السَّلام في المائدة.

---

(١) البُرْمَةُ: هي القِدْرُ مطلقاً، وهي في الأصل: المتَّخذة من الحجر المعروف بالحجاز واليمن. النهاية في غريب الحديث ج ١٢١/١.

ومن أعلامه: ما رواه مالك[1] بن أنس عن إسحاق بن عبد اللّه بن أبي طلحة أنه سمع أنس بن مالك يقول: قال أبـو طلحة لأمِّ سُلَيْمٍ: لقـد سمعتُ [صوتَ][2] رسـولِ اللّه ﷺ ضعيفاً أعـرفُ فيه الجـوعَ، فهل عنـدكِ من شيء، قـالت: نعم، فأخرجتُ أقراصاً من شعيرٍ، ثم أخرجتْ خماراً لها فلفَّتِ الخبزَ ببعضِهِ، ثم أرسلني إلى رسـول اللّه ﷺ، فوجـدتُـهُ في المسجـد معـه النَّـاس، فقمتُ عليهم فقـال لي رسول اللّه ﷺ: (أرسلكَ أبو طلحـةَ؟) قلتُ: نعم، قال: (للطعـام؟) قلتُ: نعم، فقال لمن معه: (قُومُوا)، فانطلقَ وانطلقتُ بينَ أيديهم حتى جئتُ أبَا طلحةَ فأخبرتُهُ، فقـال أبو طلحـةَ: يا أمَّ سُلَيْم قـد جـاء رسـول اللّه ﷺ وليس عنـدَنـا من الـطعـام ما نطعمهم، فقالت: اللّهُ ورسولُهُ أعلم، فانطلقَ أبو طلحة حتَّى لقيَ رسولَ اللّه ﷺ وأقبل معه حتَّى دَخَلا، فقالَ رسولُ اللّه ﷺ: (يا أمَّ سليم هلمِّي ما عندَكِ)، فجاءتْ بذلك الخبز فأمَرَ بهِ ففُتَّ وعصرتْ أمُّ سُلَيْم عكَّةً لها، ثم قال رسولُ اللّه ﷺ ما شاء أن يقول ثم قال: (إئذَنْ لعشرةٍ)، فأذِنَ لهم، فأكلوا حتَّى شبعُوا ثم خرجُوا، ثم قال: (إئذَنْ لعشرةٍ)، فأذِنَ لهم، فأكلوا حتى شبعُوا، ثم خرجوا ثم قال: (إئذَنْ لعشرةٍ)، حتى أكلَ القوم وشبعوا وخرجُوا، والقومُ سبعون أو ثمانون رجلًا، والمعجزُ فيه مع إطعام العددِ الكثير من الطعام اليَسِيرِ، ما أخبرَ بِهِ أنسُ بنُ مالك ممَّا جاء فيهِ[3].

---

(١) الموطأ للإمام مالك ج ٢/٩٢٧ ـ ٩٢٨، ط. دار إحياء التراث العربي ـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

(٢) سـاقطة من الأصـل وهي في رواية مـالك: «لقـد سمعتُ صوتَ رسـولِ اللّه ﷺ ضعيفاً. وأخـرجه البخـاري في كتاب الأطعمـة ٧٠، باب ٦ من أكـل حتى شبع، ومسلم في كتـاب الأشربة ٣٦، باب ٢٠، جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه /رقم ١٤٢/.

(٣) وعن عمران بن حصين [عند البخاري ج ٤/١٦٩، ومسلم رقم ٦٨٢] قال: كنّا في سفر مع النبي ﷺ، فاشتكى إليه الناس من العطش، فنزل فدعا فلانـاً ـ نسيه الـراوي ـ ودعا عليّـاً، فقال: (اذهبَا فابتَغِيَا الماءَ) فانطلقَا فلقيَا امرأةً بين فرادتين ـ أي قربتين ـ أو سطحيتين من ماءٍ فجـاءَا بها إلى النبي ﷺ فـاستنزلـوها عن بيـرها، ودعـا النبي ﷺ بإنـاءٍ ففرَّغ فيـه من أفواه المزادتين، ونُوديَ في النّاس: اسقوا، فاستَقُوا، قال: فشربنـا عطاشـاً أربعين رجلًا، حتى =

ومن أعلامه: ما رواه أنيس بن أبي يحيى[1] عن إسحاق بن سالم عن أبي هريرة قال: خرج علينا رسولُ اللّه ﷺ فقال لي: (أدْعُ لي أصحابَك)، يعني أصحاب الصُّفَّة، قال: فجعلتُ أتبعهم رجلاً رجلاً، أوقظهم حتَّى جمعتُهم، فجئنا بابَ رسولِ اللّه ﷺ، فاستأذنَّا فأذِنَ لنا ووضعتْ بين أيدينَا صحفةٌ، أظنُّ فيها صَنِيعاً قَدْرَ مُدٍّ من الشعيرِ، فوضعَ رسولُ اللّه يَدَهُ فقال: (خُذُوا بسمِ اللّه)، فأكلنَا ما شئنَا ثم رفعنَا أيدِيَنَا، فقال رسولُ اللّه ﷺ حين وضعت الصحفة: (والذي نفسُ محمّدٍ بيدِهِ ما أمسىٰ في آلِ محمّدٍ طعامٌ غير شيء تَرَوْنَهُ)، فقيل لأبي هريرة: قَدْرَكم كانت حينَ فرغتم؟ قال: مثلُها حينَ وُضِعَتْ إلاّ أنّ فيها أثرُ الأصابع.

ومن أعلامه: أنَّ رسول اللّه ﷺ لمَّا حصلَ بالحديبية[2] وهي جافة، قال للناس: (انزلُوا)، فقالوا: يا رسول اللّه ما بالوادِي ماءٌ ننزلُ عليه. فأخرجَ سَهْماً فدفعَهُ إلى البراء بن عازب وقال: أغْرُزْ هذا السَّهمَ في بعض قُلُبِ الحديبية وهي جافَّةٌ، ففعَلَ، فجاشَ الماءُ ونادى النَّاسُ بعضُهم بعضاً: مَنْ أرادَ الماء؟! فقال أبو سفيان: قد ظهر بالحديبية قُلَيْب فيه ماء؟ ثم قال لسهيل بن عمرو: قُمْ بنا إلى

= روينا، فملأنا كلَّ قربة معنا وإداوةٍ، وايْمُ اللّهِ لقد أُقْلِعَ عنها وإنه لَيُخيّل إلينا أنّها أشدُّ مِلْئَةً منها حين ابتدأ!!!.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه بهذا الإسناد رقم ١١٧٥٧، ج ١١/٤٦٩ ـ ٤٧٠.

(٢) أخرج نحوه ابن أبي شيبة في مصنفه رقم ١٨٦٨٦، ج ٤/٤٣٠ ـ ٤٣١، في خبر خروج رسول اللّه ﷺ إلى الحديبية، وهو خبر طويل. وفي صحيح البخاري ج ٥/٦١ في المغازي باب غزوة الحديبية وفي الأشربة، وفي الأنبياء باب علامات النّبوّة، ومسلم في صحيحه برقم ١٨٥٦ ولفظه عندهم: فوضع النبي ﷺ يده في الركوة، فجعل الماءُ يَفُورُ من بين أصابعه كأمثال العُيون، قال: فشربنا وتوضأنا. قيل لجابر: كم كنتم؟ قال: لو كنّا مائةَ ألفٍ لكفانا، كُنّا خمسَ عشرةَ مائةٍ!!. وفي لفظ آخر عند البخاري ج ٥/٦١ في المغازي: عن البراء بن عازب قال: كنّا مع رسول اللّه ﷺ أربعَ عشرة مائةٍ يوم الحديبية ـ والحديبية بئرٌ ـ فنزحناها، فلم نترك فيها قطرة، فبلغ النبيَّ ﷺ فأتاها، فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناءٍ من ماءٍ، فتوضأ ثم مضمض ودعا، ثم صبَّهُ فيها، ثم قال: (دَعُوها ساعةً)، فأرْوَوْا أنفسَهم وركابَهم، حتى ارتحلُوا!!.

ما فعلَ محمَّدٌ فأشرفنَا على القليب والعُيُون تحت السَّهم، فقالاَ: ما رأينا كاليوم قط، وهذا من سحرِ محمَّدٍ قليل، فلمّا أمر رسولُ اللَّه ﷺ بالرحيل قال للناس: (خُذُوا حاجتَكم من الماءِ)، ثم قال للبراءِ: (اذهبْ فردَّ السَّهمَ)، فلما فرَغُوا وارتحلُوا أخذ البراءُ السَّهمَ فجفَّ الماءُ كأنه لم يكن هناك ماء، وهذا نظير ما أعطى موسى من الحجر الذي انفجرتْ منه اثنتا عشرةَ عيناً.

ومثلُه ما رُوي أنَّه في غزوة بني المصطلق، دَعَا بركوةٍ جافَّةٍ ثم تفلَ فيها، ثم قلبَها فتفجَّرتْ من بين أصابِعِهِ عُيُونٌ، حتى شربَ الخيلُ والإبلُ، ومُلِىءَ كلُ سِقَاء[1]!!.

ومن أعلامه: أنَّ قوماً شكوا إلى رسول اللَّه ﷺ ملوحةَ مائها[2]، فقام بأصحابه حتى أشرفَ على بئرهم، فتفَلَ فيها، ثم انصرفَ، فانفجرتْ بالماءِ الزُّلَال، وكانت غائرة، وأنَّها على حالها اليوم ويتوارثها أهلُها، ويعدُّونها من أعظم مفاخرِهم، ولمَّا بلغَ ذلك قومَ مسيلمة سألوه مثلها فتفل فيها فصَارَ ماؤها أُجَاجاً كبولِ الحمار، وهي اليوم على حالها.

وجاءته ﷺ امرأة بصبيٍّ لها قد تمعَّطَ شعره فمسحَ رأسَهُ بيده فاستوَى شعرُهُ فبلغَ ذلك قومَ مسيلمة فأتوه بصبي مثله فمسحَ رأسَهُ فصلَعَ وبقي نسله صُلَّعاً إلى وقتِنا هذا.

ومن أعلامه: ما رواه علي بن أبي طالب رضي اللَّه عنه قال: لما غزونا

---

(١) وفي البخاري ج ٤/١٦٩ في كتاب الأنبياء: باب علامات النُّبوَّة في الإسلام عن أنس قال: أتي النبي ﷺ بإناءٍ، وهو بالزوراء ـ مكان في المدينة ـ فوضع يده في الإناء، فجعل الماءُ ينبعُ من بين أصابعه فتوضأ القومُ!!.

(٢) ذكر الحافظ السيوطي في «الخصائص الكبرى» ج ٢/٤٥ من رواية ابن السكن عن همام بن نفيل السعدي، قال: قدمتُ على رسول اللَّه ﷺ، فقلتُ: يا رسول اللَّه! حُفِرَ لنا بئرٌ فخرجتْ مالحةً؟! فدفع إليَّ إداوةً فيها ماء، فقال: (صُبَّهُ فيها)، فصببته، فعذبت، فهي أعذب ماءٍ باليمن!!. وذكر هذه الرواية الحافظ ابن حجر في الإصابة ج ١٠/٢٥٩، رقم ٩٠٠١، ط. مكتبة الكليات الأزهرية تحقيق الدكتور طه محمد الزيني ـ القاهرة.

خيبر[1]، ومعنا من يهود فدك جماعةٌ، فلما أشرفنا على القاع إذا نحن بالوادي، والماء يقلع الأشجار ويهدهد الجبال، فقدرنا الماء فإذا هو أربع عشرة قامة فقال بعضُ النّاس: يا رسولَ اللّه! العدوُّ من ورائنا والوادي قدّامَنَا، فنزلَ رسولُ اللّه ﷺ فسجدَ ودَعَا ثم قال: (سِيرُوا على اسمِ اللّهِ)، فعبرتِ الخيلُ والإبلُ والرجالُ، فكان الفتحُ والغَلَبَةُ له، وهذا نظير فلق البحر لموسى.

نوع آخر من أعلامه: روى الحسنُ أنَّ رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: إنِّي قدمتُ من سفرٍ لي فبينَا بنت خماسية تدرج حولي في وصيفها وحليِّها أخذتُ بيدها فانطلقتُ بها إلى وادي فلان فطرحتُها فيه، فقال النبي ﷺ لأبيها: (ما كان اسمها)، فقال: فلانة، فقال النبي ﷺ: (يا فلانة أجيبي بإذن اللّه)، فخرجتِ الصَّبية وهي تقول: لبيك يا رسولَ اللّه وسعديك، فقال لها: (إن أبويك قد أساءَا فإنْ أحببتِ أن أردَّكِ إليهما)؟ فقالت: لا حاجةَ لي فيهما اللّهُ خيرُ أبٍ منهما[2]. وهذا نظير ما فعله عيسى عليه السّلام من إحياء الموتَى.

ومن أعلامه: أن طفيلاً العامري جاء إلى النبي ﷺ فشكا إليه الجُذَامَ، فدَعَا بركوةٍ ثم تفلَ فيها، وأمرَهُ أن يغتسلَ بها، فاغتسلَ فقامَ صحيحاً[3]!!.

وأتاه حسّانُ بن عمرو الخُزَاعي مجذوماً، فدَعا له بماءٍ فتفَلَ فيه ثم أمرَهُ فصبَّه على نفسهِ فخرجَ من علّتهِ كأنْ لم تكنْ به قطُّ، فرجعَ ودَعَا قومَهُ إلى الإسلام،

---

(١) ذكره الحافظ ابن كثير في «الشمائل» ص ٥٤٠، وقال: لا أعرفه في شيءٍ من الكتب المعتمدة بإسنادٍ صحيح ولا حسن، بل ولا ضعيف، فاللّه أعلم. أي: هذه الرواية لا أصل لها.

(٢) هذه رواية لا أصل لها في كتب السنّة المعتبرة، ولم يذكره سوى القاضي عياض في الشفاء ج ٦١٤/٢، وأشار إليه الحافظ السيوطي في مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا ص ١٣٥ رقم ٦٣٨، ولم يذكر فيه شيئاً عمّن رواه أو أخرجه، وهذا يدل على أنه لا أصل لهذه الرواية، واللّه تعالى أعلم.

(٣) لم أجد لهذا الخبر أصلاً، ولا لصاحبه ترجمةً في أسماء الصحابة.

فأسْلَمُوا عن آخرهم[1] .

وأتاه قيس اللَّخمي ، وهو من سادات قومِهِ ، وبه بَرَصٌ فتفلَ عليه فما بقي عليه إلا مقدار الحبَّة[2] . وهذا نظير ما كان من عيسى ابن مريم عليه السّلام في إبراء الأكمه والأبرص .

ومن أعلامه : ما رواه سعيد بن أبي سعيد عن أبيه عن أبي هريرة أنَّ النَّبيَّ ﷺ انصرفَ ليلة من العشاء فأضاءتْ له برقة فنظرَ إلى قتادةَ بنِ النعمان فعرفه فقال : يا نبي اللَّه كانت ليلة مطيرة فأحببتُ أن أصلي معك ، فأعطاه عرجوناً وقال : (خُذْ هذا يستضيء لك ليلتَكَ ، فإذا أتيتَ بيتَكَ فإنَّ الشَّيطان قد خلفَكَ فانظُرْ في الزاوية على يسارك) ، فدخلتُ فنظرتُ حيثُ قال فإذا أنا بسواد معلَّق به حتى سبقني[3] . وفي هذا الخبر معجزات من فعل وقول .

ومن أعلامه : أنَّ أبا قتادة بن ربعي ، جاءه يوم أحد وقد انقلعتْ إحدى عينيهِ ، وتعلَّقتْ على وجههِ ، فقال : يا رسول اللَّه ! صلّى اللَّه تعالى عليك ، إنّ لي امرأةً وأخشَى أن يقضي هذا عندَها ، فردَّها رسولُ اللَّه ﷺ إلى موضعها ، فكانت أحسنَ عينيه[4] !! .

ومثله ما رواه عروة بن الزبير : أن زنِّيرة أسلمتْ ، فأصيبَ بصرُها فقالوا لها : أصابك اللّاتُ والعزَّى ، فردَّ اللَّهُ عليها بصرَها[5] !! فقال عظماء قريش : لو كان

---

(١) لم أجد لحسان بن عمرو الخزاعي ذكراً في أسماء الصحابة .

(٢) لم أجد لقيس اللخمي ترجمة في أسماء الصحابة ، وليس له ذكر في الأنساب للسمعاني .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بخبرٍ طويل ج ٣/٦٥ ، وذكر هذه الرواية بألفاظ متقاربة الحافظ ابن حجر في الإصابة ج ٩/١٣٨ ـ ١٣٩ ، رقم الترجمة ٧٠٧٠ ، تحقيق طه محمد الزيني .

(٤) هذا كان مع قتادة بن النعمان ، وليس قتادة بن ربعي ، أخرج هذا الخبر الحاكم في المستدرك على الصحيحين ج ٣/٢٩٥ ، وانظر ترجمته وافية في موسوعة عظماء حول الرسول ﷺ ، تأليف خالد عبد الرحمن العك ج ٣/١٥٦٦ ـ ١٥٧٢ ، ط . دار النفائس ـ بيروت .

(٥) ذكر هذا الخبر ابن الأثير في أسد الغابة في معرفة الصحابة ج ٥/٤٦٢ .

ما جاء به محمد خيراً ما سبقتنا إليه زنيرةُ، فأنـزل اللَّهُ تعالى: ﴿وقـالَ الّذينَ كفـرُوا للَّذينَ آمنُوا لو كانَ خيراً ما سبقُونَا إليهِ﴾[1].

ومن أعلامه: أنَّ جَرْهَداً أتى رسولَ اللَّه ﷺ وبين يديه طبقٌ، فأدنَى يدَهُ الشمال ليأكل، وكانت اليمنى مصابة، فقال له رسول اللَّه ﷺ: (كُلْ باليُمنَى)، فقال: يا رسول اللَّه! إنَّها مصابة، فنفَثَ عليها فما اشتكَاهَا بعدُ إلى ساعته[2]!!.

وأبصرَ رجلًا يأكل بشمالِهِ فقال: (كُلْ بيمينِكَ)، فقال: لا أستطيع، فقال: (لا استطعتَ)، فما وصلتْ إلى فيهِ بعدُ، وكانَ كلَّما رفعَ اللُّقمة إلى فيـهِ ذهبتْ في شقٍّ آخرَ[3].

ومن أعلامه: شاةُ أمِّ معبد الخزاعية، وكانت مجهودة عجفاء، وضراء، فمسح رسول اللَّه ﷺ ضرعَها فدرَّتْ لبناً، وامتلأت سِمْناً، وبقيت على حالِها إلى أن وافاها أجلُها[4]. وأهدتْ له أم شريك عكَّةً فيها سمنٌ، فأخذَ منه شيئاً وردَّ العكَّة عليها، فلم تزل العَكَّةُ تصبُّ سمناً مدَّةً طويلةً[5]، إلى أمثال هذا ونظائره.

فإن قيل: لا يثبتُ إعجازُ النبوّات بمثل هذا من أخبار الآحاد، فعنْهُ جوابان:

أحدُهما: أنَّ رواةَ الآحاد قد أضافُوهُ إليهِ في جمعٍ كثيرٍ قد شاهدُوهُ وسمعُوا راويه فصدَّقُوه، ولم يكذِّبُوه. وفي الممتنع إمساك العدد الكثير عن ردِّ الكذب كما

---

(١) سورة الأحقاف، الآية ١١.

(٢) قال الحافظ ابن حجر في الإصابة ج ٧٥/٢، ترجمة رقم ١١٢٧: روى الطبراني من طريق زُرعة بن عبد الرحمن بن جَرْهَدٍ عن أبيه عن جدِّه، فذكره. قال الواقدي: كانت له دار بالمدينة، ومات بها في آخر خلافة يزيد. وكان من أهل الصُّفَّة، وكان شريفاً!!.

(٣) أخرجه مسلم برقم ١٠٧ في كتاب الأشربة: باب آداب الطعام والشراب. والبيهقي في دلائل النبوة ج ٢٣٨/٦.

(٤) ذكر هذا الخبر الحافظ ابن حجر في الإصابة ج ٢٩٨/١٣ تحقيق طه محمد الزيني.

(٥) الإصابة ج ٢٤٣/١٣، أسد الغابة: لابن الأثير ج ٥٩٤/٥، الطبقات: لابن سعد ج ١٥٤/٨ ـ ١٥٧.

يمتنع افتعالهم للكذبِ، ولئن جازَ اتِّفاقُهم على الصدق مع الكثرة والافتراق وامتنعَ اتّفاقُهم على الكذب فلأنَّ دَواعي الصِّدق عامة متناصرة ودَواعي الكذب خاصّة متنافرة، ولذلك كان صدقُ أكذبِ النّاس أكثرُ من كذبه، لأنَّه لا يجد من الصدق بُدّاً ويجد من الكذب بدّاً.

والثاني: أنَّها أخبار وردتْ من طرقٍ شَتَّى وأمورٍ متغايرة، فامتنَعَ أن يكونَ جميعُها كذباً، وإنْ كان في آحادها مجوِّز، فصارَ مجموعُها من التَّواتر ومفترقها من الآحاد، فصار متواترُ مجموعها حجةً، وإن قصر مفترقُ آحادِهَا عن الحُجَّة[1]، واللَّه تعالى أعلم.

---

(١) كلُّ حديث ثبت بإسناد صحيح عن رواةٍ عدولٍ ثقاتٍ، خالٍ عن الشذوذِ والعلَّةِ القادحة، فهو مصدَّقٌ به تصديقاً يُوجب العلم، في الاعتقاد، وفي الأحكام، على حدّ سواء، ومن زعم أن الأحاديث الصحاح يؤخذ بها في الأحكام دون الاعتقاد لدعوى الآحاد، فهو على طريقة الخوارج الذين ابتدعوا هذه البدعة المنكرة الشنيعة، وهي رد الأحاديث الصحاح التي لا تبلغ التواتر، وهذا شيء لم يقل به الصحابة، ثم انتقلت بدعة رد الأحاديث الصحاح في العقيدة إلى الجهمية ثم إلى المعتزلة، ثم إلى الأشاعرة، وحتى هذا الوقت نعاني من هذه البلية الخطيرة، التي جعلت المسلمين يهجرون حديث رسول اللَّه ﷺ، والعياذ باللَّه تعالى.

الباب العاشر

فيما سمع من معجزات أقواله

والمعجزات من القول: هو الإخبار عن غائب لا يعلم به غير مخبره، فيكون على صدقه دليلاً؛ لأنَّ الخبرَ ما احتملَ الصدقَ والكذب، وحقيقةُ الخبر ما كان عن ماضٍ، فأمَّا المستقبل فيُطلق اسمُ الخبرِ عليه مجازاً، فإن أُضيف المستقبل إلى فعل المخبر كان وعداً يصح من نبيٍّ وغير نبيٍّ، وإن أضيف إلى فعل غيرِهِ كان من الغُيوب المعجـزة لا يصح إلاّ من نبيٍّ مبعـوث، وعن وحي منزَّلٍ[1]، إذا تكـرَّرَ عاريـاً عن الأسباب المنذرة، ولئن ظهر خبرٌ من غير نبيٍّ فهو بالاتفاق عن حدس إن صحَّ في خبر لم يصح في كل خبر، ويصحُّ من النَّبيِّ ﷺ في كل خبر؛ لأنَّه من اللَّه تعالى المحيط بعلم الغيوب، كما قال لنبيِّه: ﴿قُلْ لا أقولُ لكُمْ عندِي خَزَائِنُ اللَّهِ ولا أعلمُ الغيبَ ولا أقولُ لكم إنِّي مَلَكٌ إنْ أتَّبعُ إلاَّ ما يُوحَى إليَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأعمىٰ والبصيرُ﴾[2].

وفي خـزائن اللَّه ههُنا تـأويلان: أحـدهما: خـزائن الرزق، فـأغنى وأفقـر، والثاني: خزائن العذاب فأعجلَ، وأخَّر.

---

(١) لقد ثبت عن رسول اللَّه ﷺ مائة وتسعة أخبار بالأسانيد الصحيحة، التي أخبر فيها عن أمور غيبيَّة، لم تحصل في حين الإخبار بها، وإنما حصلت بعدما أخبر عنها، وقد جمعها في كتابه الشيخ خير الـدِّين وانلي «الصحيح من معجـزات المصطفى عليـه الصلاة والسـلام» جزاه اللَّه تعالى خيراً.

(٢) سورة الأنعام، الآية ٥٠.

وفي قوله: ﴿ولا أعلمُ الغيبَ﴾ تأويلان: **أحدُهما**: علم الخزائن على ما مضى من التأويلين، **والثاني**: علمُ ما غابَ عن ماضٍ ومستقبلٍ، إلَّا أنَّ المستقبل لا يعلمه إلّا اللّه تعالى، ومن أطلعه عليه من أنبيائه، وأما الماضي فقد يعلمه المخلوقون من وجهين: إمّا من مخلوق معاين، أو من خالقٍ مخبر، فكانت الأخبار المستقبلة من آيات اللّه تعالى المعجزة، فأمَّا الماضية، فإن علم بها غير المخبر لم تكن معجزة، وإن لم يعلم بها أحدٌ كانت آية معجزة.

وفي قوله: ﴿ولا أقولُ لكم إنِّي مَلَك﴾ تأويلان: **أحدهما**: أنه لا يقدر على ما يعجز عنه العباد وإن قدرت عليه الملائكة، **والثاني**: أنَّه من البشر وليس بمهلك لينفي عن نفسه غلوَّ النصارى في المسيح.

وفي نفيه أنْ يكونَ مَلَكاً تأويلان: **أحدُهما**: أنَّه دفع عن نفسه منزلةَ الملائكة تفضيلاً لهم على الأنبياء. **والثاني**: أنِّي لست مَلَكاً في السماء فأعلم غيبَ السماء الذي تشاهده الملائكة ويغيب عن البشر وإن كان الأنبياء أفضل من الملائكة مع غيبهم عمّا يشاهده الملائكة.

وفي قوله: ﴿إنْ أتَّبع إلاّ ما يُوحَى إليَّ﴾ تأويلان: **أحدُهما**: لنْ أخبرَكم إلاّ بما أطلعني اللّهُ عليه، **والثاني**: لنْ أفعلَ إلاّ ما أمرني اللّهُ به، ﴿قُلْ هَلْ يستوِي الأعمى والبصيرُ﴾؟ فيه تأويلان: **أحدُهما**: العَالِمُ والجاهلُ. **والثاني**: المؤمنُ والكافرُ.

فثبت بما قرَّرْناهُ أنَّ في الأقوال معجزة كالأفعال، فكانت من أعلام النُّبوَّة وآيات الرسل، ونحنُ نذكرُ منها ما اختصَّ بقول الرسول[1]، دون ما تضمَّنه القرآن؛ لأنَّ القرآنَ معجزٌ في الخبرِ وغير الخبرِ.

---

(١) وهناك الكثير من الأحاديث النبوية التي كشف العلم الحديث عن حقائقها، ممّا يُعتبر أنها من الإعجاز الذي يُثبت صدق النُّبوَّة. وقد جمع في هذا المجال أبحاثاً ذات صبغة علمية باحثون أجلاء، لبيان أن ما تمَّ اكتشافه في عصر العلم والتقدم التكنولوجي، قد جاء في كثير من الآيات القرآنية، والأحاديث الصحيحة النبوية، نذكر منهم «الدكتور محمد علي البار» في مؤلفاته القيّمة.

فصـل:

[أخبـار النُّبـوَّة]

ومجيءُ الأخبـار ينقسمُ إلى أربعة أقسـام: أخبارُ استفـاضة، وأخبـار تواتـر، وأخبار آحاد بقرائن، وأخبار آحاد مجرَّدة.

فأمّا أخبارُ الاستفاضة والتواتـر، فقد أطلق أهـل العلم ذكرهمـا، ولم يفرقـوا بينهما، وهما عندي مفترقـان، لأنَّ اختلاف الأسمـاء موضـوع لاختلافِ المسمَّى، فكان حملها على حقيقة الاختلاف أَوْلى من حملها على مجاز الائتلاف[1]، فأخبارُ الاستفـاضة مـا بدأت منتشـرةً عن كل مخبـر من بَرٍّ وفـاجر عن قصدٍ وغيرِ قصـدٍ، ويتحققها كلُّ سـامع من عـالمٍ وجاهـلٍ، فلا يختلف فيهـا مُخْبَرٌ ولا يتشكَّـكُ فيها سامعٌ، ويستوي طرفَاهَا ووسطُها فتكون أوائلها كأواخرها وتناهيها، وهو أقوى الأخبار وُرُوداً وأبلغها ثبوتاً.

وأمّا أخبار التَّواتر فهو ما أخبرَ به الواحدُ بعدَ الواحدِ حتى كثُروا، وبلغوا عدداً ينتفي عن مثلهم المواطأة على الكذب، والاتفاق على الغلط، ولا يعرض في خبرهم شطٌّ ولا توهُّمٌ، فيكون من أوَّله من أخبار الآحاد وفي آخره من أخبار التواتر، فيصير مخالفاً لأخبار الاستفاضة في أوَّله، وموافقاً لهـا في آخره، ويكـون الفرق بين خبـرِ الاستفاضة وخبر التَّواتر من ثلاثة أوجه:

أحدُها: ما ذكرنَاهُ من اختلافها في الابتداء والانتهاء.

---

(١) هذا تقسيم لا دليل عليه من كتاب اللَّه تعالى ولا من سنة رسوله ﷺ، بـل ما ثبت في كتـاب اللَّه تعـالى وسنة رسـوله ﷺ خـلاف ما ذهب إليـه المتكلمون الـذين جعلوا السنَّة «عِضين» فقسَمُوها وجزّؤوها، وحكَّمُوا عقولهم في رَدِّها وقبولها، فكان خطرُ المتكلمين في تعطيل سنة رسول اللَّه ﷺ أكبرَ من كلِّ فتنة وبدعة صدَّت المسلمين عن أحاديث رسولها ﷺ.

والطريقة الصحيحة السليمة في تلقي أحاديث رسول اللَّه ﷺ ـ بعيـداً عن منهج الحشـوية المتكلمين ـ هي ما عليه الحفاظ والمحدِّثون، الذين سلكوا منهج الصحابة والتَّابعين والأئمة المجتهدين.

والثاني: أنَّ أخبار الاستفاضة قد تكون عن غير قصدٍ، وأخبار التَّواتر لا تكون إلّا عن قصد.

والثالث: أنَّ أخبار الاستفاضة لا يُعتبر فيها عدالةُ المخبرين، ويُعتبر في أخبار التَّواتر عدالةُ المخبرين[1]، ثم يستوي الخبران في انتفاء الشَّك عنهما ووقوع العلم بهما.

ومثال الاستفاضة في أحكام الشرع أعداد الصلوات، ومثال التواتر في أحكام الشرع نُصُبِ الزَّكوات[2]. واختلف في وقوع العلم بهما، هل هو علم اضطراراً وعلم اكتساب على وجهين:

أحدُهما: أنه علم اكتساب وقع عن استدلال، وهو قولُ بعض أصحاب الشافعي، وبعضِ المتكلِّمين، لأنَّ العلم بخبرهم يقترن بصفات تختصُّ بهم، فصارَ طلبُ الصفات استدلالاً يُوصل إلى العلم بخبرهم.

واختلف القائلون بهذا: هل اكتسب العلم به من الخبر أو المخبر[3]، على وجهين: **أحدُهما**: من الخبر لأنَّه المقصودُ. **والثاني**: من المُخْبِرِ لأنه المبلِّغُ. فهذا قول من جعلَهُ علمَ استدلال.

والوجه الثاني: وهو قول الأكثرين من الفقهاء والمتكلمين أنَّه علم اضطرار أدرك ببدائه العقول، لأنَّ العلم به قد يسبق إلى اليقين من غير نظر، ويستقرُّ في القلوب من غير انتقال.

---

(١) إنَّ هذه التقسيمات الكلامية لأخبار الاستفاضة وأخبار التواتر لا يُعتدُّ بها عند الحفاظ والمحدِّثين، فلا بدَّ من شرط عدالة الرواة في قبول الأحاديث، فلو استفاض خبرٌ عند المتروكين لا يُعتدُّ به، فالعدالة والضبط والإتقان والصدق كل ذلك ضروري في جميع الروايات وقبولها.

(٢) بل أعداد الصلوات بلغ من التواتر أكثر مما بلغته نُصُبُ الزكوات.

(٣) هذا الاختلاف ناشىء من الفذلكة الجدلية، التي يتمتع بها الجدليون من المتكلِّمين.

واختلف القائلون بهذا في علمه بالاضطرار هل هـو من فعل المُخْبِرِ، أو من فعل اللَّه تعالى؟ على وجهين:

أحدُهما: أنَّه من فعل المُخْبِرِ لوصولِهِ إليه بنفسه، وهو قول أكثر الفقهاء.

والوجه الثـاني: أنَّه من فعـل اللَّه تعالى لأنَّـه الملجىء إليه، وهـو قول أكثر المتكلّمين. واختلفَ مَنْ قـال بهـذا منهم على وجهين: **أحـدُهمـا**: أنَّـه من فعـل اللَّه تعالى في الخبر. **والثاني**: أنَّه من فعله في المخبر.

والذي أراه أَوْلَى أنَّ أخبارَ الاستفاضة تُوجبُ علمَ الاضطرار، وأخبـارَ التَّواتـر تُوجبُ علمَ الاستدلال، لاستغناء الإفاضة عن نظر، واحتياج التَّواتر إلى نظر مع وقوع العلم بهما، وزعمت الإماميَّة أنَّه لا يقعُ العلمُ بأخبار الاستفاضة والتواتر إلاّ أن يكونَ في المخبِرين إمامٌ معصوم أو يصدِّقُهم عليه إمامٌ معصوم.

وحُكي عن ضرار بن عمرو أنَّ حُجَّة الاستفاضة والتَّواتر لا تقوم بعـد الرسـل بنقل أقوالهم وأفعالهم، إلاَّ بإجماع الأُمَّة على صدقهم أو صحة نقلهم. وكلا القولين مدفوع بقضايا العقـول؛ لأنَّها تضـطر إلى العلم بها كعلم الاضـطرار بالمشـاهدات ومدركات الحواسِّ، لأنَّ الأخبار بالبلاد أنَّ فيها مكة والصِّين يعلم بـالاضطرار كمـا يعلم بالمشاهدة، وكما يعلم الإنسان أن تحته أرضاً وسماءً فوقه، لوجود أنفسنا عالمةً بها على سواء، ولِما في غرائز الفِطَرِ مِنْ ذلك[1].

قال طفيل الغنوي وهو أعـرابي بطبـع سليم من التكلف وبديهـة خلصت من

---

(١) وإنَّ الفـطرة تقرُّ بصـدق أهل العـدالة من الصحـابة والتـابعين والحفاظ والمحـدِّثين والأئمة المجتهدين، لِما يُعلم من صـدقهم وأمانتهم وحسن سيـرتهم، وقوَّة حـافظتهم، وحـرصهم الشديد على تبليغ الدِّين من غير زيادة أو نقصان، فهذا ثابت بالفطرة، أي قائم لـدى جميع المسلمين من عهد رسول اللَّه ﷺ حتى وقتنا هذا، فلم يخالف فيه إلا المتفلسفة وأنصافهم من المتكلمين الذين مزجوا معارفهم من ها هنا وهـا هنا، ولم يحـرصوا على مـا كان عليـه السَّلف الصالح، من العلم الصحيح والنهج القويم، قبل فشوِّ الفلسفات الكلامية الجـدلية المنطقية.

التعمق والتعسف ما يدل على وقوع العلم بأخبار الاستفاضة والتواتر:

تأوَّبني همٌّ من الليل مُنْصَبُّ — وجاء من الأخبار ما لا يكذَّبُ
تظاهرن حتى لم تكن لي ريبةٌ — ولم يكُ فيما أخبروا متعقَّبُ[1]

فصل:

[الاحتجاج بأحاديث الآحاد في الاعتقاد]

وأمَّا أخبار الآحاد فضربان: أحدُهما: أن يقترن بها ما يُوجب العلم بمضمونها، وقد يكون ذلك من خمسة أوجهٍ[2]:

أحدُها: أنْ يصدقه عليه مَنْ يُقطع بصدقه كالرَّسُول أو من أخبرَ الرَّسُولُ بصدقهِ، فيُعلم بهِ صدقُ المخبِرِ وصحةُ الخبر.

والثاني: أن تجتمع الأُمَّة على صدقه فيعلم بإجماعهم أنه صادق في خبره.

الثالث: أنْ يُجمعوا على قبوله والعمل به فيكون دليلاً على صدق خبرهِ.

الرابع: أنْ يكون الخبر مُضَافاً إلى حالٍ قد شاهدَها عددٌ كثير، وسمعوا روايةَ الخبر فلم ينكروهُ على المخبِرِ، فيدلُّ على صحة الخبَرِ وصدقِ المخبِرِ.

الخامس: أنْ يقترن بالخبر دلائلُ العقول[3]، فإنْ كان مضافاً إليها كان صدقاً

---

(١) هذا ينطبق على قبول أحاديث الثقات العدول الضابطين المتقنين، وتصديقها، وإفادة العلم بها!!.

(٢) أحاديث الآحاد الصحيحة التي ثبتتْ عن رسول اللَّه ﷺ قد تحقق فيها ـ وللَّه تعالى الحمد والشكر ـ هذه الأوجه الخمسة، فلا مصرف إلى ردِّها بزعم أنها تفيد الظن، فإنَّ الظن في غير موطن الريبة ضلال.

(٣) هذا مشروط إن كانت العقولُ معصومةً، والمعهود فيها أنها غير معصومةٍ، أمّا الأحاديث النبوية فهي من الوحي، وهي معصومة، وعصمتها ظاهرة بما أقام اللَّه تعالى لها من مئات الألوف من المحدثين والحفاظ والرواة المتقنين الضابطين الثقات العدول، الذين بذلوا حياتهم في حفظها وتدوينها ومذاكرتها وإملائها وروايتها، والعناية بها كابراً عن كابر على مدى الأعوام والأزمان!!. فالعقل الذي وافق ما ثبت عن رسول اللَّه ﷺ هو العقل الصحيح، والعقل الذي خالف السنّة الصحيحة هو المريض، فصريح المعقول لا يُخالف صحيح المنقول!!.

لازماً، لأنَّ ما وافقَها لا يكون إلاَّ حقاً، وإن كان مضافاً إلى غيرها لم يدلَّ موافقتها على صدق الخبر، وإن أوجبَ صحةَ ما تضمَّنَهُ الخبرُ.

والضرب الثاني: أن ينفردَ خبرُ الواحد عن قرينة تدلُّ على صدقه، فهي أمارة تُوجب عليه الظنَّ، ولا تقتضي العلم، يقوَى إذا تطاوَلَ به الزمانُ فلم يُعارَضْ بردٍّ ولا مخالفةٍ[1]، وإنْ تكرَّرَ في معناها ما يُوافقها صارَ جميعُها متواتراً، وإن كان أفرادُها آحاداً.

وإذا استقرَّ هذا الأصلُ في الأخبار، ولم يخرج المرويُّ من إعلام الرسول عنها، وقد ذكرنَا ما رُوِي من أفعاله، وسنذكر ما رُوِي من أقواله:

فمنها: ما رُوِيَ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: (زُوِيتْ لي الأرضُ فأُريتُ مَشارِقَها ومغارِبَها، وسيبلغُ مُلْكُ أمَّتي ما زُوِيَ لي منها)[2]، فصدَّقَ اللَّهُ خبرَهُ وحقَّقَ ما ذكرَهُ، ومَلَّكَ أمَّتَهُ أقطارَ الأرض، حتى دَانَ له بشرعه مَنْ في المشرقِ والمغرب.

وقال عليه السَّلام لعديِّ بن حاتم: (لا يمنعك من هذا الدِّين ما ترَى من جَهْدِ

---

(١) وجميع الأحاديث الصِّحاح والحسان لم تُعارَضْ بردٍّ ولا مخالفةٍ، من الأئمة والحفاظ والمحدِّثين، فهم أهل الشأن فيها، أما ما زعمه المتكلمون في الأحاديث الصحيحة الواردة في الصفات، من الاعتراضات، فهي من آحاد العلماء، بل من المتكلمين الذين لا باع لهم في معرفة الأحاديث ولا درايتها ولا روايتها، ومن درس حياتهم وقف على حقيقة نظرتهم إلى السنَّة المطهرة المعصومة المحفوظة، فإنَّ نظرتهم إلى الأحاديث جاءت من الفرق التي خالفت أهل السنة والجماعة وخرجت عن منهج السَّلف الصَّالح، وأخذت بالمفاهيم الفلسفية والطرق المنطقية الغريبة البعيدة عن منهج الكتاب والسنَّة، فكانت سِمَةُ الفِرَقِ الكلامية هجر الأحاديث الصحيحة الواردة في صفات اللَّه تعالى بزعم أنها آحاد، والآحاد يفيد الظن. [انظر ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه القيِّم «درء تعارض العقل والنقل ج ٦/٢٢٧» عن المعتزلة كيف أعلوا الأحاديث الصحاح في الصفات بزعم أنها آحاد] ولم ينظروا إلى تلقي الأئمة لها بالقبول.

(٢) هذا جزء من حديث مسلم في صحيحه في كتاب الفتن: باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض. وأخرجه أبو داود برقم ٤٢٥٢، والترمذي برقم ٢١٧٦ وقال: هذا حديث حسن صحيح.

أهله وضعفِ أصحابه، فلكأنَّهم ببيضاء المدائن قد فُتِحَتْ عليهم، ولكأنَّهم بالظعينة تخرج من الحيرة حتى تأتي مكة بغير خفارة لا تخاف إلاّ اللّه)[1]، فأبصر عدي ذلك كله، وهذا لا يكون إلاّ من إطلاع اللّه تعالى له على غيبه وتحقيقه لوعدِهِ في قولـهِ: ﴿لِيُظْهِرَهُ على الدِّينِ كُلِّهِ﴾[2].

ومن أعلامه: ما رواه البراء بن عازب، قال: أمرنَا رسولُ اللّه ﷺ بحفرِ الخندق، فعرضتْ لنا صخرةٌ عظيمةٌ لا يأخُذُ فيها المعولُ، فأخذ المعول، وقال: بسم اللّهِ، وضربَ ضربةً فكسَرَ ثلثَها، وقال: اللّهُ أكبر أُعْطيتُ مفاتيح الشام، ثم ضرب الثانية، فقطع ثلثاً آخرَ، وقال: اللّهُ أكبرُ أُعطيتُ مفاتيحَ فارس، ثم ضربَ الثالثةَ فقطعَ بقيَّةَ الحجرِ، وقال: اللّهُ أكبرُ أُعطيتُ مفاتيحَ اليمن[3]، فصدَّقَ اللّهُ قولَهُ وأعطاهُ ما فُتِحَ لَهُ!!.

وروى كعب بن مالك قال: سمعتُ رسولَ اللّه ﷺ يقول: (إذا فتحتْ مصرُ فاستوصُوا بالقبطِ خيراً، فإنَّ لهم رَحِماً وذِمَّةً)[4]، يعني أنَّ أمَّ إسماعيل بن إبراهيم كانت منهم.

---

(١) أخرجه البخاري بنحو هذا اللفظ في كتاب الزكاة: باب الصدقة قبل الرد. أوله: (يا عدي! هل رأيتَ الحيرة؟ فإن طالت بك حياةٌ فلترينَّ الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلاّ اللّه، ولئن طالت بك حياةٌ لَتُفتحَنَّ كنُوزُ كسرى..) الحديث. مشكاة المصابيح ج ٣/١٦٣٠.

(٢) سورة التوبة، الآية ٣٣.

(٣) أخرجه البيهقي في دلائل النُّبوَّة ج ٣/٤٢١، وأبو نعيم في دلائل النُّبوَّة برقم ٤٣٠، قال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد ج ١٣١/٦: رواه أحمد وفيه ميمون أبو عبد اللّه، وثقه ابن حبان وضعفه جماعة، وبقية رجاله ثقات. [انظر ترجمة ميمون مولى عبد الرحمن بن سمرة في ميزان الاعتدال ج ٢٣٥/٤].

(٤) في صحيح مسلم برقم ٢٥٤٣: عن أبي ذر قال: قال رسول اللّه ﷺ: (إنَّكم ستفتحون مصرَ، وهي أرض يُسمّى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإنَّ لهم ذمَّةً ورحماً..)، ورواه أحمد في مسنده ج ١٧٤/٥: (إذا فتحتموها ـ يعني مصر ـ فأحسنوا إلى أهلها).

ومن أعلامه: أنَّه كتب إلى كسرَى كتاباً يدعُوهُ إلى الإسلام، وبدأ باسمهِ قبلَ اسمهِ، فلمَّا قرأه أنف لنفسهِ من ابتدائه باسمهِ، فمزَّق كتابَهُ فبلغَ ذلك رسولَ اللَّهِ ﷺ فقال: (تمزَّقَ مُلْكُهُ)[1].

ثم كتب كسرَى في الوقت نفسهِ إلى عامله باليمن «بَاذَان» ويُكنَى أبا مهران: أنِ احمل إليَّ هذا الذي يذكر أنَّه نبيٌّ، وبدأ باسمهِ قبلَ اسمي، ودعاني إلى غير ديني، فبعثَ إليهِ فيروز بن الدَّيلمي مع جماعةٍ من أصحابه وكتبَ معهم كتاباً يذكر فيه ما كتبَ به كسرَى، فأتَاهُ فيروز بمن معه وقال له: إنَّ ربِّي ـ يعني كسرى ـ أمرني أن أحملك إليه، فاستنظره ليلة، فلمَّا كان من الغدِ حضرَ فيروز سحباً فقال له رسول اللَّه ﷺ: (أخبرني ربِّي أنَّه قتل ربَّكَ البارحةَ، سلَّطَ عليه ابنَهُ شيرويه على سبع ساعات مِنَ اللَّيل فأمسك ريثما يأتيك الخبر)[2]، فراعَ ذلك فيروز وهالَهُ، وعادَ فيروز إلى بَاذَان فأخبره، فقال له باذان: كيف وجدتَ نفسَكَ حين دخلتَ إليه؟ فقال: واللَّه ما هبتُ أحداً قطُّ كهيبةِ هذا الرجل!! فقال باذان: إن كانَ ما قاله حقّاً فهو نبيٌّ، فلم يرعه إلَّا ورودُ الخبرِ عليه بقتلهِ في تلك اللَّيلة من تلك الساعة، فأسلمَ بَاذَانُ وفيروزُ ومن معهم من الأبناء!! وظهر العنسي بما افتراه من الكذب فأرسلَ إلى فيروز أنِ اقتله، قتلَهُ اللَّهُ، فقتَلَهُ، وفي هذا الخبر من آيات الغُيُوب ما لا يعلمه إلَّا اللَّه أو مَنْ أطلعَهُ عليه!!.

ومن أعلامه: أنَّه رأى ذَرَاعَيْ سراقةَ بنِ مالك بن جعشم دقيقين أشعرَيْن، فقال: (كيفَ بِكَ إذا أُلْبِستَ بعدي سِوَاري كِسْرَى)؟! فلمّا فُتحتْ فارسُ دعَاهُ عمرُ وألبسَهُ سِوَارِي كِسْرَى وقال له: قُلِ الحمدُ للَّهِ الّذي سَلَبَهُمَا كِسْرَى بن هرمز وأَلْبَسَهُمَا سُرَاقَةَ بن جعشم[3]!!.

---

(١) دلائل النبوة: للبيهقي ج ٣٢٥/٦، وفي سننه الكبرى ج ١٧٧/٩، والبغوي في شرح السنة ج ٣١٠/١٣.

(٢) ذكر هذا الخبر الحافظ ابن كثير في تاريخه «البداية» ج ٣٠٦/٦ ـ ٣٠٧.

(٣) ذكر هذا الخبر الزبيدي في كتابه «إتحاف السادة المتقين شرح إحياء علوم الدين» ج ١٨/٧، =

ومن أعلامه: ما رواه جابر بن عبد اللّه قال: صلَّى رسولُ اللّه ﷺ ثم قال: (إنَّ النَّجاشي أصحمة، قد تُوفي هذه السَّاعة، فأخرجُوا بنا إلى المصلى نُصلي عليه، فصلَّى عليه وكبَّر أربعاً فقال المنافقون: انظروا إلى هذا يُصلي على علج نصراني لم يَرَهُ قطُّ؟! فأنزلَ اللّه تعالى: ﴿وإنَّ مِنْ أهلِ الكتابِ لمَنْ يُؤمِنُ باللّهِ وما أُنْزِلَ إليكم وما أُنْزِلَ إليهم﴾[1][2]. ثم جاء الخبر بموت النجاشي من تجارٍ وَرَدُوا المدينةَ.

ومثله ما روي أنَّ ريحاً هبتْ بتبوك فقال رسول اللّه ﷺ: (هذا لموتِ منافقٍ عظيمِ النِّفاقِ قدْ ماتَ في ذلك الوقت)[3].

ومن أعلامه: أنَّه قال لأصحابه: (اليومَ نُصرتِ العربُ على العجم وبي نُصِروا)[4]. فجاء خبرُ الوقعة بذي قار، وما أدَالَ اللّهُ تعالى فيه العرب من العجم حتى قتلتْ فيه بنُو شيبان وبكرُ بن وائل من الفرس مَنْ قتلُوا، وكان أول يوم انتصف فيه العرب من العجم وجاءهم الخبرُ أنَّه كان في الساعة من اليوم الذي أخبرَ بهِ رسولُ اللّه ﷺ.

ومن أعلامه: أنَّه كشف اللّه تعالى له ما غابَ عنه في جيش مُؤْتَةَ[5]، فقال لأصحابه: (أخذَ الرايةَ زيدُ بنُ حارثةَ، وتقدَّم فقُتِلَ، ومضَى شهيداً!! ثم أخذَ الرايةَ

= والقاضي عياض في الشفاء ج ١/٦٧٤، وعزاه السيوطي في تخريجه إلى البيهقي، مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفاء، رقم ٨٠٥.

(١) سورة آل عمران، الآية ١٩٩.

(٢) نعي النجاشي رضي اللّه عنه جاء في صحيح البخاري ج ٢/٧١، كتاب الجنائز: باب الرجل يُنعى إلى أهل الميت بنفسه، وفي فضائل أصحاب النبي ﷺ: باب موت النجاشي، ومسلم في صحيحه برقم ٩٥١، في الجنائز: باب في التكبير على الجنازة، والترمذي ج ٣/٣٥٧، وابن ماجه ج ١/٤٩٠، والنسائي ج ٣/٢٧ و ٦٩ و ٧٠، وأحمد ج ١/٢٥٤ وج ٢/٢٤١ و ٢٨٠ و ٤/٦٤ و ٣٦٠ وج ٥/٣٧٦.

(٣) السيرة النبوية: لابن هشام ج ٢/٢٩٢، والسيرة: لابن كثير ج ٣/٣٠٠، والمنافق هو: رفاعة بن زيد بن التابوت.

(٤) تاريخ الطبري ج ٢/٢٠٧ - ٢٠٨.

(٥) خبر ذلك عند البخاري ج ٥/١٨٢، وأحمد في مسنده ج ١/٢٠٤ و ٢٥٦.

بعدَهُ جعفرُ بنُ أبي طالب وتقدَّمَ فقُتِلَ، ومضَى شهيداً!! ووَقَفَ وَقْفَةً، ثم قال: وأخذَ الرايةَ بعدَهُ عبدُ اللَّه بنُ رواحةَ وتقدَّم فقُتِلَ ومضى شهيداً)، لأنَّ عبدَ اللَّهِ بنَ رواحة توقَّفَ عن أخذِ الرايةِ بعد قتلِ جعفرَ زَمَاناً ثم أخَذَها، قال: ثم ارتضى المسلمون خالدَ بنَ الوليد، فكُشِفَ العدوُّ عنهم حتَّى خَلَصُوا، ثم قام إلى بيتِ جعفر بن أبي طالب فاستخرج ولده، ودمعت عيناهُ، ونعَى جعفرَ إلى أهله، وجاءتِ الأخبارُ بأنَّهم قُتِلُوا في ذلك اليوم على ما وصفه!!.

ومن أعلامه: قوله في ليلة الإسراء حين أصبح: (مررتُ بعيرِ بني فلانٍ، فوجدتُ القومَ نياماً وإذا إناء فيه ماء وقد غطوا عليه، فكشفتُ غطاءَهُ وشربتُ ما فيه، ورَدَدْتُ الغِطَاءَ كما كان، وآيةُ ذلك أنَّ عِيرهم الآن تُقْبِل من موضع كذا يقدمُها جملٌ أوْرَقُ عليه غرارتان إحداهما سوداء والأخرى زرقاء)، فابتدر القومُ الثَّنِيَّةَ فوجدُوا ما وَصَفَ، وسألهم عن الإناء فوجدُوا الأمرَ كما قال[1].

ومن أعلامه: أنَّه رأى علياً كرَّم اللَّه وجهه في غزاة العشيرة على التراب ومعه عمار فقال لهما: (ألاَ أخبركما بأشقى النَّاسِ؟ قال: بلى، قال: أشقى النَّاسِ أحمر ثمود، وعاقر الناقة، والذي يخضب ـ يا عليّ ـ هذه من هذه، وأشار إلى لحيته من رأسه، وقال لعمّار: تقتُلُكَ الفِئَةُ البَاغِيَةُ، وآخرُ زَادِكَ من الدنيا صاعٌ من لبن)[2]. فكان من قتل ابن ملجم، لعنَهُ اللَّه، لعلي كرَّم اللَّه وجهه ما كان، وقُتِلَ عمارُ يومَ صفِّين، فلما ذكر الخبر لمعاوية لم ينكره ودفعه عن نفسه بأن قال: إنَّما قتلَهُ مَنْ جاءَ بهِ.

ومثلُهُ ما رُوي أن النَّبيَّ ﷺ ذكر زيد بن صوحان فقال: (زَيْدٌ وما زَيْدٌ! يسبقُهُ

---

(١) عزاه الحافظ السيوطي في «الخصائص الكبرى» ج ١/١٥٨ ـ ١٥٩ إلى ابن أبي حاتم، والبيهقي والبزار والطبراني وابن مردويه.

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوَّة ج ٣/١٢ ـ ١٣، وذكره ابن هشام في السيرة النبوية ج ٢/٢٣٦ ـ ٢٣٧.

عضوٌ منه إلى الجنّة)[1] فقُطِعَتْ يَدُهُ يوم نَهَاوَنْد في سبيل اللّه. وقال: (الخلافةُ بعدي ثلاثون وما بعدَ ذلك مُلْكٌ)[2].

نوع آخر من أعلامه ﷺ: أنَّه نزلَ بجيشه في غزوة تبوك[3] على غير ماءٍ، وهم نحو ثلاثين ألفاً، فعَطِشُوا وشَكُوا ذلك إليه، فبعثَ أبا قتادة وأبا طلحة وسِمَاكَ بنَ خرشة وسعدَ بنَ عُبادة يلتمسون الماء، فغابوا إلى قائمِ الظهيرةِ، ثم رجعوا ولم يجدُوا شيئاً، وبلغَ العطشُ من النَّاسِ والخيل والدَّوابِّ، فصلَّى بأصحابه متيمِّماً، فلمَّا فرغَ شكوا إليه العطشَ، فبعثَ أسيد بن خضير وأسامة يلتمسونَ الماءَ من الأعراب، فقال المنافقون: إنَّ محمّداً يخبر بأخبار السماء، وهو لا يدري الطريق إلى الماءِ، فأتاه جبريل عليه السّلام فأخبره بقولهم، وسَمَّاهُم لهُ، فشكَى ذلك إلى سعدِ بنِ عُبادَةَ، فقال سعد: إنْ شئتَ ضربتُ أعناقهم، فقال: (لا يتحدَّثُ النَّاسُ أنَّ محمداً يقتلُ أصحابَهُ، ولكنْ نُحْسِنُ صُحْبَتَهُمْ ما أَقَامُوا معَنَا)، ثم قال لأبي الهيثم بن التَّيْهان وأبي قتادة وسهيل بن بيضاء يستعرضون الطريق ويأخذون على الكثيب، فتقفوا ساعةً، فإنَّ عجوزاً من الأعراب تمرُّ بكم على ناقة لها، معها سِقَاءٌ من ماء، فأطعموها واشتروا منها بما عزَّ وهَانَ، وجيئوا بها مع الماء، فمضوا حتى بلغُوا الموضع الَّذي وَصَفَ لهم، فإذا بالمرأة فقالوا: تبيعينا هذا الماء؟ قالت: أنا وأهلي

---

(١) ذكره الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد ج ٣٩٨/٩، والإصابة ج ٦٤٧/٢.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه في كتاب الفتن: باب ما جاء في الخلافة، وقال الترمذي: حديث حسن، وأبو داود ج ٢١١/٤، وأحمد في مسنده ج ٢٧٣/٤ وج ٤٤/٥، ٥٠، ٢٤٠، ٢٢١، و٤٠٤.

(٣) حدثت في غزوة تبوك أمورٌ كثيرة قد ظهرت فيها معجزات رسول اللّه ﷺ، والأحاديث فيها كلها متفقة في دعائه ﷺ في بقيَّة الأزواد ـ أي: ما زاد مع الصحابة من الطعام القليل ـ وإجابة اللّه تعالى له، وفي دعائه ﷺ في تكثير الماء وظهور البركة فيه، حتى ملؤوا أوعيتهم وشربوا وسقوا دوابَّهم، وفضلت فضلة! وقد ذكر هذه الأحاديث الحافظ البيهقي في دلائل النبوة ج ٢٢٧/٥ ـ ٢٥٥، وذكرها أيضاً الحافظ أبو نعيم في دلائل النبوة ص ٥٢٠ ـ ٥٢٨، ط. دار النفائس.

أحوج إلى الماء منكم، فطلبوا إليها أن تأتي رسولَ اللّه ﷺ مع الماء فأبتْ، وقالتْ: إن هذا لساحرٌ، خيرُ الأشياء أنْ لا أراهُ ولا يراني، فشدُّوا وثاقَها حتى جاؤوا بها مع الماء، فلما وقفت بين يدي رسولِ اللّه ﷺ قال: (خَلُّوا عنها)، وقال لها: (تبيعين هذا الماء)؟ قالت: إنَّ أهلي أحوج إليه منكم، قال: (فائذَنِي لَنا فيه وليصيرنَّ ذلك كما جئتِ بهِ)، قالت: شأنكم، فقال لأبي قتادة: (هات الميضأة)، فقرِّبَتْ إليه، فحل السِّقَاءَ وتَفَلَ فيه وصبَّ في الميضأة فوضَع يَدَهُ فيه، ثم قال: (ادْنُوا فخُذُوا)، فجعل الماءُ يزيدُ والنَّاسُ يأخذونَ حتى ما أبقَوْا معهم سِقَاءً إلاّ مَلؤُهُ، وأرْوُوا خيلَهُم وإبلَهُم والميضأة ملأى، ثم زادَ رسول اللّه ﷺ في السِّقاء حتى مَلأَهُ وبقي في الميضأة ثُلُثَاهُ، ثم توضؤوا كلُّهم حين أصبحوا وهو يزيدُ ولا ينقصُ[1]!!.

ومن أعلامه ﷺ: أنَّ ناقةً له ضلَّتْ في توجُّههِ إلى تبوك فتفرَّق النَّاسُ في طلبها، وكان عنده عمارةُ بن حزم وفي رحل عمارة زيد بن اللّصيت، وكان يهودياً قد أسلمَ ونافَقَ، فقال زيد في رحل عمارة: يزعم محمد أنه نبي يخبركم خبر السماء، وهو لا يدري أين نَاقَتُهُ، فقال رسول اللّه ﷺ: (إنّ منافقاً يقولُ أليسَ محمدٌ يزعمُ أنَّه نبي، ويخبركم بخبر السماء، ولا يدري أين ناقته، واللّهِ لا أعلمُ إلاَّ ما علَّمني ربِّي، وقد أعلمني أنَّها في الوادي في شِعْبِ كذا، حَبَسَتْهَا شجرةٌ بزمامها)، فبادَرَ النَّاسُ فوَجَدُوها كذلك فأتوه بها، فرجع عمارة بن حزم إلى رحله، وقال: لقد عجبتُ مما ذكرَهُ رسولُ اللّه ﷺ، فقال رجلٌ كانَ في رحلهِ مع زيد بن اللصيت: إنَّ زيداً قال هذا قبل أن تطلع علينا فوجأ عمارةُ زيداً في عنقهِ وقال: إنَّك لَدَاهية في رحلي. أخرجْ يا عدوَّ اللّه منه[2].

---

(١) ذكر هذه الرواية صاحب السيرة الحلبية ج ١٥٨/٣، وهي غير موجودة عند البيهقي وأبي نعيم، فالخبر غريب. وانظر أحداث غزوة تبوك في كتاب السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنّة: للدكتور محمد محمد أبو شهبة ج ٤٩٥/٢ ـ ٥٠٦، ط. دار القلم ـ دمشق.

(٢) السيرة النبوية: لابن هشام ج ٥٢٢/٢ ـ ٥٢٣، والسيرة النبوية: لابن كثير ج ١٦/٤ ـ ١٧، والخصائص: للسيوطي ج ٢٧٢/١.

ولأجل ما لقيَهُ في غزوةِ تبوكَ من الجهد قال لأصحابه: (ألاَ أسرُّكم)، قالوا: بلى يا رسول اللَّه، قال: (إنّ اللَّه تعالى أعطاني اللَّيلةَ الكنزَيْن فارس والروم، وأمَّدني بالملوك ملوك حمير يُجاهدون في سبيل اللَّه ويأكلون فَيْءَ اللَّه)[١]، فكان ذلك.

ومن أعلامه ﷺ: أنَّه بعث خالد بن الوليد من تبوك في أربعمائة وعشرين فارساً إلى أكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل من كندة فقال خالد: يا رسول اللَّه كيف لي به وسط بلاد كلب وإنَّما أنا في عدد يسير؟ فقال: ستجده يصيد البقر فتأخذه، فخرج خالد حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين في ليلة قمراء صائفة وهو على سطح له من شدة الحر مع امرأته، فأقبلت البقر تحكُّ بقرونها باب الحصن، فقال أكيدر: واللَّه ما رأيت بقراً جاءتنا ليلاً غير هذه الليلة، لقد كنت أضمر لها الخيل إذا أردتها شهراً أو أكثر، ثم نزل فركبَ بالرجال والآلة، فلما فصلوا من الحصن وخيل خالد تنظر إليهم لا يصهل منها فرس ولا يتحرك فساعة فصل أخذته الخيلُ فاستؤسر أكيدر[٢].

ومن أعلامه ﷺ: أنَّه لمَّا قَاضَى سهيل بن عمرو بالحديبية حين صدَّته قريشٌ عن العمرة، وكتبتْ بينه وبينه القضية، قال لعليٍّ كرّم اللَّه وجهه اكتبْ: هذا ما قَاضَى عليه محمَّدٌ رسولُ اللَّه سهيلَ بنَ عمرو، فقال سهيل: لو أعلم أنَّك رسولُ اللَّه ما صدْدتُكَ ولكنْ أُقدِّمُكَ لشرفِكَ، اكتبْ محمد بن عبد اللَّه، فقال: يا علي امْحُ رسولَ اللَّه، فقال عليٌّ: لا أستطيع أن أمحوَ اسمَكَ من النُّبوَّة، فمدَّ رسول اللَّه ﷺ يَدَهُ إلى الموضع فمحَاهُ وقال لعليّ: ستسألُ مثلَها فَتُجيبُ، فقيلَ له مثلَها يومَ الحكمين حين ذكر في كتاب التحكيم: هذا ما تحاكم عليه عليٌّ أمير المؤمنين، فقال له عمرو: لو سلَّمنا أنَّك أمير المؤمنين ما نَازَعْنَاكَ، فمحا أمير المؤمنين. ولمَّا قال

---

(١) الفتح الكبير: للسيوطي ج ٣٢٤/١.

(٢) الخصائص الكبرى: للسيوطي ج ٢٧٩/١، والسيرة النبوية: لابن هشام ج ٥٢٦/٢، والسيرة النبوية: لابن كثير ج ٣٠/٤ ـ ٣٢.

سهيل ذلك قال عمرُ: يا رسول اللّه! دَعْنِي أنزَعُ ثنيَّتي سهيل ليلثغ لسانُهُ، فلا يقـوم علينا خطيباً أبداً؟!. وكان سهيل أعلم الشِّفَّةِ السُّفْلَى، فكان خطيباً بيِّنـاً، فقال لـه رسول اللّه ﷺ: (دَعْهُ يا عمر فعسَى أن يقومَ لكَ مقاماً تحمَدُهُ)، فكان من حُسْنِ قيامه بمكة حين هاجَ أهلُها بموت رسـول اللّه ﷺ، واستخفى عتاب بن أسيـد، ما حُمِـدَ أثرُهُ[1].

ومن أعلامه ﷺ: ما حكاه السُّدِّي أن رسول اللّه ﷺ قال لأصحابه: (يدخـل اليوم عليكم رجلٌ من ربيعـة يتكلم بلسان شيـطان)، فأتـاه الحطم بن هـنـد البكري وحـده وخلف خيله خارجـةً من المـديـنـة، فـدَعَـاهُ رسـولُ اللّه ﷺ، فقـال: (إلى مـا تدعـو؟) فأخبـره، فقال: (أنـظرني فلي مَنْ أُشاوره)، فخـرجَ من عنـده، فقـال رسول اللّه ﷺ: (لقد دخلَ بوجهٍ كافر، وخرجَ بعتب غـادر)، فمرَّ بسـرح من سرح المدينة فاستقاه وانطلق مرتجزاً يقول:

قـد لـفَّهـا الـلَّـيـلُ بـسـوَّاقٍ حُـطـمْ ... لـيس بـراعـي إبـلٍ ولا غـنـم

ولا بـجـزَّارٍ عـلى ظـهـرِ وَضَـنـمْ ... بـاتُـوا نـيـامـاً وابنُ هـنـدٍ لم يـنم

بـاتتْ يُقـاسيهـا غـلامٌ كـالـزُّلَـمْ ... خـدلَّجُ السَّـاقين مَمْسُـوحُ القـدمْ[2]

ثم أقبل عامَ قابلٍ حاجاً، قد قلَّدَ الهدي فـأرادَ رسولُ اللّه ﷺ أن يبعث إليه

---

(1) السيرة النبوية: لابن هشام ج ٣١٦/٢، وقوله ﷺ: (لعلَّه يقوم مقاماً تحمده) فإنَّ سُهيلاً أسلم يوم الفتح، وقام بعد ذلك بمكة خـطيباً حين تـوفي رسول اللّه ﷺ ومـاج أهل مكـة، وكادوا يضلُّون، فقام فيهم سُهيل بمثل خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بـالمدينـة، كأنّـه كان يسمعها: «مَنْ كان يعبُدُ إلَهه ـ أي ربَّه ـ فإنَّ محمداً قد مات، واللَّهُ حيٌّ لا يموت». فسكن النَّاسُ وقبلوا منه، وأمير مكة يومئذٍ عتاب بن أسيد. [مختصر تاريخ ابن عساكر: لابن منظور ج ٢٣٢/١، ط. دار الفكر ـ دمشق]. [انظر ترجمة سُهيل بن عمرو في موسوعـة: عظمـاء حول الرسول ﷺ: ج ٩٧١/٢ ـ ٩٧٨، للشيخ خالد عبد الرحمن العك، ط. دار النفائس ـ بيروت].

(2) الوضم: كل شيء يوضع عليه اللحم من خشب أو بارية يُوقَّى به من الأرض. والزَّلَمْ: مفرد أزلام: وهو القدح الذي كان العرب يستقسمون به. وخدلَّج السَّاقين: عظيمهما.

فنزلَ عليه قوله تعالى: ﴿لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الحَرَامَ ولا الهَدْيَ ولا القلائد ولا آمِّينَ البَيْتَ الحَرَامِ﴾[1]، فقال له ناسٌ من أصحابه: هذا صاحبنا خلٍ بيننا وبينَهُ؟ فقال: (إنَّه قدْ قلَّدَ)[2].

نوعٌ آخرُ من أعلامه ﷺ: ما روى عاصم بن عمرو عن قتادة، قال: لَمَّا رجعَ المشركون إلى مكة من بدرٍ قال عمير بن وهب الجمحي لصفوان بن أميَّة[3]: قبح اللَّهُ العيشَ بعدَ قتلى بدرٍ، واللَّه لولا ديْنٌ عليَّ لا أجد له قضاء وعيال لا أدَعُ لهم شيئاً لرحلتُ إلى محمد حتى أقتله إن ملأت عيني منه قتلته فإنَّه بلغني أنَّه يطوف في الأسواق.

فقال له صفوان: دَيْنُكَ عليَّ وعيالك أسوةَ عيالي فاعْمَدْ لشأنِكَ، فجهَّزه وحمله على بعير، فشحذ عمير سيفَهُ وسَمَّهُ، وسارَ إلى المدينة فدخلها متقلِّداً سيفِهِ فبصرَ بِهِ عمرُ رضي اللَّه تعالى عنه فوثب إليه ووضعَ حمائلَ سيفِهِ في عُنُقِهِ وأدخلَهُ على رسول اللَّه ﷺ وقال: هذا عدوُّ اللَّه عُمَيْرُ بنُ وهب، فقال: تأخَّرْ عنه يا عمر، ثم قال له: ما أقدَمَكَ؟ قال: لفداء أسيري عندكم، قال: فما بال السيف؟ قال: قبَّحها اللَّه وهل أغنتْ من شيءٍ وإنَّما نسيتُه حين نزلتُ وهو في رقتبي، فقال له: فما شرطتَ لصفوان بن أميَّة في الحِجْرِ؟ ففزِعَ عُميرٌ وقال: ماذا شرطتُ له؟ قال: تحمَّلتَ له بقتلي على أن يقضي ديْنَكَ ويعولُ عيالَكَ، واللَّهُ تعالى حائلٌ بينَكَ وبينَ ذلك.

فقال عميرٌ: أشهد أنَّك لرسولُ اللَّه وإنَّك صادقٌ وأشهدُ أن لا إلَهَ إلَّا اللَّه، كنَّا نكذِّبُكَ بالوحي من السماء، وهذا الحديث كان سِرّاً بيني وبين صفوان كما قلتَ لم

---

(١) سورة المائدة، الآية ٢.

(٢) تفسير ابن جرير ج ٦/٣٨ ـ ٣٩.

(٣) كان سبب إسلام «عُمير بن وهب» ما أطلع اللَّه تعالى عليه رسوله ﷺ من أمره وأمر صفوان بن أميّة، حين إئتمرا على قتل رسول اللَّه ﷺ وهما في مكة. [انظر تفصيل ذلك في موسوعة: عظماء حول الرسول ﷺ ج ٢/١٤٦٧ ـ ١٤٦٩، للشيخ خالد عبد الرحمن العك، ط. دار النفائس ـ بيروت].

يطلعْ عليه أحدٌ غيري[1].

فقال عمر: واللَّهِ لخنزيرٌ كان أحبَّ إليَّ منه حين طلع، وهو الساعة أحبُّ إليَّ من بعض ولدي، فقال رسولُ اللَّه ﷺ: (علِّموا أخاكم القرآنَ وأطلقوا له أسيرَهُ)، فقال عميرٌ: إنِّي كنتُ جاهداً في إطفار نور اللَّه وقد هداني اللَّه فلَهُ الحمدُ، فَأْذَنْ لي فألحقُ قريشاً فأدْعُوهم إلى اللَّه وإلى الإسلام، فأذِنَ له فلَحِقَ بمكَّةَ ودَعَاهم فأسلمَ معه بشرٌ كثيرٌ، وحلفَ صفوان أنْ لا يُكلِّمَهُ أبداً[2].

ومن أعلامه ﷺ: ما حكاه شيبة بن عثمان بن أبي طلحة قال: ما كان أحدٌ أبغضَ إليَّ من رسولِ اللَّه ﷺ، وكيفَ لا يكونُ كذلك وقد قتل منَّا ثمانية كل منهم يحمل اللواء، فلمَّا فتح اللَّه تعالى مكة يئستُ ممَّا كنتُ أتمنَّاه من قتلهِ، وقلتُ في نفسي قد دخلتِ العربُ في دينهِ فمتى أدْرِكُ ثأرِي منه؟ فلمَّا اجتمعت هوازنُ بحنين قصدتُهم لأجدُ منه غرةً فأقتله، فلمَّا انهزمَ النَّاسُ عنه وبقي مع مَنْ ثَبَتَ معه جئتُ من ورائِهِ، فرفعتُ السَّيفَ حتى كدتُ أحطُّهُ غش فؤادي، ورُفِعَ لي شواظٌ من نار فلم أُطقْ ذلك، وعلمتُ أنَّه ممنوعٌ فالتفت إليَّ وقال: أدْنُ يا شيبُ! فَقَاتِلْ!؟ ووَضَعَ يدَهُ في صدري فصارَ أحبَّ النَّاسِ إليَّ، وتقدمت فقاتلتُ بين يديه ولو عرضَ لي أبي لقتلتُه في نُصْرَتِهِ!! فلمَّا انقضى القتالُ دخلتُ عليه فقال لي: الذي أرادَ اللَّه بكَ خيرٌ ممَّا أَرَدْتَهُ لنفسك، وحدثني بجميع ما زوَّرْتُه في نفسي، فقلتُ: ما اطَّلعَ على هذا أحدٌ إلاّ اللَّهُ، فأسلمتُ[3]!!.

---

(1) فأسلم في ساعته!! وقال له رسول اللَّه ﷺ: (اجْلِسْ يا عُميرُ نُواسِيكَ)!! ثم قال ﷺ لأصحابه: (عَلِّمُوا أخاكم القرآن)!! وأطلق رسول اللَّه ﷺ أسيره!!.

(2) الطبقات الكبرى: لابن سعد ج ١٩٩/٤، ودلائل النبوَّة: للبيهقي ج ١٤٧/٣ - ١٤٩، والإصابة في تمييز الصحابة: لابن حجر ج ١٦٨/٧ - ١٧٠، رقم الترجمة ٦٠٥٣، وأسد الغابة في معرفة الصحابة: لابن الأثير ج ١٤٨/٣ - ١٥٠، وموسوعة عظماء حول الرسول ﷺ: ج ١٤٦٧/٢ - ١٤٦٩.

(3) مختصر تاريخ دمشق: لابن عساكر - اختصار ابن منظور ج ٩/١١، والطبقات الكبرى: =

ومن أعلامه ﷺ: ما رواه محمد بن إبراهيم بن شرحبيل عن أبيه قال: كان النُّضَير بن الحرث بن كلدة يصف شدَّةَ عداوتِهِ لرسولِ اللَّه ﷺ لقتْلِهِ لأخيهِ النَّضر بن الحرث، قال: وكنتُ شهدتُ بدراً فرأيتُ قِلَّةَ المسلمين وكثرةَ قريش، فلمَّا نَشَبَ القتالُ رأيتُ المسلمين أضعافَ قريش فانهزمتْ قريشٌ، ورأيتُ يومئذٍ رجالاً على خيلٍ بُلْقٍ بين السَّماء والأرض معلمين، يأسرون ويقتلون فهربتُ مَذْعوراً، ثم خرجتُ معه بعد الفتح إلى هوازن لأصيب منه غرَّةً، فلمَّا انهزمَ المسلمون صعدتُ لرسول اللَّه ﷺ فإذا هو في وجهِ العدوِّ واقفٌ على بغلةٍ شهباء حولَهُ رجالٌ بيض الوجُوهُ، فأقبلتُ عامداً إليه فصَاحُوا بي: إليكَ إليكَ، فرعبَ فؤادي، وأرعدتْ جوارحي!! فقلتُ: هذا مثل يوم بدر، إنَّ الرجل لعَلَى حقٍّ وأنَّه معصومٌ، فأدخلَ اللَّه في قلبي الإسلامَ، ثم التقيتُ برسولِ اللَّه ﷺ بعدَ رجوعِهِ من الطائف فحينَ رآني قال: (النُّضَيْرُ)؟ قلتُ: لبيكَ!! قال: (هذا خيرٌ لك ممَّا أردتَ يومَ حنينٍ، ما حالَ اللَّهُ بينَكَ وبينَهُ)[1]!!.

ومن أعلامه ﷺ: أنَّه قال لعمِّهِ العباس وقد أُسِرَ يومَ بدرٍ: (أفِدْ نفسَكَ، وابنيَّ أخيك عَقِيلاً ونَوْفلاً، وحليفَك، فإنَّك ذُو مالٍ)، فقال: يا رسول اللَّهِ! إني كنتُ مسلماً، وأُخْرِجْتُ[2]. فقال: (واللَّهُ أعلمُ بإسلامِكَ، فأين المال الَّذي وَضَعْتَهُ بمكَّةَ عندَ أمِّ الفضلِ حين خرجتَ وليسَ معكما أحدٌ فقلتَ: إنْ أصبتُ في سفري

= لابن سعد ج ٤٤٨/٥، والاستيعاب لابن عبد البر رقم ١٢٠٥، والإصابة في تمييز الصحابة: لابن حجر ج ٩٦/٥ ـ ٩٧، وأسد الغابة في معرفة الصحابة: لابن الأثير ج ٧/٣ ـ ٨، وموسوعة عظماء حول الرسول ﷺ ج ١٠٢٧/٢ ـ ١٠٣٠، للشيخ خالد عبد الرحمن العك، ط. دار النفائس ـ بيروت.

(١) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر: لابن منظور ج ١٥٦/٢٦ ـ ١٥٨، وأسد الغابة في معرفة الصحابة: لابن الأثير ج ٢٠/٥ ـ ٢١، والإصابة في تمييز الصحابة: لابن حجر ج ١٥٥/١٠ ـ ١٥٦، وموسوعة عظماء حول الرسول ﷺ: ج ١٨٩٢/٣ ـ ١٨٩٣، للشيخ خالد عبد الرحمن العك، ط. دار النفائس ـ بيروت.

(٢) أي: أخرجتُ مكرهاً.

فللفضلِ كذا ولعبد اللّه كذا ولقُثم كذا)؟!!.

فقال: والذي بعثَكَ بالحقِّ ما عَلِمَ بهذا أحدٌ غيري وغيرُها، وإنِّي لأعلمُ أنَّكَ رسولُ اللّهِ ففدَى نفسَهُ وابنيَّ أخيه وحليفَهُ، فقال له رسول اللّه ﷺ: (إنَّ اللّه سيعوِّضُكَ خيراً إن كان ما قلتَه عن إسلامك حقّاً)، فعوَّضَهُ اللّهُ تعالى مالاً جمّاً[1].

ومن أعلامه ﷺ: ما رُوي أنَّ النبي ﷺ كان إذا أرادَ الذهابَ إلى أُمِّ فَرْوة الأنصاريةِ قال لأصحابه: انطلِقُوا بنا إلى الشهيدة فنزُورُها، وأمَرَ أنْ يُؤذَنَ لها ويُقام، وأن تؤمَّ أهلَ دَارِهَا في الفرائض، فقتلها في أيام عمر رضي اللّه عنه غلامٌ وجاريةٌ كانَا لها، فصلبَهُما عمرُ رضي اللّه عنه، فكانا أول من صلب في الإسلام، فقال عُمر: صدقَ رسولُ اللّه ﷺ كانَ يقولُ: (انطلقُوا نزورُ الشهيدةَ)[2]؟!.

ومن أعلامه ﷺ: ما رواه عامر بن عبد اللّه بن الزبير عن أبيه قال: أتيتُ النَّبيَّ ﷺ وهو يحتجم، فلما فرغَ قال: يا عبدَ اللّه اذْهَبْ بهذا الدَّمِ فاهْرِقْهُ حيثُ لا يَراكَ أحدٌ، فلمَّا برَزَ عنه عمد إلى الدَّمِ فحسَاهُ، فلمَّا رجعَ قال: يا عبدَ اللّه ما صنعتَ؟ قال: جعلتُه في أخفَى مكانٍ ظننتُ أنَّه خافٍ عن النَّاسِ، قال: لعلَّكَ شربتَ الدَّمَ؟! قال: نعم، قال: (وَيْلٌ للنّاسِ منك، ووَيْلٌ لكَ مِنَ النّاس)[3]!.

---

(١) مسند الإمام أحمد ج ٢٠٦/١، والطبقات الكبرى: لابن سعد ج ٤/٥ - ٣٣، والمستدرك للحاكم ج ٣٢١/٣ - ٣٣٤، وصفة الصفوة: لابن الجوزي ج ٢٠٣/١، وسير أعلام النبلاء: للذهبي ج ٧٨/٢ - ١٠٣، ومجمع الزوائد: للهيثمي ج ٢٦٨/٩، والإصابة في تمييز الصحابة ج ٣٢٨/٥، وشذرات الذهب: لابن العماد ج ٣٨/١، وموسوعة عظماء حول الرسول ﷺ ج ١١٤٣/٢ - ١١٥٣، للشيخ خالد عبد الرحمن العك، ط. دار النفائس - بيروت.

(٢) مسند الإمام أحمد ج ٤٠٥/٦، والبيهقي في سننه ج ٤٠٦/١، و١٣٠/٣، وفي دلائل النبوة ج ٣٨/٦، وحلية الأولياء: لأبي نعيم ج ٦٣/٢، وصحيح ابن خزيمة رقم ١٦٧٦، وكنز العمال رقم ٣٧٥٩٥، والطبقات: لابن سعد ج ٣٣٥/٨.

(٣) انظر ترجمة عبد اللّه بن الزبير في موسوعة «عظماء حول الرسول ﷺ» ج ١٩٩/٢ - ١٢٠٨، للشيخ خالد عبد الرحمن العك - ط. دار النفائس - بيروت. وهذا الخبر في مختصر تاريخ =

إلى أمثال ذلك من نظائرهِ التي يطول الكتابُ بذكره، حتى كان المنافقون لا يخوضون في شيء من أمرهِ إلَّا أطلعَهُ اللَّهُ عليه، فكان يُخبرُهم به حتى كان بعضُهم يقول لصاحبه: اسكتْ وكُفَّ، فواللَّهِ لو لم يكن عنده إلا الحجارة لأخبرتْهُ حجارةُ البطحاءِ!!؟.

فإن قيل: فليس في ذكر ما كان ويكون إعجاز نبوَّة يقهر ولا أية رسالة تظهر، لأنَّ المنجِّمين يُخبرون بذلك ولا يكون من إعجاز الأنبياء وآيات الرسل، فعنْهُ ثلاثة أجوبة[1]:

أحدُها: أنَّ المنجِّم يعملُ على حسابٍ ويرجع على استدلال، ولا يبتكر قولاً إلى بعدهما، وأخبار الرسل عن بديهة تخلو من سبب وتعرَّى عن استدلال.

والثاني: أنَّ من خلاَ من علم النجوم لم يصح الإخبار عنها، ولم يتعاط محمَّدٌ ﷺ عِلْمَ النُّجوم ولا خالطَ أهلَها فيكون مخبراً عنها، فبطل أن يخبر بها إلا عن علَّام الغيوب المطلع على ضمائر القلوب.

والثالث: أنَّ المنجِّم يصيب في الأقل ويُخطىء في الأكثر، ويستحسن منه الصواب ولا يستقبح منه الخطأ، وأخبار الرسل كلها صدقٌ لا يتخلَّلها كذبٌ، وصوابٌ ولا يعتريها زَلَلٌ.

= دمشق لابن عساكر: لابن منظور ج ١٢/١٧٣ - ١٧٤، وكانوا يرون أنَّ القوَّة التي به - وكان قوياً جداً - من ذلك الدم الذي شربه - وفي رواية: من قوّة دم رسول اللَّه ﷺ!!.

(١) هذا الاعتراض، والجواب عليه، على الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلمون مع أهل الجدل والمِراء، وهي طريقة غير لائقة في معرض تأسيس اليقين وترسيخ الإيمان، فإنَّ هذه الاعتراضات من الضلالات، فعدم الاشتغال بها هو الأَوْلى، وفي إهمالها وطرحها إماتة لها، والحق لا يحتاج إلى دفاع الضعفاء، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية عن صنيع المتكلمين هذا؛ أنهم يُورِدُون شبهات الملاحدة بطاماتها، ثم يذكرون عليها ردوداً ضعيفة، أو كما ذكر ذلك رحمه اللَّه تعالى.

الباب الحادي عشر

فيما أكرم به ﷺ من إجابة دعائه

إنَّ اللَّه تعالى لمّا فضَّلَ الأنبياءَ على جميع خلقه ممَّا فوَّض إليهم من القيام بحقّه تميَّزوا بطلب المصلحة، فخُصُّوا بإجابة الأدعية ليكونوا عوناً على ما كلَّفهم وآيةً على من أنكرهم، فدخل بهذا الامتياز في أقسام الإعجاز.

فمن أعلامه ﷺ في الإجابة: أنَّ النَّبيَّ ﷺ لمَّا تلا: ﴿والنَّجْمِ إذا هوَى﴾[1]، قال عُتبةُ بن أبي لهب: كفرتُ بالذي دَنَا فتدلَّى، فقال النبي ﷺ: (اللَّهمَّ سلِّطْ عليه كلباً من كلابك) يعني الأسد. فخرج عتبة مع أصحابه في عِير إلى الشام، حتى إذا كانوا في طريقِهِم زَأَرَ الأسدُ، فجعلتْ فرائصُ عتبة ترتعدُ، فقال أصحابه: من أيِّ شيءٍ ترتعِدُ؟ فواللَّهِ وما نحنُ وأنتَ إلاَّ سواء؟ فقال: إنَّ محمداً دَعَا عليَّ وما تُرَدُّ له دعوة، ولا أصدق منه لهجةً، فوضعوا العَشَاءَ فلم يُدْخِلْ يَدَهُ فيه، وحاطَ القومُ أنفسَهم بمتاعهم وجعلوه وسطَهُم ونَامُوا، فجاءَ الأسدُ يستشهي رؤوسهم رجلاً رجلاً، حتى انتهى إليه فهشَمَهُ هشمةً كانت إيَّاها، فقال وهو بآخر رمق: ألمْ أقُلْ لكم: إنَّ محمَّداً أصدقُ النَّاسِ لهجةً[2]!!.

---

(١) سورة النجم، الآية ١.

(٢) دلائل النُّبوَّة: للبيهقي ج ٢/٣٣٨، ودلائل النُّبوَّة: لأبي نعيم رقم ٣٨٣ ص ٤٥٧، ط. دار النفائس ـ بيروت. وفي إسناده ضعف، وفي رواية أخرى عند البيهقي في الدلائل ج ٢/٣٣٩.

ومن أعلامه ﷺ: أنَّ المستهزئين به من قريش وهم سبعةٌ: الوليد بن المغيرة، والعـاص بن وائل السهمي، والأسـود بن عبد يغـوث الزهـري، وفكيهـة بن عـامـر الفهري، والحرث بن الطلاطلة، والأسود بن الحرث، وابن عيطلة، كانوا يُكثـرون منه الاستهزاء ويُواصلون عليه الأَذاءَ وكان لا يقرأ إلاّ مُسْتَيسراً، ولا يدعُو إلاّ مستخفياً فنـزل عليه قـوله تعـالى: ﴿ولا تجهرْ بصـلاتِـكَ ولا تُخـافِتْ بهـا وابْتَـغِ بينَ ذلـكَ سبيلاً﴾[1]، أيْ لا تجهرْ بها فيُؤذُوك ولا تخافتْ بهـا عن أصحابـك فلا يسمعـوك، وابْتَغِ بينَ الجهر والإسرار سبيلاً. فأذِنَ لأصحابهِ حين اشتدَّ بهم الأذى في الهجـرة إلى أرض الحبشة[2] لأنَّ مَلِكَها كان منصفاً ورغبَ إلى اللَّه تعالى أن يكفيه أمـرهم فنزَلَ عليه قـوله تعـالى: ﴿فاصْـدَعْ بما تُؤْمَـرُ وأعرِضْ عن المشـركين * إنَّا كفينَـاكَ المستهزِئين﴾[3].

وفي قوله: ﴿فاصدع بما تؤمر﴾ تأويلان:

أحدُهما: إمْضِ لِما تُؤْمَرُ به من إبطال الشرك.

والثاني: أظْهِرْ ما تُؤمرُ بهِ من الحقّ.

وفي قوله: ﴿وأعرض عن المشركين﴾ تأويلان:

أحدهما: استهزيء بهم.

والثـاني: لا تهتم باستهـزائهم إنّـا كفينَـاكَ المستهـزئين يعني بمـا عجّله من إهلاكهم.

فأمَّا الوليد بن المغيرة فإنَّه ارتدى، فعلِقَ بـردائهِ شَـوْكٌ، فذهبَ يجلس عليـه فقطع أكحله، فنزَفَ فماتَ لوقتهِ.

---

(١) سورة الإسراء، الآية ١١٠.

(٢) السيرة النبوية: لابن هشام ج ١/٢٩٥ ـ ٣٠١، ودلائل النبوة: للبيهقي ج ٢/٣٣٥ ـ ٣٣٩، بروايات متقاربة.

(٣) سورة الحجر، الآيتان ٩٤ ـ ٩٥.

فأمَّا العاص بن وائل فوطىء على شوكة فتساقطَ لحمُهُ من عظامه فماتَ من يومهِ.

وأمَّا الأسود بن عبد يغوث فقد كان رسولُ اللَّه ﷺ دَعَا عليه بالعمَى وثَكْلِ ولدِهِ فأتى بغصنٍ فيه شوكٌ فأصاب عينَهُ فسالتْ حَدَقَتَاهُ على وجهِهِ، وقُتِلَ ولدُهُ زمعة يوم بدرٍ، فأعمَى اللَّهُ بصرَهُ وأثْكَلَهُ وَلَدَهُ.

وأمَّا فكيهة بن عامر فخرجَ يُريدُ الطائف فَفُقِدَ ولم يُوجدْ.

وأمَّا الحرث بن الطلاطلة فإنَّه خرج لبعضِ حوائجِهِ فضرَبَهُ السَّمومُ في الطريق فاسودَّ منه ومات.

وأمَّا الأسود بن الحرث فأكل حوتاً مملوحاً فأصابَهُ عطشٌ فلم يتمالَكْ من شُرْبِ الماء حتى انشقَّ بطنُه وماتَ.

وأمَّا ابن عيطلة فاستسقى فماتَ.

ومثله ما رواه ابنُ مسعودٍ قال: كنَّا مع رسول اللَّه ﷺ نصلِّي في ظلِّ الكعبة، وناسٌ من قريش وأبو جهل قد نحروا جزوراً في ناحية مكة، فبعَثُوا فجاؤوا بسَلاَهَا وطرحُوهُ بينَ كتفيهِ وهو ساجدٌ، فجاءت فاطمةُ فطرحتْهُ عنه، فلما انصرفَ قال: (اللَّهمَّ عليك بقريشٍ وبأبي جهل وعُتبة وشيبة والوليد بن عتبة وأميَّة بن خلف وعقبة بن أبي مُعَيط)[1].

قال عبد الله بن مسعود: فلقدْ رأيتهُم قتْلَى في قليبِ بدرٍ.

ومن أعلامه ﷺ: أنَّ خباب بن الأرت أتاه حين اشتدَّ الأذَى من قريش فقال: يا رسولُ اللَّه ادْعُ لنَا ربَّكَ أن يستنصر لنَا على مضر، فقال: (إنَّكم تعجلون، لقد كان

---

(١) دلائل النُّبوَّة: للبيهقي ج ٢/٥٣، وأحمد في مسنده ج ٣٩٣/١، والبخاري ج ١٢٧/٤ وج ٥٧/٥، ومسلم في الجهاد رقم ١٠٨، وابن خزيمة رقم ٧٨٥، بألفاظ متقاربة.

الرجل ممَّن قبلكم يُمشَّطُ بأمشاطِ الحديدِ حتى يُخْلَصَ إلى ما دونِ عظمهِ من لحمٍ أو عَصَبٍ، ويُشَقُّ بالمنشار فلا يردُّهُ ذلك عن دينهِ، وأنَّكم تَعْجَلُون، واللَّهِ ليمضي هذا الأمرُ حتى يَسِيرَ الرَّاكبُ من صَنعَاءَ إلى حضرموتَ، لا يخافُ إلاَّ اللَّهَ، والذئبَ على غنمهِ)، ثم دَعَا عليهم فقال: (اللَّهمَّ اشْدُدْ وطأتَكَ على مُضَرٍ واجعلهَا عليهم سنينَ كَسِنِيِّ يُوسف)، فقطع اللَّه عنهم المطرَ حتى ماتَ الشجرُ وذهبَ الثمرُ وأجدبتِ الأرضُ وماتتِ المواشي واشتووا القَدّ، وأكلوا العلْهز، فلما انتهت بهم الموعظة استعطَفُوهُ فعطَفَ ورغبَ إلى اللَّه تعالى فمُطِرُوا[1].

ومن أعلامه ﷺ: ما رواه ابن عباس قال: قيل لعمر: حدثنا عن شأن جيش العُسْرة؟ فقال عمر رضي اللَّه تعالى عنه: خرجنا مع رسول اللَّه ﷺ في قَيْظٍ شديد فنزلنَا منزلاً أصابنا فيه عطش حتى خشينا أن تنقطعَ رقابُنَا، فكان الرجل يذهب ليلتمسَ الماءَ فلا يرجعُ حتّى نظنَّ أنَّ رقبتَهُ ستنقطعُ، وحتى كان الرجلُ ينحرُ بعيرَهُ فيعصرُ فَرْثَهُ فيشربُهُ ثم يجعل ما بقي على صدرهِ، فقال أبو بكر رضي اللَّه تعالى عنه: يا رسول اللَّه! إنَّ اللَّه قد عوَّدَكَ في الدُّعاء خيراً فادْعُ اللَّهَ لنا، قال: (أتحبُّ ذلك؟) قال: نعم، فرفعَ رسولُ اللَّه ﷺ يَدَهُ فلم يرجِعْهَا حتى مالتِ السَّحابُ، فأظلَّتْ وأمطرتْ حتى رَوُوا ومَلَؤُوا ما معهم من الأوعية، فذهبنَا ننظرُ فلم نجِدْهَا جاوزتِ العسكر[2].

ومن أعلامه ﷺ: ما رواه مسلم الملائي عن أنس بن مالك قال: أتى أعرابي

---

(١) لقد وردت روايات كثيرة في هذا، منها عند البخاري ج ٢٠٣/١ وج ١٨٢/٤ وج ٤٨/٦، ٦١ وج ٥٥/٨، ١٠٤ وج ٢٥/٩، ومسلم في صحيحه رقم ٤٦٦ و٤٦٧، والنسائي في الافتتاح باب رقم ١١٣، وابن ماجه برقم ١٢٤٤، وأبو داود برقم ١٤٤٨، وأحمد في مسنده ج ٢٣٩/٢، ٢٥٥، ٢٧١، ٤٧٠، ٥٠٢، والبيهقي في سننه ج ١٩٧/٢، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠٧، ٢٤٤ وج ١٤/٩، وابن أبي شيبة ج ٣١٧/٢، ومسند الحميدي رقم ٩٣٩، وابن سعد في الطبقات ج ٣٧/١ وج ١/٤.

(٢) مجمع الزوائد: للحافظ الهيثمي ج ١٩٥/٦ وقال: رواه البزار والطبراني في الأوسط ورجال البزار ثقات.

إلى رسول اللّه ﷺ فقال: يا رسول اللّه! لقد أتيناكَ وما لنَا بعيرٌ يئطُّ ولا صبيٌّ يصيحُ ثم أنشدَ[1]:

أتينَاكَ والعَذْرَاءُ يدمي لبانُها ... وقد شُغِلتْ أمُّ الصَّبيِّ عن الطفلِ

وألقى بكفيهِ الصَّبيُّ استكانةً ... مِنَ الجُوعِ ضَعْفاً ما يمرُّ ولا يُحلي

ولا شيء ممَّا يأكلُ النَّاس عندَنا ... سوَى الحنظلِ العَامِي والعلهزِ الفسْلي

وليس لنا إلاَّ إليكَ فِرَارُنَا ... وأينَ فرارُ النَّاسِ إلا إلى الرُّسُلِ

فقام رسول اللّه ﷺ يجرُّ رداءَهُ حتى صعدَ المنبرَ فحمِدَ اللّه تعالى وأثنى عليه ثم قال: (اللّهمَّ اسْقِنَا غَيْثاً مَغِيثاً سحاً طبقاً غيرَ رَائِثٍ تنبتُ به الزرعَ وتملأ به الضَّرعَ وتُحيي به الأرضَ بعدَ موتِها، وكذلك تُخرَجُون)، فما استتمَّ الدعاءُ حتى التقتِ السَّماءُ بأروقتِها فجاء أهلُ البطانة يضجُّون: يا رسول اللّه! الغرَقَ، فقال: (حوالينا ولا علينا)، فانجابَ السَّحابُ عن المدينة كالإكليل، فضَحِكَ رسولُ اللّه حتى بدتْ نَوَاجِذُهُ وقال: (للّهِ درُّ أبي طالب لو كان حيّاً لقرَّتْ عيناهُ، مَنِ الَّذِي يُنْشِدُنَا شِعْرَهُ)؟!.

فقال علي بن أبي طالب كرّم اللّه وجهه: يا رسول اللّه! كأنك أردت قوله:

وأبيضُ يُسْتَسْقَى الغَمَامُ بوَجْهِهِ ... ثمالُ اليَتَامَى عصمةٌ للأرامِلِ

يعوذُ بهِ الهلاكُ من آلِ هاشمٍ ... فهم عندَهُ في نعمةٍ وفَوَاضِلِ

كذبتُم وبيتِ اللّهِ نُبْرِي محمَّداً ... ولمَّا نقاتلْ دُوْنَهُ ونُنَاضِلِ

ونُسْلِمُهُ حتى نُصرَّعَ حَوْلَهُ ... ونَذْهَلُ عن أبْنَائِنَا والحَلائِلِ

وقام رجل من كنانة وأنشد:

لكَ الحمدُ والحمدُ ممَّنْ شَكَر ... سقينا بوجهِ النَّبيِّ المَطَرْ

دَعَا اللّهَ خالقَهُ دَعْوَةً ... وأشْخَصَ معها إليهِ البَصَرْ

---

(١) أخرج هذه الرواية بطولها الحافظ البيهقي في دلائل النُّبوَّة ج ٦/١٤١ ـ ١٤٦، وله عنده ألفاظ متقاربة.

فَلَمْ يَكُ إلَّا كَلِقَاءِ الرِّدَى وأَسْرَعَ حتَّى رأينَا الدُّرَر

وَفَاقَ العِزّ إلى جمٍّ البعاق أغاثَ بهِ اللَّهُ علينَا مُضَرْ

وكان كما قالَهُ عَمُّهُ أبو طالبٍ: أبْيَضُ ذُو غُرَرْ

بهِ اللَّهُ يسقِي صَوْبَ الغَمَامِ وهذا العِيَانُ لِذاكَ الخَبَرْ

فقال رسول اللَّه ﷺ: (إنْ يَكُ شاعرٌ يُحْسِنُ فقدْ أحسنت)[1].

ومن أعلامه ﷺ: ما أظهره اللَّه تعالى من كرامته في عمّه العباس حين استسقى به عمر رضي اللَّه عنه متوسِّلاً إليه بعمِّهِ[2]، فخرجَ يستسقي به، وقد أجدبَ النَّاسُ فقال: اللَّهمَّ إنَّا نتقرَّبُ إليك بعمِّ نبيِّك، وبقيَّة آبائه، وكبير رجاله، فاحْفَظِ اللَّهمَّ نبيَّكَ في عمِّه، فقدْ دَلَوْنَا بِهِ إليكَ مستشفعِينَ إليك مستغفرين.

فقال العباس وعيناه ينضحان: اللَّهمَّ أنتَ الرَّاعي لا تهمل الضَّالَّة، فقد ضرعَ الصغيرُ ورقَّ الكبير، وارتفعت الشكوى، وأنتَ تعلمُ السر وأخفى، اللَّهمَّ فأَغِثْهُمْ بغِيَاثِكَ من قبلِ أن يقنطوا فيهلكوا، فإنَّه لا يَيْأَسُ من رَوْحِكَ إلاَّ القومُ الكافرون.

فنشأت السَّحاب وهَطَلتِ السَّماء، فطفِقَ النَّاسُ بالعبَّاس يمسحون أركانَهُ ويقُولُون: هنيئاً لكَ سَاقِيَ الحَرَمَيْنِ!! فقال حسان بن ثابت:

سألَ الإمامُ وقد تتابعَ جَدْبُنَا فسقَى الغمامُ بغرّة العبَّاسِ

---

(١) هو كما تقدم تخريجه عند البيهقي ج ١٤٢/٦، وأيضاً رواه الحافظ ابن كثير في البداية ج ١٠٥/٦.

(٢) ليس المعنى هنا بجاهه، وإنَّما بدعائه. فلا يُتقرَّبُ إلى اللَّه تعالى بالذوات والأشخاص، وإنَّما يُتقرَّب إليه سبحانه بالطاعة والعبادة، والدعاء هو العبادة كما صح عن رسول اللَّه ﷺ، فالاستسقاء بالنبي ﷺ، أي بدعائه اللَّه تعالى بالسقيا لهم، وكذلك توسل عمر بالعباس أي بدعاء العباس، وهذا ما دلَّت عليه النصوص الصحيحة عن رسول اللَّه ﷺ في أمر الدعاء والاستسقاء، وما طُلب شيءٌ من رسول اللَّه ﷺ في صلاح الخلق وأرزاقهم إلاّ قام بالدعاء إلى اللَّه تعالى يسأله ما طُلب إليه، ولم يرد أنه قال كلمة تدل على اعتبار جاهه في معرض الدعاء إلى اللَّه تعالى.

عمُّ النَّبيِّ وصِنْوُ والدِهِ الَّذي ... وَرِثَ النَّبيَّ بذاكَ دونَ النَّاسِ
أحْيَا الإلَهُ بِهِ البلادَ فأصبحتْ ... مخضرَّةَ الأجنابِ بعدَ اليأْسِ

فقال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب يفتخرُ لذلك:

بعمِّي سَقَى اللَّهُ الحجازَ وأهلَهُ ... عشيَّةَ يستسقي بشيبتِهِ عُمَرْ
توجَّهَ العبَّاسُ في الجدْبِ رَاغِباً ... فما كرَّ حتَّى جادَ بالدِّيْمَةِ المَطرْ[1]

ومن أعلامه ﷺ: ما روي أنَّ أسماء بنت عُمَيْس قالت لفاطمة: إنَّ عليَّ بن أبي طالب رضي اللَّه عنهما كان عند رسول اللَّه ﷺ وقد أُوحِيَ إليه فجلَّلَهُ بثوبِهِ، فلم يزلْ كذلكَ حتَّى أدْبَرَتِ الشَّمسُ أو كادتْ تغيبُ، ثم إنَّه سُرِّيَ عن رسولِ اللَّه ﷺ فقال: (أصليتَ يا عليّ؟)، قال: لا، فقال: (اللَّهمَّ رُدَّ على عليٍّ الشَّمسَ) فرجعت الشَّمسُ حتى بلغتْ نصفَ المسجدِ[2].

ومن أعلامه ﷺ: ما روي عن عليٍّ بن أبي طالب كرّم اللَّه تعالى وجهه قال: بعثَنِي رسولُ اللَّه ﷺ إلى اليمن فقلتُ: يا رسولَ اللَّهِ! تبعثني وأنا حَدَثُ السِّنِّ لا علمَ لي بالقضاء؟ قال: (انْطَلِقْ فإنَّ اللَّهَ تعالى سيهدي قَلْبَكَ ويُثَبِّتُ لِسَانَكَ)[3].

---

(1) تاريخ الطبري ج ٤/٩٩، وفي صحيح البخاري رواية مختصرة في حادثة الاستسقاء ج ٢/٣٤ وج ٥/٢٥.

(2) حادثة ردّ الشمس لعلي بن أبي طالب غير ثابتة، والأخبار المروية فيها مطعون فيها، وقد نقدها الحافظ الذهبي في تلخيص الموضوعات، فقال: «لو ردت لعليٍّ لكان ردُّها يوم الخندق للنبي ﷺ أولى، فإنَّه حزن وتألّم ودعا على المشركين لذلك. ثم نقول: لو ردت لعلي لكان بمجرَّد دعاء النبي ﷺ، ولكان لما غابت خرج وقت العصر ودخل وقت المغرب، وأفطر الصائمون، وصلى المسلمون المغرب، فلو ردَّت الشمس للزم تخبيط الأمة في صومها وصلاتها، ولم يكن في ردِّها فائدة لعلي، إذْ رجوعها لا يعيد العصر أداءً، ثم هذه الحادثة العظيمة لو وقعت لاشتهرت وتوفرت الهمم والدواعي على نقلها». [تنزيه الشريعة ج ١/٣٧٨ ـ ٣٨٢ لابن عراق].

(3) مسند الإمام أحمد ج ١/١٥٠، والبيهقي في سننه الكبرى ج ١٠/٨٦، وابن كثير في البداية ج ٤/٤٨، وكنز العمال رقم ٤٤٠١.

قال علي رضي اللّه عنه: فما شككتُ في قضاء بينَ اثنين!! ولذلك قال رسولُ اللّه: (أقْضَاكُمْ عليٌّ)[1]!! ومثلُهُ قولُهُ لابن عباس وهو يومئذ غلامٌ: (اللّهمَّ فَقِّهْهُ في الدِّين وعلِّمْهُ التَّأويل)[2]، فخرجَ أفقَهَ النَّاسِ في الدِّين، وأعلمَهُمْ بالتَّأويل حتى سُمِّي البحر لسَعَةِ علمه.

ومن أعلامه ﷺ: ما رواه أبو العالية عن أبي هريرة قال: أتيتُ رسولَ اللّه ﷺ بتميرات فقلتُ: ادْعُ اللّهَ لي بالبركة فيهنّ، فصفَّهُنَّ على يدي ثم دَعَا بالبركة فيهنّ ثم قال: (اجعلهُنَّ في المِزْوَدِ، فإذا أردتَ شيئاً فأدخلْ يَدَكَ فيهِ ولا تنثِرْهُ)[3].

قال أبو هريرة: فلقد حملتُ من ذلك التمر كذا وكذا وِسْقاً في سبيل اللّه، وكنّا نأكل منه ونُطْعِمُ، وكان لا يُفارقُ حِقْوِي، فلمَّا كان يوم قُتِلَ عثمانُ انقطعَ فذهَبَ.

ومن أعلامه ﷺ: ما روَاهُ جُعيل الأشجعي قال: غزوتُ مع رسولِ اللّه في بعضِ غزواتِهِ، فقال: (سِرْ يا صَاحِبَ الفَرَسِ)، فقلتُ: يا رسولَ اللّه هي عجفاءُ ضعيفةٌ؟ فرفع مخفقةً معه فضربَها بها وقال: (اللَّهمَّ بَارِكْ لهُ فيها)، قال: فلقدْ رأيتُني ما أمسِكُ رأسَها أن تقدم النّاس، ولقد بعتُ من بطنِها بإثني عشر ألفاً[4]!!.

ومن أعلامه ﷺ: ما روت عائشة رضي اللّه عنها قالت: قدِمَ رسولُ اللّه ﷺ المدينة وهي أوْبَأُ أرضٍ فيه، فقال: (اللَّهمَّ حَبِّبْ إلينا المدينة كما حببتَ إلينا مكَّةَ وصَحِّحها لنا وبارِكْ لنَا في صَاعِها ومُدِّها، وانقل حُمَّاهَا إلى الجُحْفَة)[5]، . . . . .

---

(١) ذكره الحافظ ابن حجر في فتح الباري ج ١٠/ ٥٩٠، وذكره صاحب كشف الخفا أنه عند البخاري وأحمد من قول عمر بن الخطاب «عليٌّ أقضانا»، وابن مسعود: «كنّا نتحدَّث أنّ أقضى أهل المدينة عليّ»، وفي حديث عبد الرزاق في مصنفه مرفوعاً عن قتادة مرسلاً: «. . . وأقضاهم عليّ» ج ١/ ١٨٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ج ١/ ٤٨، ومسلم في صحيحه في فضائل الصحابة رقم ١٣٨، وأحمد في مسنده ج ١/ ٢٦٦، ٣١٤، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٣٥.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج ٢/ ٣٥٢.

(٤) ذكره الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد ج ٥/ ٢٦٢ وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج ٥/ ٣٠٩ وج ٦/ ٦٥، ورواه البيهقي في دلائل النبوّة =

فصارت كذلك!!.

ومن أعلامه ﷺ: أنه أخذَ يومَ بدرٍ كَفّاً من حصىً وترابٍ ورَمَى بـهِ في وجوهِ القـوم، وقال: (شَـاهَـتِ الوُجُـوهُ)، فتفرَّقَ الحصَى في المشركين ولم يصلْ ذلك الحَصَى والتُّرابُ أحداً إلاّ قُتِلَ أو أُسِرَ!! وفيـه نزلَ قـولُ اللَّه تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ ولكِنَّ اللَّه قَتَلَهُمْ وما رميتَ إذْ رميتَ ولكنَّ اللَّه رمى﴾[1][2].

ومن أعلامه ﷺ: أنَّ الطفيل بن عمرو الدوسي قدم مكة وكـان شاعـراً لبيباً، فقالت قريش له: احْذَرْ محمداً فإنَّ قوله كالسِّحْرِ يفرِّق بين المَرْءِ وبينَ زوجِهِ، فأتَاهُ في بيتِهِ وقال: يـا محمد أعْـرِضْ أمرَكَ، فعـرضَ عليه الإسـلامَ وتَلاَ عليـه القرآنَ، فأسْلَمَ! وقال: يا رسولَ اللَّه! إنِّي امرؤٌ مُطَاعٌ في قومِي وإنِّي راجعٌ إليهم ودَاعِيهم إلى الإسلام، فادْعُ اللَّه أن يجعـل لي آيَةً تكـون عونـاً عليهم، فقال: (اللَّهمَّ اجعـلْ له آيَةً)!! فخرجت حتَّى إذا كنتُ بثنيَّةٍ وقعَ نورٌ بينَ عينيَّ مثلُ المصباح، فقلتُ: اللَّهمَّ في غيرِ وجهي، أخشى أن يظنُّوا بها أنَّها مُثْلَةٌ فتحول، فوقعَ في رأسِ سَوْطِي، فجعلَ الحَاضِرُون يَرَوْنَ ذلك النُّورَ في سَوْطِي كالقنديل المعلَّق، وأنا أهبطُ مِنَ الثَّنِيَّـةِ، ثم دعـوتُ رُؤَسَـاءَ قـومِي إلى الإسلامِ فـأبْطَأوا، فجئْتُ رسـولَ اللَّه ﷺ فقلتُ: يا رسولَ اللَّه! إنَّهم قد غلبوني على دَوْس، فـادْعُ اللَّهَ عليهم، فقال: (اللَّهمَّ اهـدِ دَوْسـاً، ارجعْ إلى قـومِكَ فـادْعُهم إلى اللَّه، وارْفِقْ بِهِمْ)، فرجعتُ إليهم فلم أزلْ بأرضِ دَوْسٍ أدْعُوهم حتَّى أسْلَمُوا[3]!!!.

= ج ٢/٥٦٩، ورواه المنـذري في التـرغيب ج ٢/٢٢٥، وابن حجـر في فتـح البـاري ج ١١/١٧٩.

(١) سورة الأنفال، الآية ١٧.

(٢) السيرة النبوية: لابن هشام ج ١/٦٢٨، وذكـر نحوه ابن كثير: السيرة ج ٢/٤٣٣، وذكـره السيوطي في الدر المنثور ج ٣/١٧٤ - ١٧٥.

(٣) دعـاء النبي ﷺ لأهـل «دوس» أخـرجـه البخـاري في صحيحـه ج ٤/٥٤ وج ٥/٢٥٠ وج ٨/١٠٥، وأخرجه مسلم في صحيحه في فضائل الصحابة رقم ١٩٨، والإمام أحمد في مسنده ج ٢/٢٤٣، ٤٤٨، ٥٠٢، وهو في المشكاة برقم ٥٩٩٦، وفي دلائل النبوة للبيهقي =

ومن أعلامه ﷺ: ما رواه أبو نهيك الأزْدِي عن عمرو بن أخطب قال: استسقى رسولُ اللَّه ﷺ ماءً فأتيتُهُ بإناء فيه ماءٌ وفيه شعرةٌ، فرفعتُها ثم ناوَلْتُه، فقال: (اللَّهمَّ جَمِّلْهُ)، قال: فرأيتُهُ بعدَ ثلاثٍ وتسعين ما في رأسِهِ ولحيتِهِ شعرةٌ بيضاء[1].

ونهى رسول اللَّه ﷺ أن يُنقِّي الرجلُ شعرَهُ في الصلاة، فرأى رجلاً يُنقِّي شعرَهُ في الصلاة فقالَ: (قَبَّحَ اللَّهُ شَعْرَكَ)، فصَلَعَ مكانَهُ[2].

فإن قيل[3]: فإجابة الأدْعِيَةِ لا تكون معجزة للنُّبوَّة لأنه قد تُجَابُ دعوةُ غير الأنبياء.

قيل: أدعية الأنبياء مُجَابَةٌ على العموم في جميعها، وأدْعيةُ غيرهم إن أُجيبتْ فعلى الخصوص في بعضها، لأنَّ الأنبياء مُنْطَقون بالحق، فإذا نطقتْ ألسنَتُهُمْ بالدُّعاء صَادَفَ ما أُمِروا به فأُجيبُوا إليه، وغيرهم قد ينطقُ بالحقّ وبغيرهِ، فإن أجيبتْ أدعيتُهم، فهو تفضُّلٌ يقفُ على مشيئة اللَّه تعالى.

= هذا الخبرج ٥/٣٥٩، ٣٦٢، وابن سعد في الطبقات الكبرى ج ٤/١: ١٧٦، وفي البداية ج ٣/١٠٠.

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج ٥/٧٧، ٣٤٠، والحاكم في المستدرك ج ٤/١٣٩، وابن حبان في موارد الظمآن: ٢٢٧٣، وعبد الرزاق في مصنفه رقم ١٩٤٦٢، وابن أبي شيبة في مصنفه ج ٨/٤٥٧، وج ١٠/٤٣٠ وج ١١/٤٩٣ ـ ٤٩٤، والبيهقي في دلائل النُّبوَّة ج ٦/٢١٠ ـ ٢١٢، وانظر ترجمته في موسوعة عظماء حول الرسول ﷺ ج ٢/١٣٩٤ ـ ١٣٩٥، للشيخ خالد عبد الرحمن العك ـ ط. دار النفائس ـ بيروت.

(٢) رواه أبو نعيم في دلائل النُّبوَّة برقم ٣٧٥ بلفظ: رأى النبي ﷺ رجلاً وهو ساجد، وهو يقول لشعره هكذا، يكفه عن التراب، فقال: (اللَّهمَّ قَبِّحْ شَعْرَهُ)، قال: فسقط. وقال السيوطي في الخصائص ج ٣/٩٠: انفرد به أبو نعيم.

(٣) ذكر هذه الأقاويل تشكك في التصديق، فالأَوْلى الإعراض عنها، وعدم الاهتمام بها.

الباب الثاني عشر

في إنذاره ﷺ بما سيحدث بعده

روى فُضَالَةُ بنُ أبي فُضالة الأنصاري قال: خرجتُ مع أبي إلى يَنْبُعٍ عائداً لعليِّ بن أبي طالب رضي اللّه عنه، وكان بها مريضاً، فقال له أبي: يا أبا الحسن ما يُقيمُكَ بهذا البلدِ؟ لا آمَنُ أن يُصيبكَ أجلُكَ فلا يكنْ أحدٌ يليك إلا أعرابُ جُهينةَ، فلو احتملتَ إلى المدينة، فإن أصابك أجلُكَ وَلِيَكَ أصحابُكَ وصلُّوا عليك، فقال: يا أبا فُضَالَةَ! أخبرني حبيبي وابنُ عمِّي رسولُ اللّه ﷺ أنِّي لا أموتُ حتى أُؤمَّر، ولا أموتُ حتى أقتلَ الفِئةَ الباغيةَ، ولا أموتُ حتى تخضبَ هذه من هذه، وضربَ بيدِهِ على لحيتِهِ وهامتِهِ قضاءً مقضياً وعهداً معهُوداً، وقد خابَ مَنِ افْتَرَى[1].

ومن إنذارِهِ ﷺ: ما رواه أبو سلمةَ عن أبي هريرة قال: دخلَ رسولُ اللّه ﷺ بمارية القبطية في بيتِ حفصة بنت عمر فوجدتُها معه تُضَاحِكُه فقالتْ: يا رسولَ اللّه! في بيتي من دونِ بُيوتِ نسائِكَ؟ قال: فإنَّها عليَّ حَرَامٌ أنْ أمسَّها، ثم قال لها: (يا حفصةُ ألاَ أبشِّرُكِ؟ قلتُ: بلى بأبي أنتَ وأمِّي، قال: يَلِي هذا الأمرَ من بعدي أبو بكر، ثم أبوكِ، اكتُمي هذا عليّ)[2]. فخرجتْ حتى دخلت على عائشة فقالت

---

(١) ذكره الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد ج ٩/١٣٧ ولفظه: فقال له عليٌّ: إنِّي لستُ ميِّتاً من مرضي هذا - أو من وجعي هذا - إنَّه عهد إليَّ النبي ﷺ أني لا أموتُ حتى أحسبه قال: أُضرب، أو تخضب، هذه من هذه، يعني ضاربه، فقُتِلَ أبو فضالة معه بصفِّين. رواه البزار وأحمد بنحوه، ورجاله موثَّقون.

(٢) هذا خبر باطل لا يصح ولا يثبت، في إسناده «موسى بن جعفر الأنصاري» وخبره ساقط، ذكر =

لها: ألَا أبشِّرُكِ يـا ابْنَةَ أبي بكـر؟ قالت: فمـاذا؟ فذكـرتْ ذلك لهـا، وقالتْ: قـد استكتمني، فاكْتُمِيهِ، فأنزلَ اللّه تعالى: ﴿يا أيُّها النَّبيُّ لِـمَ تُحرِّمُ مـا أحَلَّ اللّهُ لـكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أزْواجِكَ﴾[1].

ومن إنذاره ﷺ: ما رواه معاذ بن جبل قال: بعثني رسولُ اللّه ﷺ إلى اليمن، فخرج معي يُوصيني، فلمّا فرغَ قال: (يا معـاذ إنَّك عسى أنْ لا تلقـاني بعد هـذا، ولعلَّك تمرُّ بمسجدي ومنبري)[2] فبكى معاذ ثم التفتَ رسولُ اللّه ﷺ فأقبل بوجهه نحو المدينة وقال: (إنَّ أهل بيتي هؤلاء، يرون أنفسهم أولى النَّاس بي وليس كذلك، إنَّ أولى النَّاس بي المتَّقون، مَنْ كانُوا أو حيثما كانُوا، اللَّهمَّ إنِّي لا أحلُّ لهم فسادَ ما أصلحتُ)[3].

ومن إنـذاره ﷺ: مـا رواه عبـد اللّه بن عبـاس قـال: كنتُ قـاعـداً عنـدَ رسولِ اللّه ﷺ إذْ أقبلَ عثمانُ، فلمَّا دَنَا منه قال: (يا عثمـان تُقْتَلُ وأنتَ تقـرأ سورةَ البقـرة، تقـعُ قـطرةٌ من دمِكَ على ﴿فسيكفيكهم اللّه﴾ يغبِـطُك أهـلُ المشـرق والمغرب، وتُبعث يومَ القيامة أميراً على كل مخذول)[4].

ومن إنذاره ﷺ: ما رواه جـابر بن عبـد اللّه قال: قـال رسولُ اللّه ﷺ: (مَنْ

= الحافظ الذهبي في ميزان الاعتدال ج ٤/٢٠١، رقم ٨٨٥٣ هذا الخبر، بإسناد العقيلي، ثم قال: هذا باطل.

(١) سورة التحريم، الآية ١.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج ٥/٢٣٥، والبيهقي في سننه ج ٩/٨٦، وابن حبان كما في موارد الظمـآن ٢٥٠٤، وفي صحيحه ج ٢/٤١٤ ـ ٤١٥، رقم ٦٤٧، قـال مخرِّجـه الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده قويٌّ. وذكره الحافظ الهيثمي في مجمع الـزوائد ج ٩/٢٢: رواه أحمد بإسنادين.. ورجال الإسنادين رجال الصحيح، غير راشد بن سعد وعـاصم بن حميد وهما ثقتان.

(٣) هذا اللفظ عند ابن حبان في صحيحه رقم ٦٤٧.

(٤) أخرجه الحـاكم في مستدركـه ج ٣/١٠٣ وقال الحـافظ الذهبي في تلخيصـه: وفي إسناده أحمد بن عبد الحميد الجعفي، وهو المتهم به ـ أي هذا حـديث مكذوب مـوضوع من قبله ونسبه إلى النبي ﷺ.

أحبَّ أنْ ينظُرَ إلى شهيدٍ يمشي على وجهِ الأرض فلينظُرْ إلى طلحةَ بنِ عُبيدِ اللَّه)[1].

ومن إنذاره ﷺ: ما رواه عبد اللَّه بن عباس قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ لنسائه: (ليتَ شعري أيَّتُكُنَّ صاحبةُ الجَملِ الأدبب، تخرج فتنبحها كلابُ الحَوْأب، يُقتل عن يمينها ويسارها قتلى كثيرٌ، وتنجو بعدَما كادتْ تُقتَلُ)[2].

فقيل: إنَّ عائشة رضي اللَّه عنها لمَّا وصلتْ إلى مياه بني عامر ليلاً نبحتْها الكلابُ، فقالتْ: ما هذا؟ قالوا: الحَوْأب، قالت: ما أظنُّني إلَّا راجعة، إنَّ رسولَ اللَّه ﷺ قال لنا ذات يومٍ: (كيفَ بإحداكُنَّ إذا نبح عليها كلابُ الحَوْأبِ)[3].

ومن إنذاره ﷺ: ما رواه ثابت عن الحسن البصري قال: كان الحسنُ بنُ علي رضي اللَّه تعالى عنهما يجيء ورسولُ اللَّه ﷺ ساجد فيجلسُ على عُنُقه فإذا أرادَ أن يرفعَ رأسَهُ أخَذَهُ فوضَعَهُ في حجره، ثم قال: (إنَّ ابني هذا سيِّد وأنَّ اللَّه تعالى سيصلحُ بِهِ بينَ فئتين عظيمتين من المسلمين)[4].

ومن إنذاره ﷺ: ما رواه عروةُ عن عائشةَ رضي اللَّه تعالى عنها قالتْ: دخلَ الحسينُ بنُ عليٍّ رضي اللَّه تعالى عنهما على رسول اللَّه ﷺ وهو يُوحَى إليه فبرَكَ

---

(1) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنّة» برقم ١٤٠٣، وفي سنده صاحب مناكير وهو سليمان بن أيوب.

(2) ذكره الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد ج ٧/ ٢٣٤ وقال: رواه البزار، ورجاله ثقات. وساق قبله روايةً بلفظ: (أيَّتكنَّ ينبح عليها كلاب الحوأب) رواه أحمد وأبو يعلى والبزار، ورجال أحمد رجال الصحيح. وذكر رواية المصنف الشيخ محمد ناصر الدين الألباني في الأحاديث الصحيحة ج ١/ ٧٧٤.

(3) رواه الحاكم في المستدرك ج ٣/ ١٢٠ وصححه، وأقرَّه الحافظ الذهبي. وأخرجه الإمام أحمد ج ٦/ ٥٢، ورواه البيهقي في دلائل النبوة ج ٦/ ٤١٠، وابن أبي شيبة في مصنفه ج ١٥/ ٢٦٠، وابن حبان كما في موارد الظمآن ١٨٣١، والأحاديث الصحيحة ٤٧٥ للشيخ محمد ناصر الدين الألباني.

(4) أخرجه أبو داود الطيالسي، كما في منحة المعبود في ترتيب مسند أبي داود: للساعاتي، رقم ٢٦٨٤، وابن أبي شيبة في مصنفه ج ١٢/ ٩٦ وج ١٥/ ٩٦، والطبراني في معجمه ج ٣/ ٢٣، والبيهقي في دلائل النبُوَّة ج ٦/ ٤٤٣.

على ظهرِهِ وهو منكبٌ، ولعبَ على ظهرِهِ، فقال جبريل: يا محمد! إنَّ أمَّتَكَ ستُفتنُ بعدَكَ ويُقْتَلُ ابْنُكَ هذا من بعدِكَ، ومدَّ يَدَهُ فأتَاهُ بتربةٍ بيضاءَ وقال: في هذه الأرضِ يُقتلُ ابْنُكَ، اسمها الطَّفُّ، فلمَّا ذهب جبريل، خرجَ رسولُ اللَّه ﷺ إلى أصحابه والتُّربةُ في يدهِ، وفيهم أبو بكر وعمر وعليّ وحذيفةُ وعمارُ وأبو ذر وهو يبكي، فقالوا: ما يُبْكِيكَ يا رسولَ اللَّه؟ فقال: (أخبرني جبريلُ أنَّ ابني الحسين يُقْتَلُ بعدي، بأرضِ الطَّفِّ، وجاءَني بهذِهِ التربةِ، فأخبرني أنَّ فيها مَضْجَعَهُ)[1].

ومن إنذاره ﷺ: أن الحجَّاج لمَّا قتلَ عبدَ اللَّه بْنَ الزُّبير، دخلَ على أُمِّهِ أسماءَ بنتِ أبي بكر فقال لها: إنَّ أميرَ المؤمنين أوصاني بكِ، فهلْ لَكِ من حاجةٍ؟ قالتْ: ما لي من حاجةٍ، ولكنِ انتظرْ حتَّى أحدِّثَكَ شيئاً سمعتُهُ من رسولِ اللَّهِ ﷺ، يقول: (يخرجُ من ثقيفٍ كذَّابٌ ومُبِيْرٌ)، أمَّا الكذَّاب فقدْ رأينَاهُ - تعني المختار - وأمَّا المبير فأنتَ، فقال الحجاج: أنا مبيرُ المنافقين[2].

ومن إنذاره ﷺ: ما رواه عبدُ الملك بن عُمير قال: قال معاوية رضي اللَّه عنه: واللَّهِ ما حملني على الخلافة إلَّا قولُ النَّبيِّ ﷺ لي: (يا معاويةُ! إنْ وُلِّيت فأحْسِنْ)[3].

ومن إنذاره ﷺ: ما رواه عبد اللَّه بن عباس عن أبيه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ نَظرَ إليه مقبلاً فقالَ: (هذا عمِّي أبو الخلفاء الأربعين، أجودُ قريشٍ كَفّاً، وإنَّ مِنْ ولدِهِ

---

(١) هذا الخبر من وضع الرافضة. وفي المستدرك للحاكم بإسناد على شرط مسلم ج ٤/٣٩٨ عن ابن عباس قال: «رأيت النبي ﷺ فيما يرى النائم، نصف النهار، أشعث أغبر معه قارورة فيها دم، قلت: يا نبيَّ اللَّه! ما هذا؟ قال: (هذا دم الحسين وأصحابه، ولم أزل ألتقطه منذ اليوم)، قال: فأحصى ذلك اليوم، فوجدوه قُتِلَ قبلَ ذلك بيوم». وأقرَّه الحافظ الذهبي. فلعلَّ بعض الرافضة سمعه فصيَّره حديثاً.

(٢) أخرجه الحميدي في مسنده رقم ٣٢٦، والبيهقي في دلائل النُّبوَّة ج ٦/٤٨٢، وهذا لفظه، وأخرجه أيضاً كما أخرجه مسلم في صحيحه برقم ١٩٧١: أنَّها قالتْ للحجاج بن يوسف: أمَا إنَّ رسول اللَّه ﷺ قال: (إنَّ في ثقيف كذاباً ومبيراً، فأمَّا الكذاب فقد رأيناه، وأمَّا المبير فلا إخالُكَ إلَّا إيَّاه)»!!.

(٣) جميع الروايات الثابتة: (يا معاوية! إن وُلِّيتَ أمراً فاتَّقِ اللَّهَ وَاعْدِلْ)، رواه أحمد في مسنده =

السَّفَّاحُ والمنْصُورُ والمهـدي، يا عمُّ بي فتحَ اللَّهُ هذا الأمرَ، وبرجلٍ من ولـدِكَ يُخْتَمُ)[1]. إلى كثير من نظائر هذا.

= مرسلاً ج ١٠١/٤، قال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد ج ١٨٦/٥ وج ٣٥٥/٩: رواه أحمد مرسلاً ورجاله رجال الصحيح، ورواه أبو يعلى عن سعيد عن معاوية، فوصله، ورجاله رجال الصحيح. وهو في مشكاة المصابيح بلفظ أحمد، وحسَّنَهُ ٣٧١٥.

(١) ذكره الحافظ ابن الجوزي في الموضوعات ج ٣٧/٢ وبلفظ آخر: هذا العباس بن عبد المطلب أبي وعمي، ج ٣١/١، وذكره ابن عراق في تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الموضوعة ج ١١/٢، وذكره السيوطي في اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ج ٤٣٥/١ وقال: موضوع المتهم به الغلابي ـ وهو محمد بن زكريا الغلابي.

الباب الثالث عشر

في معجزه صلى الله تعالى عليه وسلم بما ظهر من البهائم

إذا كان الإعجازُ خارقاً للعادة لم يمتنعْ فيه ظهورُ ما خالَفَها، وإذا كانتِ البهائم مسلوبة الأفهام مفقودة الكلام فليسَ بمستنكَرٍ إذا أرادَ اللَّه تعالى بها إظهارَ معجز أن يعطيَها من المعرفة أن تنطقَ بما أُلْهِمَهَا، وتُخبرَ بما أعلَمَها، ثم سلَبها ذلك فتعود إلى طبعها كما أحلَّ في الشجرة كلاماً سمِعَهُ موسى [1]، وفي العَصَا أنْ صارتْ حيَّةً تسعى

---

(١) قول المصنف رحمه اللَّه تعالى: «أنَّ اللَّه تعالى أحلَّ في الشجرة كلاماً سمعه موسى» لا دليل عليه من كتاب اللَّه تعالى ولا من سنة رسوله ﷺ، بل هو من بدع المتكلمين، التي خالفوا بها ما ثبت في القرآن والسنَّة أن اللَّه تعالى متكلم حقيقةً، فعلى معنى «أحلَّ في الشجرة كلاماً سمعه موسى» أنَّ موسى عليه السَّلام لم يسمع كلام اللَّه تعالى، بل سمع كلاماً حالاً في الشجرة، وكيف يحل الكلام في الشجرة؟ ومن يصدق بهذا التخيُّل؟ واللَّه تعالى أثبت تكليمه لموسى في قوله سبحانه: ﴿وكَلَّمَ اللَّهُ موسى تكليماً﴾ [سورة النساء، آية ١٦٤] وأكَّدَهُ بذكر المصدر بعد ذكر فعل التكليم، فمن أوَّلَ الآية بغير معناها الحقيقي، فقد ألحد في آيات اللَّه تعالى وصفاته، ومن الصفات الإلَهية الثابتة في القرآن الكريم والسنة الصحيحة أنَّ اللَّه تعالى متكلم حقيقةً، فكلامه سبحانه لموسى كلامٌ حقيقي، والقرآن الكريم كلام اللَّه تعالى حقيقة، ليس «هو معنى عن كلامه النفسي» الذي يزعمه ابن كُلَّاب، ومن تبعه من الأشاعرة، ولم يقل ببدعة ابن كَلَّاب التي يزعم فيها أنّ للَّه كلاماً نفسياً فقط؛ إن عبَّر عنه بالعبراني فهو التوراة، وإن عبَّر عنه بالسرياني فهو الإنجيل، وإن عبَّر عنه بالعربي فهو القرآن، لم يقله أحدٌ من قبله. والأشاعرة صدقوه في هذا الزعم الخيالي، ورفضوا التصديق بالأحاديث الصحيحة التي تُثبتُ أن اللَّه تعالى يُكلم ملائكته أو من يشاء من رسله، من وراء حجاب، وأنه إذا تكلم يُصعق من في السماء، إلا جبريل عليه السَّلام، كما ثبت في صحيح =

لتكون من باهر الآيات وقاهر المعجزات.

فمن آياته ﷺ: أنَّ رجلاً كان في غنمه يرعَاها فأغفَلَها ساعةً من نهارهِ، فختَلَهُ ذئبٌ فأخذَ منه شاةً فأقبلَ يلهَفُ، فطرَحَ الذئبُ الشَّاةَ ثم كلَّمه بكلامٍ فصيحٍ، فقال: وَيْحَكَ لِـمَ تمنعني رِزْقاً رزقنيهِ اللّه تعالى؟ فجعلَ أهبان يصفق بيديه ويقول: تاللّهِ ما رأيتُ كاليومِ؛ ذئبٌ يتكلَّمُ!! فقال الذئبُ: أنتم عَجَبٌ وفي شأنِكم عبرةٌ! هذا محمَّدٌ يدعو إلى الحقِّ ببطن مكَّة، وأنتم لاَهُون عنه؟! فهُدِيَ الرجل لرشدهِ، وأقبلَ حتَّى أسلمَ، وحدَّثَ القومَ بقصَّتِهِ(١)، وبقي لعقبه شرفٌ يفخرون بـهِ على العرب، ويقولُ مفتخرُهم: أنا ابنُ مكلِّمِ الذئب!.

ومن آياته ﷺ: ما رواه أبو سعيد الخدري قال: بينما رَاعٍ يرعَى في الحرَّة غنماً، إذْ جاء ذئبٌ إلى شاةٍ من غنمهِ، فانتهَزَها فحالَ الرَّاعي بين الذئبِ والشَّاةِ، فأقْعَى الذئبُ على عَرِيمةِ ذَنَبِهِ وقال للراعي: ألاَ تتقي اللّهَ، تحولُ بيني وبينَ رِزْقٍ ساقَهُ اللّهُ إليَّ؟! فقال الراعي: العجبُ من ذئبٍ يُقْعِي على ذنبهِ يُكلِّمني بكلام الإنس؟! فقال له الذئب: ألاَ أحدِّثُكَ بأعجبَ مِنْ هذا؟ هذا رسولُ اللّه ﷺ بين الحرَّتين يحدِّثُ النَّاسَ بأنباءِ ما قدْ سبَقَ، فأخذَ الراعي الشَّاةَ فأتى بها المدينةَ، وأتى النَّبيَّ ﷺ فخرجَ إلى النَّاس، فقالَ للراعي: (قُمْ فحدِّثْهُمْ)، فقامَ يحدِّثُهم فقال: صدقَ الرَّاعي، وكان اسمُهُ عُميراً الطَّائي فسُمِّي مكلِّمُ الذِّئب(٢).

ومن آياته ﷺ: ما روى ابنُ عمر عن أبيهِ عمر رضي اللّه تعالى عنهما أنَّ

= ابن حبان رقم ٣٧، وعند أبي داود ٤٧٣٨.

(١) خبر كلام الذئب صحيح ثابت بعدَّة روايات، منها ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج ١/ ٢٠٤، وأبو داود في سننه برقم ٢٥٤٩، والحاكم في المستدرك ج ٢/ ٩٩ ـ ١٠٠ وقال: صحيح الإسناد، وأقرَّه الحافظ الذهبي أنه على شرط مسلم، وذكره الشيخ محمد ناصر الدين الألباني في الأحاديث الصحيحة ج ١/ ١٨٤.

(٢) هذه رواية القاضي عياض في الشفاء ج ١/ ٥٩٥ قال الحافظ السيوطي في مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا ص ١٣٠ حديث أبي سعيد: أحمد والبزار والبيهقي وصححه.

رسولَ اللَّه ﷺ كان في مَحْفَلٍ من أصحابه، إذْ جاء أعرابي قد صادَ ضبّاً وجعلَهُ في كُمِّهِ ليذهبَ به فيأكلهُ، فلما رأى الجماعة قال: ما هذا؟ قالوا: النبيّ ﷺ، فجاء يشقُّ النَّاسَ وقال: واللَّاتِ والعُزَّى ما أحدٌ أبغضَ إليَّ منك، ولولا أن تسميني قومي عَجُولاً لعجَّلتُ بقتْلِكَ، فقال عمر رضي اللَّه عنه: يا رسول اللَّه دعني أقومُ فأقْتُلُهُ؟! فقال: يا عمر أمَا علمتَ أنَّ الحليمَ كادَ أن يكونَ نبيّاً؟ ثم قـال للأعـرابي: ما حملَكَ على ما قُلْتَ؟ فقال: واللَّاتِ والعُزَّى لا آمنتُ أو يُؤمن بك هذا الضَّبُّ، وأخرجَ الضَّبَّ من كمه فطرحه بين يدي النبي ﷺ[1]، فقال رسولُ اللَّه ﷺ: (يا ضَبُّ)، فأجابَهُ الضَّبُّ بلسان عربي مبين يسمعُهُ القومُ جميعاً: لَبَّيْكَ وسعـديك يـا زينَ مَنْ يُوافي القيـامةَ! قـال: (مَنْ تعبُدُ؟) قـال: الذي في السَّمـاء عرشـه وفي الأرض سلطانُه وفي الجنَّـة رحمتُهُ، وفي النَّار عقـابُهُ، قـال: (فَمَنْ أنَا يـا ضَبُّ؟) قال: رسـولُ ربِّ العالمين، وخاتم النَّبيين وقد أفلحَ مَنْ صَدَّقَكَ، وقد خَابَ مَنْ كَـذَّبَكَ، فقـال الأعرابي: واللَّهِ لا أتبعُ أثراً بعدَ عينٍ، واللَّهِ لقدْ جئتُكَ وما على ظهرِ الأرض أحدٌ أبغضَ إليَّ منكَ، وإنَّك اليَوْمَ أحبُّ إليَّ من نفسي ومن والدي، وإنِّي لأحبك بداخلي وخارجي وسري وعلانيتي، أشهد أن لا إله إلاّ اللَّه وأنَّك محمَّدٌ رسولُ اللَّه، فقـال ﷺ: (الحمدُ للَّهِ الـذي هَدَاكَ بي، إنَّ هـذا الدِّينَ يعلُو ولا يُعْلَى عليـه) فرجـعَ الأعـرابي إلى قـومِـهِ فـأخبرَهُم بـالقصَّةِ، وكـان من بني سُلَيْم، فأتى رسـولَ اللَّه ﷺ ألفُ إنسانٍ منهم، فأمرهم أن يكونوا تحت راية خالد بن الوليد رحمةُ اللَّه عليـه، ولم يؤمن من العرب

---

(١) هذا الخبر ذكـره أبو نعيم في دلائـل النبوَّة رقم ٢٧٥ ـ ط. دار النفائس ـ بيروت، والبيهقي ج ٦/٣٦ ـ ٣٨، قـال الحـافظ الـذهبي في ميـزان الاعتـدال ج ٣/٦٥١، تـرجمـة ٧٩٦٤ محمد بن علي بن الوليد السلمي، [وهو في الإسنادين] وقال: روى أبو بكر البيهقي حديث الضَّبِّ من طريقه بإسناد نظيف، ثم قال البيهقي: الحملُ فيه على السلمي هذا. قلت [أي الذهبي]: صدق واللَّهِ البيهقي؛ فإنَّه خبر باطـل [أي: بهذا التـطويل، فهـو مختلق، وروى حديث كلام الضب الطبراني في الصغير والأوسط بهذا الإسناد]، وأما لفظ: «كاد الحليم أن يكون نبياً» فهذا لا يصح عن النبي ﷺ أيضاً، وقد ذكر صاحب كشف الخفا، ج. وعزاه إلى الخطيب بسند ضعيف ج ٢/١٩١٨.

ألفُ في وقت واحدٍ غيرُهم[1].

ومن آياته ﷺ: ما رواه أنسُ بنُ مالك قال: دخلَ رسولُ اللّه ﷺ حائطاً للأنصارِ ومعه أبو بكر رضي اللّه عنه، وفي الحائط عنزَةٌ فسجدتْ له، فقال أبو بكر: يا رسولَ اللّه؟ كنّا نحنُ أحقَّ بالسجودِ لكَ مِنْ هذهِ العنزَّةِ؟! فقال: (إنَّه لا ينبغي أن يسجُدَ أحدٌ لأحدٍ، ولو كان ينبغي أن يسجد أحدٌ لأحدٍ لأمرتُ المرأةَ أنْ تسجُدَ لزوجِهَا)[2].

ومن آياته ﷺ: ما رواه عبد اللّه بنُ أبي أَوْفَى قال: بينما نحنُ قُعُودٌ عند رسولِ اللّه ﷺ إذْ أتَاهُ آتٍ فقال: يا رسولَ اللّهِ! ناضِحُ بني فلان قد دَبَرَ عليهم، قال: فنهض ونهضنا معه، فقلنا: يا رسولَ اللّهِ لا تقربْهُ فإنّا نخافُهُ عليك، فدَنَا من البعير، فلمَّا رآه البعير سجدَ لهُ، فوضعَ يَدَهُ على رأسِ البعير، وقال: (هات السِّكان)[3] فوضَعَهُ في رأسِهِ وأَوْصَى بهِ خيراً[4].

ومن آياته ﷺ: ما رواه جُبَيْرُ بنُ مطعم قال: كُنَّا جُلُوساً عندَ صنمٍ قبل أن يُبعثَ رسولُ اللّه ﷺ بشهرٍ، فنحرنا جزوراً، فسمعنَا صائحاً يصيحُ: اسمعوا إلى العجب، ذهب استراقُ السمع لنبي بمكة اسمُهُ أحمد، مهاجرٌ إلى يثرب[5] فكان هذا من

---

(١) قال الحافظ السيوطي في مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا: حديث عمر في الضب ج ٥٩٤/١ رواه الطبراني والبيهقي وقال أيضاً من حديث عائشة وأبي هريرة. . . وأخرجه ابن عساكر من حديث علي أيضاً، وقال ابن دحية: حديث الضَّبِّ موضوع ص ١٢٩ ـ ١٣٠، رقم ٦٠٦.

(٢) أخرجه أحمد والبزار، قال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد ج ٤/٩: ورجاله رجال الصحيح، غير حفص بن أخي أنس وهو ثقة.

(٣) في رواية أبي نعيم في دلائل النُّبوَّة ج ٣٨٤/٢: (هاتِ السِّفَار) أي الزمام.

(٤) رواه أبو نعيم في الدلائل ج ٣٨٤/٢ رقم ٢٨٦ وفي إسناده فائد أبو الورقاء، ذكره الحافظ الذهبي في الميزان ج ٣٣٩/٣ ترجمة ٦٦٨٢، وقال: تركه أحمد والنّاس. وروَى عباس عن يحيى [بن معين]: ضعيف.

(٥) إسناده ضعيف، قال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد ج ٢٤٤/٨: رواه البزار عن شيخه =

الآيات المنذرة والآثار المبشِّرة.

ومن آياته ﷺ: أنَّه بينما هو جالسٌ في أصحابه إذْ هو بجمل قد أقبل لـه رُغَاءٌ فوقفَ فقال رسول اللَّه ﷺ: (أتدرون ما يقول هذا؟! إنَّه ليقول: إنّي لآل فلان لحيٍّ من الخزرج، استعملوني وكدُّوني حتى كبـرت وضعفت، فلمّا لم يجـدوا فيَّ حيلةً يُريدون ذبحي، فأنا أستغيث بك منهم)، فأوقفه رسولُ اللَّه ﷺ وبعث إليهم فاستوهبَهُ منهم فوهبوه له، وخلَّاهُ في الحيِّ[1].

ومن آياته ﷺ: ما رواه برد عن مكحول قال: بينما أهل ذريح، حيٌّ من عرب اليمن، في مجلسهم، إذْ أقبلَ عجل وسلَّمَ، فسألهم وقال: أهل ذريح، أمرٌ نجيحٌ، ببطن مكة يصيح، بلسان فصيح، بشهادة أن لا إله إلاّ اللَّه، فأجيبُوه[2]. وقال: وفيه نـزل قول اللَّه تعـالى: ﴿ ربَّنَا إنَّنَـا سَمِعْنَا مُنَـادِياً يُنـادِي لـلإيمـانِ أن آمنـوا بـربِّكم فآمنَّا ﴾[3].

فإن قيل: فيجوز أن يكون ما سمعَ من كلام البهائم، كـالصَّدى يحكي كـلام المتكلم فيظنُّه السَّامع كلام الصَّدَى وهو كلام المتكلِّم، ويكون ذلك بقـوَّةٍ يُحدثهـا اللَّه تعالى في المتهيِّـىء لذلك يخفَى عن الأسماع والأبصار، فعنه جوابان[4]:

أحدُهما: أنَّ الصَّدَى يحكي كلامـاً مسموعـاً إذا قابله قبـل صوتـه، فحكاه،

= عبد اللَّه بن شبيب، وهو ضعيف. وذكر الحافظ الذهبي في المغني في الضعفاء ج ١/٣٤٢، رقم ٣٢١٢، وقال: واهٍ، قال أبو أحمد والحاكم: ذاهب الحديث.

(١) رواه أبو نعيم في الدلائل ج ٢/٣٨٢ ـ ٣٨٣ رقم ٢٨٣، بلفظٍ قريبٍ منه جداً. وذكره الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد ج ٦/٩ وقال: رواه أحمـد [في المسند ج ٤/١٧٣] والـطبراني نحوه، وأحد إسنادي أحمد رجاله رجال الصحيح.

(٢) ذكره الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد ج ٨/٢٤٣ وقال: رواه أحمد ورجاله ثقات.

(٣) سورة آل عمران، الآية ١٩٣.

(٤) لقد سبقت الإشارة إلى الحذر من الاكتراث بمثل هذه الاعتـراضات التي يـذكرهـا المؤلف عقب ذكرِ كلِّ معجزةٍ من معجزات الرسول ﷺ، وكأنه يحكي كلام أهل الباطل من الزنادقة والملحـدين والمشككين بنبـوَّة رسـول اللَّه ﷺ، وهـو يخشى أن تقـع في نفس أحـدٍ من =

وليس كلام البهيمة مقابلاً لكلام يحكيه، فامتنعَ التشاكل.

والثاني: أنَّ القوَّة المهيَّأة ليست من جنس قوى البشر، فلا يكون في التَّفاضل إعجاز وإنَّما هي خارجة عن جنس قواهم، فخرج عن قدرتهم، وما خَـرَجَ عن قدرة البشر كان معجزاً. لو صحَّ هذا الاعتراض، لبطلَ به الاعتراض.

= المسلمين، والذي يجب التنبيه له هنا أنَّ كلَّ مسلم، بل كل ذي عقل سليم يُقِرُّ ويشهدُ بصدق نبوَّة رسول الله ﷺ، ومن يُنكر نبوته ويُكذِّب رسالته، لن تكون أحاديث المعجزات لتثنيه عن كفره وجحوده وتكذيبه، فمن يكذب الحقَّ فليس الحقُّ ينفعه، وأحاديث المعجزات الثابتة تزيد المؤمنين إيماناً، كما تزيد الكافرين والجاحدين خسراناً، فليس بلازم ذكر وأقوال أهل الزيغ والضلالة والتشكيك بما فيها من التَّجنِّي والافتراء، ثم نأتي للردِّ عليها، وأقلُّ ما يصيب المؤمن الصادق منها هو الحِنْقُ والغضبُ على أصحابها، فليست هذه الردود للمؤمنين تنفع، ولا للكافرين تقمع.

الباب الرابع عشر

في ظهور معجزه في الشجر والجماد[1]

ولئن كانتِ المعارفُ من الجماداتِ أبعدَ، والكلامُ منها أغربَ، فليس بمستَبْعَدٍ ولا مستَغْرَبٍ أن يُحدِثَ اللَّهُ تعالى فيها من الآياتِ الخارجة عن العادة، ما يحجُّ اللَّهُ تعالى به من استبصرَ، ويمدُّ بِهِ من استنصرَ.

فمن آياته ﷺ: ما حكاه أهلُ النَّقلِ عن عليٍّ بن أبي طالب كرَّمَ اللَّه تعالى وجهه أنَّه خطب على النَّاس خطبته المعروفة بالنَّاصعة، فقال فيها: الحمدُ للَّه الذي هو العَالِمُ بمضمراتِ القُلوبِ، ومحجُوباتِ الغُيوبِ، أيُّها النَّاس اتَّقوا اللَّهَ ولا تكونوا لنعمهِ عليكم أضداداً، ولا لفضله عندكم حُسَّاداً، ولا تطيعوا أساسَ الفُسوق وأحلاسَ العُقوق، فإنَّ اللَّه تعالى مختَبِرٌ عبادَهُ المستكبرين في أنفسهم بأوليائه المستضعفين في أعينهم، ألا ترون أنَّه اختَبَرَ الأوَّلين من لدن آدم إلى الآخرين من هذا العالم بأنواع الشدائد، وتعبَّدهم بألوان المجاهد؛ ليجعل ذلك أبواباً فُتَّحاً إلى فضله، وأسباباً ذُلَّلاً لعفوهِ، فاحذَرُوا ما نَزَلَ بالأمم قبلكم، من المَثُلَاتِ بسوء الأفعال

---

(١) لقد أيَّدَ اللَّه تبارك وتعالى رسوله بشتَّى أنواع الدَّلالات السَّاطعة، والمعجزات الباهرة، والحقائق القاطعة، على صدق نبوَّته وصحة رسالته ﷺ، فكان بها النُّور السَّاطع، والشفاء النافع، لأهل الإيمان والتصديق، ولن يتوقف هؤلاء عن الأخذ بما جاءهم به من الهدى، ولن يتلكأوا عن الإقبال على ما جاءهم به من الحق، ولذلك كانت المعجزات النَّبوية غذاء ليقينهم تزيدهم تصديقاً وثباتاً ورسوخاً في هذا الدِّين العظيم الذي جاءهم به الرسولُ من ربِّ العالمين!!.

وذميم الأعمال؛ أن تكونوا أمثالهم، فلقد كانوا على أحوالٍ مضطربةٍ، وأيْدٍ مختلفةٍ وجماعةٍ متفرِّقة في بلاءٍ أزل، وأطباق جهل من بناتٍ مَوْؤُدةٍ، وأصنامٍ معبودةٍ وأرحامٍ مقطوعةٍ، وغاراتٍ مشنُونةٍ، فانظروا إلى مواقع نِعَمِ اللَّهِ عليهم، حيث بعث إليهم رسولاً، كيف نَشَرتِ النِّعمةُ عليهم جناحَ كرامتِها، وأسالتْ لهم جَدَاوِلَ نعيمِها، فهُمْ حُكَّامٌ على العالمين وملوكٌ في أطراف الأرضين، يملكون الأمورَ على مَنْ كانَ يملِكُها عليهم، ويُمْضُون الأحكامَ على مَنْ كان يُمْضِيها فيهم، ولقد كنتُ مع رسولِ اللَّه ﷺ وقد أتاهُ المَلأُ من قريشٍ فقالوا: يا محمد! إنَّكَ قَدِ ادَّعيتَ عظيماً لم يدَّعِهِ آباؤك، ولا أحدٌ من أهل بيتِكَ، ونحنُ نسألُكَ أمراً إن أجبتَنَا إليه وأريتَنَاهُ علمنا أنَّكَ نبيٌّ ورسولٌ، وإن لم تفعلْ علمنا أنَّك سَاحِرٌ كذَّاب، قال لهم: (وما تسألُون)؟ قالوا: تدعُو لنَا هذه الشجرةَ حتى تَنْقَلِعَ، بعروقِها وتقفَ بين يديك!؟ فقال ﷺ: (إنَّ اللَّه على كل شيء قدير، فإنْ فعل اللَّهُ ذلك لكم أتؤمنون وتَشْهَدُون بالحقِّ؟) قالوا: نعم! قال: (فإنِّي سأريكم ما تطلبُون، وإنِّي لأعلم أنَّكم لا تَفِيؤُون إلى خيرٍ، وأنَّ منكم من يُطْرَحُ في القليب، ومن يُحَزِّب الأحزابَ)، ثم قال: (أيَّتُها الشجرة إنْ كنتِ تؤمنينَ باللَّه واليومِ الآخر وتعلمين أنِّي رسولُ اللَّه فانْقَلِعي بعروقك حتى تقضي بين يديَّ بإذن اللَّه تعالى)[1]، قال عليٌّ رضي اللَّه عنه: فوالَّذي بعثَهُ بالحقِّ لانقلعتْ

---

(١) هذا الخبر لا أصل له في كتب الحديث، وظاهره يدلُّ على حقيقةِ أمره، فألفاظُهُ متكلَّفَةٌ، وجُمَلُهُ مركَّبةٌ، فهو من نسجِ القُصَّاصِ الذين يختلقون الأخبار وينسبونها إلى الصحابة. ويُغني عن هذا الخبر المختلق ما ثبتَ وصحَّ عن رسول اللَّه ﷺ في تكلم الشجر بالشهادة له ﷺ: أنَّه رسول اللَّه!! كما في صحيح الترمذي برقم ٣٦٣٢ عن ابن عباس قال: جاء أعرابي إلى رسول اللَّه ﷺ فقال: بِمَ أعرفُ أنَّك نبيٌّ؟ قال: (فإن دعوتُ هذا العِذق ـ أي العنقود من النخل ـ من هذه النخلة يشهدُ أنِّي رسولُ اللَّه)!! فدعاه رسول اللَّه ﷺ فجعل ينزل من النخلة حتى سقط إلى النبي ﷺ، ثم قال: (ارجِعْ) فعادَ، فأسلم الأعرابي! وما رواه الدارمي بسند صحيح ج ١/ ١٠: عن ابن عمر قال: كنَّا مع النبي ﷺ في سفر، فأقبلَ أعرابي، فلمَّا دَنَا قال له رسول اللَّه ﷺ: (تشهدُ أنْ لا إلَهَ إلاّ اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ له، وأنَّ محمداً عبده ورسوله؟)، قال: ومَنْ يشهدُ على ما تقولُ؟ قال: (هذه السَّلَمَةُ) ـ شجرة من أشجار البادية ـ فدَعَاهَا رسول اللَّه ﷺ وهو بشاطىء الوادي، فأقبلتْ تخدُّ الأرض ـ تشقّها ـ =

بعروقِها وجاءتْ ولها دويٌّ شـديدٌ، وقصف كقصيفِ أجنحـةِ الطَّيـرِ حتَّى وقفتْ بينَ يدي رسولِ اللَّه ﷺ مرفرفةً، وألقتْ بعضها الأعلى عليـه، وببعض أغصانهـا على منكبيَّ، وكنتُ عن يمينه، فلما نـظرَ القومُ إلى ذلـك قالـوا علوّاً واستكباراً: فمُـرْها فليأتِكَ نصفُها ويبقَى نصفُها، فأمرها بذلك فأقبلَ نصفُها كأعجبِ إقبالٍ وأشدِّهِ دويّاً، فكادتْ تلتفُّ برسولِ اللَّهِ ﷺ، فقالوا كفراً وعتـوّاً: فمُرْ هـذا النِّصفَ فليرجـعْ إلى نصفِـهِ كما كـان، فأمـرَهُ فرجـعَ، فقلتُ أنـا: لا إلّـه إلَّا اللَّه، فـأنـا أوَّل مؤمنٌ بـك يا رسولَ اللَّه، وأوَّلُ مَنْ أقـرَّ بأنَّ الشجـرة فعلتْ ما فعلتْ بـأمرِ اللَّهِ تعـالى تصديقـاً لنبوَّتِكَ، وإجلالاً لكلمتِكَ، فقال القومُ كلُّهم: بـلْ ساحِـرٌ كذَّابٌ، عجيبُ السِّحْـرِ خفيفٌ فيه، وهل يصدِّقُكَ في أمرِكَ هذا إلَّا مثل هذا ـ يعنوني ـ[1] وهذا حكاه خطيباً على الأشهـاد، وقلَّ أن يخلو جمـعٌ مثلُهُ ممن يعرف حقَّ ذلـك من باطلِهِ، فكـانُـوا بالموافقة مجمعين على صحتِهِ، ولولاهُ لظهرَ الرَّدُّ وإن نَدَر، وهذا من أبلغ آية وأظهر إعجازٍ له.

ومن آيـاته ﷺ: مـا رواه عبد اللَّه بن بـريدة عن أبيـه قال: جـاء أعرابي إلى رسولِ اللَّه ﷺ فقال: يا محمد! هل من آيةٍ فيما تدعو إليه؟ قال: (نعم، ائتِ تلكَ الشجرةَ فقُلْ لها: رسولُ اللَّه ﷺ يدعُوكِ)، فمَالَتْ عن يمينها ويسَارِها وبينَ يديها، فتقطَّعتْ عُروقُها، ثم جاءت تَخُدُّ الأرضَ حتَّى وقفتْ بينَ يديهِ، فقال الأعرابي: مُرْهَا لترجعَ إلى منبتِها، فأمرَها فرجعتْ إلى منبتها، فقـال الأعرابي: ائـذَنْ لي أن أسجدَ لك؟! فقال: (لو أمرتُ أحداً أن يسجدَ لأحدٍ لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها)، قال: فائذَنْ لي أن أُقبِّلَ يديك ورجليك فأذِنَ لهُ[2].

= حتى قامت بين يديهِ، فاسْتَشْهَدَهَا ثلاثاً: من أنا؟ وتقول: أنت رسول اللَّه!!] فشهدتْ ثلاثاً أنَّه كما قـال!! ثم رجعتْ إلى منبتها!! وهـذه الروايـة في مشكاة المصابيح بـرقم ٥٩٢٥، وصححها الشيخ محمد ناصر الدِّين الألباني.

(١) هذا الخبر كما سبقت الإشارة إليه، لا أصل له في كتب الحديث، وهو من نسج القُصَّاص.

(٢) هذا الحديث أخرجه أبو نعيم في دلائل النُّبوَّة برقم ٢٩١ وليس فيه قوله: فائـذن لي أن أقبِّلَ =

ومن آياته ﷺ : ما رواه يَعْلَى بن شبابة قال: كنتُ مع رسول اللّه ﷺ في مسيرٍ فأراد أن يقضي حاجتَه فأمرَ وديَّتين فانضمَّتْ إحداهما إلى الأخرى ثم أمرَهُمَا بعد قضاء حاجته أن يَرْجِعَا إلى منبتِهِمَا فرجعَتَا[1].

ومن آياته ﷺ : ما رواه علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه قال : كُنَّا مع رسولِ اللّهِ ﷺ في مكَّةَ فخرجَ في بعضِ نواحِيها فما استقبلَهُ شجرٌ ولا جبَلٌ إلاَّ قال : السَّلامُ عليكَ يا رسولَ اللّه!![2].

ومن آياته ﷺ : أنه مرَّ في غزوة الطائف في كثيف من طلْحٍ ، فمشَى وهو وَسِنٌ من النَّوم، فاعترضتْهُ سِدْرَةٌ فانفرجت السِّدْرَةُ له بنصفين فمرَّ بينَ نصفيها، وبقيت السِّدرةُ منفرجةً على ساقين إلى قريب من أعصارِنَا هذه، وكانت معروفةً بذلك في مكانِها يَتبرَّكُ بها كلُّ مارٍّ، ويسمونها سِدْرَةُ النَّبيِّ ﷺ[3].

= يديك ورجليك، فأذن له. وفي إسناده صالح بن حيان، وذكره الحافظ الذهبي في المغني في الضعفاء ج ٣٠٣/١ رقم ٢٨٢٣ : قال النسائي وغيره: متروك. فهذه الرواية بهذا اللفظ واهية. ويُغني عنها ما ذكرته قبلُ بإسنادٍ صحيح.

(١) أخرج هذا الحديث الإمام مسلم في صحيحه برقم ٣٠٠٦ بلفظ أطول من هذا عن جابر قال: سِرْنا مع رسول اللّه ﷺ حتى نزلنا وادياً أفيَح - أي واسعاً - فذهب رسول اللّه ﷺ يقضي حاجته، فلم يَرَ شيئاً يستترُ به، وإذا شجرتين بشاطىء الوادي، فانطلق رسول اللّه ﷺ إلى إحداهما فأخذ بغصنٍ من أغصانها، فقال: (انقادِي عليَّ بإذن اللّه) فانقادتْ معه كالبعير المخشوش - السريع الانقياد - الذي يُصانع قائِدَهُ، حتى أتى الشجرة الأخرى، فأخذ بغصنٍ من أغصانها، فقال: (انقادِي عليَّ بإذنِ اللّه)، فانقادت معه كذلك، حتى إذا كان بالمنصَف ممّا بينهما قال: (التئِمَا عليَّ بإذنِ اللّه) فالتأَمَتَا، فجلستُ أحدِّثُ نفسي، فحانتْ مني لفتةٌ فإذا برسول اللّه ﷺ مقبلاً، وإذا بالشجرتين قد افترَقَتَا كلُّ واحدةٍ منهما على ساقٍ!!.

(٢) في هذا أحاديث متعدّدة أخرجها مسلم في صحيحه ج ٥٨/٧، والدارمي في سننه برقم ٢٠، والترمذي في سننه برقم ٣٦٢٨، وأبو داود الطيالسي برقم ٢٤٥٠، وابن أبي شيبة في مصنفه برقم ١١٧٥١، وأبو نعيم في دلائل النبُوَّة برقم ٣٠٠ و٣٠١.

(٣) هذا الخبر غير صحيح، بل لا أصل له في كتب الحديث والسيرة، وهو أشبه بأخبار القُصَّاص، ولقد ثبت أن رسول اللّه ﷺ أمر بقطع شجرة تُعرف بـ «ذات أنواط» كان =

ومن آياته ﷺ: ما رواه سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة قال: صعَدَ النَّبيُّ ﷺ حِـرَاءَ ومعه أبـو بكر وعمـر وعثمان وعليٌّ وعبـد الرحمن والـزبير وطلحـة وسعيد، فتحرَّكَ الجبَلُ، فقال النَّبيُّ ﷺ: (اسْكُنْ حِرَاء فليسَ عليك إلَّا نبيٌّ أو صدِّيقٌ أو شهيدٌ)، فسَكَنَ الجبَلُ[1].

ومن آياته ﷺ: ما رواه جابرُ بنُ عبد اللَّه قال: كان في رسول اللَّه ﷺ خصالٌ لم يكن يمرُّ في طريق فيتبعه أحدٌ إلَّا عَرفَ أنَّه قد سلكه من طيبِ عُرْفِهِ، ولم يكن يمرُّ بحجرٍ ولا شجرٍ إلَّا سجدَ لهُ[2].

ومن آياته ﷺ: ما رواه ثابت عن أنس قال: كنَّا عندَ رسول اللَّه ﷺ فأخذَ كفَّاً من حَصًا فسبَّحْنَ في يدهِ، حتى سمعنَا التَّسبيح، ثم صبَّهُنَّ في يد أبي بكرٍ فسبَّحْنَ في يدهِ، حتى سمعنَا التَّسبيحَ، ثم صبَّهُنَّ في أيدينَا فما سبَّحنَ في أيدينا[3].

= المشركون يُعظمونها، ويعلِّقون عليها أسلحتهم وأرديتهم للدُّخول إلى الحرم، وكانت بين حُنين ومكة. ففي مسند أحمد ج ٥/٢١٨، والترمذي رقم ٢١٨٠ عن أبي واقد الليثي... قالوا: يا رسول اللَّه اجعلْ لنا ذاتَ أنواط، كما لهم ذات أنواط، فقال النبي ﷺ: (سبحان الله ـ وعند أحمد: الله أكبر ـ هذا كما قال قوم موسى: اجعل لنا إلَهاً كما لهم آلهة، والذي نفسي بيده لتركبُنَّ سُنَّةَ من كان قبلكم)! وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، فصاحب خبر «سدرة النبي» ممَّن عناهم رسول اللَّه ﷺ بقوله هذا، نعـوذ باللَّه من الضـلال. والعجب من المؤلف كيف يذكر هذا الخبر الباطل!!.

(١) هذا الحديث أخرجه مسلم في صحيحه في فضائل الصحابة ٤٩، وأحمد ج ١/١٨٨، وفي روايـة البخـاري ج ٥/١٩، بلفظ: (اسكنْ أُحُـد فليس عليـك إلا نبي..)، وفي روايـة الترمذي: (اسكنْ ثبير فإنَّما عليك نبي..) رقم ٣٧٠٣، والنسائي ج ٦/٢٣٦.

(٢) سلام الحجر والشجر ورد في روايات متعدِّدة، أما سجودها له، فلم يثبت في رواية يُعتدُّ بها. ففي صحيح مسلم برقم ٢٢٧٧ عن جابر بن سَمُرَة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: (إنِّي لأعـرف حجراً بمكـة كـان يُسلِّمُ عليَّ قبلَ أن أُبعث، إنِّي لأعـرفُهُ الآن)، وأخـرجـه التـرمـذي برقم ٣٦٢٨.

(٣) أخرجه البخاري ج ٤/١٥٥ وج ٤/١٥٦، والترمـذي ج ٢/٨ وج ٥/٢٥٤، والبيهقي في دلائل النُّبوَّة ج ٢/٥٥٦.

ومن آياته ﷺ: ما رواه جابر بن سمرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: (إنِّي لأعرفُ حَجَراً من مكَّةَ كانَ يُسلِّم عليَّ)[1].

ومن آياته ﷺ: أنَّ عُكَاشَةَ بنَ مُحْصِنٍ انقطعَ سيفُهُ بيدِهِ يومَ بدرٍ فدفعَ إليه رسولُ اللَّه ﷺ قطعةً من خَشَبٍ وقال: قاتِلْ بها الكفارَ يا عُكَاشة، فتحوَّلتْ سيفاً في يدِهِ، فكان يُقاتِلُ به حتى قتلَهُ طُلَيْحَةُ في الرِّدَّةِ[2].

ومن آياته ﷺ: أنَّه كان يخطبُ إلى جِذْعٍ كان يستنِدُ إليه، فلمَّا اتخذَ منبراً تحوَّلَ عن الجذع إليه، فَحَنَّ إليهِ الجِذْعُ حتَّى ضَمَّهُ إليه فسَكَنَ[3]!!.

ومن آياته ﷺ: أنَّ مكرزاً العامريَّ أتَاهُ فقال: هل عندكَ من برهانٍ نعرفُ به أنَّك رسولُ اللَّه ﷺ؟ فدعا بتسعِ حصَيَاتٍ فسبَّحنَ في يدِهِ، فسمِعَ نغماتِهَا من جمودتها[4]، وهذا أبلغُ من إحياء عيسى للموتى.

ومن آياته ﷺ: أنَّه لمَّا حَاصَرَ الطائفَ سَمُّوا له جَذْعَةً فكلَّمَهُ منها الذِّراعُ، فقالتْ: لا تأكلني فإنِّي مسمومة[5]، وهذا نظير إحياء الموتَى.

ومن آياته ﷺ: أنَّه أوَّل ما أوحي إليه لم يمرَّ بحجرٍ ولا مَدَرٍ إلاَّ سلَّمَ عليه بالنُّبوَّة[6]، ....

---

(١) تقدم تخريجه قبل هذا، وله رواية أخرى في صحيح مسلم رقم ٢٢٧٧.

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل ج ٣/٩٨ - ٩٩، وكان يُسمَّى ذلك السيف: القويّ!! ورواه ابن هشام في السيرة ج ٢/٢٧٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ج ٤/١٦٨.

(٤) هذا الخبر غريب لم أجده في كتب الحديث، ومكرز ذكره ابن حجر في الإصابة ولم يذكر هذا الخبر. وقد ثبت حديث تسبيح الحصى في يد رسول اللَّه ﷺ، ذكره الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد ج ٥/١٧٩ وج ٨/٢٩٨ - ٢٩٩، وأبو نعيم في الدلائل رقم ٣٣٨ و ٣٣٩.

(٥) حديث الشاة المسمومة أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب المغازي ٤١، والهبة ٢٨، ومسلم في كتاب السلام ٤٢، وأبو داود في كتاب الديات ٦، وابن ماجه في الطب ٥، وأحمد في مسنده ج ١/٣٠٥، ٣٧٣.

(٦) حديث تسليم الحجر عليه ﷺ في صحيح مسلم ج ٧/٥٨، وسنن الدارمي رقم ٢٠، وسنن =

وهذا نظير قول اللّه تعالى لداود: ﴿يا جِبَالُ أوِّبي معَهُ والطَّير﴾[1].

ومن آياته ﷺ: ما رواه حمزةُ بن عمرو الأسلمي قال: نفرنَا مع رسول اللّه ﷺ في ليلة ظلماء فأضاءتْ أصابِعُهُ[2].

ومن آياته ﷺ: ما رَوَاهُ إبراهيمُ عن علقمةَ عن عبدِ اللّه بنِ مسعودٍ قال: إنَّكم تعدُّون الآياتِ عذاباً وإنَّا كُنَّا نعدُّها على عهد رسولِ اللّهِ ﷺ بركةً، لقد كنَّا نأكلُ مع رسول اللّه ﷺ الطَّعامَ ونحنُ نسمعُ تسبيحَ الطَّعامِ[3].

فإن قيل: فقد يجوز أن يتخيَّلَ[4] ذلك للنَّاظر كما يتخيَّلُ لراكبِ السَّفينةِ سَيْرُ النَّخلِ والشَّجرِ، فعنْهُ جوابان:

أحدُهما: أنه وإن تخيَّلَ ذلك لراكبِ السَّفينة فهو غير متخيَّل لغيرِهِ من قائم وقاعد، وهذا متحقِّقٌ عندَ كلِّ مُشاهِدٍ على اختلافِ أحواله.

والثاني: أنَّ راكبَ السَّفينة يعلم أنَّه تخيُّلٌ له غيرُ معلومٍ، وهذا معلومٌ غير متخيَّلٍ.

وإن قيلَ: فقد يجوز أن يكون في خواصِّ الجَواهِرِ ما يجذب النَّخلَ والشَّجَر كما في خاصِّ حجرِ المغناطيس أن يجذب الحديدَ فعنْهُ جوابان:

أحدُهما: أنَّه قد عُلِمَ خاصية حجر المغناطيس وظهرَ ولم يعلمْ ذلك في غيره، فلم يُوجدْ ولو كان ذلك موجوداً لكان الملوك عليه أقدر، ولكان مَذْخُوراً في خزائنهم

= الترمذي رقم ٣٦٢٨، وابن أبي شيبة رقم ١١٧٥١، ومسند أبي داود الطيالسي برقم ٢٤٥٠.

(١) سورة سبأ، الآية ١٠.

(٢) ذكر هذا الخبر الحافظ السيوطي في الخصائص الكبرى ج ٢/٨١، وعزاه إلى البخاري في تاريخه، والبيهقي وأبي نعيم.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ج ٤/٢٣٥، والترمذي ج ٥/٥٩٧ وقال: حديث حسن صحيح، وأحمد في مسنده ج ١/٤٦٠.

(٤) هذه التخيلات ساقطة أمام التصديقات بكل ما ثبت من الآيات والمعجزات، فكان الأولى بالمؤلف رحمه اللّه تعالى إسقاطها وعدم إشغال الفكر بسخافتها.

كـادِّخارِ كـلِّ مستغرَبٍ ومستـطرَفٍ، ولجازَ ادِّعـاءُ مثلِهِ في قلبِ الأعيـان، وإبـطال الحقائق.

والثاني: أنَّه لو كان ذلك لخاصية الجوهر جاذباً كان بظهورهِ جاذباً وبملاقاته للنخل والشجر فاعلاً، ولا ينقلُ إليه من غيره، وكل هذا فيه معدومٌ وإن كان في حجرِ المغناطيس موجوداً.

في بشائر الأنبياء عليهم السلام بنبوته صلى الله تعالى عليه وسلم

إنَّ اللَّه تعالى عوناً على أوامرِهِ، وإغناءً عن نواهيه، فكان أنبياءُ اللَّه تعالى مُعَانِيْنَ على تأسيسِ النُّبوَّةِ بما تقدمه من بشائرها وتبديه من أعلامها وشعائرها؛ ليكون السَّابقُ مبشِّراً ونذيراً، واللاحقُ مصدِّقاً وظهيراً، فتدومُ بهم طاعةُ الخلق وينتظمُ بهم استمرارُ الحَقِّ. وقد تقدَّمتْ بشائرُ مَنْ سَلَفَ من الأنبياء بنبوَّة محمَّد ﷺ ممَّا هو حُجَّةٌ على أُمَمِهِمْ ومعجزةٌ تدلُّ على صدقِهِ عندَ غيرهم بما أطلعه اللَّهُ تعالى على غيبِهِ؛ ليكونَ عوناً للرسول وحثّاً على القبول[1].

فمن ذلك بشائر موسى عليه السَّلام في التوراة: فأولها: في الفصل التَّاسع من السفر الأول: «لمَّا هربتْ هاجرُ من سارة تراءَى لها مَلَكٌ، وقال: يا هاجر أَمَةَ سارة ارجعي إلى سيدتك فاخضعي لها، فإنَّ اللَّه سيكثرُ زَرْعَكِ وذريَّتَكِ حتى لا يحصون كثرة، وها أنت تحبلين وتلدين ابناً وتسمِّيهِ إسماعيل لأنَّ اللَّه تعالى قد سمعَ خشوعَكِ، وهو يكونُ عينَ النَّاسِ، وتكون يدُهُ فوقَ الجميع، ويَدُ الجميع مبسوطةً

(١) لقد أيَّدَ اللَّهُ تبارك وتعالى رسوله محمداً ﷺ بالآيات الدَّالَّة على صدق نبوَّته، وصحة رسالته، بعدد ما تلا من القرآن العظيم، فكل آية فيه دالَّة على ذلك!! وبعدد ما نطق من الحكمة، فكل حديث قاله رسول اللَّه ﷺ دالّ على ذلك!! وبعدد سجاياه وأخلاقه التي يعجز البشر عن الاتصاف بها جميعها!! وبعدد المعجزات الخارقة التي أجراها اللَّهُ تعالى له وعلى يديه الكريمتين، التي بلغت المئات!! كل ذلك برهان من اللَّه سبحانه وتعالى على أنَّ «محمداً» «رسول اللَّه»!!.

إليه بالخضوع»[1]، وهذا لم يكن في ولد إسماعيل إلاَّ رسولُ اللَّه ﷺ؛ لأنَّهم كانوا قبلَهُ مقهورين فصَارُوا به قاهرين.

ومنها: قوله في هذا السِّفْر لإبراهيم حين دَعَاهُ في إسماعيل: «وباركتُ عليه وكثَّرته وعظَّمته جداً جداً، وسيلد اثني عشر عظيماً وأجعله لأُمَّةٍ عظيمة»[2] وليس في ولد إسماعيل مَنْ جعله لأُمَّةٍ عظيمةٍ غيرُ محمَّدٍ ﷺ.

ومنها: في الفصل الحادي عشر من السِّفْر الخامس عن موسى عليه السَّلام: «إنَّ الرَّبَّ إلَهُكُمْ قال: إنِّي أُقيمُ لهـا نبيّاً مثلكَ من بينِ أخـوتِهم أجعل كـلامي على فمِهِ، فأيُّما رجلٍ لم يسمعْ كلماتي التي يؤديها عنِّي ذلك الرجل بـاسمي فأنـا أنتقِمُ منهُ»[3]. ومعلومٌ أنَّ أخا بني إسرائيل هو بنُو إسمـاعيل، وليس منهم من ظهـر كلامُ اللَّه تعالى على فمهِ غيرُ محمَّدٍ ﷺ.

ومنها: في الفصل العشرين من هذا السفـر: «أنَّ الرَّبَّ جـاء من طُوْرِ سَيناءَ وأشرقَ من ساعير واستعلَى من جبال فاران، ومعه عن يمينه ربواتُ جيشِ القدِّيسين

---

(١) سفر التكوين، الإصحاح ١٦/٨ ـ ١٢، ونقل شيخ الإسلام ابن تيمية في الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح ج ٣/٣٠٥ عن ابن قتيبة وغيره.. في التوراة، قال فيها: «وغدا إبراهيم فأخذ الغلام، وأخذ خبزاً وسقاءً من ماءٍ، ودفعه إلى هاجر، وحمله عليها، وقال لها: اذهبي، فانطلقت هاجر فضلَّت في بريَّة سبع، ونفد المـاء الذي كـان معها، فـطرحت الغلام تحت شجرة وجلست في مقابلته على مقدار رمية سهم، لئلا تبصـر الغلام حين يمـوت، ورفعت صوتها بالبكاء، وسمع اللَّه صوت الغلام، فدعا مَلَكُ اللَّهِ هاجر، وقال لها: ما لَكِ يا هاجر؟ لا تخشَيْ فإنَّ اللَّه قد سمع صوت الغلام حيث هو، فقومي فاحملي الغلام، وشُدِّي يـديك بهِ، فإنِّي جاعله لأمَّةٍ عظيمة». «وفتح اللَّه عينها، فبصـرت بئرَ مـاءٍ، فسقت الغلام ومـلأت سقاءَها، وكان اللَّهُ مع الغلام، فرَبِيَ وسكنَ في برية فاران». قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فهذا خبر اللَّه في التوراة أن إسماعيـل رُبِّيَ وسكن في بريـة فاران، بعـد أن كاد يمـوت من العطش، وأن اللَّه سقاه من ماء بئر، وقـد علم بالتـواتر واتفـاق الأمم أنَّ إسماعيـل إنَّما رُبِّيَ بمكة، وهو وأبوه بنيَا البيت، فعلم أن أرض مكة من فاران.

(٢) سفر التكوين: ١٧/٢٠، وفي نسخة: «وأجعله لشعب كبير»، وأخرى: «وأجعلة أمةً كبيرةً»، وفي كتب الشريعة الخمسة: «وأجعله أمة عظيمة» ص ٩٢.

(٣) سفر التثنية: ١٨/١٥ ـ ٢٢، ونصُّه قريب منه جداً.

فمنحهم إلى الشعوب، ودَعَا لجميع قدِّيسيه بالبركة»[1]، فمجيءُ اللَّه تعالى من طور سيناء هو إنزاله التوراة على موسى، وإشراقه من ساعير إنزاله الإنجيل على عيسى لأنَّه كان في ساعير أرض الخليل في قرية «ناصرة» واستعلاؤُهُ من جبال فَارَان إنزَالُهُ القرآنَ على محمَّدٍ ﷺ، وفاران هي جبالٌ في مكة في قولِ الجميع، فإن ناكروا كان دفعاً لِما في التوراة، ولأنَّه لم يستعل الدِّين كاستعلائه منها، فاندفَعَ الإنكارُ بالعِيان[2].

(فصل من البشائرية) كان بين موسى وعيسى من الأنبياء الذين أوتوا الكتاب باتفاق أهل الكتابين عليهم ستة عشر نبياً ظهرت كتبهم في بني إسرائيل فبشَّر كثير منهم بنبوة محمد صلّى الله تعالى عليه وسلم.

فمنهم أشعيا بن آموص[3]. قال في الفصل الثاني والعشرين: (قومي فأزهري[4]

---

(1) سفر تثنية الاشتراع: ٣٣/١ ـ ٣، نسخة جمعية الكتاب المقدس ص ٢٥٧، ونسخة واطس ص ٢٥٤.

(2) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الجواب الصحيح ج ٣/٣٠٠: «وكما وجب أن إشراقه من ساعير بالمسيح، فكذلك يجب أن يكون استعلاؤه من جبال فاران، إنزالَهُ القرآن على محمد ﷺ!! وجبال فاران هي جبال مكة. قال ـ أي: ابن قتيبة ـ وليس بين المسلمين وأهل الكتاب خلاف في أنَّ فاران هي مكة، فإنِ ادعوا أنها غير مكة، فليس يُنكر ذلك من تحريفهم وإفكهم. قلنا: أليس في التوراة أن إبراهيم أسكن هاجر وإسماعيل فاران؟ وقلنا: دلُّونا على الموضع الذي استعلَنَ اللَّهُ منه، واسمه فاران، والنبيُّ الذي أنزل عليه كتاباً بعد المسيح، أو ليس «استعلَنَ» و «عَلَنَ» هما بمعنًى واحد؟ وهو ما ظهر وانكشف. فهل تعلمون أنَّ ديناً ظهر ظهور الإسلام، وفشَا في مشارق الأرض ومغاربها فشوَّهُ؟!!.

(3) هو أشعيا بن آموص. أحد أنبياء بني إسرائيل. له في الكتاب المقدس عند النصارى سفر بعنوان «نبوءة أشعيا». وبالرجوع إلى طبعة المطبعة الكاثوليكية، الموجودة في هذا العصر بأيدي الناس، لا نجد في الفصل الثاني والعشرين الكلام الذي نقله المؤلف. ولكننا نجد النص بلفظ مختلف قليلاً في مطلع الفصل الستين. والاختلاف يعود لاختلاف الترجمة الحديثة وتصنيفها، عن الترجمة التي كانت متداولة في عهد المؤلف.

(4) أزهري مصباحك: أي أضيئيه. وفي النص الحديث: «قومي استنيري فإن نورك قد وافى ومجد الرب أشرق عليك».

مصباحك) يعني مكة (فقد دنا وقتك وكرامة الله طالعة عليه فقد تجلل الأرض الظلام وغطى على الأمم الضباب والرب يشرق عليك إشراقاً ويظهر كرامته عليك، فتسير الأمم إلى نورك والملوك إلى ضوء طلوعك، ارفعي بصرك إلى ما حولك، وتأملي فإنهم يستجمعون عندك ويحجون ويأتيك ولدك من بلد بعير، وتسرين وتبتهجين من أنه يميل إليك ذخائر البحر ويحج إليك عساكر الأمم حتى تغمرك الإبل المؤبلة وتضيق أرضك عن القطرات التي تجمع إليك، ويساق إليك كباش مدين، ويأتيك أهل سبأ يحدِّثون بنِعَمِ الله ويمجدونه وتسير إليك أغنام قاذار) يعني غنم العرب، لأنهم من ولد قاذار ابن إسماعيل (ويرتفع إلى مديحي ما يرضيني وأحدث حينئذٍ لبيت محمدتي حمداً) وهذه الصفات كلها موجودة بمكة فكان ما دعا إليها وهو الحق ومن قام بها هو المحق.

وفي فصل آخر من كتابه: (قال لي الربُّ فامضِ فأقمْ على المنظرة تخبرك بما ترى فرأى راكبين: أحدهما راكب حمار) يعني عيسى: «والآخرُ راكبُ جملاً» يعني محمّداً «فبينما هو كذلكَ إذْ أقبل أحدُ الراكبين وهو يقول هَوَتْ بل بلُ وتكسَّرتْ آلهتُهَا المنجورة على الأرض، فهذا الذي سمعتُ الرَّبَّ إلَه إسرائيلَ قد أنبأتُكُم»[1].

وفي الفصل السادس عشر منه: «لتفرحِ الأرضُ الباديةُ العطشَى بمنتهج البراري والفَلَوات، ولتسرَّ وتزهوَ مثل الوعلِ فإنَّها بأحمد محاسن لبنان، ويكمل حُسْنُ الدَّساكِرِ والرِّياض وسترون جَلاَلَ اللَّهِ تعالى بها»[2].

قال شعيا: وسلطانُهُ على كتفِهِ[3]، يريدُ علامةَ نبوَّتِهِ على كتفِهِ. وهذه صفةُ محمَّدٍ ﷺ وباديةِ الحِجاز!!.

---

(١) الجواب الصحيح ج ٣/٣٢٣، وإشعيا: ٢١/٦ ـ ٧، ط. الكتاب المقدس، مع ترجمة طبعة واطس.

(٢) سفر إشعيا: الإصحاح الخامس والثلاثون ١ ـ ٢.

(٣) إشعيا: ٩/٦.

وفي الفصل التاسع عشر منه: «هَتَفَ هاتفٌ من البَدْوِ فقالَ: خلُّوا الطريق للرَّبِّ وسهِّلُوا سبيلَ إلّهنا في القفز، فستمتلىء الأودية مِيَاهَاً وتفيضُ فيضاً وتنخفض الجبالُ والرَّوابي انخفاضاً وتصيرُ الآكام دكاً دكاً، والأرضُ الوعرة مذلَّلةً مَلْسَا، وتظهر كراماتُ الرَّبِّ ويَرَاها كلُّ أحدٍ»(1).

وفي الفصل العشرين منه وهو مذكورٌ في ثلاثٍ وخمسين ومائة من مزامير داود: «لِتَرْتَاحَ البَوَادِي وقُرَاها، ولتصيرَ أرضُ قَاذَار مُرُوجاً، ويسبح سُكَّانُ الكهُوفِ ولتهتفوا من قلالِ الجبالِ بحمدِ الرَّبِّ، وليرفعوا تسابيحه، فإن الرَّبَّ يأتي كالجبارِ الملتظى المتكبِّرِ، وهو يَزْجُرُ ويقتلُ أعداءَهُ»(2) وأرضُ قاذَارَ هي أرض العرب لأنَّهم ولد قاذار، والمروجُ: ما صَارَ حول مكَّة من النَّخل والشجر والعُيُون.

وفي الفصل الحادي والعشرين منه أيضاً: «أنَّ الضُّعفاء والمساكين يستسقون ماءً، ولا ماء لهم، فقد جفت ألسنتُهم من الظمأ وأنا الرَّبُّ أجيبُ يومئذٍ دعوتَهم، ولنْ أهمِلَهُمْ بلْ أفجِّرُ لهم في الجبال الأنهارَ وأجري بين القِفار العيون وأحدث في البدو أجساماً وأجري في الأرض العطشى ماءً معيناً وأنبتُ في البلاقع القِفار الصَّنوبر والآس والزيتون، وأغرسُ في القاعِ الصَّفْصَف البر؛ ليروها جميعاً ثم يتدبروا ويعلموا أنَّ يَدَ اللَّهِ صنعتْ ذلك، وقدوس إسرائيل ابتدعَهُ»(3). وهذه صفاتُ بلاد العرب فيما أحدثَ اللَّه تعالى لهم فيها بإسلامهم!!].

فصل:

[ومن بشائر نوال بن نوتال من أنبياء بني إسرائيل]

«مثلُ الصبح المسلَّطِ على الجبالِ شعبٌ عظيم عزيزٌ لم يكنْ مثلُهُ قطُّ، ولا يكون بعدَهُ مثلُهُ إلى أبد الأبد، أَمَامَهُ نارٌ تتأجَّجُ، وخلفَهُ لهيب، وتلتهب الأرضُ

---

(1) إشعيا: ٤/٣ ـ ٥.

(2) إشعيا: ٤٢/١٠ ـ ١٣.

(3) إشعيا: ٤٣/١٩ ـ ٢١ و ٤٤/٣ ـ ٤.

بين يديه مثلَ فردوس عَدَن، فإذا جاز فيها وعبرَها تركها بريَّةً خاوية، رؤيتُه كرؤيةِ الجبلِ رجالتُهُ فرسراعُ مثل الفرسان، أصواتهم كصوت لهب النَّار الذي يحرق الهشيم، رجفت الأرضُ أمامَهُمْ، وتزعزعت السماء وأظلمتِ الشَّمسُ، وغابَ نورُ النُّجوم، والرَّبُّ أسمع صوتاً بين يدي أجناده، لأنَّ عسكرَهُ كثيرٌ جداً، وعملُ قولِهِ عزيزٌ لأنَّ نورَ الرَّبِّ عظيمٌ مرهُوبٌ جداً»[1]، وهذا نعتُ رسولِ اللَّه ﷺ!!.

فصل:

[من بشائر عُوَيْدِيَا
من أنبياء بني إسرائيل]

وفي كتابه: «قد سمعنَا خبراً من قِبَلِ الرَّبِّ، وأرسل رسولاً إلى الشعوب ثم يتقدَّم إليه بالحرب أيها الساكن في بحر الكهف ومحله في الموضع الأعلى لأنَّ يومَ الرَّبِّ قريبٌ من جميع الشعوب»[2] فهذا مَرْمُوزٌ في نبوَّته.

فصل:

[من بشائر ميخاء
من أنبياء بني إسرائيل في كتابه]

«فأمَّا الآن فسيتسلم إلى الوقت الذي تلد فيه الوالدة، ويقومُ فيرعَاهُم» يعني الرَّبُّ «وبكرامة اسم اللَّه ربِّه ويقبلون بهم إلى من سيعظُمُ سلطانُهُ إلى أقطارِ الأرضِ، ويكونُ على عهدِهِ الإسلام»[3]!!.

---

(١) سفر يوئيل الإصحاح الثاني ١ ـ ١٢ مع اختلاف يسير في الترجمة.

(٢) سفر عوبديا ١ و ٢ و ٣ و ٤.

(٣) في ترجمة طبعة واطس ١ ـ ١٨٣: «... وهذا يكون سلاماً».

فصـل :

[من بشائر حبقُوق
من أنبياء بني إسرائيل]

«جاء اللَّه من طورِ سَيْنَاءَ واستعلن القدوسُ من جبـالِ فَارَان وانكسفت لبهـاء محمَّدٍ، وانخسفت من شعاع المحمود، وامتلأتِ الأرضُ من مَحامِدِهِ، لأنَّ شعـاعَ منظرِهِ مثلُ النُّورِ يحفظُ بلده بعده وتسير المنَايَا أمامه، وتصحَبُ سباعُ الطير أجنادَهُ، قام فمسح الأرض وقابلَ الأُمم، وبحث عنهم فتَصَفْصَفَتِ الجبالُ القديمة واتضعتِ الرَّوابي الدهرية وتزعزع سور أرض مَدْين، ولقد جازَ المساعي القديمة، قطع الرأس من حب الأثيم، ودُمغت رُؤوسُ سَـلَاطِينهُ بغضبـه»[1]. ومعلوم أنَّ محمَّداً وأحمـدَ ومحموداً صريحٌ في اسمهِ، وهما يتوجَّهان إلى من انطلقَ عليه اسم «المحمَّد» وهو بـالسِّريـانيَّة مـوشيحا، أي محمَّـد، ومحمود، ولهـذا إذا أراد السريـاني أن يحمـدَ اللَّه تعالى قال شريحاً: لإلَهِنَا.

فصـل :

[من بشائر حزقيال
من أنبياء بني إسرائيل]

في كتابه: «إنَّ الَّـذي يظهـر من الباديـة فيكون فيـه حتفُ اليهود، كـالكرمـة أخْرَجَتْ ثمارَهَا وأغصَانَها عن مياهٍ كثيرةٍ، وتفرعتْ منها أغصان مشرقة على أغصان الأكابر والسادات، وبسقت فلم تلبثْ تلك الكرمة أن قُلِعَتْ بالسُّخطة، وضرب بهـا

---

(1) حبقوق: ٣/٣ ـ ٨، وترجمتها: «اللَّه جاء من تيماء والقدوس من جبل فاران. سلاه. جلاله غطى السموات، والأرض امتلأت من تسبيحه» وما أثبته شيخ الإسلام ابن تيمية عن الترجمة القديمة أضبط: «جاء اللَّه من التيمن، وظهر القدس على جبال فاران، وامتلأت الأرض من تحميده «أحمد» وملك بيمينه رقاب الأمم. .» الجواب الصحيح ج ٣/٣١٢ ـ ٣١٣.

على الأرض، فأخرجت ثمـارَهَا وأتَتْ نـارٌ فأكلَتْهـا، فكذلـك غرس في البـدو وفي الأرض المهملة المعطلة العطشَى، وخرج من أغصانهِ الفاضلة نارٌ فأكلت ثمارَ تلك، حتَّى لم يبقَ منها عَصَاً قويَّةٌ ولا قضيب ينهض بأمر السلطان»[1].

فصـل:

[من بشائر صفينا من أنبياء بني إسرائيل]

في كتابه: «أيُّها النَّاسُ ترجُوا اليوم الَّذي أقومُ فيه للشهادة، فقد حَانَ أن أظهر حكمي بحشر الأمم وجميع الملوك، لأصبَّ عليهم سَخَـطِي وتكبُّري، هنـا أُجَـدِّدُ للأُمَمِ اللُّغةَ المختارة، ليرفعـوا اسمَ الرَّبِّ جميعـاً، وليعبدُوه في ربقـةٍ واحدةٍ معـاً وليأتُوا بالذبائح من مغَـارَاتِها تكـون»، ومعلوم أنَّ اللُّغة العـربية هي المختـارة لأنَّها طبقت الأرض وانتقلت أكثر اللُّغات إليها حتَّى صارَ ما عَدَاهَا نادراً[2].

فصـل:

[من بشائر زكريا بن يوحنا من أنبياء بني إسرائيل]

في كتابه: «رجعَ المَلَكُ الَّذي ينـطق على لساني وأيقـظني كالـرجلِ الَّـذي يستيقظ من نومِهِ وقال لي: ما الَّذي رأيت، فقلتُ: مَنارَةٌ من ذهبٍ وكفَّةٌ على رأسها، ورأيت على الكفَّة سبعة سُرُج لكل سِـرَاج منها سبعـةُ أفواهٍ، وفـوقَ الكفَّةِ شجـرتا زيتون إحداهما عن يمين الكفَّة، والأخرى عن يسارِهـا، فقلتُ للمَلَكِ الَّذي ينـطق على لساني: ما هذه يا سيِّدي؟ فردَّ المَلَكُ عليَّ وقال لي: أمَا تعلمُ ما هذه؟ فقلتُ:

---

(١) حزقيال: ١٩/١٠ ـ ١٤، ونص ترجمة طبعة واطس قريبة منها.

(٢) سفر صفنيا: ٣/٨ ـ ١٠، مع تقارب كبير في المعنى.

ما أعلم، فقال لي: هذا قول الرَّبِّ في زربابال» يعني محمَّداً «وهو يُدْعَى باسمي وأنا أستجيبُ له للنُّصح والتَّطهير، وأصرفُ عن الأرض أنبياءَ الزُّور، والأرواحَ النَّجِسَة لا بقوَّةٍ ولا بعزٍّ ولكنَّ بروحي، بقول الرَّبِّ القويِّ»[1] ويعني بشجرتي الزيتون، الدِّينُ والمَلَكُ، و «زربابالُ» هو محمَّدٌ ﷺ.

فصل:

[من بشائر دانيال
من أنبياء بني إسرائيل]

في كتابه: «رأيتُ على سحاب السَّماء المسمَّى كهيئةِ إنسان جاء فانتهى إلى عتيق الإمام وقدَّمُوهُ بين يديه، فحولـه المُلْكُ والسّلطانُ والكرامَـةُ أن تعبدَ لـهُ جميعُ الشُّعوبِ والأُممِ واللُّغاتِ سلطانُـهُ دائمٌ إلى الأبد، لـه يتعبَّدُ كـلُّ سلطان. ويمضي ألفان وثلثمائة ينقضي عقابُ الذّنُوب، يقومُ مَلِكٌ منيعُ الوجهِ في سلطانِهِ عزيـزُ القوَّة لا تكون عزَّتُهُ تلكَ بقوَّةِ نفسهِ، وينجحُ فيما يُريدُ ويجوزُ في شعبِ الأطهار، ويهلَكُ الأعزَّاءُ، ويُؤْتَى بالحقِّ الَّذي لم يزل قبلَ العالمين»[2]. وفي هذا دليلٌ على أمرين:

أحدُهما: صِدْقُ الخبرِ لوجودِهِ على حقِّهِ.

والثَّاني: صحةُ نبوَّتِهِ لظهورِ الخبرِ في صحته.

فصل:

[من بشائرهِ في رؤيا بختنصر]

وهو أنَّ بختنصر رأى في السَّنة الثانيـة من ملكه رؤيـا[3] ارتاعَ منهـا ونَسِيَهَا،

---

(١) زكريا: ٤/١ ـ ٦، بترجمة أقصر ممَّا هنا، وفيها: «زربابل» وفي نسختنا: «زبابال».

(٢) سفر دانيال: ٧/١٣ ـ ١٤، وترجمته قريبة ممَّا هنا.

(٣) هذه الرؤيا مذكورة في سفر دانيال: الإصحاح الثاني، بتفصيل أكثر.

فأحضر مَنْ في مَمَالِكِهِ من الكَهَنَة والمنجِّمين، وكان قد مَلَكَ الأقالِيمَ السبعة، وسألهم عن الرؤيا وتأويلها، فقالوا له: اذكرْهَا لنَا حتَّى نذكر تأويلَها لكَ، فأمرَ بقتلِهم إن لم يذكرُوها وتأويلَها.

وكان دانيال النَّبيُّ قد سبَاهُ من اليهود. فاستمهلَ في أمرِهم ورغبَ إلى اللَّه تعالى في إطلاعه على الرؤيا وتأويلها، فأطلعه اللَّهُ تعالى على ذلك، فأتى بختنصَّرَ وقال: أيُّها المَلِكُ إنَّك كلَّفتَ هؤلاءِ ما لا يعلمُهُ إلاَّ اللَّهُ، وقد رغبتُ إليه فأطلعني عليه، ورؤياكَ التي رأيتَها أنَّ قلبك جاش واختلجَ بما يحدث بعدَكَ في آخر الزمان، فعرفك مبْدِي السَّرائر ما يكون. إنَّك أيُّها المَلِكُ رأيتَ صنماً عظيماً قائماً قِبَالَتَكَ، له منظرٌ رائعٌ رأسُهُ من الذَّهبِ الإبريز، وصدرُهُ وذراعَاهُ من فضَّةٍ، وفخِذَاهُ من نحاس، وساقَاهُ من حديد، وبعضُ رجليهِ من حديد، وبعضُها من خَزَفٍ، ورأيتَ حجراً انقطعَ من جبلٍ عظيمٍ بغيرِ يَدِ إنسانٍ فضربَ ذلك الصَّنم، فهشَّمَهُ حتى صارَ كالرَّماد، ألْوَتْ بهِ ريحٌ عاصِفٌ حتَّى لم يعرفْ له مكانٌ، ثم عَظُمَ الحجرُ الصَّلْدُ الذي صكَّ الصَّنَمَ، حتَّى صارَ جبلاً عظيماً امتلأت منه الأرضُ كلُّها، فهذه الرؤيا وأنَا معبِّرُهَا. أمَّا الصَّنَمُ فهم الملوكُ، فأنتَ الرأسُ الذهبُ، ويقومُ من بعدِكَ من هو دونَك ألينُ منك.

فأمَّا المملكة الثَّالثة التي هي مثلُ النُّحاس فتسقط على الأرضِ كلِّها، وأمَّا المملكة الرابعة التي هي مثلُ الحديد فتكونُ عزيزةً كما أنَّ الحديدَ يهشِم الجميعَ فكذلِكَ هذهِ تسحقُ وتغلبُ الكُلَّ.

وأمَّا الأرجل والأصابع الَّتي رأيتَ أنَّ منها من خَزَفِ الفُخَّار، ومنها من حديدٍ فإنَّ المملكة تكون مختلفةً ومتفرِّقةً، يكون منها أصلٌ من جوهر الحديد وخلط من خَزَفِ الفُخَّار، فيكون بعضُ المملكة قويّاً وبعضُها واهياً كسيراً، لا يأتلِفُ بعضُها ببعضٍ كما لا يختلط الحديد بالخزَفِ.

وأمَّا الحجر الواقع من الجبل، فإنَّ إلَهَ السماء يُرسلُ مملكةً من عندِهِ، لأنَّه لم

تقطع الحجرَ يَدُ إنسانٍ في زمانِ هذهِ المَمَالك، يهلكها ويبقى إلى آخر الدَّهر، ولا يكون لأمَّة أُخْرَى مملكةٌ ولا سلطانٌ، إلاّ دقَّهُ كما يَدُقُّ الحجرُ الحديدَ والنُّحاسَ والفضَّةَ والذَّهبَ، فعرَّفَكَ اللَّه العظيمُ ما يكونُ بعدَكَ في آخر الأيام، فهذه رؤياكَ وتأويلُها.

فخرَّ بختنصَّر على وجههِ ساجداً لدانيال، وقال: إن إلَهكم هذا هو إلَهُ الآلهة، وربُّ الأملاَكِ حقّاً، وهو مُبْدِي السَّرائر، وجعلَ دانيالَ رأساً مُؤَمَّراً على أرض بابل.

ومعلوم أنَّه لم يُرْسِلِ اللَّهُ تعالى سلطاناً أزَالَ بهِ المَمَالِكَ وملأ به الأرضَ ودام لهُ الأمرُ إلاَّ بنبوَّة محمَّدٍ ﷺ.

فصل:

[من بشائر أرميا بن برخنا من أنبياء بني إسرائيل في أيام بختنصَّر]

لما قتلَ أهلُ الرَّسِّ نبيَّهُم، قال ابنُ عباس: أمرَ اللَّهُ تعالى أن يأمر بختنصر أن يغزوَ العربَ الَّذين لا أغلاق لبيوتهم فيقتلهم بما صنعوا بنبيِّهم، فأمرَهُ بذلك فدخلَ بختنصَّر بلادَ العرب، فقتَلَ وسَبَى حتى انتهى إلى تِهَامَةَ، فأتى بمعد بن عدنان فأمر بقتلهِ، فقال له النبي: «لا تفعل فإنَّ في صلب هذا نبياً يُبعث في آخر الزمان، يختمُ اللَّهُ به الأنبياء»، فخلَّى سبيلَهُ وحملَهُ معه حتَّى أتَى حصوناً باليمن فهدمها، وقتل أهلَها وزوَّج معداً بأجمل امرأةٍ منهم في زمانها، وخلَّفَهُ بتهامةَ حتَّى نسَلَ بها، قال ابن عباس: وفي ذلك نزل قولُه تعالى: ﴿وكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قريةٍ كانتْ ظالمةً وأنشأْنَا بعدَهَا قوماً آخَرِينَ﴾[1].

(١) سورة الأنبياء، الآية ١١.

فصـل:

[من بشائر داود في الزبور]

«سبحانَ الَّذي هيكلُهُ الصالحون يفرحُ إسرائيل بخالقـه، وبيوت صيفـون من أجل اللَّه، اصطفَى له أمَّتَهُ وأعطَاهُ النَّصْرَ وسدَّدَ الصَّالحين منه بالكـرامة، يُسبِّحُونَهُ على مضاجعهم، ويُكبِّرُونَ اللَّهَ بـأصواتٍ مـرتفعةٍ بـأيديهم سيـوفُ ذوات شفرتين، لينتقِمُوا من الأُمَمِ الَّـذين لا يعبـدُونَـهُ، يُـوثِقُـون ملوكهم بـالقيـود، وأشـرافَهُمْ بالأغلال»[1].

ومعلومٌ أنَّ سيـوف العرب هي ذوات الشفـرتين، ومحمَّدٌ هـو المنتقم بها من الأمم. وفيـه: «أنَّ اللَّهَ أظهـرَ من صيفُـون إكليـلاً محمـوداً» وصيفـون: العـرب. والإكليلُ: النُّبوَّة، ومحمودٌ: هو محمَّدٌ ﷺ.

وفي مزمور آخر منه: «أنَّه يجوز من بحر إلى بحر ومن لدن الأنهار إلى الأنهار إلى منقطع الأرض، وأن تخرَّ أهلُ الجزائـر بين يديـهِ على ركبهم، وتلحسُ أعداؤه الترابَ، تأتيه الملوك بالقـرابين، وتسجد وتـدينُ له الأمم بـالطَّاعـة والانقياد، لأنَّـه يُخلِّصُ المضطهدَ البائسَ ممن هو أقوى منه، ويُنقـذ الضعيفَ الَّذي لا نـاصرَ لـه، ويرأفُ بالضعفاء والمساكين، وأنَّه يُعطي من ذهبِ بلاد سبأ، ويُصلَّى عليـه في كلِّ وقتٍ، ويُبارَكُ عليه في كلِّ يومٍ، ويدوم ذكرُهُ إلى الأبد»[2]!! ومعلومٌ أنَّه لم يكنْ هذا إلَّا لمحمَّدٍ ﷺ!!.

وفي مزمور آخر: قال داودُ: اللَّهمَّ ابعثْ جـاعِلَ السُّنَّـة حتَّى يُعلِّمَ النَّاسَ أنَّـه بشر»، أي ابعثْ نبياً يُعلِّمُ النَّاس أنَّ المسيحَ بشرٌ، لعلم داودُ أنَّ قوماً سيدَّعُـون في المسيح ما ادَّعُوه، وهذا هو محمَّدٌ ﷺ!!.

---

(1) المزمور التاسع والأربعون بعد المائة، مع المقارنة لِما في الجواب الصحيح لشيخ الإسلام ابن تيمية ج ٣/٣١٤، وهداية الحيارى لابن قيم الجوزية ص ٧٠.

(2) المزمور الثاني والسبعون، مع المقارنة لِما في الجواب الصحيح: لشيخ الإسلام ابن تيميـة ج ٣/٣٢٢.

فصل:

[من بشائر المسيح به في الإنجيل]

قال المسيحُ عليه السَّلام للحواريين: «أنَا ذَاهِبٌ وسيأتِيْكُمُ البَارقليط، روحُ الحقِّ الَّذي لا يتكلم من قِبَلِ نفسهِ إلَّا كما يُقالُ لهُ، وهو يشهدُ عليَّ، وأنتم تشهدُون لأنكم معي من قبلِ النَّاسِ، وكلُّ شيءٍ أعدَّهُ اللَّهُ لكم يخبرُكم بِهِ».

وفي نقل يُوحنا عنه: «أنَّ البَارقليط لا يجيئكم ما لم أذهب، فإذا جاء وبَّخ العالم على الخطيئة، ولا يقول من تلقاء نفسهِ شيئاً، ولكنَّه ممَّا يسمعُ به يكلِّمكم ويَسُوسُكم بالحقِّ ويُخبركم بالحوادثِ والغُيُوب».

وفي نقلٍ آخر عنه: «أنَّ البارقليط رُوحُ الحقِّ الَّذي يُرسِلُهُ باسمي وهو يُعلمكم كلَّ شيءٍ، إنِّي سائلٌ أن يبعثَ إليك بارقليط آخرَ يكون معكم إلى الأبد وهو يعلِّمكُم كلَّ شيءٍ».

وفي نقل آخر عنه: «أنَّ البشيرَ ذاهبٌ والبارقليط بعدَه يُحيي لكم الأسرارَ، ويُقيمُ لكم كلَّ شيءٍ، وهو يشهدُ لي كما شهدتُ له، فإنِّي لأَجِيئكُمْ بالأمثالِ، وهو يأتيكم بالتَّأويل»(1). والبارقليط بلغتهم لفظ من الحمدِ، وقد قال النَّبيُّ ﷺ: (وأنا أحمدُ وأنا محمودٌ، وأنا محمَّدٌ)(2).

فهذه من بشائر الأنبياء عن الكتب الإلٰهيَّة المتناصرةِ بصحَّةِ نبوَّتهِ المتواترة الأخبار بانتشارِ دعوتهِ، وتأييدِ شريعتهِ، ولعلَّ ما لم يصلْ إلينا منها أكثرُ، فمنهم مَنْ عيَّنَهُ باسْمِهِ، ومنهم مَنْ ذكرَهُ بصفتهِ، ومنهم مَنْ عَزَاه إلى قومِهِ، ومنهم مَنْ أضافَهُ إلى بلدِهِ، ومنهم مَنْ خَصَّه بأفعالِهِ، ومنهم مَنْ مَيَّزَهُ بظهورِهِ وانتشارِهِ، وقد حقَّقَ

---

(1) إنجيل يوحنا، الإصحاح الرابع عشر ١٦ ـ ١٧ و ٢٦، وترجمته قريبة ممَّا هنا.

(2) الوارد في الأحاديث: «أنا محمد وأحمد» وفي بعضها: «أنا أحمد ومحمد» ولم يرد فيها «محمود» فالبخاري في صحيحه ج ٤/٢٢٥ وج ٦/١٨٨، ومسلم في صحيحه في الفضائل ١٢٤ ـ ١٢٥، وأحمد في مسنده ج ٤/٨٤، وابن حبان في صحيحه، كما في موارد الظمآن رقم ٢٠٩٥.

اللَّه تعالى جميعَها فيه حتَّى صارَ جلياً بعدَ الاحتمال ويقيناً بعد الارتياب.

فإنْ قيل: مجيء الأنبياء موضوعٌ لمصالح العَالَمِ، وهم مأمورُون بالرأفة والرحمة ومحمَّدٌ جاء بالسَّيف وسفك الدِّماء، وقتلِ النُّفُوسِ، فصارَ منافياً لما جاء به موسى وعيسى، فزالَ عن حكمهما في النُّبوَّة لمخالفتهما في السيرة، فعنه ثلاثة أجوبة:

أحدُها: أنَّ اللَّه تعالى بعث كلَّ نبي بحسب زمانهِ، فمنهم مَنْ بعثَهُ بالسَّيف لأنَّ السيفَ أنجعُ، ومنهم مَنْ بعثَهُ باللُّطف لأن اللُّطف أنفعُ. كما خالف بين معجزاتهم بحسب أزمانهم، فبعث موسى بالعصا في زمان السحر، وبعث عيسى بإحياء الموتى في زمان الطِّب، وبعث محمداً بالقرآن في زمان الفصاحة، لأنَّ النَّاس في بدء أمرهم يتعاطفون مع القلة ثم يتنافرون ويتحاسَدُون مع الكثرة، ولذلك قال رسولُ اللَّه ﷺ: (نَجا أوَّلُ هذه الأمَّة باليَقِين والزهد، ويهلك آخرُها بالبخل والأمل)[1].

والجواب الثاني: أنَّ السَّيف إذا كان لطلب الحقِّ كان خيراً، واللُّطف إذا كان مع إقرار الباطل كان شراً، لأنَّ الشرع موضوعٌ لإقرار الفضائل الإلَهية والحقوق الدِّينيَّة، ولذلك جاء الشرعُ بالقتلِ والحدودِ ليستقرَّ به الخيرُ، وينتفي به الشَّرُّ، لأنَّ النُّفُوس الأشرة لا يكفها إلَّا الرهبة، فكان القهرُ لها أبلغُ في انقيادها من الرغبة، وكانت العربُ أكثرَ النَّاس شرّاً وعتوّاً، لكثرة عددهم وقوَّة شجاعتهم، فلذلك كان السَّيف فيهم أنفع من اللُّطف.

والجواب الثالث: أنَّه لم يكن في جهادِهِ بالسَّيف بِدْعَاً مِنَ الرُّسُل، ولا أوَّلَ مَنْ أثخنَ في أعداء اللَّه تعالى.

وقبل هذا إبراهيم عليه السَّلام جاهد الملوك الأربعة الَّذين ساروا إلى بلاد الجزيرة للغارة على أهلها، وحاربهم حتَّى هزمهم بأحزابِهِ وأتباعِهِ.

---

(١) ذكره الحافظ المنذري في الترغيب ج ٢٤١/٤، وقال: رواه ابن أبي الدنيا والأصبهاني كلاهما من طريق ابن لهيعة ـ وهو ضعيف ـ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدِّه. وروى عن عبد اللَّه بن عمر رضي اللَّه عنهما ـ لا أعلم إلَّا رفعه ـ قال: (صلاحُ أوّلِ هذه الأمة بالزَّهادَةِ واليقين، وهلاكُ آخرُها بالبُخلِ والأمل) رواه الطبراني، وفي إسناده احتمال للتَّحسين.

وهذا يُوشَعُ بن نون قتل نيِّفاً وثـلاثين ملكاً من ملوك الشـام، وأبادَ من مـدنها ما لم يبقَ له أثرٌ ولا من أهلها صافر، من غير أن يدعُوَهم إلى دينٍ أو يطلبَ منهم أتاوة وساق الغنائم.

وغزَا داودُ من بلاد الشام ما لم يدعْ فيها رجلاً ولا امرأة إلاّ قتلهم، وهو موجود في كتبهم.

ومحمَّدٌ ﷺ بدأ بالاستدعاء وحارب بعد الإباء.

روى ابن شهاب عن عروة عن عائشة رضي اللَّه تعالى عنها قـالت: ما رأيتُ رسولَ اللَّه ﷺ منتصراً من مـظلمة ظُلِمَهـا قطُّ ما لم يُنتهـكْ من محارمِ اللَّه تعـالى شيءٌ، فإذا انتُهِكَ من محارمِ اللَّه تعالى شيء كان أشدَّهم في ذلك غضباً، وما خُيِّرَ بين أمرين إلاّ اختار أيسرَهُمَا، ما لم يكنْ مأثماً[1]، وقد كـان ﷺ أحثَّ النَّاس على الصفح والتعاطف. روى أسيد بن عبد الرحمن عن فروة بن مجاهد عن عقبة بن عامر قال: لقيتُ رسولَ اللَّه ﷺ فقال لي: (يا عقبةُ صِلْ مَنْ قـطعَكَ واعْطِ مَنْ حَـرمَكَ، واعْفُ عمَّن ظَلَمَكَ)[2] فهل يكون أحنى على الخلقِ ممَّن يأمرُهم بمثل هذا؟! وإنَّما تطلَّبت الملحدةُ بمثل هذا الاعتـراض القدح في النبـوّات، فإنّهم لم يعفُـوا نبيّاً من القدح في معجزاته والطعن على سيرته حتى قال منهم في عصرنـا ما طعن بـه على موسى وعيسى ومحمد ﷺ عليهم بشعر نظمه فقال:

وفَـالِـقُ البحـرِ لم يـفلقْ جـوانِـبَـهُ	إذْ ضـاعَ فيه ضَيَـاعُ الحرِّ في السَّفلِ
ومـدَّعٍ يـدَّعِي الأشيـاءَ خِـلْقَتَـهُ	مـا بَـالُـهُ زَالَ والأشيـاءُ لم تَـزُلِ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه باب صفة النبي ﷺ ج ٤/٢٣٠، ومسلم في صحيحه في الفضائل: باب مباعدته ﷺ للآثام واختياره في المباح أسهله.. ج ٧/٨٠، وأبو داود ج ٤/٢٥٠، وأحمد في مسنده ج ٦/٢٢، ١٤، ١٣٠، ١٨٢، ومالك في الموطأ ج ٢/٩٠٢.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج ٤/١٤٨، ١٥٨، وذكره الشيخ محمد ناصر الدين الألباني في الأحاديث الصحيحة رقم ٨٩١.

وآخـرُ يـدَّعِي بـالسَّيفِ حـجتَـهُ ... هـلْ حجةُ السَّيفِ إلا حُجـةُ البَطَلِ

فحضرني حين وردتْ هذه الأبياتُ إليَّ بعضُ أهل العلم فأجابَ عنها فقال:

قُلْ للذي جاءَ بـالتكـذيبِ للرُّسـلِ ... وردَّ معجـزَهُم بـالـزَّيغِ والـدَّغلِ

وقـال في ذَاك أبيـاتـاً مـزخـرفـةً ... ليُـوقعَ النَّـاسَ في شَـكٍّ مِنَ المِلَلِ

ضَيـاعُ مـوسَى دليـلٌ مـن أدلَّـتـهِ ... من بعدِ ما صَارَ فَرْقُ البحرِ كالجبَلِ

ليـعـلـمَ النَّـاسُ أنَّ اللّـه فـالـقُـهُ ... وأنَّ مـوسى ضعيفٌ تـاهَ في السُّبُـلِ

والمعجـزُ الحقُّ في فَلْقِ الميَـاهِ لـهُ ... وجعلُهُ البَـرَّ مـا يحتـاطُ بـالحِيَـلِ

وابنُ البَـتُـولِ فـإنَّ اللّه نَـزَّهَـهُ ... عمَّا ذكرتَ من الـدَّعوَى على الجملِ

مـا كـان منـهُ سِوَى طيـرٍ يقـدِّرُهُ ... طينـاً وربِّـي أحيَـاهُ ولـم يَـزَلِ

وقـالَ إنِّـي بـإذْنِ الـلّهِ فـاعـلُهُ ... وإذْنُ ربِّي يُحيي الخَلْقَ لا عمـلِي

وصاحبُ السَّيفِ كـانَ السَّيفُ حجتَـهُ ... بعـدَ البيـانِ عن الإعجـازِ والمَثَـلِ

وجـاءَ مبتـديـاً بـالنُّصـحِ مجتهـداً ... بمعجزاتٍ لها حـارتْ أولو النِّحَـلِ

منهـا كـتـابٌ مبينٌ نـظمُـهُ عَجَبٌ ... فيـه من الغيب مـا أوحى إلى الرسـل

فـأفحم الـشعـراء المفلقيـن بـه ... لمَّـا تحـدَّاهم بـالـرِّفقِ في مَهَـلِ

وأنبـعَ المـاءَ عَـذْبـاً مـن أنـامِلهِ ... من غيـرِ صخـرةٍ كـانتْ ولا وَشَـلِ

وشَـارِفُ الـقـوم وَافَـاهُ وكـلَّمَـهُ ... وقـال إنِّي من قتـلي عـلى وَجَـلِ

والـذئبُ قـدْ أخبَـر الراعي بمبعثِـهِ ... فجـاء يشهـدُ في الإسلام في عجَـلِ

والـجِـذْعُ حنَّ إليـهِ حيـنَ فـارقَـهُ ... حـنيـنَ ذاتِ جؤارٍ سـاعَـةِ الـهَبـلِ

وأخبـرَ النَّاسَ عمَّـا في ضمـائـرهم ... مفصَّـلاً بـجـوابٍ غيـرِ محتمـلِ

ونبَّـأ الـرُّومَ من نصـرٍ يكـونُ لَـهـا ... مِنْ بعـدِ سبعةِ أعـوامٍ على جَـدَلِ

والفُـرْسَ أخبرهـا عن قتـلِ صَاحِبِهـا ... بـرْوَيْـزُ إذْ جـاءَه فيـروزُ في شُغْـلِ

وإنْ تـقـصَّيتَ مـا جـاءَ الـنَّبيُّ بـهِ ... طَـالَ النَّشِيـدُ ولم آمَنْ مِنَ المَلَلِ

الباب السادس عشر

في هتوف الجن بنبوته ﷺ

والجنُّ مِنَ العَالَمِ المميز[1]، يأكلُون ويتناكحون ويتناسَلُون ويموتُون، وأشخاصهم محجوبةٌ عن الأبصار[2]، وإن تميَّزوا بأفعال وآثارٍ إلاّ أن يخصَّ اللّه تعالى برؤيتهم من يشاء، وإنَّما عرفهم الإنس من الكتب الإلٓهية وما تخيلوه من آثارهم الخفية قال اللّه تعالى فيما وصفه في إنشاء الخلق: ﴿ولقدْ خَلَقْنَا الإنسانَ من صلصالٍ من حَمَإٍ مَسْنُونٍ * والجانَّ خلقناهُ من قبلُ من نَارِ السَّموم﴾[3]، يريد بقوله: ﴿ولقد خلقنا الإنسانَ مِنْ صَلْصَالٍ﴾[4] ـ آدم ـ أبا البشر عليه السَّلام وفي الصَّلصال وجهان. أحدهما: أنَّه الطين النابت، والثاني: أنه الطِّين الذي لم تمسه النَّار.

---

(١) الجنّ عالم آخر غير عالم الإنسان وعالم الملائكة، بينهم وبين الإنسان قدر مشترك من حيث الاتصاف بصفة العقل والإدراك، ومن حيث القدرة على اختيار طريق الخير أو الشر، ويُخالفون الإنسان في أصل الخِلقة، فالإنسان مخلوق من طين، والجان مخلوق من نار، كما سيذكره المؤلف رحمه اللّه تعالى فيما بعد.

(٢) قال اللّه تعالى في سورة الأعراف آية ٢٧: ﴿إنّه يَرَاكُمْ هو وقبيله من حيث لا تَرَوْنَهُمْ﴾، واسم الجِنّ من الاجتنان، وهو الاستتار، فهم محجوبون عنّا بأشخاصهم، فلا يدركهم بصرُ الإنسان.

(٣) سورة الحجر، الآيتان ٢٦، ٢٧.

(٤) أخرج مسلم في صحيحه في كتاب الزهد ٦٠ عن أم المؤمنين عائشة رضي اللّه تعالى عنها عن النبي ﷺ قال: (خُلِقتِ الملائكةُ من نُورٍ، وخُلِقَ الجانُّ من نارٍ، وخُلِقَ آدمُ ممّا وصفَ لكم).

والحمأ جمع حمأة وفيها وجهان: أحدهما: أنَّه المنصوب القائم فيكون صفة للإنسانِ. والثاني: أنَّه المنسوبُ فيكونُ تمييزاً للجنس وقوله: ﴿والجانَّ خلقنَاهُ مِنْ قبلُ﴾ يعني من قبل آدم، لأنّ آدمَ خُلِقَ آخرَ الخلقِ. وفي الجان وجهان: أحدهما: أنّه أبو الجن فآدم أبو البَشرِ، والجان أبـو الجن، وإبليس أبو الشياطين وفي قولـه: ﴿من نارِ السَّمُوم﴾ وجهان: أحدهما: من نار الشمس. والثاني: نار الصَّواعق بين السَّماء وبين حجاب دونها[1]، فلم يختلفوا في أن الجن يتناسَلُون ويموتون، ومنهم مؤمن ومنهم كافر.

واختُلف في الشَّياطين فزعم قوم أنَّهم كفَّار الجنِّ يتناسَلُون ويموتُـون، وزعم آخـرون أنَّهم غير الجن وأنَّهم من ولـد إبليس، واختلف من قال بهـذا في تناسلهم وموتهم، فذهبَ فريقٌ إلى أنَّهم يتناسَلُون ويموتُون، وذهبَ آخرون إلى أنَّهم كإبليس لا يموتون إلاَّ معه، وأنَّ تناسلهم انقطع بإنظار إبليس إلى يوم يبعثون، فإن أنكر قوم خلق الجن ولم يؤمنوا بالكتبِ الإلَهيَّة قهرتهم براهينُ العقولِ وحججُ القياس، لأنَّ اللَّه تعالى أنشأ خلقَ العَالَم من أربعة أجرام جعلها أصولاً لِما خلقَ من العالم الحي، وهي الأرض والماء والهواء والنَّار[2].

والعَـالَمُ نوعـان اتفاقـاً علويٌّ وسفليٌّ. فالعـالم السُّفليّ نوعـان خلقهمـا من جرمين: أحدُهما: من الأرض وهو ما عليها من الحيـوان. والثاني: من المـاء وهو ما فيه من السموك. وهما هَابِطَان لهبوطَ الأرضِ والماءِ، وظاهرانِ لظهورِ أصلهما

---

(١) قوله تعالى: ﴿من نارِ السَّمُوم﴾ بيَّنه سبحانه في سورة الرحمن، آية ١٥ أنه ﴿ وخلق الجان من مارج من نار﴾ هو من طرف اللَّهب، أو من خالص النار أو من أحسنه، كما ذُكر ذلك عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن. [البداية: لابن كثير ج ١/ ٥٩] وقال النووي في شرح صحيح مسلم: المارج اللهب المختلط بسواد النار. فاللَّه تعالى أعلم.

(٢) هذه الأربعة ليست أصل خلق العالم، لأنها هي من العالم، بل أصل خلق الكائنات قد بلغ مائةً وسبعة عناصر، هذا ما توصل إليه العلم الحديث، والأرض وما تحتويه من ماء وما يتشكل منه، والهواء وما يتألف منه، والنّار تتكوّن منه، ترجع جميعها إلى العناصر [١٠٧] المكتشفة حديثاً.

واستمرارِ القياسِ فيهما .

وبقي العَالَمُ العلويُّ جرمـان : الهواء والنَّـار ، وقد استقرَّ خلقُ الملائكـة من الهواء[1] ، فاقتضَى معقولُ القياس أن يكون خلق الجنِّ من النَّار[2] ، لتكون الأجرام الأربعة أصولاً لخلق أجناسٍ أربعةٍ .

ولعُلُوِّ الهواء كان عالمه من الملائكة علوياً ، ولخفائه كان خفياً لا يهبط إلاّ عن أمر إلّهي ، ولا يعاين إلا بمعونة إلّهية .

ولعلوِّ النَّارِ في أصلٍ هابطٍ كان لعَالَمِهِ من الجنِّ علوٌ وهبوطٌ ، ولخفاء كُمُونِها خفي عن العِيان ، إلا بمعونة إلّهية فصار أصلان من الأربعة محسوسين بالعِيان وهما على الأرض وفي الماء ، وأصلان معقولين بالقياس وهما الملائكة والجن . ولولا أنَّ دافعَ ذلك عادلٌ عن الدلائل الشرعية لَما عَـدَلْنَا إلى هـذا الاستدلال الخـارج عن البراهين الشَّرعية[3] .

فصـل :

[إيمان الجِنِّ به ﷺ]

فإذا ثبتَ خلقُ الجِنِّ بما دلَّلنا عليه من شـرع ، ومعقولٍ ، فهم مُكلَّفُـون لأنَّ رسولَ اللَّه ﷺ تحدَّاهم بالقرآن بقوله تعالى : ﴿قُلْ لَئِنِ اجتمعتِ الإنسُ والجِنُّ على

---

(١) الملائكة خُلقت من نور، كما في الحديث في صحيح مسلم، في كتاب الزهد ٦٠ .

(٢) لا حاجة إلى القياس «المنطقي» هنا، لأنه ثبت بالنص بيان أصل خلق الملائكة والجان، كما في حديث صحيح مسلم المشار إليه قبلُ .

(٣) لا ينبغي العدول عن البراهين الشرعية إلى براهين منطقية خارجة عنها، لأن البراهين الشرعية ثابتة قطعية الثبوت والدلالة، أمّا البراهين المنطقية فظنّيّة، بل متعارضة ومتناقضة ومضطربة . وللبراهين الشرعية ضوابطها وثوابتها، وليس للبراهين المنطقية ومقاييسها ذلك، والبـراهين الشرعية متفق عليها، والمقاييس المنطقية مختلف فيها، وأدلة البراهين الشرعية تلقتها مئات الألوف بالعناية والحفظ والرعايـة، والبراهين المنـطقية ومقـاييسها معـروفة لـدى الفلاسفـة والمنطقيين الذين يغلب عليهم عدم اليقين .

أنْ يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتُون بمثلِه ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظهيراً﴾[1]، وقـال تعالى: ﴿وإذْ صَرَفْنَا إليكَ نفراً مِنَ الجِنِّ يستمِعُونَ القرآنَ﴾[2] وفي صرفهم وجهان:

أحدُهما: أنَّهم صرفوا عن استراق سمع السماء برُجُوم الشُّهب، ولم يصرفوا عنه بعد عيسى إلَّا بعدَ بعثِ رسول اللَّهِ ﷺ فقالوا: ما هذا الحادث في السماء إلَّا لحادثٍ في الأرض، وتخيَّلُوا به تجديد النُّبوَّة[3] فجابُوا الأرضَ حتى وقَفُوا على رسول اللَّه ﷺ ببطنِ مكَّةَ عامداً إلى عُكاظٍ وهو يصلِّي الفجر، فاستمَعُوا القرآنَ ورأوه كيف يُصلِّي ويقتدي به أصحابُه، فعلِمُوا أنَّه لهذا الحادث صُرِفُوا عن استراقِ السّمع برجُومِ الشُّهب، وهذا قول ابن عباس رضي اللَّه تعالى عنه. وحَكى عكرمة: أنَّ السورة التي كان يقرؤها: ﴿إقرأ باسمِ ربِّكَ الَّذي خلق﴾[4].

والوجه الثاني: أنَّهم صُرِفُوا عن بلادهم بالتَّوفيق هداية من اللَّه تعالى حتَّى أتَوْا نبيَّ اللَّه ببطنِ نخلة فنزل عليه جبريل بهذه الآية، وأخبره بوفود الجنِّ وأمره بالخروج إليهم فخرج ومعه ابن مسعود حتى جاء الحُجون عند شِعْب أبي ذر، قال ابن مسعود: فخطَّ عليَّ خطاً وقال: «لا تجاوِزْهُ»، ومضى إلى الحجون، فانحدروا عليه أمثال الحَجَلِ حتَّى لم أرَهُ، فعلى الوجه الأوَّل لم يعلمْ بهم حتى أتَوْهُ، وعلى الوجه الثاني أعلمه جبريلُ قبلَ إتيانِهم. واختلف أهلُ العلم في رؤيته لهم وقراءته عليهم، فحكى

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٨٨.

(٢) سورة الأحقاف، الآية ٢٩.

(٣) الجانّ مكلَّفون بشرع اللَّه تعالى على لسان كل نبي ورسول، قال اللَّه تعالى في سورة الذاريات، الآية ٥٦: ﴿وما خلقتُ الجِنَّ والإنسَ إلَّا لِيَعْبُدُون﴾ فهم مكلفون كالإنس، فمن أطاع اللَّه تعالى ورسوله منهم أدخله اللَّه تعالى الجنّة، ومن عصى أو تمرّد أو كفر أدخله اللَّه تعالى النّار، يقول سبحانه في سورة الأنعام، آية ١٣٠: ﴿يا معشر الجِنِّ والإنسِ ألَمْ يأتِكُمْ رسلٌ منكم يقصُّونَ عليكم آياتي ويُنذِرُونكم لِقَاءَ يومِكُمْ هذا؟! قالوا: شهدنا على أنفسِنَا، وغرَّتْهُمُ الحياةُ الدنيا، وشهدوا على أنفسِهم أنَّهم كانوا كافرين﴾ ففي هذه الآية المباركة دليل قاطع على بلوغ شرع اللَّه تعالى للجنّ، وأنّه قد جاءهم من يُنذرهم ويبلِّغهم وحي اللَّه سبحانه وشرعه الذي بعث به أنبياءه وأرسل به رسله.

(٤) سورة العلق، الآية ١.

سعيد بن جبير عن ابن عباس: أنَّ رسول اللّه ﷺ لم يـرَهُمْ ولم يقرأ عليهم، وإنَّمـا سمعوا قراءتَهُ حينَ مرُّوا بـه مُصَلِّياً. وحكي عن ابن مسعـود: أنّه رآهم وقـرأ عليهم القرآنَ.

وفي قوله: ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أنْصِتُوا﴾ وجهان: أحـدهما: فلمـا حضروا قراءته القرآن قالوا: أنصتُوا لسماعه، والوجه الثـاني: فلما حضـروا رسول اللّه ﷺ قالوا: أنصتوا لسماعِ قوله: ﴿فلما قُضِيَ ولّوا إلى قومهم منذرين﴾ وفيه وجهان:

أحدُهما: فلما فرغَ مِنَ الصَّلاة وَلُّوا إلى قومهم منذرين به.

والثاني: لمَّا فرغ من قراءته القرآن ولُّوا إلى قومهم منذرين، وقالُـوا ما حكـاه اللّه تعالى عنهم: ﴿إنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً﴾(١) في فصاحته وبلاغته، والثاني: عجباً في حسن مواعظه.

وفي قوله: ﴿يَهْدِي إلى الرُّشْدِ فآمنّا بِهِ﴾(٢) وجهان: أحدُهمـا: إلى مراشـد الأمور، والثاني: إلى معرفة اللّه تعالى، فثبتَ أنَّ رسول اللّه ﷺ كان عامَّ الرِّسالةِ إلى الإنسِ والجِنِّ. فلم يختلف أهل العلم أنَّه يجوز أن يبعث إليهم رسولاً من الإنس، واختلفوا في جواز بعثة رسولٍ منهم فجوَّزه قومٌ لقـول اللّه تعالى: ﴿يـا مَعْشَرَ الجنِّ والإنسِ ألَمْ يأتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾(٣) ومنع آخرون منه وهذا قـول من جعلهم من ولد إبليس وحملوا قوله: ﴿ألَمْ يأتِكُمْ رسلٌ منكم﴾ على الذين لمَّا سمعُوا القرآنَ وَلُّوا إلى قومهم منذِرين فأمَّا كفارُهم فيدخلُون النّار، وأمَّا مؤمنـوهم فقد اختلفـوا في دخولهم الجنَّة ثواباً على إيمانهم، فقال الضَّحَّاك: ومن جواز أن يكون رسلهم منهم يدخلون الجنة.

وحكى سفيان عن ليث أنَّهم يُثابون على الإيمان بأن يُجازوا على النَّار خلاصاً منها، ثم يقال لهم: كونوا تراباً كالبهائم(٤)، فـأمَّا استـراقهم للسمع فقد كانـوا في

---

(١) سورة الجن، الآية ١.

(٢) سورة الجن، الآية ٢.

(٣) سورة الأنعام، الآية ١٣٠.

(٤) بما أنَّهم مكلَّفون كـالإنس، فإن الثـواب والعقاب يتعلق بمؤمنهم وفـاسقهم وكافـرهم، قال =

الجاهلية قبلَ بَعْثِ الرَّسولِ يسترقونَه، ولذلك كانت الكهانة في الإنس لإلقاء الجن إليهم ما استرقوه من السمع في مقاعد كانت لهم يقربون فيها من السماء، كما قال اللّه تعالى: ﴿وأنّا كنّا نقعُد مِنها مَقَاعِدَ للسَّمع﴾[1] ليستمعوا من الملائكة أخبار السماء فينقلونها إلى الكهنة ﴿فَمَنْ يَسْتَمعِ الآنَ يجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً﴾[2] يعني بالشُّهب: الكواكب المحرقة، وبالرصد: الملائكة. فأمّا استراقهم للسمع بعد بعث الرسول فقد اختلف فيه أهل العلم على قولين:

أحدهما: أنّه زال استراقهم للسمع ولذلك زالت الكهانة.

والثاني: أنّ استراقهم باقٍ بعدَ بَعْثِ الرّسولِ، وكان قبلَ الرسولِ لا تأخذهم الشُّهبُ لقول اللّه تعالى: ﴿فَمَنْ يستمعِ الآنَ يجِدْ له شِهَاباً رَصَداً﴾[3]، والّذي يستمعونه أخبار الأرض دون الوحي، لأنّ اللّه تعالى قد حفظ وحيه منهم لقوله تعالى: ﴿إنّا نحنُ نزَّلْنا الذّكْرَ وإنّا لهُ لَحافظُون﴾[4].

واختلف على هذا في أخذ الشُّهب لهم هل يكون قبلَ استراقهم للسمع أو بعده؟ فذهبَ بعضُ أهل العلم إلى أنَّ الشهب تأخذُهم قبلَ استراق السمع حتى

= الحافظ ابن كثير رحمه اللّه تعالى في تفسيره ج ٤/١٧١: «والحقُّ أنّ مؤمنهم كمؤمني الإنس يدخلون الجنّة، كما هو مذهب جماعة من السلف، وقد استدل بعضهم لهذا بقوله عزّ وجلّ: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إنسٌ قبلهم ولا جانٌّ﴾ وفي هذا الاستدلال نظرٌ وأحسنُ منه قوله جلّ وعلا: ﴿ولِمَنْ خافَ مَقَامَ ربِّهِ جنّتانِ * فبأيِّ آلاءِ ربِّكُما تُكَذِّبان﴾؟! فقد امتنَّ تعالى على الثقلين بأن جعلَ جزاءَ محسنهم الجنّة، وقد قابلتِ الجنُّ هذه الآيةَ بالشكر القولي أبلغ من الإنس، فقالوا: «ولا بشيءٍ من آلائك ربَّنا نُكذِّبُ، فلك الحمدُ» فلم يكن تعالى ليمتنّ عليهم بجزاء لا يحصل لهم». وهذا الحديث الذي ذكره ابن كثير عن قول الجن أخرجه الترمذي، وإسناده حسن، عن جابر قال: قرأ رسول اللّه ﷺ سورة الرحمن حتى ختمها، ثم قال: (ما لي أراكم سكوتاً، لَلْجنُّ كانوا أحسن منكم ردّاً، ما قرأتُ عليهم هذه الآية من مرّةٍ ﴿فبأيِّ آلاء ربّكما تُكذّبان﴾ إلّا قالوا: ولا بشيءٍ من آلائك ربَّنا نُكَذِّبُ، فلَكَ الحمدُ)!!.

(١) (٢) سورة الجن، الآية ٩.

(٣) سورة الجن، الآية ٩.

(٤) سورة الحجر، الآية ٩.

لا يصل إليهم لانقطاع الكهانة بهم، وتكون الشُّهب منعاً عن استراقه.

وذهبَ آخرون منهم إلى أنَّ الشُّهبَ تأخذُهم بعداستراقه، وتكونُ الشهب عقاباً على استراقه.

وفيها: إذا أخذتهم قولان: **أحدُهما**: أنَّها تقتلهم، ولذلك انقطعتِ الكهانة بهم. **والثاني**: أنَّهم تجرحُ وتحرقُ ولا تقتلُ، ولذلك عادُوا لاستراقهِ بعد الاحتراق، ولولا بقاؤهم لانقطعَ الاسترقاق بعد الاحتراق، ويكون ما يُلقونه من السَّمع إلى الجنِّ دون الإنس، لانقطاع الكهانة عن الإنس. وفي الشِّهاب الَّذي يأخذهم قولان: **أحدُهما**: أنَّه نورٌ يمتدُّ لشدَّة ضيائه ثم يعود. **والقول الثاني**: أنه نارٌ تحرقهم ولا تعود، فهذا خطب الجن فيما هم عليه من نعتٍ وحكم[1].

فصل:

[هُتُوفُ الجنِّ برسول الله ﷺ]

فأمَّا هُتُوفُهم برسولِ اللّه ﷺ فهو من آياتِ نبوَّتِه، فإن كان قبل مبعثه كان من نُذُرِ آياته الصادرة عن إلهام هتوفهم بنبوَّته: ما حكاه إبراهيمُ بنُ سلامة عن إسماعيل بن زياد عن ابن جريج عن ابن عباس رضي اللّه عنهما أنه كان يحدث عن رجل من خثعم قال: كانت خثعم لا تحلُّ حلالاً ولا تحرِّم حراماً، وكانتْ تعبدُ

---

(١) أخرج مسلم في صحيحه في كتاب السلام ١٢٤، وأحمد في مسنده ج ١/٢١٨: عن ابن عباس قال: أخبرني رجل من أصحاب النبي ﷺ أنهم بينما هم جلوس ليلةً مع النبي ﷺ رُمِيَ بنجم فاستنار، فقال لهم رسول اللّه ﷺ: (ماذا كنتم تقولون في الجاهلية؟) قالوا: كنّا نقول ولد الليلة رجل عظيم، ومات رجلٌ عظيم. قال رسول اللّه ﷺ: (فإنها لا يُرْمَى بها لموت أحدٍ ولا لحياته، ولكن ربُّنا تبارك وتعالى إذا قضى أمراً سبَّحَ حملةُ العرش، ثم سبَّحَ أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا، فيخطف الجِنُّ السمعَ، فيقذفون إلى أوليائهم، ويرمون بما جاؤوا به على وجهه، فهو حقٌّ، ولكنهم يقذِفُون فيه فيزيدون).

أصناماً. فبينا نحنُ عندَ صنمٍ منها ذاتَ ليلةٍ نتقاضى إليه في أمرٍ قد شجر بيننا، إذْ صاح من جوفِ الصَّنَمِ صائح يقول:

يا أيُّها الركبُ ذُوو الأحكامِ ... ما أنْتُم وطائشُ الأحلامِ

ومسندو الحكم إلى الأصنامِ

هذا نبيٌّ سيِّدُ الأنامِ ... يصدَعُ بالحقِّ وبالإسلامِ

أعدل ذي حُكمٍ من الأحكامِ

ويتبع النُّورَ على الإظلامِ ... مستعلنٌ في البَلَدِ الحَرَامِ

قدْ طَهَّرَ النَّاسَ مِنَ الآثامِ

قال الخثعمي: ففزعنَا منه، وخرجتُ إلى مكَّة وأسلمتُ مع النَّبيِّ ﷺ[1].

ومن بشائر هُتُوفهم: ما رواه عثمان بن عبد الرحمن عن محمد بن كعب قال: بينما عمرُ بن الخطاب رضوان اللّه عليه ذاتَ يوم جالساً، إذْ مرَّ به رجلٌ، فقيل له: أتعرف هذا المارَّ يا أميرَ المؤمنين؟ قال: ومَنْ هو؟ قالوا: هذا سواد بن قارب[2] رجل من أهل اليمن، وكان له رئي من الجن، فأرسلَ إليه عمر فقال: أنتَ سواد بن قارب؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، فقال: أنتَ الذي أتاكَ رئيك بظهورِ النَّبيِّ ﷺ؟ قال: نعم

---

(١) أخرج هذا الخبر الحافظ أبو نعيم في دلائل النُّبوَّة ج ١١٧/١ رقم ٦٤ بغير هذا الإسناد.

(٢) أخرج هذا الخبر الحافظ البيهقي في دلائل النبوَّة ج ٢٤٨/٢ ـ ٢٥٣، بروايتين، هذه إحداهما، ثم ذكر رواية أخرى قريبة من هذه.

وسواد بن قارب: قال البخاري في التاريخ الكبير ج ٢ ـ ٢٠٢/٢: «له صحبة»، كان في الجاهلية شاعراً كاهناً، ثم أسلم، وقد كان عمر بن الخطاب داعبه يوماً، فقال: ما فعلت كهانتُكَ؟ فقال سواد: يا أمير المؤمنين! ما قالها لي أحدٌ قبلك، فاستحيَا عمر، ثم قال: إيْهِ يا سواد!! الذي كنّا عليه من الشرك أعظم من كهانتك، ثم سأله عن حديثه في بدء إسلامه، وما أتاه الخبر من الجنِّ من ظهور النبي ﷺ فأخبره الخبر. وفي صحيح البخاري رواية عن عمر فيها ذكر لقصة كاهن كان في الجاهلية ثم أسلم، ولكن لم يصرِّح باسمه، فتح الباري ج ١٧٧/٧، وأما الحافظ ابن حجر فإنَّه صرَّح في شرحه لهذا الحديث: أن الكاهن، هو =

يا أمير المؤمنين، بينَا أنَا ذاتَ ليلةٍ بينَ النائم واليَقْظان، إذ أتاني رئي من الجن فضربني برجلِهِ وقال: قُمْ يا سواد بن قارب فاسمع مقالِي واعقلْ إنْ كنتَ تعقلُ أنّه قد بُعِثَ رسولُ اللَّه ﷺ من لُؤَيِّ بن غالب، يَدْعُو إلى اللّه تعالى وإلى عبادته وأنشأ يقول:

عجبتُ للجنِّ وتطلابِها — وشدِّها العِيْسَ بأقتابِها
تهوي إلى مكَّة تبغي الهدَى — ما صادقُ الجنِّ ككِذّابِها
فارْحَلْ إلى الصفوةِ من هاشمٍ — ليسَ قُدَّامُها كأذْنَابِها

فقلتُ له: دعني، فأنا أمسيتُ ناعِسَاً ولم أرفعْ بما قال رأساً، فلمَّا كانت اللّيلة الثانية أتاني فضربني برجلِهِ وقال: قُمْ يا سواد بن قارب فاسمعْ مقالتي واعْقِلْ إنْ كنتَ تعقلُ. إنّه قد بُعِثَ رسولُ اللَّه ﷺ من لؤي بن غالب يدعُو إلى اللّه تعالى وإلى عبادتِهِ وأنشأ يقولُ:

عجبتُ للجنِّ وتخبَارِها — وشدِّها العيسَ بأكوارِهَا
تهوِي إلى مكَّةَ تبغي الهدَى — ما مؤمنُو الجِنِّ ككفارِهَا
فارْحَلْ إلى الصَّفوةِ من هاشمٍ — بينَ رَوَابيها وأحجارِهَا

فقلتُ: دعني فقد أمسيتُ نَاعِسَاً ولم أرفعْ بما قال رأساً، فلما كانت اللَّيلة الثالثة أتاني فضربني برجله وقال: قُمْ يا سواد بن قارب فاسمعْ مقالتي، واعْقِلْ إنْ

= سواد بن قارب، وكذا العلامة العيني في عمدة القاري شرح صحيح البخاري ج ١٧/٦ ـ ٧، والبخاري في تاريخه الكبير ج ٢: ٢/٢٠٢ قال: كنتُ نائماً على جبل من جبال الشراة، فأتاني آتٍ فضربني برجله، وقال: «قُمْ يا سواد بن قارب، أتاك رسولُ من لؤيِّ بن غالب» أي النبي ﷺ.

انظر ترجمة سواد بن قارب في أسد الغابة لابن الأثير ج ٣٧٥/٢، والإصابة لابن حجر ج ٢٩٣/٤ ـ ٢٩٤، والاستيعاب لابن عبد البر رقم ١١٠٩، ومختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ج ٢١١/١٠ ـ ٢١٣، وموسوعة عظماء حول الرسول: للشيخ خالد عبد الرحمن العك ج ٩٨٠/٢ ـ ٩٨٢.

كنتَ تعقلُ، قد بُعِثَ رَسُولٌ من لؤي بن غالب يدعُو إلى اللّه تعالى وإلى عبادته، وأنشأ يقول:

عجبتُ للجن وتجسَاسِها ... وشدِّها العيسَ بأحلاسِهَا
تهوي إلى مكة تبغي الهدَى ... ما خُيَّرَ الجِنُّ كأنجاسِهَا
فارْحَلْ إلى الصفوةِ من هاشمٍ ... واسمُ بعينيك إلى رأسِهَا

قال: فأصبحتُ وقد امتحنَ اللّه تعالى قلبي للإسلام فرحلتُ ناقتي وأتيتُ المدينة، فإذا رسول اللّه ﷺ وأصحابه فقلتُ: اسمع مقالي يا رسول اللّه، قال: هات، فأنشأت:

أتاني نجي بينَ هَدْءٍ ورقدةٍ ... ولم أكُ فيما قد نجوتُ بكاذب
ثلاث ليالٍ قولُهُ كلَّ ليلةٍ: ... أتاكَ رسولٌ من لؤي بن غالب
فشمرتُ من ذيلِ الإزارِ ووسطت ... بي الذعلب الوجناء بين السباسب
فأشهدُ أنَّ اللّه لا شيء غيره ... وأنَّك مأمون على كل غائب
وأنَّك أدْنى المرسلين وسيلة ... إلى اللّه يا ابن الأكرمين الأطايب
فمرنا بما يأتيك يا خيرَ من مشَى ... وإنْ كانَ فيما جاء شيب الذوائب
وكنْ لي شفيعاً يوم لا ذُو شفاعةٍ ... سِوَاكَ بمغن عن سواد بن قارب

ففرح رسولُ اللّه ﷺ وأصحابهُ بمقالتي فرحاً شديداً حتى رُؤي الفرح في وجوههم، قال: فوثب إليه عمر فالتزمه وقال: كنتُ أحبُّ أن أسمعَ منك هذا الحديث فهل يأتيكَ رئيك اليوم؟ فقال: مذ قرأتُ القرآن فلا ونعْم العِوَض كتاب اللّه مِنَ الجنِّ.

ومن بشائر هُتوفهم: ما رواه إبراهيم بن سلامة عن إسماعيل بن زياد[1] عن

---

(١) إسماعيل بن زياد: ذكره الحافظ الذهبي في ميزان الاعتدال ج ١/ ٢٣٠ رقم ٨٨١: «وقال: قال ابن عديٍّ: منكر الحديث، يروي عن شعبة، وثور بن زيد، وابن جريج. ثم قال: قال =

ابن جريج عن ابن عباس أنَّ عمر بن الخطاب حدَّث يوماً في مجلس بعد رسول اللّٰه ﷺ فقال: خرجنا قبل مَظْهَر النبي ﷺ بشهرين إلى الأَبْطَح بمكَّة معنا عِجلٌ نريدُ ذبحه ونحن نفرٌ، فلما ذبحناهُ وتصابَّ دمه ومات إنصاحَ من جوفه صائح يقول: يا ذريح يا ذريح، صائح يصيح، بصوت فصيح، نبي يظهر الحق يفيح، يقول لا إله إلاَّ اللّٰه، فصاحَ كذلك ثلاث مرات ثم هدأ صوته وتفرقنا ورُعبْنا منه، فلم يلبث النبي ﷺ أنْ ظهر، فقال رجلٌ من القوم: لا تعجب يا أمير المؤمنين خرجت وأصحابٌ لي في تجارة لنا ونحنُ أربعةُ نفر نريدُ الشَّام حتى إذا كنَّا ببعض أودية الشام قرمنا إلى اللحم قرماً شديداً قبل مظهر النَّبيِّ ﷺ فإذا بظَبْية قد عرضت لنا مكسورة القرن فلم نزل بها حتى أخذنَاها، قال: فواللّٰهِ إنَّا نتآمر بذبحها إذْ هتَفَ هاتفٌ فقال:

يا أيها الركبُ السِّراعُ الأربعة ... خلوا سبيل الظبية المروَّعة

فإنَّها لطفلة ذات دَعة ... خلُّوا عن العضبان فقدامي سعة

ثم قال: خَلُّوا عنها، فواللّٰه لقد رأيتُ هذا الوادي وما يمرُّ فيه أقلُّ من خمسين رجلاً حتى كنتم به، قال: فأرسلنَاهَا، فما أمسينا حتى أخذ بأزمة رواحلنا حتى أتي بنا إلى حاضر لجبٍّ كثير الأهل فأطعمنا من الثريد ما أذهب قرمنا ثم خرجنا حتى قضى اللّٰه تجارتنا فصحبنا رجل من يهود، فلمَّا كنَّا بذلك الوادي هتَفَ هاتف فقال:

إيَّاك لا تعجلْ وخُذْهَا موبقة ... فإنَّ شرَّ السير سير الحقحقة

قدْ لاحَ نجمٌ فاستوَى في مشرقة ... يكشفُ عن ظلما عبوس موبقة

يدعو إلى ظلِّ جِنَانٍ مُونِقَة

فقال اليهودي: تدرون ما يقول هذا الصارخ؟ قلنا: ما يقول؟ قال: يُخبر أن نبيّاً قد ظهر خلافكم بمكة، فقدمنا فوجدنا النَّبي ﷺ بمكة[1].

= ابن حبان: «إسماعيل بن زياد شيخٌ دَجَّال لا يحلُّ ذكرُهُ في الكتب إلاّ على سبيل القدح فيه».
فالخبر الذي في إسناده مَنْ هذا حاله لا اعتبارَ له.

(١) عزاه الحافظ السيوطي في الخصائص ج ١/١٠٤ - ١٠٥ لأبي نعيم.

ومن بشائر هُتُوفهم: ما حكَاهُ أبو عيسى، قال: سمعتْ قريشٌ في اللَّيل هاتفاً على أبي قبيس يقول:

فإن يسلم السعدان يصبح محمَّدٌ ... بمكة لا يخشَى خلافَ مُخَالف

فلما أصبحوا قال أبو سفيان: من السعدان سعد بكر وسعد تميم، فلمَّا كان في الليلة الثانية سمعوه يقول:

أيا سعد الأوس كنتَ أنتَ ناصراً ... ويا سعد سعد الخزرجين الغطارف

أجيبا إلى داعي الهُدَى وتمنيا ... على اللَّهِ في الفردوس منية عارف

فإنَّ ثوابَ اللَّهِ لطالبِ الهُدَى ... جنان من الفردوس ذات زخارف

فلما أصبحوا قال أبو سفيان: هما واللَّه سعد بن معاذ وسعد بن عبادة(1).

ومن بشائر هتوفهم: ما رواه ابن عباس رضي اللَّه تعالى عنهما عن أسماء بنت أبي بكر قالت: ما علم المشركون من أهل مكة أين توجه رسول اللَّه ﷺ حين هاجر إلى المدينة حتى هتفَ هاتفٌ بعد ذلك بأيام فقال:

جَزَى اللَّه خيراً والجزاء فريضة ... رفيقين حلَّا خيمتي أمِّ معبدِ

هُمَا دَخَلا بالهُدَى واهتَدى به ... فأفلحَ من أمسَى رفيقَ محمَّدِ

ليهن بني كعب محلُّ فتَاتِهم ... ومقعدها للمسلمين بمرصدِ(1)

وقالت أسماء: ما علم المشركون من أهل مكة بوقعة بدرٍ حتَّى هتَفَ هاتفٌ من جبال مكة وفتيان يشمرون بمكة فقال:

أزال الحنيفيون بدراً بوقعة ... سينقض منها ملك كسرى وقيصرا

---

(1) عزاه الحافظ السيوطي في الخصائص ج ١/١٨٧ لابن عساكر، وقال: وأخرجه البيهقي والخرائطي.

(٢) السيرة النبوية: لابن هشام ج ١/٤٨٧، واسم أم معبد: [عاتكة بنت خالد] من خزاعة. وقال ابن إسحاق: قالت أسماء بنت أبي بكر رضي اللَّه عنهما: فلمّا سمعنا قوله، عرفنا حيث وَجَّهَ =

أصابَ رجالاً من لؤي وجردت حرائر يضربنَ الترائبَ حُسَّرا

ألا وَيْحَ من أمسَى عدوَّ محمَّدٍ لقد ذاقَ حُزْناً في الحياةِ وحسرا

وأصبح في هامي العجاج معفَّراً تناوبه الطير الجياع وتنفرا

فعلموا بذلك وظهرَ الخبرُ من الغد[1].

ولئن كانت هذه الهتُوف أخبار آحاد عمَّن لا يرَى شخصَهُ ولا يحج قوله فخروجه عن العادة نذير وتأثيره في النفوس بشير، وقد قبلها السّامعون، وقبول الأخبار يُؤكِّد صحتَها ويُؤكد حجتها. فإن قيل: إن كانت هتوف الجن من دلائل النُّبوَّة جاز أن تكون دليلاً على صحة الكهانة، فعنه جوابان:

أحدُهما: أنَّ دلائل النُّبوَّة غيرها وإنَّما هي من البشائر بها، وفرق بين الدلالة والبشارة، إخباراً.

والثاني: أنَّ الكهانة عن مغيب والبشارة عن معيَّن، فالعِيان معلومٌ والغائبُ موهُومٌ.

= رسول اللَّه ﷺ، وأنَّ وجهه إلى المدينة، وكانوا أربعة: رسول اللَّه ﷺ، وأبو بكر الصديق رضي اللَّه عنه، وعامر بن فُهيرة، مولى أبي بكر، ويُقال: عبد اللَّه بن أُريقط.

(1) ذكر هذا الواقدي في المغازي ج ١/١١٩ - ١٢٠، ولم يذكر «أسماء» وأوله عنده «أزارَ» بدل «أزالَ»، وفي نسخة «أزاد» مع اختلاف في الألفاظ والترتيب:

أزارَ الحنيفيُّون بدراً مُصيبةً سينقضُ منها رُكْنُ كسرَى وقيصرَا

أرنَّت لهم صُمُّ الجبالِ وأفزعتْ قبائلَ ما بينَ الوَتير وخيبرَا

أجازتْ جبالَ الأخشبين وجُرِّدت حرائرُ يضربْنَ الترائبَ حُسَّرَا

أنشدنيه عبد اللَّه بن أبي عُبيدة عن محمد بن عمّار بن ياسر، فاستمعوا للصوت فلا يرون أحداً، فخرجوا في طلبه فلا يرون أحداً.. فما مكثوا إلاَّ ليلتين أو ثلاثاً حتى قدم الحَيْسُمان بن حابس الخزاعي بخبر أهل بدر ومن قُتِل منهم..!!.

الباب السابع عشر

فيما هجست به النفوس
من إلهام العقول بنبوته عليه السلام

العقل إلٰهي ركَّبَهُ اللَّه تعالى في النُّفُوس الناطقة فهو ينذر بالخواص الكائنة حَدَساً ويعلمُ بعدَ الوجودِ حِسّاً. فقلَّ حادثٌ إلَّا تقدَّم نذيرُهُ وبحسبِ خاطرهِ يكون تأثيرُهُ، ولا حادثَ أعظمَ مما جدَّدَهُ اللَّه تعالى بنبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ فاقتضَى أن تكون بشائرُ نبوَّته أشهرَ وشواهدُ آياتِهِ أظهرَ.

فمن الهواجس بنبوَّته: أنَّ كعب بن لؤي بن غالب كان يجتمع إليه النَّاس في كل جمعة، وكان يوم الجمعة يسمى في الجاهلية يوم العَرُوبة، فسمَّاه كعب: يوم الجمعة، وكان يخطب فيه الناس ويقول بعد خطبته: حَرَمُكم عظِّمُوهُ وتمسَّكُوا به فسيأتي له نبأٌ عظيم، وسيخرجُ به نبي كريم، واللَّه لو كنتُ فيه ذَا سمعٍ وبصرٍ ويَدٍ ورجلٍ لتنصبتُ تنصُّب الخيل، ولأرقلت إرقال الفحل ثم يقُولُ:

يا ليتني شاهدُ فحواءَ دعوتهِ   حينَ العشيرةُ تَبْغِي الحقَّ خِذْلَانا[1]

ومن هواجس الإلهام: ما حكاه ابن قتيبة أن أبا كرب ابن أسعد الحميري آمن بالنَّبيِّ ﷺ قبل أن يبعث بسبعمائة سنة وقال:

شهدتُ على أحمد أنَّه   رسولٌ من اللَّه باري النَّسم

(١) ذكر هذا الخبر الحافظ أبو نعيم في دلائل النُّبوَّة ج ١/٨٩ - ٩٠ رقم ٤٦ بأطول ممَّا هنا. ثم قال: وكان بين موت كعبِ بنِ لؤيٍّ ومبعث النبي ﷺ خمسمائة سنة وستون سنة.

فلو مدَّ عمري إلى عمرهِ لكنتُ وزيراً له وابن عم[1]

ومن هواجس الإلهام: ما حكاه عبيد الجرهمي وكان كبير السِّنّ عالماً بأخبار الأمم، أنَّ تُبَّعاً الأصغر، وهو تبَّع بن حسان بن تبَّع، سار بيثرب فنزل في سفح أُحُدٍ وذهب إلى اليهود فقتل منهم ثلاثمائة وخمسين رجلاً صبراً وأراد خرابها فقام إليه رجل من اليهود كبير السِّنّ فقال: أيها المللك مثلك لا يقتل على الغضب ولا يقبل قول الزور، أمرك أعظم من أن يطير بك برقٌ أو تسرع بك لجاج، فإنَّك لا تستطيع أن تُخرِّبَ هذه القرية، قال: ولِمَ؟ قال: لأنَّها مهاجر نبي من ولد إسماعيل يخرج من هذه الثنية ـ يعني البيت الحرام ـ فكفَّ تُبَّع ومضَى إلى مكة ومعه هذا اليهودي ورجل آخر عالم من اليهود، فكسَا البيتَ ونحر عندَهُ ستة آلاف جزور، وأطعمَ النَّاسَ وقال:

قد كَسَوْنَا البيتَ الَّذي حَرَّمَ اللَّهُ مُلاَءَ معضداً وبُرودا

وقيل: إنَّه ملك ثلاثمائة وعشرين سنة[2].

ومن هواجس الإلهام: ما روى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: كان يهودي يسكن مكة فلما كانت الليلة التي ولد فيها رسول اللَّه ﷺ حضر مجلس قريش فقال: يا معاشر قريش هل ولد فيكم الليلة مولود؟ فقال القوم: واللَّه ما نعلم، قال: اللَّه أكبر أمَا إذا أخطأكم فلا بأس، انظروا واحفظوا ما أقول لكم، ولد في هذه الليلة نبيٌّ بينَ كتفيهِ علامةٌ فيها شعراتٌ متواترات كأنَّها عُرْف وثن، فتصارع القوم من مجلسهم وهم متعجبون من قوله، فلما صَارُوا إلى منازلهم أخبر كل إنسان منهم أهله فقالوا: وُلِدَ لعبد اللَّه بن عبد المطلب غلامٌ سَمُّوه محمَّداً، فانطلقَ القومُ إلى اليهودي فأخبروه، فقال: اذهبوا بي حتى أنظر إليه، فأدخلوه على آمنة وقالوا:

---

(١) في المعارف لابن قتيبة ص ٦٣١، نسبه لـ «تبَّع»، وانظر الروض الأنف: للسهيلي ج ١/٣٥.

(٢) ذكره الأزرقي في أخبار مكة ج ١/١٣٣ ـ ١٣٤، مع زيادة على هذا البيت، وابن قتيبة الدينوري في المعارف ص ٥٥٩.

أخرجي إلينا ابنك، فأخرجته وكشَفُوا عن ظهره فرأى اليهودي تلك الشامة فوقع مغشياً عليه، فلما أفاق قالوا له: مَا لَكَ؟ قال: ذهبتْ واللَّهِ النُّبوَّة من بني إسرائيل يا معشر قريش، واللَّه ليسطونَّ بكم سطوة يخرج خبرها من المشرق إلى المغرب، وكان في القوم الَّذين أخبرهم اليهودي بذلك هشام بن المغيرة والوليد بن المغيرة وعبيدة بن عبد المطلب وعتبة بن ربيعة فعصمه اللَّه تعالى منهم[1].

ومثله: أنَّه كان لقريش في الجاهلية عيدٌ يجتمعُ فيه النِّساء دُون الرجال، فاجتمعوا فيه فوقف عليهنَّ يهوديٌّ، وفيهنَّ خديجة، فقال لهنَّ: يا معشر نساء قريش يُوشك أن يُبعثَ فيكن نبيٌّ، فأيتكن استطاعت أن تكون له أرضاً فلتفعلْ، فحصَبْنَهُ ووقرَ ذلك في نفس خديجة، حتى حقَّقَهُ اللَّه لها فكانت أول من آمن به[2].

ومثله: أنَّ جماعة من النَّصارى قدِمُوا من الشام تجَّاراً إلى مكة، فنزلوا بين الصَّفَا والمروة، فرأوه وهو ابنُ سبع سنين فعرفه بعضُهم بصفتِهِ في كتبهم وسَمْتِهِ في فراستهم، فقال له: مَنْ أنتَ؟ وابن من أنتَ؟ فقال: أنا محمد بن عبد اللَّه بن عبد المطلب. فقال: من ربُّ هذه، وأشارَ إلى الجبال، فقال: اللَّهُ ربُّها لا شريك له. فقال له: مَنْ ربّ هذه، وأشار إلى السماء فقال: اللَّهُ ربُّها لا شريكَ له. فقال له النَّصراني: فهل له ربٌّ غيره؟ فقال: لا تشككني في اللَّه ما له شريك ولا ضِدٌّ[3].

فقام بالتوحيد في صغره وفصح النَّصراني بخبره وأنذر بنبوَّته.

ومثله: أنَّه كان في كفالة جدِّهِ عبد المطلب، وكان أحبَّ إليه من جميع أولادِهِ، فلما حضرته الوفاة وَصَّى به إلى عمِّه أبي طالب، لأنَّه كان أخا عبد اللَّه لأبيه وأمِّه، وأنشأ يقول:

---

(١) السيرة النَّبويَّة: لابن كثير ج ٢١٢/١، والمستدرك: للحاكم ج ٦٠٢/٢، ولم يقرَّه الذهبي على تصحيحه.

(٢) ذكره الحافظ السيوطي في الخصائص ج ٩٢/١ وعزاه لابن سعد، بإسناده من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس.

(٣) هذا خبر غريب لم أجده في المصادر المعتبرة.

وصيت من كنيته بطالب عبد مناف وهو ذو تجارب
يا ابن الحبيب أكرم الأقارب يا ابن الذي مُذْ غابَ غيرَ آيب

فتقبَّلَ أبو طالب الوصية، وكان قد سمع من راهب إنذاراً فأنشأ يقول:

لا توصينَّ بلازِمٍ وواجبٍ فلستُ بالآنس غيرِ الراغب
بأنَّ حمدَ اللَّه قول الراهب إنِّي سمعتُ أعجبَ العجائب
من كل حَبْرٍ عَالِمٍ وكاتب

ومات عبد المطلب بعد ثمان سنين من مولده، فتكفَّله عمُّه أبو طالب، وخرج به إلى الشام في تجارة له، وهو ابن تسع سنين، فنزلَ تحت صومعةٍ بالشَّام عند بصرى، وكان في الصومعة راهب يقال له «بحيرا»[1] قرأ كتبَ أهل الكتاب، وعرف ما فيها من الأنباء والإمارات، فرأى بحيراً من صومعته غمامةً قد أظلَّت رسولَ اللَّه ﷺ من الشمس، فنزل إليه وجعل يتفقد جسده حتى رأى خاتمَ النُّبوَّة بينَ كتفيه، وسأله عن حاله في منامه ويقظته، فأخبره بها فوافقت ما عنده في الكتب، وسأل أبا طالب عنه فقال: ابني، فقال: كلّا، فقال: ابن أخي، مات أبوه وهو حمل، قال: صدقتَ، وعمل لهم ولمن معهم طعاماً لم يكن يعمله لهم من قبلُ، وقال: احفظوا هذا من اليهود والنَّصارى، فإنَّه سيِّدُ العالمين، وسيبعث نبيَّاً إليهم أجمعين، وإن عرفُوه معكم قتلُوهُ، فقالوا: كيف عرفتَ هذا؟ قال: السحابة التي أظلَّتْهُ ورأيت خاتم النُّبوَّة أسفل من غضروف كتفه، مثل التفاحة، على النعت المذكور، ورأيتُ المَدَرَ والشَّجَر يسجدان له ولا يسجدان إلَّا لنبي. وجاء رسول اللَّه ﷺ وكان في رعيه الإبل قد سبقه القوم إلى ظل شجرة، فلمَّا جلس مالَ ظِلُّ الشجرة عليه فقال لهم: هذا من آيات نبوَّته، وأن الروم إنْ رأوه عرَفُوهُ بصفتِهِ فيقتلُوه، ثم التفتَ فإذا هو بسبعة نفر قد أقبلوا

---

(١) خبر بحيرا الراهب ذكره ابن هشام في السيرة النبوية ج ١/ ١٨٠ ـ ١٨٢، والبيهقي في دلائل النبُوَّة ج ١/٣٠٧ ـ ٣١٢، وأبو نعيم في دلائل النُبوَّة ج ١/١٦٨ ـ ١٧٢، بعدَّة روايات مطوَّلة.

من الروم فاستقبلهم، وقال: ما جاء بكم؟ قالوا: جئنا لأنَّ هذا النَّبيَّ خارجٌ في هذا الشهر، فلم يبقَ طريقٌ إلاَّ بُعِثَ فيه ناسٌ ونحنُ آخرُ مَنْ بُعِثَ إلى طريقك هذا، فقال لهم: هَلْ خلفتُم خلفكم أحداً هو خيرٌ منكم؟ قالوا: لا، قال: أفرأيتم أمراً أرادَ اللَّه أن يقضيَهُ هل يستطيعُ أحدٌ من النَّاس رَدَّهُ؟ قالوا: لا. قال: فارجعوا، فتَابَعُوهُ على الرجوع، وزوَّدَهم الرَّاهبُ حتَّى أسرع به أبو طالب.

فكانت هذه البشائر من رهبان النَّصارى وما تقدَّم من أخبار اليهود وقد توارد عليها جميعهم مع اختلاف معتقدهم وتغاير كتبهم من أوائل الشهود على تعيين النبوَّة فيه.

أمَّا عن كتبٍ نُعِتَ فيها فأصَابُوه على النَّعْتِ، فكان إنذاراً إلَهيّاً تواردتْ عليه الخواطر، لأنَّ ما هجستْ به النُّفُوسُ من أمرٍ كان، وما تخيلته العقولُ ظهرَ وبانَ، لأنَّ القلوبَ طلائعُ الأقدار، والعُقول مَرَايَا الأسرار.

ومن هَوَاجسِ الإسلام: ما حدثنا أبو الحسن محمد بن علي بن محفل رحمه اللَّه قال: حدثنا عمر بن حماد الفقيه قال: حدثنا عمر بن محمد بن بحير السمرقندي قال: حدثنا أحمد بن عبد ربِّه الضَّبيُّ قال: أخبرنا عبد الرحمن بن نوح بن عبيد قال: حدثنا عمر بن بكير قال: حدثني أحمد بن القاسم عن الكلبي[1]

---

(١) الكلبي: هو محمد بن السَّائب، ذكره الحافظ الذهبي في ميزان الاعتدال ج ٣/٥٥٦ - ٥٥٩: «قال سفيان: قال الكلبي: قال لي أبو صالح: انظرْ كلَّ شيءٍ رويتُ عن ابن عباس فلا تَرْوِهِ. وقال البخاري: الكلبي تركه يحيى وابن مهدي، ثم قال البخاري: قال علي - ابن المديني -: حدثنا يحيى عن سفيان، قال الكلبي: كلُّ ما حدثتُكَ عن أبي صالح، فهو كذب. قال ابن عديٍّ: وقد حدَّث عن الكلبي سفيان وشُعبة وجماعة؛ ورضوه في التفسير، وأمَّا في الحديث فعنده مناكير، وخاصَّة إذا روى عن أبي صالح عن ابن عباس. وقال ابن حيان: كان الكلبي سَبَائِيّاً، من أولئك الذين يقولون إنَّ علياً لم يمت، وإنَّه راجع إلى الدنيا. وقال همام: سمعت الكلبي يقول: أنا سبائي. وقال أبو عَوانة: سمعت الكلبي يقول: كان جبريل يملي الوحي على النبي ﷺ، فلما دخل النبي ﷺ الخلاء، جعل يُملي على عليٍّ. وقال ابن معين: ليس بثقة. وقال الجوزجاني وغيره: كذَّاب. وقال الدارقطني وغيره: =

عن أبي صالح عن ابن عباس رحمة اللَّه عليه قال: لما ظفر سيف بن ذي يزن بالحبشة[1]، وذلك بعدَ مولدِ النَّبيِّ ﷺ بسنين أتى وفودُ العربِ وأشرافُها وشعراؤها لتهنئته ومدحه، وذكر ما كان من بلائه وطلبه بثأر قومه، فأتاه وفدُ قريش وفيهم عبد المطلب بن هاشم وأميَّة بن عبد شمس، وعبد اللَّه بن جدعان، وأسد بن خويلد بن عبد العُزّى، في ناس من أشراف قريش، فلمَّا قدموا عليه إذْ هو في رأس قصر يُقال له: غمدان وهو الَّذي يقول فيه أميَّة بن أبي الصَّلت:

اشربْ هنيئاً عليك التاجُ مرتفعاً   في رأس غَمْدَانَ دارَ منك محلالا

قال: فاستأذنُوا عليه فأذنَ لهم، فدخلوا عليه فإذا الملك مُضَمَّخٌ بالعنبر، يُرَى وَبيصُ الطِّيب من مفرقه، عليه بردان متَّزرٌ بأحدهما، مرتدٍ بالآخر، سيفُهُ بينَ يديه وعن يمينه وعن يساره الملوك، وأبناء الملوك والمقاول.

قال: فدنا عبد المطلب واستأذن في الكلام فقال: إن كنتَ ممَّن يتكلم بين يدي الملوك فتكلَّمْ فقدْ أذنَّا لكَ، فقال عبد المطلب: إنَّ اللَّه أحلَّكَ أيُّها الملِكُ محلاً رفيعاً صعباً منيعاً شامخاً باذخاً، وأنبتكَ منبتاً طابتْ أرومتُهُ وعزَّتْ جرثومتُه، وثبت أصلُهُ وبَسَقَ فرعُهُ في أكرم موطن وأطيب معدن، وأنت ـ أبيتَ اللَّعن ـ مَلِكُ للعرب وربيعها الذي يخصب به، وأنتَ أيها الملك رأس العرب الذي إليه تنقاد، وعمودها الَّذي عليه العماد ومعقلها الَّذي تلجأ إليه العباد، سلفك خيرُ سَلَفٍ وأنتَ لنا منهم خيرَ خَلَف، فلن يحملْ ذكر مَنْ أنتَ سَلَفُهُ، ولن يهلكْ مَنْ أنتَ خَلَفُه، ونحن أيُّها

= متروك. وقال ابن حبان: مذهبه في الدِّين، ووضوح الكذب فيه أظهر من أن يحتاج إلى الإغراق في وصفِهِ، ثم قال الذهبي: لا يحلُّ ذكره في الكتب، فكيف الاحتجاج به؟!.

(1) خبر سيف بن ذي يزن رواه البيهقي في دلائل النُّبوَّة ج ٢/ ٩ ـ ١٤ عن أبي يزن الحميري: إبراهيم بن عبد اللَّه بن محمد بن عبد العزيز بن عُفير بن عبد العزيز بن عُفير بن زُرعة بن سيف بن ذي يزن، ولم أجد له ترجمة في كتب التراجم. ورواه أبو نعيم في دلائل النُّبوَّة ج ١/ ٩٥ ـ ٩٩ من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، والكلبي هذا كذاب ساقط لا يحتج به. انظر ميزان الاعتدال ج ٣/ ٥٥٦ ـ ٥٥٩ ترجمة رقم ٧٥٧٤، فالخبر لا يثبت بهذا الإسناد.

الملك أهل حَرَم اللَّهِ وسدنةِ بيتِه، أَشْخَصَنا إليك الَّذي أبهجَنا لكشف الكرْب الَّذي فدَحَنا، فنحن وَفْدُ التَّهنئة، لا وَفْدَ التعزيـة، فقال ابْنُ ذي يَـزَن: فأَيُّهم أنتَ أيُّهـا المتكلِّم؟ فقال: أنا عبد المطلب بن هاشم، قال: ابن أختنا؟ قال: نعم ابن أختكم، قال: ادنُ، فأدْنَاهُ على القوم وعليه، فقال: مرحباً وأهـلاً وناقـةً ورحلاً، ومستنـاخاً سهلاً، وملكاً بحلاً، يعطي عطاءاً جَزْلاً قد سمعَ المَلِكُ مقالتَكم وعرفَ قـرابتَكم، وقبلَ وسيلتكم، فأنتم أهـلُ اللَّيل وأهـل النَّهار، لكم الكـرامة مـا أقمتم والحباء إذا ظعنتم.

قال: ثم استنهضوا إلى دار الضِّيافة والوفود، فأقامُـوا شهراً لا يصلون إليـه، ولا يأذَنُ لهم بالانصراف.

قال: ثم انتبه انتباهةً فأرسل إلى عبـد المطلب فـأعْلاَهُ وأدْنَى مجلسَـهُ وقال: يا عبد المطلب إنِّي مفوِّضٌ إليك من سرَّ علمي مـا لو كـان غيرك لم أبـح له، ولكن رأيتُك معدنَه، وأطلعتُك عليه، فليكن عندَكَ مطوياً حتَّى يأذَن اللَّه فيه، فإن اللَّه بالغٌ فيه أمرَهُ، إني أجـده في الكتاب المكنـون والعلم المخزون الَّـذي اخترنَـاهُ لأنفسنا واحتجبنَاهُ دونَ غيرِه، خبراً عظيماً وخطراً جسيماً فيه شـرفُ الحياة وفضيلة الـوفاة للنَّاس عامة ولرهطك كافَّة، ولك خاصَّة.

قال عبد المطلب: أيُّها الملك فمثلُكَ مَنْ سرَّ وبرَّ فما هو؟ فداك أهل الوَبَر زمراً بعد زمر.

قال: إذا وُلِدَ بتهامة غلامٌ بين كتفيهِ شامةٌ كانت له الإمامة، ولكم به الزعامة إلى يوم القيامة. فقال له عبد المطلب: أبيتَ اللَّعنَ، لقد أتيتَ بخبر ما أتَى بمثله وافد، فلولا هيبة المُلْك وإجلاله وإعظامه لسألته عن بشارته إيَّاي ما ازدَادَ به سُرُوراً.

قال ابن ذي يزن: هذا حينُهُ الذي يُولد فيه أَوَقَدْ وُلد اسمُهُ أحمد، يموت أبوه وأمه، وكفله جدُّه وعمُّه، قد ولدنَاهُ مراراً، واللَّه باعثُهُ جهاراً وجاعلُ منَالَه أنصـاراً، يُعـزُّ بهم أولياءه، ويُـذل لهم أعداءَهُ، يضـرب بهم النَّاس عن عـرض ويستفتح بهم كرائم الأرض، يكسر الأوثان ويخمد النيران ويعبد الرحمن ويدْحر الشَّيطان، قـولُهُ

فَصْلٌ وحكمُهُ عَدْلٌ، يأمر بالمعروف ويفعله، وينهى عن المنكر ويُبطله.

قال عبد المطلب: أيُّها الملك، عزَّ جَدُّك وعلا عقبُكَ وطابَ ملكُكَ وطالَ عمرُكَ، فهل الملك سارِّي بإفصاح فقد أوضح بعدَ الإيضاح؟ فقال ابن ذي يزن: والبيتِ ذي الحُجُب، والعلامات على النُّصب إنَّكَ يا عبد المطلب لجدُّه غير الكذب.

قال: فخرَّ عبد المطلب ساجداً، فقال ابن ذي يزن: ارفع رأسَكَ، ثلج صدرُكَ، وعَلاَ أمرُكَ، فهل أحسستَ شيئاً ممَّا ذكرتُ لك؟ فقال: نعم أيُّها الملك، كان لي ابن وكنت به معجباً رفيقاً، أو رقيقاً فزوجتُه كريمةً من كرائم قومي آمنة بنت وهب بن عبد مناف فأتتْ بغلامٍ سَمَّيْتُه محمّداً، مات أبوه وأمُّهُ، وكفلتُهُ أنا وعمُّه، بينَ كتفيه شامة، وفيه كل ما ذكرتَ من علامة.

قال ابن ذي يزن: إنَّ الَّذي قلتُ لك لَكَمَا قلتُ لك، فاحتفظْ بابنك واحْذَرْ عليه من اليهود، فإنَّهم له أعداء ولن يجعلَ اللَّه لهم عليه سبيلاً، فاطوِ ما ذكرتُهُ دون هؤلاء الرهط الَّذين معك، فإنِّي لستُ آمَنُ أن يُداخِلَه النَّفاسة من أن تكون لك الرياسة فيبغون له الغوائل وينصبون له الحبائل، وهم فاعلون وأبناؤهم، ولولا أنِّي أعلمُ أنَّ الموت يجتاحني قبل مبعثه لسرتُ بخيلي ورجلي حتى أصيرَ بيثرب دار ملكي، فإنِّي أجد في الكتاب النَّاطق والعلم السَّابق أن يثربَ استحكام أمرِهِ وأهل نصرتِهِ وموضع قبره، ولولا أنِّي أقيه الآفات، وأحذَرُ عليه العاهات لأعلنتُ على حداثة سنِّهِ ذكرَهُ وأوطيتُ أسنان العرب عقبه، ولكنِّي صارفٌ ذلك إليك بغير تقصير ممَّن معك. ثم أمرَ لكلِّ رجلٍ من القوم بعشرة أعبد وعشر إماء سود وحلَّتين من حُلَل البُرود، وخمسة أرطالِ ذهب، وعشرة أرطال فضَّة وكرش مملوءة عنبراً، ولعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك، وقال له: إذَا حالَ الحَوْلُ فائتني بأمرِهِ وما يكون من خبرِهِ.

قال: فمات ابنُ ذي يزن قبل أن يحول الحول، قال: فكان عبد المطلب كثيراً يقول: يا معشر قريش لا يغبطني رجل منكم بجزيل عطاء الملك، وإنْ كان كثيراً،

فإنَّه إلى نفادٍ، ولكن ليغبطني بما يبقى لي ولعقبي ذكرُهُ وفخرُهُ وشرفُهُ، فإذا قيل له: وما ذاك؟ قال: ستعلمون ما أقولُ لكم ولو بعدَ حينٍ[1].

ومن هواجس الإلهام[2]: أنَّه نشأ في قريش على أحسن هدى وطريقة، وأشرف خلُق وطبيعة، وأصدق لسان ولهجةٍ حتى سمَّتْهُ قريش في حداثته «الأمين» تأسيساً لِما سيكون.

وكانت خديجة بنت خويلد ذات شرف ويسار[3]، وكان لها متاجرُ ومضارباتٌ فلما عرفتْ أمانَةَ رسولِ اللَّه ﷺ وصدقَ لهجتهِ أبضعتْهُ مالاً يتَّجرُ بهِ إلى الشام مُضَارباً، وأنفذت معه مولاَهَا مَيْسَرَةَ ليخدمه في طريقه، فنزل ذاتَ يوم تحتَ صومعة راهبٍ فرأى الرَّاهبُ من ظهور كرامة اللَّه تعالى له ما علم أنَّه لا يكون إلاَّ لنبي، فقال لميسرة: من هذا؟ فقال: رجل من قريش، من أهل الحرم، فقال: إنَّه نَبيٌّ، فكان ميسرةُ يَرَاه إذا ركب تُظلُّه غَمَامَةٌ تقيه حرَّ الشَّمس.

فلمَّا قدم على خديجة قصَّ ميسرة عليها حديث الراهب وما شاهده من ظل الغمامة، وما تضاعف من ربح التجارة، فتنبهتُ به على عظم شأنِهِ وشواهدِ برهانهِ، فرغبتْ خديجةُ في نكاحه، وكان قد خطبها أشرافُ قريش فامتنعتْ، وسَفَرَ بينهما في النكاح ميسرة وقيل مولاه يولده، وخافت امتناع أبيها عليه، فعقرت له ذبيحة وألبسته حبرة وغلَّفتْهُ بطيب وعبير وسقته خمراً حتى سكر وحضرَ رسولُ اللَّه ﷺ ومعه عمُّهُ حمزة بن عبد المطلب، واختلف في حضور عمِّهِ أبي طالب، فقال الأكثرون: حضر

---

(١) تقدم ذكر سنده في أول سياقه.

(٢) ليس ما ذكره فيما بعد من هواجس الإلهام، بل هو من الحقائق الملموسة يقيناً.

(٣) خبر خديجة «أم المؤمنين الكبرى» رضي اللَّه تعالى عنها وأرضاها، في اختيارها لمحمد ﷺ من الأخبار المشهورة المعروفة، وكذا قصة ميسرة في سفره معه ﷺ إلى بلاد الشام للتجارة، وذكر ما رآه من أحواله الشريفة المنيفة، مشهورة معروفة، رواها الحافظ البيهقي في دلائل النُّبوَّة ج ٢/ ٦٥ - ٧٣، والحافظ أبو نعيم في دلائل النُّبوَّة ج ١/ ١٧٢، وكذا ذكر هذه الأخبار جميع أصحاب السِّيَر.

مع حمزة وخطبها من أبيها، فأجابه وزوَّجه وهو ابنُ خمسةٍ وعشرين سنة، وخديجة ابنة أربعين سنة، ودخل بها من ليلته، فلمَّا أصبحَ خويلدُ وصحَا رأى آثار ما عليه، فقال: ما هذا العَقِيرُ والعبيرُ والحبرُ؟ فقيل: زوجتَ خديجة بمحمَّدٍ، قال: ما فعلتُ؟ قيل له: قبيحٌ بك هذا ولقد دَخلَ بها، فرضي، ولأجل ذلك قال رسول اللّه ﷺ: (لا يُرفَعُ إليَّ نكاحُ نَشْوَان إلاَّ أجزتُهُ)[1]، وقامت خديجة رضي اللّه تعالى عنها بأمرهِ حتى كفته أمر دُنْياهُ، فكان ذلك عوناً من اللّه تعالى ولطفاً وتفضّلَ به علينا منّاً وإسعافاً.

ومن هواجس الإلهام: ما حكاه عامر بن ربيعة قال: سمعتُ زيد بن عمرو بن نفيل[2] يقول: أنا أنتظر نبيّاً من ولد إسماعيل من بني عبد المطلب، ولا أراني أدركه، وأنا أؤمِنُ به وأُصدِّقُهُ، وأشهدُ أنَّه نبي، فإن طالتْ بك مدَّةٌ فرأيتَهُ فاقْرَأْهُ منِّي السَّلام، وسأخبرك ما نعتُه حتى لا يخفى عليك. قلتُ: هلمَّ، قال: هو رجلٌ ليسَ بالقصير ولا بالطويل ولا بكثير الشعر ولا بقليله، وليس يُفارق عينيهِ حمرةٌ، وخاتم النُّبوَّة بين كتفيهِ واسْمُهُ: أحمد، وهذا البلد مولده، ثم يخرجه قومُه منها، ويكرهون ما جاء به حتى يهاجر إلى يثرب، فيظهر أمرُهُ، فإيَّاكَ أن تُخْدَعَ عنه، فإنِّي طفتُ البلادَ

---

(١) النَّشْوَان: السّكران؛ أوّل السُّكْر، أو هو السُّكر نفسُهُ، ورجل نَشْوَان بيِّنُ النَّشْوَة. وهذا الحديث لا يصح ولا يثبت عن النبي ﷺ، بل هو مختلق موضوعٌ، وكيف ذلك وهو الذي حرَّم الخمر وشربها، وقال: (لعَنَ اللّهُ الخمرَ، وشاربَها، وساقِيَها، وبائِعَها، ومبتاعَها، وعاصِرَها، ومُعْتَصِرَها، وحامِلَها، والمحمولةَ إليهِ، وآكِلَ ثمنها) صحيح الجامع الصغير رقم ٥٠٩١ للشيخ محمد ناصر الدين الألباني. والعجب من المؤلف رحمه اللّه تعالى كيف يذكر هذا الخبر الباطل!؟.

(٢) زيد بن عمرو بن نُفيل: هو والد سعيد بن زيد «أحد العشرة المبشرين بالجنّة»، أدرك النبي ﷺ قبل النُّبوَّة، وكان على دين إبراهيم عليه السَّلام، وهو ابن عم عمر بن الخطاب، وكان يُوحِّد اللّه تعالى، ويعيب على قريش شِرْكَهم وجاهليتهم. وقد سُئل عنه رسولُ اللّه ﷺ؟ فقال: (يُبعثُ أُمّةً وحْدَهُ يومَ القيامة)!! انظر خبره في صحيح البخاري ج ٥/٥٠، وفي دلائل النُّبوَّة للبيهقي ج ٢/١٢٠ ـ ١٢٦ و ١٤٤ ـ ١٤٥، وأسد الغابة: لابن الأثير ج ٢/٢٣٦ ـ ٢٣٧، والإصابة: لابن حجر ج ٣/٦١ ـ ٦٤ رقم ٢٩١٧.

كلّها أطلبُ دين إبراهيم، فكلُّ من أسألُهُ عنه من اليهود والنّصارى والمجوس يقُولُون: هذا الدِّينُ وراءَكَ وينعتُونَهُ مثلَ ما نعتُّ لك، ويقولُون: لم يبق نبيٌّ غيرُهُ. قال عامر: فلما أسلمتُ أخبرتُ رسولَ اللَّه ﷺ بقول زيد وأقرأتُه منه السَّلام فردَّ عليه السَّلام وترحَّمَ عليه وقال: (قد رأيتُهُ في الجنَّةِ يسحب الذُّيول)[1].

ومن هواجس الإلهام: ما رواه الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال: بعثَ اللَّه تعالى إلى كِسْرَى مَلَكاً وهو في بيت إيوانه الذي لا يدخل عليه فيه، فلم يرعه إلاَّ به قائماً على رأسه في يده عصًا بالهاجرة من ساعته التي كان يَقِيلُ فيها، فقال: يا كسرَى أتُسْلم أو أكسرُ هذه العَصَا؟ فقال: بهْلْ بهلْ، فانصرف عنه، فدَعَا حراسه وحجابه فتغيَّظ عليهم فقال: مَن أدخل هذا الرجل؟ فقالوا: ما دخل عليك أحدٌ ولا رأينَاهُ.

حتى إذا كان العام القابل أتاه في الساعة التي أتاه فيها، فقال له كما قال، ثم قال: أتسلمُ أو أكسِرُ هذه العصَا؟ فقال: بهل بهل ثلاثاً، فخرج عنه، فدَعَا كسرَى حرَّاسَهُ وحجَّابه فتغيظَ وقال لهم كما قال أوَّل مرَّة، فقالوا: ما رأينا أحداً دخلَ عليك.

حتى إذا كان في العام الثالث أتاه في الساعة التي أتاه فيها، فقال له كما قال، ثم قال: أَتُسْلِمُ أو أكسِرُ هذه العصا؟ فقال: بهلْ بهلْ، فكسرَها ثم خرجَ، فلم يكن إلاَّ تهوُّرُ ملكِهِ وانبعاث ابنه والفرس على قتله حتى قَتَلُوهُ[2].

ومن هواجس المنام: ما حكاه ابن قتيبة أن كسرى أبرويز ابن هرمز كان سائراً ذات يوم فهوَّم على مركبه وطال حتى استغفل فأيقظه بعض قوَّادِهِ، فانتبه مذعوراً لرؤيا رآها قطعها عليه الموقظ له، فقال: رأيتُ قائلاً لي أنَّكم غيَّرتم فغيَّرنَاكم، ونُقِلَ الملكُ إلى أحمد، وقيل له: سلّم ما بيدك إلى صاحب الهراوة، إلى أن وَرَدَ عليه

---

(١) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى ج ١/١: ١٠٦، و١/٣: ٣٧٦، والبداية لابن كثير ج ٢/٢٤٠.

(٢) ذكر هذا الخبر الطبري في تاريخه ج ١٩١/٢، عن ابن إسحاق عن عبد اللَّه بن أبي بكر عن الزهري.

كتابُ النعمان بن المنذر يخبر فيه أن خارجاً نجم بتهامة يخبر أنه رسول الله إلى السماء والأرض إلى أهل الأرض كافّةً، فارتَاعَ لذلك وأكبرَهُ وعلم أنه الّذي رآه في منامه، وكان يتوقعه.

ومن هواجس المنام: ما رواه عروة بن مضرس عن مخرمة بن نوفل عن أمّه رقيقة بنت أبي صيفي بن هاشم قالت: تَتَابَعَتْ على قريش سنونٌ أمحلتِ الضرع، وأدقت العظم فبينا أنا نائمة للهمِّ أو مهمومة، إذا هاتفٌ يصرخُ بصوتٍ صخب يقول: يا معشر قريش إنَّ هذا النَّبيَّ المبعوثَ فيكم قد أظلَّتكم أيَّامُهُ، وهذا إبَّانُ نجومِهِ، فحيِّ هلا بالحياء والخصب، ألاَ فانظروا رجلاً منكم وسيطاً جسيماً أبيض بَضّاً أوْطف الأهداب سهل الخَدَّين، أشم العرنين له فخرٌ يكظم عليه، وسنه يهدي إليه فليخلص هو وولده وليهبط إليه من كل بطن رجل فليستنوا من الماء، وليمسُّوا من الطيب، ثم ليستلموا الركن، ثم ليرتقوا أبا قبيس، فليستسقِ الرجل وليؤمَّ القوم، فغثتم ما شئتم، فأصبحتُ، علمَ اللّهُ تعالى، مذعورةً، وقد اقشعرَّ جلدي وولَه عقلي، واقتصصتُ رؤياي، فوالحرمة والحرم ما بقي بها أبطحي إلاَّ قال: هذا شَيْبَةُ الحمد ـ يعنون عبد المطلب ـ فتنامتْ إليه رجالاتُ قريش وهبط إليه من كلِّ بطنٍ رجلٌ فسنُّوا ومسوا واستلموا، ثم ارتقوا أبا قُبيس وطبقوا جانبيه ما يبلغ سعيهم مهلة حتى استووا بذروة الجبل، فقام عبد المطلب ومعه رسولُ اللّه ﷺ غلامٌ حين أيفعت أو كرب فقال: اللّهمَّ سادَّ الخلة وكاشف الكربة أنت معلَّمٌ غير معلَّم ومسؤولٌ غير مبخَّل، وهذه عبادك وإماؤك بعذرات حرمك يشكون إليك سنتهم، أذهبتِ الخُفَّ والظِّلْفَ، اللّهمَّ فأمطر علينا غيثاً مغدقاً مريعاً. فوالكعبة[1] ما رَاحُوا حتى تفجَّرت السماء بمائها وألط الوادي بثجيجه، فسمعتُ شيخين من قريش وأجلّتها: عبد اللّه بن جدعان وحرب بن أميَّة وهشام بن المغيرة يقولون لعبد المطلب: هنيئاً لك أبا البطحاء، أي عاش بك أهل البطحاء، وفي ذلك يقول رفيقه:

---

(١) ثبت شرعاً أنه لا يُقسم إلاّ باللّه تعالى: بأسمائه وصفاته، أمَّا الحلف بمخلوقاته فممنوع منه شرعاً، قال رسول اللّه ﷺ: (من كان حالفاً فليحلف باللّه).

لمـا فَقَـدْنَـا الحَيَـا واجلوَّذَ المـطرُ — بشيبـةِ الحمـدِ أسقَى اللَّهُ بـلدتَنَـا

سَحّـاً فعاشتْ بـه الأنعـامُ والشجـرُ — فجـادَ بـالمـاء جـوْنـيٌّ لـه سبـلٌ

كت في الأنـام لـه عـدلٌ ولا خـطرُ[١] — مُبـاركُ الأمـرِ يُسْتَسْقَى الـغَمَـامُ بـهِ

ومن هَـواجس الإنذار والإلهـام والمنام: مـا رواه أبو أيـوب يعلى بن عمر أن البجلي عن مخزوم بن هانىء المخزومي عن أبيه ـ وأتتْ لـه مائةُ وخمسون سنـة ـ قال[٢]: لمَّا كانت اللَّيلةُ الَّتي وُلِدَ فيها رسولُ اللَّه ﷺ أو بُعث ارتجس إيوانُ كسرَى فسقطت منه أربع عشرة شرافةً، وخمدتْ نارُ فارس ولم تخمد قبل ذلك بألف عام، وغارت بحيرة ساوة، فأفزعَ ذلك كسرَى فلبس تاجَهُ وقعدَ على سريرهِ وجمعَ وزراءَهُ ومرازبتَهُ، وأخبرهم برؤياه فقال الموبذان: وأنا، أصلح اللَّه تعالى الملك، قد رأيتُ في هذه الليلة إبلاً صعاباً تقودها خيلاً عراباً، قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادنا، فقال: أيُّ شيءٍ هذا يا موبذان؟ فقال: حادثة تكـون من ناحيـة العرب. فكتب إلى النعمـان بن المنذر: أنِ أبعثْ إليَّ بـرجلٍ عَـالِمٍ أسألـه عمَّـا أُريـد، فـوجَّـهَ إليـه عبدَ المسيح بن عمرو بن نفيلة الغَسَّاني، فلمَّا قدم عليه أخبره، فقـال: أيُّها الملك عِلْمُ ذلك عندَ خال لم يسكن مشارق الشام يُقال له سطيح، قال: فَأْتِهِ فـاسألـه عمَّا أخبرتُك به، ثم آتي بجوابه. فركب عبد المسيح راحلته حتى ورد على سطيـح وقد أشفى على الموت، ووضع على شفير قبره، فسلَّم عليه وحيَّاه فلم يخبر سطيح جواباً فأنشأ عبد المسيح يقول:

يـا فـاضـل الخـطة أعيت مَنْ وَمَنْ — أصـمُّ أم يسـمـع غـطريف الـيـمـن

وأُمُّـه مـن آل ذئـب بـن حـجـنْ — أتـاك شيـخُ الـحيِّ مـن آل سـنـن

رسـولُ قيْـل العجم يسـري للوسَنْ[٣] — أبـيض فـضـفـاض الـرداء والـبـدن

---

(١) هذا الخبر رواه الحافظ البيهقي في دلائل النُّبوَّة ج ٢/١٥ ـ ١٧.

(٢) هذا الخبر رواه الحافظ البيهقي في دلائل النبوَّة ج ١/١٢٦ ـ ١٢٩.

(٣) عند البيهقي «بالرَّسَن» مع اختلاف في التقديم والتأخير والزيادة في الأبيات ج ١/١٢٨.

فرفع سطيح رأسه وقال: عبد المسيح على جملٍ مشيحٍ وَافَى إلى سطيح وقد أوْفَى به إلى الضَّريح، بعثك ملك بني ساسان لارتجاس الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا الموبذان، رأى إبلاً صِعَاباً تقودُ خيلاً عِـرَاباً، قـد قطعتْ دجلةَ وانتشرتْ في بلادِها، ثم قال: يا عبد المسيح إذا كثرتِ التِّلاوةُ، وبُعث من تهامة صاحبُ الهراوة، وفاضَ وادي السَّمَاوَةَ، وغاضت بحيرةُ ساوة، وخمدتْ نارُ فارس فليسَ الشام لسطيح شاماً يملك منهم ملك وملكات بعدد الشُّرُفات، وكل ما هـو آت. ثم قضى سطيحُ فسَارَ عبد المسيح على راحلته وهو يقول:

شمِّـرْ فـإنـك مـاضي الهم شمِّير ... ولا يـغـرنَّـك تـفـريـقٌ وتـغـيـيـرُ

إنْ يُمْسِ مُلْكُ بني ساسان أفرطهم ... فـإنَّ ذا الـدَّهـرِ أطـوارٌ دَهَـاريـرُ

فـربَّمـا أصحـوْا يـومـاً بـمنزلـةٍ ... تهـاب صولَهُمُ الأُسْدُ المهاصيرُ

منهم أخـو الصِّرح بهرام وإخوتـه ... والـهـرْمـزان وسـابـور وسـابـورُ

والنّـاسُ أولادُ عَـلاَّتٍ فمَنْ علمُـوا ... أن قـد أقـلَّ فـمهجـورٌ ومَحْقُـورُ

وهم بـنُـو الأُمِّ إلاَّ أنْ يـروْا نَـشَبـاً ... فـذاك بـالغيب محفـوظٌ ومنصـورُ

والخيـرُ والشَّرُّ مقـرونَـانِ في قَـرَنٍ ... فـالـخيـرُ مـتَّبـعٌ والـشَّـرُّ مَحْـذُورُ

فلمَّا قدم عبد المسيح على كسرَى وأخبرَهُ، قـال كسرَى: إلى أن يملك منّا أربعة عشر ملكاً قد كانت أمور، فملك منهم عشرةُ ملوك أربع سنين، وزال ملكُهُم عن يزدجر الرابع عشر بعد اثنتي عشرةَ سنة[1].

فإن قيل: فهذا قولُ كاهن قد أبطلته النُّبوَّةُ، فلم يقبلْ قـولُهُ في إثبـات النُّبوَّةِ؟ فعنه جوابان:

أحدُهما: أنه تأويل رؤيا تحققتْ، خرج بها عن حكم الكهانة.

---

(١) رواه كله الحافظ البيهقي في الدلائل ج ١/١٢٦ ـ ١٢٩، وذكره ابن هشام في السيرة النبوية ج ١/١١ ـ ١٤، والطبري في تاريخه ج ٢/١٣١ ـ ١٣٢، ابن كثير في البداية ج ٢/٢٦٨ ـ ٢٦٩.

والثاني: أنَّ علمها بنقل الجن كهتوف الجن كما قال الله تعالى: ﴿وإنَّ الشَّياطينَ لَيُوحُونَ إلى أوليَائِهِمْ﴾[1] فإذا سبر ما اختلفت طرقُهُ وتغاير وصفُهُ خرجَ عن القِلَّة إلى التَّكاثر، وعن الآحاد[2] إلى التَّواتر، فصارَ الظَّنُّ معلوماً والتَّوهم محتوماً.

---

(1) سورة الأنعام، الآية ١٢١.

(2) ليس جميع ما ذكره ممَّا يُحتج به، فكثير من الأخبار التي ساقها لا يصح ولا يثبت، كما رأيت في التعليق عليها، ولكن الأخبار ذات الأسانيد الواهية إذا سقط الاحتجاجُ بها، لا تؤثر على صحة دعوى النُّبوَّة وإثبات حقائقها، فهي غنية عن كل خبر لا يصح إسناده، والحق دائماً غنيٌّ عن الباطل، والصدق لا يُقرُّ بالكذب، والصحيح لا ينفعه العليل، فليت المؤلف رحمه الله تعالى اقتصر على الأخبار الصحاح، وأراح القرَّاء من عناء الروايات الضعيفة والواهية، وفي الصحيح ما يكفي!.

الباب الثامن عشر

في مبادئ نسبه وطهارة مولده ﷺ

تمهيد

لمَّا كان أنبياءُ اللَّه صفوةَ عبادِهِ، وخيرَ خلقِهِ؛ لِمَا كلَّفهم من القيام بحقِّهِ، استخلَصَهُمْ من أكرم العناصر، وأمدَّهم بأوْكَدِ الأوَاصِرِ، حفظاً لنسبِهِم مِنْ قَدْحٍ، ولمنصبهم من جَرْحٍ، لتكون النُّفُوسُ لهم أَوْطَأَ والقُلُوبُ لهم أصفَى، فيكون النَّاسُ إلى إجابتهم أسرع، ولأوامرهم أطوع، ولمّا تفرعَ المُلْكُ عن إبراهيم واختصَّتِ النُّبوَّة بولده؛ انحازتْ إلى ولد إسحاقٍ دونَ إسماعيلَ، فصارت في بني إسرائيل لكثرتهم بعد القِلَّةِ، وقوَّتهم بعد الذِّلَّة، فبدأت النبوة بموسى وانختمت بعيسى. ولمّا كثر ولد إسماعيل وانتشروا في الأرض تميَّز بعدَ الكثرةِ ولدُ قحطان عن ولد عدنان، واستولت قحطان على الملك انحازتِ النُّبوَّةُ إلى وَلَدِ عدنان، فأوَّلُ مَنْ أسَّس لهم مجداً وشيَّدَ لهم ذكراً «معدُّ بن عدنان» حين اصطفاه بختنصر، وقد مَلَكَ أقاليم الأرض، وكان قد همَّ بقتله حين غَزَا بلادَ العرب، فأنذرَهُ نبيٌّ كان في وقتِهِ بأنَّ النُّبوَّةَ في ولدِهِ، فاسْتَبْقَاهُ وأكرمه ومكَّنه واستولى على تِهَامَةَ بيَدٍ عاليةٍ وأمرٍ مُطَاعٍ، وفيه يقول مهلهلٌ الشَّاعرُ:

غَنِيَتْ دارُنا تهامة بالأو س وفيها بنو معدٍّ حُلُولا[1]

ثم ازدادَ العزُّ بولدِهِ نزار وانبسطت به اليَدُ، وتقدَّم عندَ ملوك الفرس واجتبَاهُ تستشف ملك الفرس، وكان اسمُهُ خلدان، وكان مهزولَ البدن، فقال الملك: ما لك

---

(١) تاريخ الطبري ج ٢/٢٨٦ ولفظه: «في الدَّهر» بدل «بالأوس».

يا نزار؟ وتفسيره في لغتهم يا مهزول، فغلب عليه هذا الاسم فسمي نزاراً[1]، وفيه يقول قمعة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان[2]:

جـديسا خلفنَـاهُ وطمسا بـأرضـه ... فـأكـرمْ بنـا عنـدَ الفخـار فخـارا

فنحنُ بنـوُ عـدنـانَ خلدانُ جـدُّنَـا ... فسمَّـاهُ تـستـشفُّ الـهُـمَـامُ نـزارا

فسُمِّي نـزاراً بعـدمـا كـانَ اسْمُـهُ ... لـدى العـرب خَلدان بـنُـوهُ خيـارا

وكان لنزار أربعةُ أولاد: مضر وربيعة وأياد وأنمار، فلمَّا حضرته الوفاةُ وصَّاهم فقال: يا بنيَّ هذه القُبَّةُ الحمراء وما أشبهها لأياد، وهذه الندوة والمجلس وما أشبهه لأنمار، فإن أشكلَ عليكم واختلفتُمْ فعليك فالأفعى الجرهمي بنجران، فاختلفوا في القسمة فتوجهوا إليه، فبينما هم يسيرون إذ رأى مُضَرُ كلأً قد رُعِي، فقال: إنَّ البعير الذي رعى هذا الكلأ لأعور، وقال ربيعة: هو أزور، وقال أياد: هو أبتر؛ قال: نعم، وقال أنمار: هو شرود؟ قال: نعم، وهذه واللَّه صفة بعيري فدلوني عليـه، فقالـوا: واللَّه ما رأينَاهُ، قال: قد وصفتُموهُ بصفتِهِ فكيفَ لم تروه؟ وسارَ معهم إلى نجران حتى نزلوا بالأفعى الجرهمي، فنادَاهُ صاحب البعيـر: هؤلاء أصحابُ بعيـري وصفُوهُ لي بصفتِهِ، وقالوا: لم نَرَهُ، فقال لهم الأفعى الجرهمي: كيف وصفتُمُوه ولم تَرَوْهُ؟ فقال مضر: رأيتُه يرعَى جانباً ويترك جانباً، فعرفتُ أنَّه أعور. وقال ربيعـة: رأيتُ إحدى يديهِ ثابتَةَ الأثـر، والأخرَى فـاسدةَ الأثـر، فعرفتُ أنَّـه أزور. وقال أيـاد: رأيتُ بَعْرَهُ مجتمعاً فعرفتُ أنَّـه أبتر. وقـال أنمار: رأيتُـه يرعى المكـانَ الملتفَّ ثم يجوزُهُ إلى غيرِهِ، فعرفتُ أنَّه شرود. فقال الجرهمي لصـاحب البعير: ليسـوا أصحاب بعيـرك فاطلب غيرهم، ثم سألهم مَنْ هُمْ؟ فأخبروه أنَّهم بنو نزار بن معدّ، فقال: أتحتاجُون إليّ وأنتُم كما أرى؟ فدَعَا لهم بطعامٍ فأكلُوا وأكل، وبشرابٍ فشربُوا وشـربَ، فقال مضرُ: لم أرَ كاليوم خمراً أجودَ لولا أنها نبتت على قبر، وقـال ربيعة: لم أرَ كـاليوم

---

(1) انظر تاريخ الطبري ج ٢/ ٢٧٠.

(2) قال ابن الـوردي في تاريخه: ونسبه ﷺ إلى عدنان متفقٌ عليه. ج ١/ ١٣١.

لحماً أطيب لولا أنَّه رُبِّيَ بلبن كلبة، وقال أياد: لم أرَ كاليوم رجلاً أسرى لولا أنَّه يُدْعَى لغير أبيهِ، وقال أنمار: لم أرَ كاليوم أنفعُ في حاجتِنَا.

وسمع الجرهمي الكلام فتعجّب لقولهم وأتى أُمَّهُ فسألها فأخبرته أنها كانت تحتَ مَلِكٍ لا وَلَدَ له فكرهت أن يذهبَ المُلْك، فأمكنتْ رجلاً من نفسِها كان نزلَ به فوطئها، فحملتْ منه به، وسأل القهرمان عن الخمر، فقال: من كرْمَةٍ غرستُها على قبر أبيك، وسأل الراعي عن اللَّحم، فقال: شاةُ أرضعتُها بلبن كلبة لأنَّ الشَّاة حين ولدتْ ماتتْ ولم يكنْ وَلَد في الغنم شاةٌ غيرُها، فقيل لمضر: مِن أينَ عرفتَ الخمرَ ونَبَاتَها على قبرٍ؟ قال: لأنَّه أصابني عليها عطشٌ شديدٌ، وقيل لربيعة: مِنْ أينَ عرفتَ أنَّ الشَّاةَ ارتضعتْ على لبن كلبة؟ قال: لأنِّي شممتُ منه رائحةَ الكلبِ، وقيل لأياد: مِنْ أينَ عرفتَ أنَّ الرجل يُدْعَى لغير أبيهِ؟ قال: لأنِّي رأيتُه يتكلَّف ما يعمله، ثم أتَاهُمْ الجرهمي وقال: صِفُوا لي صفتَكُم، فقصُّوا عليه ما أوصَاهُمْ به أبُوهم نزار، فقضى لمضر بالقُبَّة الحمراء، والدنانير والإبل وهي حمر، فسمي مضر الحمراء، وقضى لربيعة بالخباء الأسود والخيل الدُّهْم، فسمي ربيعة الفرس، وقضَى لأياد بالخادمة الشمطاء والماشية البلق، وقضى لأنمار بالأرض والدراهم. وهذا الذي ظهر في أولاد نزار من قوة الذكاء وحدَّة الفطنة تأسيساً لتميزهم بالفضل واختصاصهم بوفور العقل مقدّمة لما يُراد بهم، ثم تفرَّقت القبائل منهم، فاختص ولد مضر بن نزار بالحرم فتميَّزُوا بأنسابهم، وتناصروا بسيوفهم حتى استولت قريش على الحرم بعد جُرْهم وخزاعة، لأنَّ جرهم كانوا جبابرة فبَغَوْا وتجبَّرُوا حتى بعث اللّه تعالى عليهم الرعاف والنمل، فأفناهم وأفضَى أمرَهُمْ إلى عامر بن الحرث وهم القائلون:

وادٍ حرامٌ طيرُهُ وَوَحْشُهُ نحنُ ولاتُهُ فلا نغشّه

فاجتمعت خزاعة ورئيسهم عمرو بن ربيعة بن حارثة على عامر بن ربيعة، وبقيَّة جرهم فأخرجُوهُ من الحرم واستولتْ عليه خزاعة، وولَّى البيتَ عمرو بن ربيعة فقال:

نحن وَلِيْنَا البيتَ بعدَ جُرْهُمْ نَعْمُرُهُ من كلِّ باغٍ مُلْحد

ولمَّا انحاز عامر بن الحرث مع بقية جرهم عن الحرم عند استيلاء خزاعة عليه خرج بغَزَالَيْ الكعبة وحجر الركن يلتمس التوبة وهو يقول:

لا هـمَّ إنَّ جـرهـمـاً عُـبَّـادُك   الـنَّـاسُ طـرَفٌ وهـم تِـلَادُك

فلم تقبل توبته فألقى غزالَيْ الكعبة وحجر الركن في زمزم ودفنها وخرج ببقيَّة جُرْهُم وهو يقول:

كـأنْ لم يكن بين الحجون إلى الصفـا   أنـيس ولم يـسمَّـر بـمـكـة سـامـر

بـلى نحـن كـنَّـا أهلهـا فـأبـادنـا   صـروف الليـالي والـدهـور الغـوابر

فلما رأى عامر بن الحرث الجرهمي ما صاروا إليه بعد الكثرة والقوة قال(١):

يـا أيُّهـا النَّـاسُ سيـرُوا إنَّ قَصْـرَكم   أنْ تُصبِحُـوا ذات يـوم لا تسيـرونَـا

كنَّـا أنـاسـاً كمـا كـنتم فغيَّـرَنَـا   دهـرٌ فـأنتم كمـا كنَّـا تكـونُـونَـا

حُثُّـوا المـطيَّ وأرخُـوا من أزِمَّتِـهـا   قبـلَ المماتِ وقَـضُّوا ما تَقَضُّـونَـا

فوليتْ خزاعةُ البيتَ والحرم، غير أنَّه كـان في مضر من أمـره ثلاث خـلال: إحداهن: الدفـع من عرفـة إلى المزدلفـة، وكان إلى الغـوث بن مرٍّ وهـو صوفـة، **والثانية**: الإفاضة من مزدلفة إلى مِنَى للنحر كان لزيد بن عـدوان، وآخر من أفضى إليه أبو سيارة، **والثالثة**: النسيء لشهور الحج، كان للمتلمس من بني كنانة، وآخر من أفضى إليه حتى جاء بالإسلام ثمامة بن عوف. فشركت مضر خزاعـة في معالم الحج وإن كانت زعامة الحرم لخزاعة وقريش في أوزاع بني كنانة من مضر، وأفضت معالم الحج من أوزاع مضر إلى قريش فولَّاهَا منهم كعبَ بن لؤي بن غالب، وكان يجمـع النَّاس في كـل يوم جمعـة ويخطب فيـه على قريش، فيـأمرهم بـالمعروف وينهـاهم عن المنكر ويقـول: حرمُكُمْ عـظِّمُوهُ، وتمسَّكُـوا به فسيـأتي له نبأ عظيم وسيخرج منه نبيٌّ كريمٌ، وهو أول من فَصَحَ بالنُّبوَّة حين شاهد آثارَها وعرف أسرارها

---

(١) تاريخ الطبري ج ٢/٢٨٤ ـ ٢٨٥، والسِّيرة النَّبويَّة: لابن هشام ج ١/١١٤ ـ ١١٦.

من انقياد العرب إليهم تديُّناً بحرمهم، وإعظاماً لكعبتهم، وكان ذلك إلهاماً هجست به نفسه، وتخيُّلاً صدقَ فيه حَدَسُهُ، لأنَّ لكل خطب نذيراً، ولكل مستقبل بشيراً. وانتهضت خزاعة في الحرم إلى جليل بن الحبشية الخزاعي، فكان يلي الكعبةَ وأمرَ مكَّة، فتزوَّج إليه قصي بن كلاب[1] فاشتدَّ به قصي، وكان اسمه زيداً، فلما هلكَ جليل رأى قصي أنَّه أولى بالولاية على الكعبة وأمر مكة من خزاعة، فاستولَى عليها.

واختلف في سبب استيلائه فقال قوم: لأنَّ جليلاً أوصى إليه بذلك. وقال آخرون: بل اشتراه من آل جليل بزقٍّ من خمرٍ، وقال آخرون: بل استنصر على خزاعة بأخيه لأُمِّه رزاح بن ربيعة القضاعي، حتى أجلى خزاعة عن مكة فخلصت الرياسة لقُصَيٍّ، فجمع قريشاً وهم في أوزاع بني كنانة، فمنعت بنو كنانة منهم، فحاربهم بمن أطاعه حتى أفردهم منهم، وجمعهم بمكة فسُمِّي مجمعاً، وفيه يقول شاعرهم:

أبونا قصي كان يدعى مُجَمِّعاً ... به جمعَ اللَّهُ القبائلَ من فهر[2]

فلما اجتمعوا أنزلهم بطحاء مكة في الشعاب ورؤوس الجبال، وقسَمَها بينهم أرباعاً بين قومه وأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التي أصبحوا عليها، وكانت إليه الحجابة والسقاية والوفادة والندوة واللِّواء وصارتْ سُنَّته في قريش كالدين الذي لا يعمل بغيره، فزادت القوة بجمعهم حتى عقد الولاية. وجدد بناء الكعبة وهو أول من بناها بعد إبراهيم وإسماعيل وبنى دار الندوة للتحاكم والتَّشاجر والتَّشاور، وهي أول دار بنيت بمكة، وكانوا يجتمعون في جبالها. ثم بنى القوم دورهم بها فتمهدت لهم الرياسة وظهرت فيهم السياسة، فصاروا بها زعماء عبادة أنذرت بطاعة إلّهية، وديانة نبوية توطئة لما جدده اللَّه تعالى منها برسوله، وتأسيساً لمبادیها، فقَامُوا بالكعبة ونزَّهُوا الحرم وتكفَّلوا بالجمع فصاروا دياني العرب وولاة الحرم، وقادة الحجيج

---

(١) انظر تاريخ الطبري ج ٢/٢٥٤ - ٢٥٦.

(٢) تاريخ الطبري ج ٢/٢٥٦.

فدانَتْ لهم العرب، وتقدَّمُوا فيهم بالشرف لحلولهم في الحرم وتكفُّلهم بالكعبة ثم قيامهم بالحج وشاع ذلك في الأمم.

فحكى قومٌ من دياني العرب: أن جماعة من ملوك الفرس زاروا الكعبة بمكة وعظموها وحملوا إليها صنوف الثياب وأنواع الطيب، وزمزموا من معهم من الفرس عند بئر زمزم، فلذلك سُميت زمزم، واستشهد قائل هذا بقول الشاعر:

زمزمت الفرس على زمزم وذاك في سالفه الأقدم

وقريش هم ولدُ النَّضْر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، وقيل: بل هم بنو فهر بن مالك بن النضر. فمن نسبهم إلى النضر فلأنَّه تفرقت قبائل بني كنانة، وقيل: كان يُسمَّى قريشاً[1]. ومن نسبهم إلى فهر، فلأنَّ فهراً في زمانه كان رئيس النَّاس بمكة، وقصدها حسان بن عبد كلال في حمير وقبائل اليمن ليهدم الكعبة وينقل أحجارها إلى اليمن ليبنيه بيتاً باليمن يجعل حجَّ النَّاسِ إليه، فنزل بنخلة وأغار على سرح مكة فسار إليه فهر في كنانة وأحلافهم من قبائل مضر، فانهزمت حمير، وأسر الحرث بن فهر حسان بن عبد كلال، فبقي في يد فهر ثلاث سنين أسيراً بمكة حتى فدى نفسه وخرج فمات بين مكة واليمن، فعظم بهذا الحرب شأن فهر، فأعْزت إليه قريش حين حمَى مكةَ ومنعَ من هدم الكعبة وكانت من أشباه عام الفيل. واختلف في تسميتهم قريشاً على أربعة أقاويل:

أحدها: لتجمعهم بعد التفرق، والتَّقرُّش التجمع، ومنه قول الشاعر:

أخوةٌ قرشوا الذنوب علينا في حديث من دهرهم وقديم

والثاني: لأنهم كانوا تجاراً يأكلون من مكاسبهم. والقرش: التَّكسب.

والثالث: لأنَّهم كان يفتشون الحاجة عند ذي الخلة فيسدون خلته. والقرش: التفتُّش[2]، ومنه قول الشاعر:

---

(١) تاريخ الطبري ج ٢٥٦/٢.

(٢) تاريخ الطبري ج ٢٦٤/٢: إنّ التقريش هو التفتيش. والتَّجمُّع هو التقرُّش. قالت العرب: تقرَّش بنو النضر: أي قد تجمَّعُوا.

أيُّها السامت التَّقرش عنَّا عند عمروٍ فهل له إبقاءُ

والرابع: أن قريشاً اسم دابة في البحر من أقوى دوابِّه سميت بها قريش لقوَّتها، أنَّها تأكل ولا تُؤكل وتعلُو ولا تُعلى، قاله ابن عباس واستشهد بقول الشاعر:

وقريش هي التي تسكن البحر بها سُمِّيتْ قريش قريشا
سلطت بالعلوِّ في لُجَّةِ البحر على ساكني البحور جيوشا
تأكل الغثَّ والسمين ولا تترك يوماً لذي الجناحين ريشا
هكذا في البلاد حتى قريش يأكلون البلادَ أكلًا كشيشا
ولهم آخر الزمان نبيٌّ يكثر القتل فيهم والخُمُوشَا
تملأ الأرضَ خيلُه ورجالٌ يحشرون المطيَّ حشراً كميشا

وهذا من هواجس النفوس المخبرة وآيات العقول المنذرة.

فأما مكة فلها اسمان: مكَّة وبكَّة، وقد جاء القرآن بهما، واختلف في الاسمين هل هما لمسمًّى واحد، أو لمسميين على قولين:

أحدُهما: أنه لمسمًّى واحد لأن العرب تُبْدِلُ الميمَ بالباء، فيقولون ضربة لازم ولازب لقرب المخرجين.

والقول الثاني: هو أشبه، أنَّهما اسمان لمسمَّيين، واختلف من قال بهذا في المسمَّى منهما على قولين:

أحدهما: أنَّ مكَّة، اسم البلد، وبكَّة اسم البيت. وهذا قول إبراهيم النخعي.

والقول الثاني: أنَّ مكَّة الحرم كله، وبكَّة المسجد كله، وهذا قول زيد بن أسلم.

فأمَّا مكَّة فمأخوذة من قولهم. تمكَّكَت المخ إذا استخرجته لأنَّها تمكُّ الفاجرَ، أي تخرجه، قال الشاعر:

يا مكة الفاجر مُكِّي مكَّا ولا تمكِّي مُذْحِجاً وعَكَّا[1]

---

(1) عَكُّ: من أولاد عدنان. قال ابن إسحاق: فمن عدنان تفرَّقت القبائل من ولد إسماعيل بن =

وأمَّا بكَّة قـال الأصمعي : سُمِّيتْ بذلـك لأنَّ الناس يبـكُّ بعضهم بعضاً أي يدفع ، وأنشد يقول :

إذا الـشـريـب أخـذتْـهُ بـكَّـةُ ... فـخـلِّـهِ حـتـى يـبـكُّ بـكَّـة[1]

ثم أفضت رئاسة قريش بعد قصي إلى ابنه عبد مناف بن قصي فجاد وزاد وساد حتى قال فيه الشاعر :

كـانت قـريش بيضـة فتـفـقـأت ... فـالمحُّ خـالصـة لعبـد منـاف[2]

وكان اسمه المغيرة فدفعته أمه إلى مناف وكان أعـظم أصنام مكـة تعظيماً له فغلب عليه عبد مناف ، وكان يُسَمَّى القمر لجمالـه ، فاستحكمتْ رياستُه بعد أبيه لجوده وسياسته ، ثم ببنيه ، فولد له هاشم وعبد شمس توأمان في بطن فقيل : إنَّه ابتدأ خروج أحدهما وأصبعه ملصقة بجبهة الآخر ، فلما أزيلت دمي موضعها فقيل : يكون بينهما دمٌ ، ثم ولد بعدهما نوفل ، ثم المطلب . وكان أصغرهم فساروا وتقدمهم هاشم لسخائه وسُؤْددِهِ ، وكان اسمه عَمْراً ، فسُمِّي هاشماً لأنَّه أول من هشم الثريد لقومه بمكة في سنةٍ لَزِبَةٍ قحطَةٍ ، رَحَلَ فيها إلى فلسطين فاشترى منها الدقيق وقدم به إلى مكة ونحر الجُزُرَ وجعلها ثريداً عمَّ به أهل مكَّةَ حتى استقلُّوا ، فقال فيه الشاعر :

يـا أيُّهـا الـرَّجُـلُ المحـوِّلُ رَحْلَهُ ... هـلاَّ نـزلْـتَ بـآلِ عـبـدِ مَـنَـافِ

الآخِـذُون الـعـهـد مـن آفـاقـهـا ... الـراحـلـون لـرحـلـة الإيـلافِ

والـرايـشـون ولـيس يُـوجـد رايش ... والـقـائـلون : هـلمَّ لـلأضـيـافِ

والـخـالِـطُون غنيَّهم بـفـقـيـرهـم ... حتَّى يـكـونَ فقيـرُهم كـالـكـافِي

= إبراهيم عليهما السَّلام ، فولَـدَ عدنـانُ رجلين : معدّ بن عـدنان ، وعَـكّ بن عدنـان . وقال ابن هشام : فصارت عَكّ في دار اليمن ، وذلك أن عكّاً تزوَّج في الأشعريِّين ، فأقام فيهم . السيرة النَّبويَّة : لابن هشام ج ١/٨ .

(١) انظر معجم البلدان : لياقوت ج ٤٧٥/١ : بكَّة هي مكة بيت اللّٰه الحرام .

(٢) تاريخ الطبري ج ٢٥٤/٢ .

عمرو العُلاَ هَشَمَ الثَّرِيدَ لقومِهِ ورجالُ مكة مُسْنَتون عجافِ[1]

وهاشم أول من سنَّ الرحلتين لقريش: رحلة الشتاء ورحلة الصيف، وأراد أميةَ بن عبد شمس أن يتشبه بهاشم في صنيعه فعجز عنه، فشمت به ناسٌ كثيرٌ من قريش، فقال فيه وهب بن عبد قصي:

تحمَّلَ هاشمُ ما ضَاقَ عنه وأعيَا أن يقومَ بِهِ ابنُ بيض

أتاهم بالغرائز مثقلات من الشام بالبرِّ النفيض

فأوسع أهل مكة من هشيم وشاب اللَّحم باللَّحم الغريض

ونشبت العداوة بين أميَّة وهاشم وأراد مُنَافَرَتَه، فكره هاشم ذلك لنسبه وقدره، فلم تدعه قريش حتى نافره إلى الكاهن الخزاعي في خمسين ناقة سود الحدق، ينحرها ببطن مكَّة، والجلاء من مكة عشر سنين، فنفر الخزاعي هاشماً وقال لأميَّة: تنافر رجلاً هو أطولُ منك قامةً وأعظم منك هامةً، وأحسن منك وسامةً، وأقلُّ منك لامةً، وأكثر منك ولداً، وأجزل منك صفراً، فقال أمية: من انتكاث الزمان أن جعلناك حكماً، فأخذ هاشم الإبل فنحرها، وأطعمها من حضره، وخرج أميَّة إلى الشام فأقام بها عشر سنين، فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأميَّة. وملك هاشم الوفادة والسِّقاية واستقرت له الرياسة وصارت قريش له تابعة تنقاد لأمرِهِ، وتعملُ برأيه، وتنافرت قريش وخزاعة إليه فخطبهم بما أذعن له الفريقان بالطاعة، فقال في خطبته: أيُّها النَّاس نحن آل إبراهيم وذريَّة إسماعيل، وبنو النضر بن كنانة، وبنو قصي ابن كلاب، وأرباب مكة، وسكان الحرم، لنا ذروةُ الحَسَبِ، ومعدن المجد، ولكل في كل حلف يجب عليه نصرته وإجابة دعوته، إلا ما دَعَا إلى عقوق عشيرةٍ وقطع رحم، يا بني قصي أنتم كغصني شجرة، أيُّهما كُسِرَ أوحشَ صاحبه، والسيف لا يصاف إلاَّ بغمده، ورامي العشيرة يصيبه سهمه، ومن أمحكه اللجاج

---

(1) السيرة النَّبويَّة: لابن هشام ج ١/١٧٨، مع اختلاف يسير في الأبيات.

أخرجه إلى البغي. أيُّها النَّاس الحلمُ شرفٌ والصبرُ ظَفرٌ والمعروف كنزٌ، والجود سُؤْدُدٌ، والجهلُ سَفَهٌ، والأيام دُوَلٌ، والدهر غِيَرٌ والمرء منسوبٌ إلى فعله ومأخوذ بعمله، فاصطنعوا المعروف تكسبوا الحمد، ودعوا الفضول تجانبكم السفهاء، وأكرموا الجليس يعمر ناديكم، وحاموا الخليط يرغب في جواركم، وأنصفوا من أنفسِكم يُوثق بكم، وعليكم بمكارم الأخلاق فإنَّها رفعةٌ، وإيَّاكم والأخلاق الدنيئة فإنَّها تضع الشَّرف وتهدم المجد، ألاَ وأن نهنهة الجاهل أهون من حزيرته، ورأس العشيرة يحمل أثقالها، ومقام الحليم عِظَةٌ لمن انتفعَ به.

فقالت قريش: رضينا بك أبا نضلة، وهي كنيته، فانظروا إلى ما أمر به من شريف الأخلاق ونهى عنه من مساوىء الأفعال هل صدر إلاّ عن غزارةِ فضلٍ وجلاَلَةِ قَدْرٍ وعلوِّ همَّة، وما ذاك إلاَّ لاصطفاء يراد، وذكر يشاد، لأنَّ توالي ذلك في الآباء يُوجب تناهيه في الأبناء، ومات هاشم بغزَّة من أرض الشام، وهو أول من مات من ولد عبد مناف. ثم مات عبد شمس بمكة فقُبر بأجياد. ثم مات نوفل بسلمان من طريق العراق، ومات المطلب بريمان من أرض اليمن، وكان هاشم قد تزوَّج بيثرب من الخزرج بسلمى بنت عمرو النَّجارية فولدت له بيثرب عبد المطلب، وكان اسمه شيبة الحمد، ونشأ فيهم حتى مات أبوه هاشم وانتقلت عنه الرياسة والوفادة والسقاية إلى أخيه المطلب ووصف له شيبة بيثرب فخرج فاستنزل أمه عنه حتى أخذه منها، ودخل به مكة مردفاً له فقالت قريش: من هذا؟ فقال: عبدي، فسمي عبد المطلب إلى أن مات فوثب عليه عمه نوفل بن عبد مناف في ركح كان له فاغتصبه إيَّاه ـ والركح: الساحة ـ فسأل عبد المطلب رجالات قومه النصرة على عمِّه، فقالوا: لسنا داخلين بينك وبين عمِّك، فلما رأى عبد المطلب ذلك كتب إلى أخواله من بني النجار يقول[1]:

يا طول ليلي لأشجاني وأشغالي ... هل من رسولٍ إلى النجار أخوالي

---

(١) تاريخ الطبري ج ٢/ ٢٥٠.

ينبىء عـديـاً ودينـاراً ومـازنـهـا ومـالكـاً عصمة الجيران عن حـالي

وكنتُ مـا كنتُ حيـاً نـاعمـاً جـذلاً أمشي الغضيـة سحَّـابـاً لأذيـالي

حتى ارتحلت إلى قـومي وأزعـجني عـن ذاك مـطلبُ عمي بتـرحـالـي

فغـاب مـطلب في قـعـر مـظلمـة وقـام نـوفـل كي يعـدو على مـالي

أأن رأى رجـلاً غـابـت عـمـومتـه وغـاب أخـوالـه عـنـه بـلا وال

أنحى عليـه ولم يـحفظ لـه رحمـاً مـا أمنـع المـرء بين العمِّ والـخـال

فـاستنفِرُوا وامنَعُـوا ضيمَ ابن أختكم لا تـخـذلـوه ومـا أنـتـم بـخُـذَّال

مـا مثلكم في بني قحـطان قـاطبـة حـيٌّ لـجـار وأنـعـام وأفـضـال

أنتم ليـان لمن لانـت عـريكـتـه سلمـاً لكم وسمـام الأبلح العـالـي

فقدم عليه ثمانون راكباً من بني النجار ونصروه على عمِّهِ نوفل، وارتجعوا منه الركح وعَادُوا، وقد اشتدَّ بهم عبد المطلب فدَعَا ذلك نوفلاً أن حالف بني عبد شمس على عبد المطلب وبني هاشم ودَعَا ذلك عبد المطلب على أن حالف بني هـاشم على نوفل وبني عبد شمس، فقوي عبد المطلب، وضعف نوفل، وانتقلتِ السِّقاية والرفادة والرياسة إلى عبد المطلب، وأخذ نوفل عهداً من أكاسرة العراق، وصارت رحلتُهُ إليها، وأخذ عبد المطلب عهداً من ملوك الشام، وأقيال حِمْير باليمن وصارت رحلته إليها. وحفر عبد المطلب حين قويَ واشتدَّ بئر زمزم، وأخرج منها ما كان ألقاه فيها عامر بن الحرث الجرهمي من غَزَالَيْ الكعبة وحجر الركن، فضرب الغزالين صفائحَ ذهبٍ على باب الكعبة، ووضع الحجرَ في الركن، وصار عبد المطلب سيداً عظيمَ القدر، مطاعَ الأمر نجيبَ النَّسل[1].

حتَّى مرَّ به أعرابي وهو جالس في الحِجْرِ وحوله بنوه كالأُسْدِ، فقال: إذا أحب اللَّه إنشاءَ دولَةٍ خلقَ لها أمثال هؤلاء. فأنشأ اللَّه لهم بالنُّبوَّة دولةً وخلَّد بها ذكرهم، ورفع بها قدرَهم حتى سَادُوا الأنامَ وصاروا الأعلام، وصار كل من قرب إلى

---

(١) تاريخ الطبري ج ٢٤٦/٢ ـ ٢٥١.

رسول اللّه ﷺ من آبائه أعظم رياسة، وتنوهاً وأكثر فضلاً وتألُّهاً.

فحكى الزهري ويزيد بن رومان وصالح بن كيسان: أن عبد المطلب بن هاشم نذر أنَّه متى رُزِقَ عشرةَ أولاد ذكور، ورآهم بينَ يديهِ رجالاً، أن ينحر أحدَهم للكعبة، شكراً لربِّه، حين علم أنَّ إبراهيم أُمر بذبح ولده[1]، تصوُّراً من أنَّه أفضل قربة. لمَّا استكمل ولده العدد، وصاروا له من أظهر العدد قال لهم: يا بني كنت نذرتُ نذراً علمتموه قبل اليوم فما تقولون؟ قالوا: الأمرُ لك وإليك، ونحن بين يديك، فقال: لينطلق كل واحد منكم إلى قدحه وليكتب عليه اسمه، ففعلوا ثم أتوه بالقِدَاح فأخذها وجعل يرتجز ويقول:

عاهدتُهُ وأنا مُوفٍ عهدَهُ ... واللّهُ لا يُحْمَدُ شيءٌ حمدَهُ
إذا كانَ مولاَي وكنتُ عَبْدَهُ ... نذرتُ نذراً لا أُحِبُّ رَدَّهُ
ولا أُحِبُّ أن أعيشَ بعدَهُ

ثم دعا بالأمين الذي يضرب بالقداح فدفع إليه قِدَاحَهم وقال: حرِّكْ ولا تعجلْ، وكان أحبُّ ولد عبد المطلب إليه عبدُ اللّه، فضرب صاحب القداح السَّهمَ على عبد اللّه، فأخذ عبد المطلب الشفرة وأتى بعبد اللّه وأضجعه بين إساف ونائلة، وأنشأ مرتجزاً يقول:

عاهدتُه وأنا مُوفٍّ نَذْرَهُ ... واللّه لا يَقْدِرُ شيءٌ قَدْرَهُ
هذا بني قد أُريدُ نَحْرَهُ ... وإنْ يُؤخِّرْهُ يقبلْ عُذْرَهُ

وهمَّ بذبحه فوثب إليه ابنه أبو طالب، وكان أخا عبد اللّه لأبيه وأمه، وأمسكَ يدَ عبدِ المطلب عن أخيه، وأنشأ مرتجزاً يقول:

كلاَّ وربِّ البيتِ ذي الأنصابِ ... مَا ذُبِحَ عبدُ اللّه بالتَّلْعَابِ

---

(١) السيرة النبوية: لابن هشام ج ١/١٤٣ انظر تفصيل هذا الخبر، فإنَّه هامٌّ.

يـا شيب إنَّ الـريـحَ ذُو عـقـاب إنَّ لـنـا جـرةً فـي الـخـطاب

أخـوالُ صـدقٍ كـأسـودِ الغَـاب

فلما سمعت بنو مخزوم هذا من أبي طالب، وكانوا أخواله، قالوا: صدق ابن أختنا، ووثبوا إلى عبد المطلب، فقالوا: يـا أبا الحرث! إنَّا لا نسلم ابن أختنا للذبح، فاذبح من شئت من ولدك غيره، فقال: إنِّي نـذرتُ نذراً وقـد خرج القـدْحُ ولا بدَّ من ذبحه[1]، قالوا: كلَّا لا يكون ذلك أبداً، وفينا ذُو روح، وإنا لنفديه بجميع أموالنا من طـارفٍ وتالـدٍ، وأنشأ المغيـرةُ بن عبد اللَّه بن عمـرو بن مخزوم مـرتجزاً يقول:

يـا عجباً من فعـلِ عبدِ المـطلبْ وذبـحِـهِ ابنـاً كـتمثـالِ الـذَّهَـبْ

كـلَّا وبيتِ الـلَّهِ مستـورِ الحُـجُـبْ مـا ذُبـح عبـدُ اللَّهِ فينَـا بـالـلَّعِبْ

فـدون مـا يبغي خـطوبٌ تضطربْ

ثم وثب السادات من قريش إلى عبد المطلب فقالوا: يـا أبا الحـرث إن هذا الذي عزمت عليه عظيم، وإنَّـك إنْ ذبحتَ ابنك لم تتهنَّ بـالعيش من بعده، ولكن لا عليك أنت على رأس أمرك تثبت حتى نسير معك إلى كاهنة بني سعد، فما أمرتك من شيء فامتثله، فقال عبد المطلب: لكم ذلك، وكانوا يرون الكهانة حقّاً، ثم خرج في جمـاعة من بني مخـزوم نحو الشام إلى الكاهنـة، فلمَّا دخلوا عليهـا أخبـرهـا عبد المطلب بما عزم عليه من ذبح ولده، وارتجز يقولُ:

يـا ربِّ إنِّـي فـاعـلٌ لِـمـا تُـرِدْ إنْ شئتَ ألهمتَ الصَّـوَابَ والرَّشَـد

يـا سـائـقَ الـخـيـرِ إلـى كـلِّ بـلدْ قـد زدتُ في المال وأكثـرتُ العَـدَدْ

فقالتِ الكاهنةُ: انصرفُوا عنِّي اليوم، فانصرفوا وعادُوا من الغد، فقالتْ: كم

---

(۱) خبر النذر هذا وفداء عبد اللَّه رواه الطبري في تاريخه ج ٢/٢٣٩ ـ ٢٤٣، والبيهقي في دلائل النُّبوَّة ج ١/٩٨ ـ ١٠١، وأبو نعيم في دلائل النُّبوَّة ج ١/ ، وابن هشام في السيرة النَّبويَّة ج ١/١٥١ ـ ١٥٥.

ديةُ الرَّجُلِ عندكم؟ قالوا: عشرةً من الإبل، قالت: فارجعوا إلى بلدكم وقدِّمُوا هذا الغلام الذي عزمتُم على ذبحه، وقدِّمُوا معه عشرةً من الإبل، ثم اضربوا عليه وعلى الإبل القداح، فإن خرج القدح على الإبل فانحروها، وإن خرج على صاحبكم فزيدوا في الإبل عشرة عشرة حتى يرضى ربُّكم، فانصرف القومُ إلى مكة وأقبلوا عليه يقولون: يا أبا الحرث! إنَّ لك في إبراهيم أسوةً، فقد علمتَ ما كان من عزمه في ذبح ابنه إسماعيل فقدِّم مالك دون ولدك، فلمَّا أصبح عبد المطلب غَدَا بابْنِهِ عبدِ اللَّهِ إلى الذبح، وقرَّب معه عشرةً من الإبل، ثم دعا بأمين القِدَاح وجعل لابنه قدْحاً، وقال: اضربْ ولا تعجلْ، فخرجَ القدحُ على عبد اللَّه، فجعلها عشرين، فضرب فخرج القدحُ على عبد اللَّه، فجعلها ثلاثين، فضرب فخرج القدحُ على عبد اللَّه، فجعلها أربعين، فضرب فخرج القدحُ على عبد اللَّه، فجعلها خمسين، فضرب فخرجَ القدحُ على عبدِ اللَّه، فجعلها ستّين، فضرب فخرجَ القدحُ على عبدِ اللَّه، فجعلها سبعين، فضرب فخرجَ القدحُ على عبدِ اللَّهِ، فجعلها ثمانين، فضرب فخرج القدحُ على عبد اللَّه، فجعلها تسعين، فضرب فخرجَ القدحُ على عبد اللَّه، فجعلَها مائةً وضربَ فخرجَ القدحُ على الإبل، فكبَّر عبدُ اللَّه! وكبَّرتْ قريشٌ!! وقالت: يا أبا الحرث! إنَّه قد أنهى رضاء ربك، وقد نَجَا ابنك من الذبح، فقال: لا واللَّه حتى أضرب عليه ثلاثاً، فضرب الثانيةَ، فخرجَ على الإبلُ، فضربَ الثالثةَ فخرجَ على الإبلِ، فعلم عبد المطلب أنه قد أنهى رضاءَ ربِّه في فداءِ ابنه، فارتجزَ يقول:

دعوتُ ربِّي مُخْلِصاً وجَهْرَا	يا ربِّ لا تنحرْ بنيَّ نَحْرَا
وفادِ بالمالِ تجدْ لي وَفْرَا	أعطيكَ من كلِّ سَوَامٍ عَشْرَا
عفواً ولا تشمَّتْ عُيوناً حزرا	بالواضح الوجه المغشى بدرا
فالحمدُ للَّه الأجلِّ شُكْرا	فلست والبيت المغطى سترا
مبدِّلاً بنعمة ربِّي كُفْرَا	ما دمتُ حيّاً أو أزورُ القَبْرَا

ثم قربت الإبل وهي مائة من جملة إبل عبد المطلب، فنُحرتْ كلُّها فداءً لعبدِ اللَّه!! وتُركتْ في مواضعها لا يُصَدُّ عنها أحدٌ يتناولها من دبَّ ودرجَ، فجرتِ

السُّنَّةُ في الدِّيَةِ بمائة من الإبل إلى يومنا هذا!!.

وانصرف عبد المطلب بابنه عبد اللّه فرحاً، فكان عبد اللّه يُعرف بالذبيح، ولذلك قال النبي ﷺ: (أنا ابْنُ الذَّبيحين)[1]، يعني إسماعيل بن إبراهيم عليهما السَّلام، وأباه عبد اللّه بن عبد المطلب، وهذا من صنع اللّه تعالى لرسوله لِما قدره من رسالته، وقضاه من آيات نبوته، فما يخلو نبي من بلْوى منذرة ولا ملك من بلية زاجرة، هذا سليمان بن داود عليهما السَّلام وقد أعطاه اللّه مع النبوة ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده، وسأل اللّهَ تعالى الحكمةَ، فأعطاه قلباً عليماً وفهماً سليماً، حتى وضع ثلاثة آلاف مثلٍ تهذبت بها أخلاق قومه، واستقامت بها سيرة ملكه، بعد أن سُخِّرتْ له الريحُ تجري بأمره رُخاءً حيث أصابَ، وسُخِّرَتْ له الشياطين، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجَوَابِ. وذكر في سيرته أنَّه كان نزله في كل يوم من دقيق السَّميد ثلاثين كراً، ومن غير السميد كراً، وارتفاقه في كل سنة ستة وثلاثين ألف ألف ألف، وثلاثة وثلاثين ألف ألف، وثلاثمائة ألف مثقال، وكان له ألف وأربعمائة، قيل: متفرقة في القرى، وملك أربعين سنة كأبيه داود، فابتلاه اللّه تعالى في أثناء ملكه بعد عشرين سنة، منه ما حكاه اللّهُ تعالى في كتابه بقوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وأَلْقَيْنَا على كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾[2] وفي فتنته قولان:

أحدهما: أن سليمان سبَى بنتَ ملك غزاه في جزيرة من جزائر البحر، يُقال له صيدون، فألقيت عليه محبتها، وهي معرضة عنه تذكراً لأبيها لا تنظر إليه إلَّا شزراً، ولا تكلمه إلَّا نَزْراً، ثم إنها سألته أن يصنع لها تمثالاً على صورته، فأمر به فصنعَ لها

---

(١) هذا اللفظ ليس من قول النبي ﷺ، وإنما هو قول أعرابي أتى إلى رسول اللّه ﷺ فقال: يا رسول اللّه! خلَّفت البلاد يابسةً، والماء يابساً، هلك المالُ، ضاع العِيالُ، فَعُدْ عليَّ بما أفاءَ اللّه تعالى عليك يا ابْنَ الذَّبيحين، فتبسَّم رسول اللّه ﷺ ولم يُنكر عليه..» الخبر.. ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ج ١٨/٤ وقال: هذا حديثٌ غريبٌ جداً. [انظر الأحاديث الضعيفة: للشيخ محمد ناصر الدِّين الألباني ج ٣٣٦/١ ـ ٣٣٧ رقم ٣٣١].

(٢) سورة صٓ، الآية ٣٤.

فعظَّمتْهُ وسجدتْ له وسجدَ معها جواريها، وصار صنماً معبوداً في داره وهو لا يعلم به، حتى مضت أربعون يوماً، وفشَا خبره في بني إسرائيل وعلم به سليمان، فكسره ثم حرقه، ثم ذراه في الريح، هذا قول شهر بن حوشب.

والثاني: أنَّ اللَّه تعالى قد جعل ملك سليمان في خاتمه، فقال لآصف ـ وهو شيطان اسمه آصف الشياطين ـ: كيف تُضلون النَّاسَ؟ فقال له الشيطان: أعطني خاتمك حتى أخبرك، فأعطاه خاتمه، فألقاه في البحر حتى ذهب ملكه[1]. وهذا قول مجاهد.

وفي الجسد الذي ألقي على كرسيه قولان:

أحدهما: أنَّ الشَّيطان الذي ألقَى خاتم سليمان في البحر جلس على كرسي سليمان متشبهاً بصورته، يقضي بغير الحق ويأمر بغير الصواب[2].

والثاني: أكثر من غَشْيِ جواريهِ طلباً للولد، فولد له نصف إنسان، فكان هو

---

(١) هذا من الأخبار الإسرائيلية، ونسبتها إلى مجاهد، لعلَّه سمعها من أهل الكتاب، فحكاه عنهم، وإلاَّ فمعنى هذا الخبر: أنَّ الشيطان استطاع أن يخدع نبيَّ اللَّه بخدعته، والأنبياء عليهم السَّلام معصومون من تسلُّط الشياطين عليهم، واللَّه تعالى أخبرنا عن حال سليمان عليه السَّلام مع الجان والشياطين، وأنه كان يُسخِّرهم فيما يُريد، وأنهم كانوا يهابونه ويخافون منه، كما في قوله تعالى في سورة صَ، آيات ٣٦، ٣٧، ٣٨: ﴿فسخَّرنا له الريحَ تجري بأمرِهِ رُخَاءً حيثُ أصابَ * والشياطينَ كلَّ بنّاءٍ وغوّاصٍ * وآخرين مُقرَّنين في الأصفادِ﴾، وفي سورة الأنبياء، آيتان ٨١، ٨٢: ﴿ولسليمانَ الرِّيحَ عاصفةً تجري بأمرِهِ إلى الأرضِ التي باركنَا فيها وكنَّا بكلِّ شيءٍ عَالِمين * ومِنَ الشياطين مَنْ يَغُوصُونَ له ويعملون له عملاً دُونَ ذلك وكنّا لهم حافظين﴾، وفي سورة سبأ، آية ١٢: ﴿ولسليمانَ الريحَ غُدُوّها شهراً وَرواحُها وأَسَلْنَا له عينَ القِطرِ، ومِنَ الجنِّ من يعمل بين يديه بإذنِ ربِّهِ، ومَنْ يَزِغْ منهم عن أمرنا نُذِقْهُ من عذابِ السعيرِ﴾، ثم قال سبحانه آية ١٤: ﴿فلمّا قضينا عليه الموتَ ما دلَّهمَ على موتِهِ إلاَّ دابَّةُ الأرضِ تأكلُ مِنْسَأتَهُ، فلمَّا خرَّ تبيَّنتِ الجِنُّ أنْ لو كانوا يعلمون الغيبَ ما لَبِثُوا في العذابِ المُهينِ﴾، فكيف يُعقل أو يُصَدَّقُ خبرُ تسلُّط الشياطين على سليمان عليه السَّلام وقد أعطاه اللَّه تعالى ما أعطاه من السلطان عليهم؟! إنّ كل خبر لا يؤيِّده القرآن الكريم فهو غير صحيح!!.

(٢) هذا الكلام كسابقه، لا يليق بمقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فهو غير صحيح.

الجسد المُلْقَى على كرسيه، وزال عن سليمان ملكه فخرج هارباً إلى ساحل البحر، يَتَضَيَّف النَّاس، ويحمل سموك الصيادين بالأجر، وإذا أخبر الناس أنَّه سليمان كذبوه، إلى أن أخذ حوتة من صياد قيل: إنَّه استطعمها، وقيل: بل أخذها أجراً، فلما شق بطنها وجد خاتمه في جوفها، وذلك بعد أربعين يوماً من زوال ملكه عنه، وهي عدة الأيام التي عُبد فيها الصَّنم في داره، فسجدَ النَّاسُ له حين عاد الخاتم إليه[1].

وقال يحيى بن أبي عمر: وجد خاتمه بعسقلان فمشى منها إلى بيت المقدس تواضعاً للّه!!.

وفي قوله: ﴿ثم أناب﴾ تأويلان:

أحدهما: ثم رجع إلى ملكه، قاله الضحاك.

والثاني: ثم أناب من ذنبه، قاله قتادة.

وبقي في ملكه بعد فتنته عشرين سنة استكمل بها الأربعين، وهي مدة الأيام الأربعين التي زال ملكه فيها.

وأمَّا بلوى الملوك: فإنَّ بختنصر كان ملكه طبق عمارة الأرض حتى ملك الأقاليم السبعة ودانت له ملوك الأمم، وأدوا إليه خراج بلادهم، فطغى قلبه وشمخ أنفه، فداخلته العزة واعتقد أنَّ أمم الخلق قد صاروا عبيداً له وخَوَلاً، وأن ملوك

---

(1) وهذا أيضاً من القصص الإسرائيلية المزعُومة، فلا يُجزم بثبوتها، ولا يصح اعتقادُها، فإنَّ مقام الأنبياء عند اللّه تعالى مَصُون، وشأنهم معصُوم!!.
أمَّا قصَّة سليمان في طوافه على نسائه وجماعه لهنَّ في ليلة واحدة، ناوياً تكثير نسله، فقد صحَّ عن رسول اللّه ﷺ (أنَّ سليمان عليه السَّلام قال: لأطُوفَنَّ الليلةَ على مئةِ امرأة، أو تسع وتسعين، كُلُّهُنَّ يأتي بفارسٍ يُجاهِدُ في سبيلِ اللّهِ، فقال له صاحِبُهُ: قُلْ: إنْ شاءَ اللّهُ، فلمْ يَقُلْ: إنْ شاءَ اللّهُ، فلم يحمِلْ منهُنَّ إلاّ امرأةٌ واحدةٌ جاءتْ بشِقِّ رجلٍ، والذي نفسُ محمَّدٍ بيدِهِ، لو قال: إنْ شاءَ اللّهُ، لجاهَدُوا في سبيلِ اللّهِ فُرْسَاناً أجْمَعُون)!! [صحيح البخاري رقم ٢٦٦٤]، وهذا الحديث يدلُّ على أنَّ سليمان عليه السَّلام حصل له سهو عن قول «إنْ شاء اللّه» فابتلاه اللّه سبحانه بذلك، ليكون له عبرة في أنَّ الأمرَ كلَّه بمشيئة اللّه سبحانه، ولهذا أمر اللّه تعالى رسوله ﷺ بقوله في سورة الكهف، آيتان ٢٣ ـ ٢٤: ﴿ولا تقُولَنَّ لشيءٍ إنِّي فاعلٌ ذلك غداً * إلاّ أن يشاءَ اللّهُ، واذْكُرْ ربَّكَ إذا نَسِيْتَ..﴾.

الأرض دانت بطاعته خوفاً ورهبة، فغضب اللَّه تعالى عليه، وسلبه عزة سلطانه، وسطوته وأزال عنه هيبته وقدرته، وجعل قلبه مثل قلوب الحيوان، فانحط عن سرير ملكه ونفاه أعوانه عنهم، فسكن الفلوات يأكل حشيشها، وابتلَّ جسمه من قطر السماء، حتى طال شعره، وصارت أظفاره كمخالب الطير، حتى حال سبعة أحوال، وهو في سكرة لا يدري النَّاس إلاَّ أنَّه كنوع من الحيوان الذي في صورة البشر[1]، إلى أن استنقذه اللَّه تعالى من كربه، فثاب إليه عقله وراجعه تمييزُهُ، فرجع ببصره إلى السَّماء معظِّماً للَّهِ تعالى ومستجيراً به، ومعترفاً أن لا سلطان إلاَّ له يُؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء، فطلبه قوَّاده ليردُّوه إلى سلطانه حتى وجدوه، فأعادوه إلى دار عزِّه، وأجلسوه على سَرِيرِ مُلْكِهِ، فعاد إلى خوف اللَّه تعالى ومراقبته، وإلى ما كان عليه من جميل سيرته، واستناب دانيال النبي في خلافته، وتدبير ملكه إلى أنْ مضى لسبيله بعد إحدى وخمسين سنة من ملكه، ودانيال على خلافته.

ومنهم من ملوك الفرس: كسرى أبرويز[2]، بلغ في الملك مبلغاً عظيماً، وكان في قصره اثنتا عشر ألف جارية، منهن للاستمتاع، ثلاثة آلاف جارية وباقيهن للغناء والخدمة، وكان في داره ثلاثة آلاف رجل يقومون بخدمته، وكان له ألف فيل إلا فيل، ومن الخيل والبغال خمسون ألف رأس، منها لمركبه ثمانية آلاف وخمسمائة، وأمر أن يحصي ما اجتبى من خراج بلاده سنة ثمان عشرة من ملكه، فكان ستمائة ألف ألف درهم، وعدد على ابنه شيرويه بعد قبضه عليه أنه قال؛ أمرنا في سنة ثلاثين ملكنا بإحصاء ما في بيوت أموالنا سوى ما أمرنا بعزله لأرزاق الجند، وكان من الوَرِق أربعمائة ألف بدرة، يكون فيها ألف ألف ألف مثقال، وستمائة ألف ألف مثقال، سوى ما أفاءه اللَّه تعالى علينا، وزادنا من أموال ملوك الروم في سفن

---

(١) قصَّة هذا الملك لا تعنينا كما هو أمر قصَّة «سليمان عليه السَّلام»، فهي لا تعدو عن كونها من حكايات التاريخ، وأقوال المؤرخين ومروياتهم، وهي متعارضة متضاربة متناقضة، فقارن قصَّة بختنصر التي ذكرها المؤلف رحمه اللَّه تعالى هنا مع ما ذكره صاحب «مرآة الزمان» ج ١/٥٤٩.

(٢) انظر خبره في تاريخ الطبري ج ٢/٢١٨ ـ ٢٢٩.

أقبلت بها الريح إلينا قسمناه في الرياح، ولم تزل تزداد أموالنا إلى سنتنا هذه، وهي سنة ثمان وثلاثين من ملكنا، وفيها قبض عليه ابنه حتى قتله، وقد ذكر له ما جمع لأنه استطال واحتقرَ النَّاس.

فانظر أيُّها المعتبر بعقله في صنع اللَّه تعالى وقدرته، فيمن يبتليه اختباراً، ويبلوه ازدجاراً، هلْ لما قضَاهُ من دافع، وفيما ابتلاه من مانع، إلا بلطف منه يُؤتيهِ من يشاء وهو القوي العزيز؟!!.

فصل:

[طهارة مولده ﷺ]

وأمَّا طهارة مولده؛ فإنَّ اللَّه تعالى استخلص رسوله من أطيب المناكح، وحماه من دنس الفواحش، ونقله من أصلابٍ طاهرةٍ إلى أرحامٍ طاهرةٍ، وقد قال ابن عباس رضي اللَّه تعالى عنه في تأويل قول اللَّه تعالى: ﴿وتقلُّبك في السَّاجِدِين﴾ أي: تقلُّبك من أصلابٍ طاهرةٍ من أبٍ بعد أبٍ، إلى أنْ جعلتك نبياً، وقد كان نورُ النُّبوَّة في آبائه ظاهراً.

حكي أنَّ كاهنةً بمكة يقال لها: فاطمة بنت مرٍّ الخثعمية، قرأت الكتب، فمرَّ بها عبد المطلب ومعه ابنه عبدُ اللَّه، يُريد أن يُزوِّجه آمنة بنت وهب، فرأت نورَ النُّبوَّة في وجه عبدِ اللَّه، فقالت: هلْ لكَ أنْ تغشاني وتأخُذَ مائةً من الإبل؟ فعصَمَهُ اللَّهُ تعالى من إجابتها وقال لها:

أمَّا الحَرَامُ فالمَمَاتُ دُوْنَهُ والحِلُّ لا حِلَّ فأستبينَهُ

فكيف فالأمر الذي تبغينَهُ[1]

---

(1) ذكر هذا الخبر ابن هشام في السيرة النبويَّة ج ١/١٥٥ ـ ١٥٦، وهذه الأبيات مذكورة بهامشه، مع الإشارة إلى اسم امرأة أخرى حاولت مُراودته عن نفسه، هي رقية بنت نوفل. انظر «الروض الأنف» للسُّهَيْلي ج ١/١٨٠.

فلمَّا تزوجت به آمنةُ، وحملت منه برسول اللَّه ﷺ قال لها: هل لك فيما قلتِ؟ فلم تَرَ ذلك النُّور في وجهه، فقالت له: قد كان ذلك مرَّةً، فاليوم لا، ماذا صنعتَ؟ فقال: زوجني أبي آمنة بنت وهب الزهريَّة، فقالتْ: قد أخذتِ النُّورَ الذي كان في وجهِكَ، وأنشأتْ تقولُ:

الآنَ قد ضيَّعتَ ما كانَ ظاهراً | عليكَ وفارقتَ الضياءَ المُبَارَكَا
غدوتَ عليَّ خالياً فبذلتَهُ | لغيري هَنِيّاً فألحقن بنسائِكَا
ولا تحسبنَّ اليومَ أمسِ وليتني | رُزِقْتُ غُلَاماً منك في مثل حَالِكَا

وداخلها الأسف على ما فاتها، والحسرة على ما تولى عنها، فحسدت آمنة على ما صارَ لها فأنشأتْ تقولُ:

إنِّي رأيتُ مخيَّلةً نَشَأتْ | فتلألأتْ كَتَلأْلُؤِ الفجرِ
ولِما بها نورٌ يُضيءُ بهِ | ما حَولَها كإضاءَةِ البَدْرِ
ورأيتُها متبيِّناً شَرَفاً | ما كُلُّ قادِحِ زِنْدَهُ يُورِي
للَّه مَا زُهْرِيَّةٌ سَلَبتْ | ثَوْبَيْكَ ما اسْتَلَبتْ وما تدرِي

وأنذرتْ بني هاشم فقالت:

بني هاشِمٍ قد غادرتْ من أخيكم | أمينة إذ لِلَباهِ يَعْتَلِجانِ
كما غادَرَ المصباحُ بعدَ خمودِهِ | فتائلَ قدْ مِيثَتْ لهُ بِدِهَانِ
وما كلُّ ما يحوي الفتى من تِلادِهِ | بحَزْمٍ، ولاَ ما فاتَهُ لِتَوَانِ
فأجملْ إذا طالبتَ أمراً فإنَّهُ | سيكفيكَهُ جِدَّانِ يَعْتَلجَانِ
ولمَّا حَوَتْ منه أمينة ما حَوتْ | حَوَتْ منهُ فخراً ما لذلكَ ثَانِ
سيكفيكَهُ إمَّا يَدٌ مُنغلَّةٌ | وإمَّا يَدٌ مبسوطَةٌ لِبَنَانِ[1]

---

(١) انظر السيرة النبويَّة: لابن هشام ج ١/١٥٥ ـ ١٥٧، والسيرة النبوية: لابن كثير ج ١/١٧٧ ـ ١٧٩، والروض الأنف ج ١/١٧٨ ـ ١٨٠.

وهذا من آيات الله تعالى في رسوله أن عصم أباه حين كان في ظهره أن يضعه من سفاح، حتى وضعه من نكاح، ثم زالت العصمة بعد وضعه، حتى عرض بالطلب بعد أن كان مطلوباً، ورغب فيه بعد أن كان مرغوباً، ثم لم يشركه في ولادته من أبويه أخ ولا أخت، لانتهاء صفوتهما إليه، وقصور نسبهما عليه؛ ليكون مختصاً بنسب جعله الله تعالى للنبوة غاية، ولتفرُّده بها آيةً، فيزول عنه أن يشارك فيه ويماثل به، فلذلك مات أبواه عنه في صغره، فأمّا أبوه عبدُ الله فمات عنه بمكة وهو حمل[1].

وأمّا أمّه آمنة فماتت عنه بالمدينة، وهو ابنُ ست سنين، لأنها رحلت إليها لزيارة أخوالها من بني النَّجار فماتت عندهم[2]. وإذا خبرت حال نسبه وعرفت طهارة مولده، علمت أنّه سلالةُ آباءٍ كرام، سادوا ورأسُوا؛ لأنّه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصي بن كلاب بن مُرَّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فِهْر بن مالك بن النَّضْر بن كِنَانة بن خُزيمة بن مُدْرِكَة بن إلياس بن مُضَر بن نزار بن معدّ بن عدنان، ليس في آبائه خاملٌ مسترذَلٌ، ولا مغمورٌ مستذَلٌ، كلّهم سادةٌ قادةٌ، وهم أخصُّ النَّاسِ بالمناكح الطاهرة حتى تحرجوا من نكاح المحارم، وإن استباحه غيرُهم من العرب، حتى حكي أنَّ حاجب بن زرارة، وهو سيد بني تميم نكح بنتَهُ وأولدها[3]، وقد كان سماها دختنوس باسم بنت كسرى، وقال فيها حين نكحها مرتجزاً:

يا ليت شعري عنك دختنوس	إذا أتاها الخبرُ المرمُوس
أتسحب الذَّيلين أم تميس	لا بل تميسُ أنَّها عَرُوس

---

(1) السيرة النبويّة: لابن هشام ج ١/١٥٨.

(2) قال ابن إسحاق: حدّثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أنَّ أمّ رسول الله ﷺ آمنة تُوفِّيتْ ورسولُ الله ﷺ ابن ست سنين، بالأبواء، بين مكة والمدينة، كانت قدمتْ به على أخواله من بني عدي بن النَّجار. السيرة النبويّة: لابن هشام ج ١/١٦٨.

(3) هذا أمقت أنكحة الجاهلية، بل كانوا يأنفونه، بل ويُحرِّمونه، ولا يفعل هذا إلاّ كل خسيس خبيث تعيس. ويُذكر أنه ندم على تزوّج ابنته، كما حكاه ابن قتيبة في المعارف ٦٢١.

وهذا في قريش من الفواحش.

وفي التوراة: أنَّ لوطاً نكح بنتين له، فولدتا غلامين[1]، ولهما ذرية كبيرة، ولوط هو ابن أخي إبراهيم الخليل، وقد تزوَّج إبراهيم بنت أخيه سارة[2] بنت هاران بن تارخ، فتنزَّهت قريش من هذه المناكح، حفظاً لحرمة الأرحام الدانية أن تنتهك بالمناكح العاهرة فتضعف الحمية وتقل الغيرة.

فإن قيل: يشارك الأنبياء في شرف النسب وطهارة المولد غيرُهم فلم يستحق بهما النُّبوَّة؟.

قيل: هما من شروط النُّبوَّة، وإن استحقَّتْ غيرهما فلم يمتنع أن يكون لهما في النُّبوَّة تأثيرٌ معتبرٌ ووصفٌ مختبرٌ.

---

(١) هذا الخبر من شنائع اليهود ـ خذلهم اللّه تعالى وأطفأ نيرانَهم ـ وهو من كذبهم وبهتانهم على أنبياء اللّه تعالى، فقد جاء في سفر التكوين الإصحاح التاسع عشر ٣٠ ـ ٣٧ أن ابنتي لوط عليه السَّلام سقَتَاهُ خمراً فسكر، ثم اضطجعت الكبرى مع أبيها ثم الصغيرة، فحملتَا من أبيهما . . ـ والعياذ باللّه تعالى من الافتراء على أنبيائه ورسله، فهذا الرسول الكريم بعد عنائه من خبائث قومه «أهل سدوم الذين يأتون الذكران» وخروجه عنهم ليحلَّ بهم غضبُ اللّه تعالى وعقابه، تُفْتَرى عليه هذه الفرية المنكرة الشنيعة!؟ فالخمر لا تشربُه الأنبياء، لأنه مُذْهِبٌ للعقل وللمروءة، وهم منزَّهون عمَّا يُذْهِب العقلَ والمروءة، وكذلك نسلهم طاهر، فلا تقع منهم فاحشة، ولا حتى من نسائهم وإن كُنَّ كافرات، فكيف يقع الزنا منه بابنته وبعد شربه الخمر؟؟! فأين عصمة اللّه تعالى لأنبيائه ورسله؟! وأين رعايته لهم؟! إنَّ هذا الخبر محض افتراءٍ وكذبٍ وبهتانٍ. وكان على المؤلف أنْ لا يذكر هذا الخبر الباطل في معرض الاستشهاد، بل كان عليه عدم ذكره، وإن ذكره كان عليه إبطاله، غفر اللّه تعالى لنا وله ولجميع المسلمين.

(٢) سارة ليست ابنة أخي إبراهيم، وإنَّما هي ابنة عمِّه، قال الحافظ ابن كثير في البداية ج ١/ ١٧٥: «إسحاق من سارة بنت عمِّ الخليل» عليه السَّلام، فتنبَّهْ!.

الباب التاسع عشر

في آيات مولده وظهور بركته ﷺ

آياتُ المُلْك بَاهِرةٌ! وشواهِد النُّبوَّة قاهرةٌ! تشهدُ مباديها بالعواقب، فلا يلتبس فيها كذبٌ بصدق، ولا منتحل بمحقٍّ، وبحسب قوتها وانتشارها يكون بشائرها وإنذارها. ولمَّا دَنَا مولدُ رسول اللَّه ﷺ تعاطرتْ آياتُ نبوَّته، وظهرتْ آياتُ بركته، فكان من أعظمها شأناً! وأظهرها برهاناً! وأشهرها عِياناً وبَياناً! أصحابُ الفيل، أنفذهم النجاشي من أرض الحبشة في جمهور جيشه إلى مكة، لقتلِ رجالها وسبيِ ذَرَارِيها، وهدمِ الكعبة. واختلف في سببه فذكر قومه أنَّ إبراهيم بن الصباح استولى على اليمن معتزياً إلى النجاشي، فبنى بصنعاء اليمن كنيسةً للنَّصارى، واستعانَ في بنيانها بقيصر والنَّجاشي، حتى بناها في تشييدها وحُسنها، ليعدل بالعرب عن حج الكعبة إليها، فأنكرته العرب، ودخل إلى هيكلها بعض بني كنانة من قريش، فأحدثَ فيها، فكتب إلى النجاشي يستمدُّه بالفيل وجيش الحبشة ليغزو قريشاً، ويهدم الكعبةَ، فسارَ بهم وأخذَ أبا رغال من الطائف دليلاً إلى مكة، حتى أنزله بالمغمس، ومات أبو رغال بالمغمس، فدُفِنَ فيه، فرجمتِ العربُ قبرَهُ، فهو القبر المرجومُ بالمغمس[1].

وقال آخرون: بل سببه أنَّ نفراً من تجار قريش مرُّوا ببيعةٍ للنصارى، على

---

(١) وذلك لخيانته الخبيثة، وعمله المشين، وهكذا كلُّ خائن يُرْجَمُ قبرُهُ. وهذا الخبر في تاريخ الطبري ج ١٣٢/٢، والمُغَمَّسُ: موضع قرب مكة على طريق الطائف.

شاطىء البحر فنزلوا بفنائها، وأوقدوا ناراً لعمل طعامهم، فاحترقت البيعة، فأقسم النجاشي لَيَسْبِيَنَّ مكَّةَ وليهدمن الكعبة، فأنفذ جيشه والفيل مع إبراهيم بن الصباح وأبو مكسوم وحجر بن شراحيل والأسود بن مقصود، وكان النجاشي هو الملك، وأبرهة صاحب جيشه على اليمن، وأبو مكسوم وزيره، وحِجْر والأسود من قواده، فساروا بالجيش مع الفيل، حتى نزلوا بذي المجاز، وتقدمهم الأسود بن مقصود، فاستاقَ سَرْحَ مكة، فقال فيه عبد الله بن مخزوم[1]:

لَا هُمَّ اخْزِ الأسودَ بنِ مقصودِ الآخذَ الهَجْمَةَ بعدَ التَّقليدِ[2]

ويَهْدمُ البيتَ الحرامَ المعبودِ والمَرْوَتَيْنِ والمَشاعرَ السودِ

اخْزِهِمْ يا ربِّ وأنتَ مَعْبُودِ

وكان في السرح مائتا بعير لعبد المطلب، وقد قلَّدَ بعضها، فخرج وكان وسيماً جسيماً إلى أبرهة، وسأله في إبله، فقال له أبرهة: فقد كنتَ أعجبتني حين رأيتك، وقد زهدتُ الآنَ فيك، قال: ولِمَ؟ قال: جئتُ لأهدم الكعبةَ بيتاً هو دينُكَ ودينُ آبائك، فلم تسألني فيه، وسألتني في إبلك؟! فقال عبد المطلب: أنا ربُّ إبلي، وللبيت ربٌّ غيري سيمنعه منك، فقال أبرهة: ما كان ليمنعه منِّي، ورد على عبد المطلب إبله مستهزئاً، ليعود فيأخذها، فأحْرَزَها عبدُ المطلب في جبال مكة وأتى الكعبةَ فأخذ حلقةَ البابِ وجعلَ يقولُ:

يا ربِّ إنَّ المَرْءَ يَمْنَعُ حِلَّهُ فامْنَعْ حلالَكْ

لَا يَغْلِبَنَّ صَلِيْبُهُمْ ومِحَالُهُمْ أبداً مِحَالَكْ

إنْ كنتَ تارِكَهُمْ وكَعْـ ـبَتَنا فأُمُرْ ما بَدَا لَكْ

---

(١) وفي السيرة: لابن هشام ج ٥١/١ أبيات شعر قريبة من هذا المعنى لعكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قُصَيّ، يدعو بها على الأسود بن مقصود.

(٢) الهجمة: القطعة من الإبل، ما بين التسعين إلى المائة. والتَّقليد: يريد القلائد التي قُلِّدت بها الإبل حين تُهْدَى إلى البيت الحرام.

فلئن فعلتَ فإنَّهُ أمرٌ تَتِمُّ به فِعَالُكْ

أسْمِعْ بأرجس مَنْ أرا دوا العَدْوَ وانتهكُوا حَلالَكْ

جَرُّوا جَمِيعَ بلادِهِمْ والفِيْلَ كَيْ يَسْبُوعِيَالَكْ

عَمَدُوا حِمَاكَ بِكَيْدِهِمْ جَهْلاً ومَا رَقَبُوا جَلالَكْ[1]

وتوجَّه الجيشُ إلى مكة من طريق مِنى، والفيل معهم، إذا بعث على الحرم أحجم، وإذا أعدلَ عنه أقدم، فوقعوا بالمغمَّس، فقال أبو الطيب بن مسعود في ذلك، وقيل: بل قاله عبد المطلب:

إنَّ آياتِ ربِّنَا سَاطِعَاتٌ مَا يُمَارِي بِهَا إلاَّ الكَفُورُ

حُبِسَ الفِيْلُ بالمغَمَّس حتى مرَّ يَعْوِي كأنَّه مَعْقُورُ[2]

وبصر أهلُ مكة بالطَّيْر قد أقبلت من ناحية البحر، فقال عبد المطلب: إنَّ هذه غريبة بأرضنا، ما هي نجدية، ولا تهامية، ولا حجازية، وإنَّها لأشباه اليَعَاسيب، وكان في مناقيرها وأرجلها حجارةٌ، فلما أظلَّتْ على القوم ألقتها عليهم حتى هَلَكُوا، فأفْلتَ من القوم أبرهةُ، ورجع إلى اليمن فماتَ في طريقه بعد أن كان يسقط من جسده عضوٌ عضوٌ حتى هَلَكَ، ولما تأخر القوم عنهم واستعجم خبرُهم عليهم قال عبد المطلب:

يَا رَبِّ لا نَرْجُو لهم سِوَاكَا يا ربِّ فَامْنَعْ منهم حِمَاكَا

إنَّ عَدُوَّ البَيْتِ مَنْ عَادَاكَا امْنَعْهُمْ أن يُخرِبُوا قُرَاكَا[3]

---

(١) السيرة النبوية: لابن هشام ج ٥١/١، يذكر البيتين الأوَّلَيْن. ودلائل النُّبوَّة: للبيهقي ج ١١٨/١ ـ ١١٩ دون ذكر الأبيات الأخيرة.

(٢) السيرة النبوية: لابن هشام ج ٦٠/١ وهذان البيتان من ثمانية أبياتٍ، ذكرها لأميَّة بن أبي الصَّلْت بن أبي ربيعة الثقفيّ. وضبط «المغمّس» بكسر الميم المشدَّدة «المغمِّس» وتروى بالفتح.

(٣) تاريخ الطبري ج ٣٤/٢.

وبعث ابنه عبدَ اللَّه ليأتيَهُ بخبرهم، فوجد جميعهم قد شَدَخَتْهُمُ الأحجارُ، حتى هلكوا، فعادَ راكضاً إلى عبد المطلب وأصحابهِ وأخذوا أموالهم، فكانت أول أموال بني عبد المطلب، فأنشأ مرتجزاً يقول:

أنتَ مَنَعْتَ الجيشَ والأَفْيَالاَ   وقَدْ رَعَوْا بمكَّةَ الأَخْيَالاَ

وقَدْ خَشِيْنَا مِنْهُمُ القِتَالاَ   وكلُّ أمْرٍ لَهُمْ مِعْضَالاَ

شُكْراً وحَمْداً لَكَ ذَا الجَلاَلاَ

وآيةُ الرسول من قصَّة الفيل: أنَّه كان في زمانهِ حملاً في بطن أمه بمكة؛ لأنه وُلِدَ بعد خمسين يوماً مِنَ الفيل، وبعد موت أبيه، في يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول[1]، ووافق من شهور الروم العشرين من شباط في السَّنة الثانية عشرة من ملك هرمز بن أنو شروان. وحكى أبو جعفر الطبري: أنَّ مولدَهُ ﷺ كان لاثنتين وأربعين سنة من ملك أنو شروان[2].

فكانت آيته في ذلك من وجهين:

أحدهما: أنَّهم لو ظفرُوا لَسَبُوا واسْتَرَقُّوا، فأهلكهم اللَّهُ تعالى لصيانة رسولِهِ أن يجري عليه السَّبْيُ حملاً ووليداً!!.

والثاني: أنَّه لم يكن لقريش من التألُّه ما يستحقون به رفع أصحاب الفيل عنهم، وما هم أهل كتاب؛ لأنَّهم كانوا بين عابد صنم، أو متديِّن وثن، أو قائل بالزندقة، أو مانع من الرجعة[3]، ولكن لِما أرادَهُ اللَّهُ تعالى من ظهور الإسلام،

---

(١) أخرج مسلم في صحيحه عن أبي قتادة الأنصاري: أنّ رسول اللَّه ﷺ سُئل عن صومِ يومِ الاثنين؟ فقال: (فيه وُلِدْتُ، وفيه أُنْزِلَ عليَّ)، وأخرج الطبري بإسناده عن المطلب بن عبد اللَّه بن قيس بن مخرمة عن أبيه عن جدِّه، قال: ولدتُ أنا ورسول اللَّه ﷺ عام الفيل. وأخرج أيضاً بإسناده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: وُلِدَ رسول اللَّه ﷺ عامَ الفيل. [تاريخ الطبري ج ٢/١٥٥].

(٢) تاريخ الطبري ج ٢/١٥٥.

(٣) الرجعة: البعث يوم القيامة، فكان مِنَ المشركين مَنْ يعتقد أنْ لا بعث بعد الموت، فأكذبهم =

تأسيساً للنُّبوَّة، وتعظيماً للكعبة، وأن يجعلها قبلةً للصَّلاة، ومَنْسَكاً للحج.

فإن قيل: فكيف مُنِعَ عن الكعبة قبل مصيرها قبلةً ومنسكاً، ولم يُمنع الحَجَّاجُ من هدمها، وقد صارت قبلة ومنسكاً حتى أحرقها ونصب المنجنيق عليها؟ فقال فيها على ما حُكي عنه:

كَيفَ تَراهُ سَاطِعاً غُبَارُهُ   واللّه فيما يَزْعُمُونَ جَارُهُ

وقال راميها بالمنجني:

قِطَارَةٌ مِثْلُ الفَنِيقِ المُزْبِدِ   أرْمِي بها أعْوَادَ كلِّ مَسْجِدِ[1]

قيل: فِعْل الحجاج كان بعد استقرار الدِّين، فاستغنَى عن آيات تأسيسهِ، وأصحاب الفيل كانوا قبل ظهور النبوة، فجعل المنع منها آية لتأسيس النبوة ومجيء الرسالة، على أنَّ الرسول ﷺ قد أنذر بهدمها، فصار الهدم آية بعد أنْ كان المنع آية، فلذلك اختلف حكمهما في الحالين واللَّه تعالى أعلم.

ولمَّا انتشر في العرب ما صنع اللَّه تعالى بجيش الفيل تهيَّبوا الحرم وأعظموه، وزادت حرمتُهُ في النُّفُوس، ودانت لقريش بالطاعة، وقالوا: أهلُ اللَّه قَاتَلَ عنهم وكَفَاهُم كيدَ عدوهم!! فزادوهم تشريفاً وتعظيماً، وقامت قريش لهم بالوفادة والسدانة والسِّقَاية، والوِفَادة: مال تخرجه قريش في كل عام من أموالهم يصنعون به طعاماً

= اللَّه تعالى في قوله في سورة التغابن، آية ٧: ﴿زَعَمَ الَّذين كفَرُوا أنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بلَى وربِّي لَتُبْعَثُنَّ ثم لَتُنَبَّؤنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وذَلِكَ على اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

(١) ذكره الطبري في أحداث سنة أربع وستين في تاريخه ج ٤٩٨/٥، في ٣ من شهر ربيع الأول يوم السبت سنة أربع وستّين، قذفوا البيت بالمجانيق، وحرَّقُوه بالنَّار وأخذوا يرتجزون ويقولون:

خَطَّارُهُ مِثْلُ الفنِيقِ المزبدِ   نَرْمي بها أعوادَ هذا المسجد

وكان هذا بعدما بايع أهلُ مكة والحجاز عبد اللَّه بن الزبير على الخلافة، فخرج عليه أهل الشام لقتاله، لعدم مبايعته ليزيد بن معاوية. ولا شك في أنَّ عملهم هذا من الفسق والفجور، ولكنَّهم لم يقصدوا هدم البيت، وإنَّما رَمَوْه لاعتصام عبد اللَّه بن الزبير بالبيت بعد أن حاصروه فيه.

للنَّاس أيام مِنَى، فصارُوا أئمَّةً دَيَّانين، وقادةً متَّبعِين، وصار أصحابُ الفيل مثلاً في الغابرين!!.

وروى هشام بن محمد الكلبي عن أبيه: أنَّ عمر بن الخطاب رضي اللّٰه عنه خرج في الجاهلية تاجراً إلى الشام فمرَّ بزنباع بن روح، وكان عشّاراً[1]، فأساء إليه في اجتيازه وأخذ مُكْسَهُ، فقال عمر بعد انفصاله:

متى ألف[2] زِنْبَاعَ بنَ روحٍ ببلدةٍ ... إلى النِّصفِ منها يقرعُ السِّنَّ بالنَّدم

ويعلم أنَّا من لؤي بن غالب ... مطاعين في الهيجا مضاريب في التُّهم

فبلغ ذلك زنباعاً فجهز جيشاً لغزو مكة، فقيل له: إنَّها حَرَمُ اللّٰه، ما أرادَها أحدٌ بسوءٍ إلاَّ هلك، كأصحاب الفيل، فكفَّ زنباع، فقال:

تمنَّى أخو فِهرٍ لقايَ ودُونَهُ ... قراطبةٌ مثلُ الليوثِ الحَواظِرِ

فواللّٰه لولاَ اللّٰهُ لاَ شيءَ غيرُهُ ... وكعبتُهُ راقتْ إليكم مَعَاشِري

لأقْتُلُ منكُمْ كلَّ كَهْلٍ مُعَمَّمٍ ... وأسْبِي نِسَاءً بينَ جمعِ الأبَاعِرِ

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في الإصابة ج ٤/١٧ في ترجمة «زِنباع» رقم ٢٨١١: وذكر الزبير بن بكّار في الموفَّقيَّات عن المدائني عن هشام بن الكلبي عن أبيه: أنَّ عمر خرج تاجراً في الجاهلية، مع نفرٍ من قريش، فلمَّا وصلوا إلى فلسطين قيل لهم: إنَّ زِنْبَاع بن روح بن سلامة الجُذامي يُعَشِّرُ ـ أي يأخذ من التجارة العُشْر ضريبةً للملك، وكان الحارث بن أبي شِمْر الغسّاني ـ من يمرُّ به للحارث بن أبي شِمْر، قال: فعمدنا إلى ما معنا من الذهب، فألقمناهُ ناقةً لنا، حتى إذا مضينا، نحرناها وسلم لنا ذهبُنَا، فلمَّا مَرَرْنا على زِنباع، قال: فتِّشُوهم، ففتَّشُونا فلم يجدوا معنا إلاّ شيئاً يسيراً، فقال: اعرضوا عليَّ إبلهم، فمرّت به النَّاقةُ بعينها، فقال: انحروها، فقلتُ: لأي شيء؟ قال: إنْ كان في بطنها ذهب، وإلاّ فلك ناقة غيرها، وكُلْها، قال: فشقُّوا بطنَها فسال الذهب، قال: فأغلط علينا في العُشر، ونالَ من عمر، فقال عمر في ذلك: [هذين البيتين].

(٢) في الإصابة:

متى ألقَ زِنباعَ بنَ رَوْحٍ ببلدةٍ ... لي النَّصَفُ منه يَقْرَعُ السِّنَّ من نَدَم

ويعلمُ أنَّ الحيَّ حيّ بنَ غالبٍ ... مُطاعينَ في الهيجَا مَضاريبَ في الهِيَمِ

فبلغ ذلك عمر رضوان اللّه تعالى عليه فأجابه، وقال:

أَلَمْ تَـرَ أنَّ اللّـهَ أهـلَكَ مَنْ بـغَى ... علينَـا قَـدِيمـاً في قـديمِ المَعَـاشِرِ

وأردَى أبَـا مكسـوم أبـرهـةَ الـذي ... أتَـانَـا مُغيـراً كـالفنيقِ المُخَـاطِـرِ

بجمـعٍ كثيـرٍ يُخرج العينَ وُسْطُهُ ... علـى رأسـهِ تـاجٌ على رأس بـاكِـرِ

فمـا رَاعَنَـا من ذلـك العبـدِ كيدُهِ ... وكـنَّـا بـهِ مـن بـيـنِ لاهٍ وسَـاخـرِ

وقـال سـأبغي البيتَ هَـدْمـاً ولا أرى ... بمكّـةَ مـاشٍ بينَ تلكَ المَشـاعِـرِ

فـرَدَّاهُ ربُّ الـعـرش عـنَّـا رِداءَهُ ... ولَـمْ يُنْجِـهِ إعـظامُـهُ بـالمَـرائِـرِ

فـأهلكَـهُ والتَّـابعـينَ لـه مَعَـاً ... وأسـرَى بـهِ منْ نَـاصِـرٍ ومُسَـامِـرِ

ولـيسَ لنَـا فـاعلَمْ وليسَ لِبيتِنَـا ... سِوَى اللّهِ مِنْ مولىً عَـزيـزٍ ونَـاصِـرِ

فدونَـك زُرْنَـا تَلْقَ مِثْـلَ الـذي لَقَـوْا ... جـميعُـهـم مِـنْ دَارِ عـيـنٍ وخَـاسِـرِ

وكان شأنُ الفيل رادعاً لكل باغ، ودافعاً لكل طاغ، وقد عاصر رسول اللّه ﷺ في زمن نبوته، وبعد هجرته جماعة شاهدوا الفيلَ وطيرَ الأبابيل[1]، منهم حكيم بن حزام، وحاطب بن عبد العزى، ونوفل بن معاوية، لأن كلَّ واحدٍ من هؤلاء عاشَ مائةً وعشرين، منها ستين سنة في الجاهلية وستين سنة في الإسلام.

---

(١) لقد خلَّدَ اللّهُ تبارك وتعالى ذكرى هذا الحَدَثِ العظيم في القرآن الكريم في سورة «الفيل» قال اللّه تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كيفَ فعلَ ربُّك بأصْحَابِ الفيلِ﴾، الذين كانوا قد عـزموا على هدم الكعبة، فـأبادهم اللّه وخيَّبَ سعيَهم وردَّ كيـدَهم بشرِّ هـزيمة ﴿أَلَمْ يَجْعَـلْ كيدَهُمْ في تَضْلِيلٍ﴾، ﴿وأَرْسَلَ علَيْهِمْ طَيْراً أبَابِيْـلَ﴾ هي الأفواج تلو الأفـواج، كالأقـاطيع من الإبـل المؤبّلة، جاءت من جهة البحر، وهي طيور سود بحريـة، في مناقيـرها ومخـالبها الحجارة ﴿تَرْمِيهِمْ بحجارةٍ مِنْ سِجِّيلٍ﴾ من طين شديد القوّة، والسِّجِّيل: الإسجال وهـو الإرسال، والسِّجِّيل: الشديد الكثير، والسِّجِّيل: كلُّ شديدٍ صُلْبٍ ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مأْكُولٍ﴾ كالتبن اليابس الذي تعصف به الريح لخفته. وذلـك أنَّ الحجارة كـانت تنزل على رأس أحـدهم فتخرج من أسفله. وفي هذا عبرة لكل معتبرٍ، وذكرى لكل عاقل، في أنَّ اللّه تعالى يحمي حَرَمَهُ ويحفظ بيتَهُ!!.

فصـل :

[ولادته ﷺ]

ولما حملتْ آمنةُ بنتُ وهب برسول اللّه ﷺ ، حـدَّثتْ أنَّها أُتيت، فقيـل لها: إنَّك قد حملتِ بسيِّدِ هذه الأُمَّة!! فإذا وقع على الأرض فقولي: أُعيذُهُ بالواحدِ من شرِّ كلِّ حَاسِدٍ، ثم سَمِّيهِ «محمداً»! ورأتْ حينَ حملتْ به أنَّه خرجَ منهـا نورٌ رأتْ منه قصورَ بصرى من أرض الشام[1]!!.

قالتْ أمُّ عثمان بن العاص: شهدتُ ولادةَ آمنةَ برسولِ اللّه ﷺ وكان ليلاً، فما شيء أنظر إليه من البيت إلَّا نور وإنَّني أنظر إلى النجوم تدنـو، وإني أقول: لتقعنَّ عليَّ، ولمَّا وضعتْهُ تركتُ عليه في ليلة ولادته جفنةً، فانقلبتْ عنه. فكان من آياته أن لم تحوه، وأرسلتْ إلى جدِّهِ عبد المطلب: أن قَدْ وُلِدَ لك غلامٌ فأْتِهِ فانظُرْ إليهِ، فأتَاهُ ونـظرَ إليهِ، وحـدثَتْهُ بمـا رأت حين حملتْ به، ومـا قيل لهـا فيه[2]، ومـا أُمرتْ أن تسميَهُ، فقيل: إنَّ عبد المطلب أخذه فدخل به على هُبَـل في جوف الكعبـة، فقام عنده ويشكر بما أعطاه، ثم خرج به إلى أمِّه، فدفعه إليها، وقال وقد رأى فيه سمات المجـد، وتـوسم فيـه إمـارات السؤدد: إنَّ محمـداً لن يمـوت حتى يسـودَ العـربَ والعجم!!.

وأنشأ يقول:

الـحـمـدُ للّـهِ الَّـذي أعـطـانِـي	هـذا الـغُـلَامَ الـطَّيِّـبَ الأرْدَانِ
أُعِـيـذُهُ بـالـوَاحِـدِ الـمَـنَّـان	مـن كـلِّ ذِي عَـيْـبٍ وذِي شَـنَـآنِ

---

(١) أخرج الشيخ محمد نـاصر الـدين الألباني في الأحاديث الصحيحـة رقم ١٥٤٥: أنَّ رسول اللّه ﷺ قال: (أنا دعوة أبي إبراهيم، وبُشرَى عيسى عليه السَّلام، ورأتْ أمِّي حين حملت بي أنَّه خرج منها نورٌ أضاءت له قصورُ الشام، واسترضعتُ في بني سعد بن بكر) الحديث. وهناك روايات أخرى ذكرها ابن هشـام في السيرة النبوية في شأن ولادته ﷺ ج ١/١٦٥ ـ ١٦٦، والدلائل لأبي نعيم ج ١/١٣٥.

(٢) السيرة النبوية: لابن هشام ج ١/١٥٩ ـ ١٦٠، والدلائل: للبيهقي ج ١/١١١ ـ ١١٢.

حتَّى آرَاهُ شَامِخَ البُنْيَانِ[1]

فصل:

[رضاعته، وشقُّ صدره ﷺ]

ولم يزلْ مَوْفُورَ البَرَكةِ على كلِّ لَائِذٍ به، وكافلٍ له!! فروى جهم بن أبي الجهم عن عبد اللَّه بن جعفر قال: لمَّا وُلِدَ رسولُ اللَّه ﷺ قدمت حليمة بنت الحرث بن عبد العزى تلتمس الرضعاء في سنة شيبة، قالت: ومعنا شارف واللَّه ما يبض لنا بقطرة من لبن ومعي بُني لي منه وما نجد في ثديي ما نُعلِّله إلَّا أنَّا نرجُو الغيثَ، وكانت لنا غنم فنحن نرجوها، فلما قدمنا مكة لم يبق منَّا امرأة إلَّا عُرِضَ عليها رسول اللَّه ﷺ فلم تقبله، وكرِهْنَاهُ ليتمه، فأخذَ كلُّ صاحبي رُضَعاءَ، ولم أجدْ غيرَهُ، فأخذتُهُ وأتيتُ به رَحْلِي، فواللَّهِ إنْ هو إلَّا ثبتَ في الرَّحْلِ فأمسيتُ فأقبلَ ثدياي باللَّبن، حتى أرويته وأرويتُ أخَاهُ، وقام أبوه إلى شَارِفِنَا تلكَ، ليمسَّهُ بيدِهِ، فإذا هي حافلٌ!! فحلبها فأرواني من لبنها وروى الغلمان، فقال: يا حليمة! لقد أصبنَا نسمةً مباركةً[2]!! ثم اغتدينا راجعين إلى بلادنا، فركبتُ أتاني وحملتُهُ معي، فوالذي نفس حليمة بيده لقد طفت بالركب، حتى أنَّ النِّسوة ليقلنَ: يا حليمة امسكي عنَّا، أهذه أتانُكِ الَّتي خرجتِ عليها؟ قلت: نعم! فقلتُ: واللَّهِ إنِّي لأرجو أن أكونَ قد حملتُ عليها غُلَاماً مباركاً!! قالت: فكان اللَّه يزيدُنَا بِهِ في كلِّ يوم خيراً، وإن غنمنا لتعودُ من الرَّعْي بِطَاناً حُفَّلاً، وتعود غنم النَّاس خِمَاصاً جِيَاعاً[3].

---

(1) دلائل النُّبوَّة: للبيهقي ج ١/١١٢ والأبيات عنده أطول ممَّا هنا.

(2) دلائل النُّبوَّة: للبيهقي ج ١/١٣٣، ودلائل النُّبوَّة: لأبي نعيم ج ١/١٥٤ ـ ١٦٢، والسيرة النَّبويَّة: لابن إسحاق ج ١/١٦٠ ـ ١٦٤، ومجمع الزوائد: للحافظ الهيثمي ج ٨/٢٢٠، وفتح الباري: للحافظ ابن حجر ج ٧/٣٩٤، وابن حبان في صحيحه، موارد الظمآن رقم ٢٠٩٤.

(3) السيرة النَّبويَّة: لابن هشام ج ١/١٦٣ ـ ١٦٤، ودلائل النُّبوَّة: لأبي نعيم ج ١/١٥٨ ـ ١٥٩، ودلائل النُّبوَّة: للبيهقي ج ١/١٣٣ ـ ١٣٤.

قالت: فبينا هو يلعب خلف البيوت وأخـوه في بهمٍ لنا إذْ أتـاني أخوه يشتـد فقال: إن أخي القرشي جاءه رجلان عليهما ثوبان أبيضان، فأخذاه فأضجعاه وشقـا بطنه، فخرجتُ أنا وأبوه فوجدناه قائماً قد انتقع لونه، فلما رآنا أجهش إلينـا باكيـاً، قالت: فالتزمتُه أنا وأبوه، وقلنا له: ما لك؟ فقال: جاءني رجلان فأضجعاني، فشقَّا بطني وصنعَا بي، يلمُّ رداءَه كما هو. قال أنس بن مالك: جاءَهُ جبريلُ فصرعَه، فشَقَّ بـطنَهُ، فـاستخرجَ القلبَ، ثم شقَّ القلبَ فـاستخرجَ منـه علقـةً، فقـال: هـذا حظُّ الشَّيطان منك، ثم غلسَه، ثم لأَمَهُ، ثم أعاده إلى مكانه[1]. قال أنس: قد كنتُ أنظر إلى المخيط في صدرهِ.

ثم إنَّ زوج حليمة قال لهـا: يا حليمـةُ لقد خشيتُ أنْ يكـونَ هذا الغُـلام قد أُصيب فألحقيه بأهله قبل أن يظهر به ذلك، فاحتملته حليمة حتى قدمت به على أمه آمنة، فقالت أمـه: ما أقـدمك بـه يا ظِئْـر؟ قالت: قـد قضيتُ الذي عليَّ وتخـوَّفت الأحداث عليه، فأديته إليك كما تحبِّين، قالت: ما هذا شأنُكِ؟ فأصدقيني فأخبرتْها حليمةُ بحاله، وقالت: تخوَّفتُ عليه الشيطان[2]، فقالت أُمُّه: كلاَّ واللَّهِ ما للشيطان عليه سبيل، وأنَّ له شأناً، وأني رأيتُ حين حملتُ به أنَّه خرج منِّي نورٌ أضاءت منه قصورُ بصرى، ووقع حين ولدته وأنه لواضع يـده بالأرض رافـع رأسه في السمـاء، ودعيه فانطلقي راشدة[3].

وفي هذا الخبر من آياته ما تذعن النفوس بصحة نبوَّته.

---

(1) هذه رواية إسنادها صحيح كما قال الحافظ البيهقي في دلائل النُّبوَّة ج ١/١٤٦ ـ ١٤٧.

(2) السيرة النَّبويَّة: لابن هشام ج ١/١٦٥.

(3) السيرة النَّبويَّة: لابن هشام ج ١/١٦٥.

فصـل:

[عصمته في صباه]

وروى محمد بن إسحاق قال: حدثني بعض أصحابنا أن رسول اللَّه ﷺ قال: لقد رأيتني وأنا غلامٌ يَفِعٌ بمكة، مع غلمان قريش، نحمل حجارة على أعناقنا، وقد حملنَا أزرنَا فوطَّأْنَا على رقابِنَا، إذْ دفعني دافعٌ ما أراه، وقال: أُشْدُدْ عليك إزارَكَ!! فشددتُ إِزَارِي[1].

وهذا من نُذر الصيانة ليكون عليها ناشئاً ولها آلِفاً.

فصـل:

[عصمته في شبابه عن المعاصي]

وروى عليٌّ بن أبي طـالب رضي اللَّه عنه أنَّـه قـال: سمعتُ رسـول اللَّه ﷺ يقول: ما هممتُ بشيءٍ ممَّا كان في الجاهلية يعملون به غير مرتين، كلُّ ذلك يحولُ اللَّهُ تعالى بيني وبين ما أريد، فإنِّي قلتُ ليلةٍ لغلام من قريش كان يرعى معي بأعلى مكة: لو أبصرتَ إلى غنمي حتى أدخل مكة، فأَسمُرَ بها ما يسمر الشباب؟! فقال: ادخـل، فخرجتُ أريـدُ ذلـك، حتى إذا جئتُ أوَّل دارٍ من دور مكَّـةَ سمعتُ عَـزْفـاً بالدُّفُوف والمزامير، فقلت: ما هذا؟ قالوا: فلان بن فـلان تزوَّج فـلانة ابنـة فلان، فجلستُ أنظر إليهم، فضربَ اللَّهُ على أُذنيَّ فنمتُ، فما أيقظني إلاَّ مَسُّ الشَّمس، قال: فجئتُ صاحبي، فقال: ما فعلت؟ فقلتُ: مـا صنعتُ شيئاً وأخبـرته الخبـر، قال: ثم قلتُ له ليلة أخرى مثل ذلك، فقال: افعـل، فخرجتُ فسمعتُ حين جئتُ

---

(١) دلائـل النُّبـوَّة: لأبي نعيم ج ١/١٨٨ ـ ١٨٩ بعـدَّة ألفـاظٍ منهـا مـا أخرجـه الشيخـان في صحيحهما: فتح الباري ج ١٨٤/٤ وج ١٤٦/٨، وصحيح مسلم ج ١٨٤/١.

(٢) دلائــل النُّبـوَّة: لأبي نعيم ج ١٨٦/١ رقم ١٢٨، ومجمـع الـزوائـد: للحـافظ الهيثمي ج ٢٢٦/٩ وقال: رواه البزار ورجاله ثقات.

مكة مثل ما سمعتُ، ودخلتُ مكَّةَ تلك اللَّيلة، فجلستُ أنظر فضربَ اللَّه على أُذُنَيَّ فـواللَّهِ ما أيقـظني إلاّ مَسُّ الشَّمس، فرجعتُ إلى صـاحبي، فأخبرتُـهُ الخبرَ، ثم ما هممتُ بعدَهما بسُوءٍ، حتى أكرمني اللَّهُ برسالتِه[1]!!.

فهذه أحوال عصمته قبل الرسالة، وصدّه عن دنس الجهالة، فاقتضى أن يكون بعد الرسالة أعظمَ! ومن الأدناس أَسْلَمَ! وكفَى بهـذه الحال أن يكـون من الأصفياء الخِيَرةِ أن أمهل! ومن الأتقياء البررة أن أغفل! ومن أكبرَ الأنبياء عند اللَّه تعـالى من أرسلَ، مستخلص الفطرة على النـظرة، وقد أرسله اللَّه تعـالى بعد الاستخـلاص، وطهره من الأدناس، فانتفت عنهم تهم الظنـون، وسَلِمَ من ازْدِرَاء العُيون؛ ليكـون النَّاس إلى إجابته أسرع، وإلى الانقياد له أطوع.

فصـل:

[حديث بنيان الكعبة]

ولما نشأ رسول اللَّه ﷺ في قريش، على أحمدَ هديٍ وصيانةٍ وأكملِ عفافٍ وأمانةٍ؛ سَمُّوهُ «الأمين» بعد اختباره، وقدَّمُوه لفضله ووقاره، وتشاورُوا في هدم الكعبة وبنائها، لقصر سمكها، وكان فوق القـامة وسعـة حيطانهـا، وكان يتهـافت، فأرادُوا تجديدَها وتعليَتَها، وخافوا من الإقدام على هدمهـا، وكان للكعبـة كنزٌ وجـدوه عند دُوَيْك مولى لبني مُلَيْح من خزاعـة، وأخذتْـهُ قريشٌ منـه، وقطعت يـده واتهموا بـه

---

(1) أخـرجه البيهقي في دلائـل النُّبوَّة ج ٢/٣٣ ـ ٣٤، والبـدايـة: لابن كثيـر ج ٢/٢٨٧. قـال ابن إسحاق: فشبَّ رسول اللَّه ﷺ يكلؤهُ اللَّه عزَّ وجلَّ ويحفظه ويحوطه من أقذار الجـاهلية ومعايبها؛ لِما يُريد به من كرامته ورسالته، وهو [بين أظهرهم] حتى بلغ أن كان رجلاً أفضل قـومه مـروءةً، وأحسنهم خلقاً، وأكـرمهم مخالـطةً، وأحسنهم جـواراً، وأعـظمهم خلقـاً، وأصدقهم حديثاً، وأعظمهم أمانةً، وأبعـدهم من الفحش والأخلاق التي تُـدنِّس الرجـال، تنزُّهاً وتكـرُّماً، حتى مـا اسمُهُ في قـومه إلاّ الأمين!! لِمـا جمعَ اللَّه تعـالى فيه من الأمـور الصالحة! [السيرة لابن هشام ج ١/١٩٧، والدلائل للبيهقي ج ٢/٣٠].

الحرث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف أن يكون قد تولى أخذه وأودعه عند دويك، فَنَافَرُوهُ إلى كاهنة من كهان العرب، فسجعت عليه من كهانتها أن لا يدخل مكة عشر سنين، بما استحلَّ من حرمة الكعبة، فكان يجول حول مكة حتى استوفى العشر، وكان يظهر في الكعبة حيَّةٌ يخاف النَّاسُ منها، لا يدنو منها أحد إلاَّ احْزَأَلَّتْ[1]، وفتحتْ فَاهَا، فَتَوَقَّرْهَا إلى أن عَلَقَتْ ذات يوم على جدار الكعبة فسقط طائر فاختطفها[2]!!.

فقالت قريش: إنَّا لنرجو أن يكونَ اللَّهُ قد رضي ما أردنا[3]، وكان البحر قد قذف سفينة على ساحل جدَّة لرجل من تجار الروم، وكان بمكة نجَّارٌ من القِبْط، فهيَّأ لهم تسقيفَ الكعبة بخشب السفينة، فلما أزمعوا على هدمها قام أبو وهب بن عمير، وكان خال رسول اللَّه ﷺ ذَا شَرَفٍ وقَدْرٍ فأخذَ حجراً من الكعبة فوثبَ الحَجَرُ من يدهِ، حتى عاد في موضعه، فقال: يا معشر قريش! لا تُدْخِلُوا في بنيانها من كسبِكم إلاَّ طيِّباً، ولا تُدخلوا فيها مَهْرَ بغيٍّ، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من النَّاس، وتصورت قريشٌ أن عَوْد الحجر من يد أبي وهب إلى موضعه أنَّ اللَّه تعالى قد كره هَدْمَها فَهَابُوهُ[4].

وقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدؤكم في هدمها، فأخذَ المِعْوَلَ، وقام عليها وهو يقول: اللَّهمَّ لا نُريدُ إلاَّ الخيرَ، ثم هدم الركنين، فتربَّصَ النَّاسُ به تلك اللَّيلة، وقال: ننتظر فإن أُصيب لم تُهدمْ، وإن لم يُصَبْ هَدَمْنَاهَا وقد رضي ما صَنَعْنَا.

فأصبح الوليد من ليلته، وعاد إلى عمله وتحاصَّتْ قريشُ الكعبة، فكان شق البيت لبني عبد مناف وزهرة، وما بين الركن الأسود والركن اليمان لبني مخزوم وتيم

---

(١) احْزَأَلَّت وفتحت فَاهَا: انصمتْ رافعةً رأسها.

(٢) تاريخ الطبري ج ٢/٢٨٦ ـ ٢٨٧، والسيرة النَّبويَّة: لابن هشام ج ١/١٩٢ ـ ١٩٣.

(٣) وعند الطبري ج ٢/٢٨٧: عندنا عاملٌ رقيقٌ وعندنا خشب، وقد كفانا اللَّهُ أمرَ الحيَّة، وذلك بعد الفجار بخمس عشرة سنة، ورسول اللَّه ﷺ عامَئِذٍ ابنُ خمسٍ وثلاثين سنة.

(٤) تاريخ الطبري ج ٢/٢٨٨ ـ ٢٨٩، والسيرة النَّبويَّة: لابن هشام ج ١/١٩٤ ـ ١٩٥.

وقبائل انضمت إليه من قريش، وكان شق الحجر والحطيم لبني عبد الدار وبني عبد العُزَّى وبني عدي، وكان ظهر الكعبة لبني جمح وبني سهم، حتى انتهوا إلى الأساس، فأفضوا إلى حجارة خضر، قيل: إنها كانت على قبر إسماعيل فضربوا المعول بين حجرين، فلما تحركا انتفضتْ مكَّةُ بأسرها، فكَفُّوا وانتهوا إلى أصل الأساس، وجمعتْ كلُّ قبيلةٍ حجارةَ ما هَدَمَتْ، وبنوا حتى انتهوا إلى ركن الحجر، فتنازعت القبائل فيمن يضع الحجر في موضعه من الركن، فأقبلوا حتى مكثوا أربع ليال أو خمساً ثم اجتمعوا في المسجد فتشاوروا، فقال أبو أميَّة بن المغيرة، وكان أمين قريش في وقته: يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلِفُون فيه أول رجل يدخل من باب هذا المسجد، فكان أول داخل عليهم رسولُ اللَّهِ ﷺ، فقالوا: هذا محمَّدٌ وهو الأمين!! فقالوا: قد رضينَا بهِ!! لما قد استقر في نفوسهم من فضله وأمانته، فلما وصل إليهم أخبروه، فقال: ائتوني ثَوْباً، فأتوه بثوب، فأخذ الحجرَ ووضعَهُ فيهِ بيدهِ، وقال: لتأخذ كلُّ قبيلةٍ بناحيةٍ من الثوب، وليرفعوهُ جميعاً ففعلوا، فلمَّا بلغَ الحجرُ إلى موضعِهِ وضعَهُ فيه بيدهِ[1]، فكان هذا الفعل من مستحسنُ أفعالُهُ وآثارُهُ والرضاء به من أمارات طاعته.

وكان ذلك بعد عام الفجار بخمس عشرة سنة ورسول اللَّه ﷺ يومئذ ابن خمس وثلاثين سنة، فكان ذلك تأسيساً لِما يُريده اللَّه تعالى به من كرامته، وتوطئةً لقبول ما تحمَّلَهُ من رسالتهِ، واللَّهُ أعلم بمغيب ما استأثر من علمه.

---

(١) تاريخ الطبري ج ٢/٢٨٧ ـ ٢٩٠، والسيرة النبوية: لابن هشام ج ١/١٩٦ ـ ١٩٨، والسيرة النَّبويَّة: لابن كثير ج ١/٢٧٧ ـ ٢٨١، وأخبار مكة: للأزرقي ج ١/١٥٨ ـ ١٦٤، ودلائل النُّبوَّة: للبيهقي ج ٢/٥٧ ـ ٦٠.

في شرف أخلاقه وكمال فضائله ﷺ

المهيَّأ لأشرف الأخلاق! وأجمل الأفعال! المؤهَّل لأعلَى المنازل! وأفضل الأعمال! لأنَّها أصول تقود إلى ما نَاسَبَها ووَافَقَها وتنفرد ممَّا باينها وخالَفَها، ولا منزلةَ في العالم أعلى من النبوة التي هي: سَفارَةٌ بينَ اللَّه تعالى وعبادِهِ، تبعثُ على مصالح الخلق وطاعة الخالق، فكان أفضل الخلق بها أخص وأكملهم بشروطها أحق بها وأمسَّ، ولم يكن في عصر الرسول ﷺ وما دانى طرفيه من قاربه في فضله، ولا دَانَاهُ في كماله خَلْقاً وخُلُقاً وقولاً وفعلاً، وبذلك وصفه اللَّه تعالى في كتابه بقوله: ﴿وإنَّك لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيْمٍ﴾[1].

فإن قيل: فليستْ فضائِلُهُ دليلاً على نبوَّته[2]، ولم يُسْمَعْ بنبيٍّ احتجَّ بها على

---

(١) سورة القلم، الآية ٤.

(٢) هذا القيل والقال من الأسلوب الجدلي العقيم، وإنَّ الثابت قطعاً أنَّ فضائل رسول اللَّه ﷺ التي خصَّه اللَّه تبارك وتعالى بها معجزةٌ دالَّةٌ على صدق نبوَّته ﷺ، وبرهان هذا حسِّيٌّ لا محيدَ عنه، وهو أنَّ النَّبيَّ ﷺ أتى إلى قوم لقاح لم يدينوا للملوك، ولم يُمتَلَكُوا للجبابرة، ولا يُطيعون لأحدٍ، ولا ينقادون لرئيس، قد نشأ آباؤهم وأجدادهم وأسلافهم على هذا منذُ ألوف من الأعوام، وقد سَرى الفخرُ والعِزَّةُ والنَّخوةُ والكِبْرُ والأَنَفَةُ في طباعهم، وهم أعدادٌ عظيمةٌ، مَلأوا جزيرة العرب، ثم كيف استطاع النبي ﷺ التغلُّب على قساوة طباعهم، وجفاء أخلاقهم، فعاملهم خير المعاملة، وساسهم خير السياسة، بما حباه اللَّه تعالى من الخُلُق العظيم والهدى القويم، ولولا ذلك كما كان في مقدوره الوقوف أمام جحافلهم بما لهم من الطباع الموصوفة والعادات المألوفة، ثم تحويلهم إلى أن يكونوا خيرَ أُمَّةٍ أخرجت للنَّاس، لم =

أمَّته ولا عوَّل عليها في قبول رسالته، لأنَّه قد يُشارك فيها حتى يأتي بمعجز يخرق العادة فيعلم بالمعجز أنه نبي لا بالفضل.

قيل: الفضل مِنْ أمَارَاتِها وإن لم يكن من معجزاتِها، ولأنَّ تكامل الفضل معوز، فصار كالمعجز ولأنَّ من كمال الفضل اجتناب الكذب، وليس من كذب في ادعاء النبوَّة بكامل الفضل، فصار كمال الفضل موجباً للصدق، والصدقُ موجباً لقبول القول فجاز أن يكون من دلائل الرُّسُل.

فصل:

[كمال خلْقه وخلُقه]

فإذا وضح هذا، فالكمال المعتبر في البشر يكون من أربعة أوجه: **أحدها**: كمال الخَلْق، **والثاني**: كمال الخُلُق، **والثالث**: فضائل الأقوال، **والرابع**: فضائل الأعمال.

فأمَّا **الوجه الأول**: فكمال خُلُقِهِ بعدَ اعتدال صورتِهِ، فيكون بأربعة أوصاف: **أحدها**: السَّكينة الباعثة على الهيبة، والتعظيم الداعية إلى التَّقديم والتسليم، وكان أعظَمَ مهيبٍ في النفوس، حتى ارْتَاعَتْ رسلُ كسرى من هيبته، حين أتوه، مع

= تعهد البشرية خيراً منهم!!.

وممَّا لا شك فيه أنَّ رسول اللَّه ﷺ كان قدوتهم وأسوتهم الحسنة، فتخلَّقُوا بأخلاقه، واتَّصفوا بصفاته، وتحلَّوْا بكرائم أخلاقه، ومحاسن شمائله، فتبدَّلت طبائعهم بفضل اللَّه تعالى، من الظلم إلى العدل، ومن الجهل إلى العلم، ومن القسوة إلى اللِّين، ومن السَّفَه إلى الحِلْم، ومن الكِبر إلى التواضع، فكان لهم رسول اللَّه ﷺ بأخلاقه المنقِّذ والمعلِّم والمربِّي والهادي ﷺ، وفي هذا يقول الحقُّ سبحانه مُمْتناً على رسول اللَّه ﷺ بفضله عليه: ﴿فبما رحمةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لهُمْ ولو كنتَ فَظّاً غليظَ القلبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِك، فاعْفُ عنهم واستغفِرْ لهم. .﴾ [الآية ١٥٩ من سورة آل عمران] فلو لم تكن أخلاقه الشريفة معجزةً من معجزات نبوته لَما كان هذا الامتنان عليه من اللَّه سبحانه وتعالى وارداً في تأثيره فيهم وتغييره لهم ﷺ!!!.

ارتياضهم بصولة الأكاسرة ومكاثرة الملوك الجبابرة، فكان في نفوسهم أهْيب، وفي أعينهم أعظم، وإن لم يتعاظم بأهبة، ولم يتطاول بسطوة، بل كان بالتواضع موصوفاً وبالوطاء معروفاً.

والثاني[1]: الطلاقة الموجبة للإخلاص، والمحبة الباعثة على المصافاة والمودَّة وقد كان محبوباً، ولقد استحكمت محبة طلاقته في النفوس، حتى لم يَقلْهُ[2] مصاحب، ولم يتباعد منه مقارب، وكان أحبَّ إلى أصحابه من الآباء والأبناء، وشرب البارد على الظمأ!!.

والثالث: حسن القبول الجالب لمُمَايَلَةِ القلوب، حتى تسرع إلى طاعته وتذعن بموافقته، وقد كان قبول منظره مستولياً على القلوب، ولذلك استحكمت مصاحبتُه في النفوس، حتى لم يَنْفِرْ منه مُعَانِدٌ، ولا استوحشَ منه مُبَاعِدٌ، إلَّا من ساقَهُ الحسَدُ إلى شقوته، وقادَهُ الحرمانُ إلى مخالفتِهِ.

والرابع: ميل النفوس إلى متابعته، وانقيادِها لموافقتِهِ، وثباته على شدائده ومصابرته، فما شذَّ عنه معها من أخلص، ولا نَدَّ عنه فيها من تخصَّصَ، وهذه الأربعة من دواعي السعادة، وقوانين الرسالة، وقد تكاملت فيه، فكمل لِما يُوازيها، واستحق ما يقتضيها!!.

---

(١) جاء لفظ: «فصل» قبل ذكر هذه الوجوه، حذفناه لعدم الحاجة إلى وضعه قبلها.
وأخلاق رسول الله ﷺ قد أجملت أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها وصفها حين سُئِلت عن أخلاقِهِ؟ فقالت: كان خُلُقهُ القرآنُ!! يرضى لرضَاهُ، ويسخطُ لِسَخَطِهِ!! [دلائل النُّبوَّة: للبيهقي ج ١/٣٠٩].

(٢) لم يَقِلْهُ: أي لم يتركه صاحبه، لجزالة أخلاقه وكريم آدابه وسموِّ سَجَاياه!!.

فصـل :

[١ ــ كمال أخلاقه : عقله ﷺ]

وأمّا الوجه الثاني : في كمال أخلاقه فيكون بستٍّ أخلاق :

إحداهنَّ : رَجَاحَةُ عقلِهِ ، وصحةُ وَهْمِهِ ، وصدق فـراستِهِ ، وقـد دلَّ على وفور ذلك فيه ، صحةُ رأيه وصوابُ تدبيره ، وحسن تألفـه ، وأنه مـا استفعل في مكيـدة ، ولا استعجز في شديدة ، بل كـان يلحظ الإعجاز في المبـادىء ، فكيشف عيوبهـا ، ويحل خطوبها ، وهذا لا ينتظم إلاَّ بأصدق وَهْمٍ وأوضح جزم .

فصـل :

[٢ ــ ثباتـه وصبره ﷺ]

والخصلة الثـانية : ثبـاته في الشـدائد وهـو مـطلوب ، وصبـره على البَـأْسَـاءِ والضَّرَّاء ، وهو مكروب ومحروب ، ونفسه في اختلاف الأحوال ساكنة ، لا يجوز في شديدة ولا يَشْكِيَنَّ لعظيمة أو كبيرة ، ويقدر على الخلاص ، أو بالشر ، وهو لا يَزْدَادُ إلاَّ اشتداداً وصبراً ، وقد لقي بمكة من قريشٍ ما يشيب النواصي ، ويهدد الصياصي وهو مع الضيف يُصابر صبر المستعلي ، ويثبتُ ثباتَ المستولي .

وروى حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال : (لقد أُخفتُ في اللَّه ، وما يخاف أحـدٌ ، ولقد أُوذيتُ في اللَّه ، ومـا يُؤْذَى أحدٌ ، ولقـد أَتَتْ عليَّ ثـلاثون من بين يـوم وليلة وما لي ولبـلال طعام يـأكله ذُو كبدٍ ، إلا شيءٌ يُـواريه إبطُ بلال)(١) .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج٣/١٢٠ ، وابن ماجه في المقدمة باب : فضل سلمان وأبي ذر والمقـداد ، والترمـذي برقم ٢٤٧٢ ، وابن حبـان في صحيحه [الإحسان ج١٤/ ٥١٥ ـ ١٥٦] ، قـال الشيخ شعيب الأرنـاؤوط : إسناده صحيـح على شـرط مسلم ، رجـالـه رجـال الشيخين غيـر حماد بن سلمـة ، فمن رجـال مسلم ، وهـو في مصنف ابن أبي شيبـة ج١١/ ٤٦٤ ، وج١٤/٣٠٠ ، ومسند أبي يعلى رقم ٣٤٢٣ .

وروى عبد الرحمن بن يزيد عن عائشة رضي اللَّه عنها قالتْ: ما شَبِعَ آلُ محمَّدٍ من الشعيرِ يومينَ، حتى قُبِضَ رسولُ اللَّه ﷺ[1].

ومَنْ صبرَ على هذه الشَّدائد في الدعاء إلى اللَّه تعالى، امتنعَ أن يُريدَ به الدنيا، وقد زُويتْ عنه وما ذاك إلَّا لطلب الآخرة، ومستحيل ممَّن كذب في ادِّعائه إليها أن يستوحشها، أو كذب على اللَّه تعالى أن يثاب إليها.

فصل:

[٣ ـ زهده ﷺ]

والخصلة الثالثة: زهده في الدنيا وإعراضه عنها، وقناعته بالبلاغ منها، فلم يَمِلْ إلى نضاراتها، ولم يَلْهُ لحلاوتها.

وروى سفيان الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن خيثمة بن عبد الرحمن قال: قيل لرسول اللَّه ﷺ: إنْ شئتَ أُعطيتَ خزائنَ الأرض ما لم يُعْطَ أحدٌ قبلك، ولا يُعطاه أحدٌ بعدَك، ولا ينقصك في الآخرة شيء، قال: (اجمعُوها لي في الآخرة)، فنزلت: ﴿تبارَكَ الَّذي إنْ شاءَ جعلَ لكَ خيراً مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تجرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنهارُ ويَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً﴾[2].

وروى هلال بن خباب عن عكرمة عن ابن عباس أنَّ عمر بن الخطاب رضوان اللَّه تعالى عليه دخل على رسول اللَّه ﷺ وهو على حصير قد أثَّر في جسمه، فقال له: يا رسولَ اللَّهِ! لو اتخذتَ فراشاً أوطأ من هذا، فقال: (مَا لِي وللدُّنْيَا، مَا لِي وللدُّنْيَا، والَّذي نفسي بيدهِ ما مِثْلِي، ومِثْلُ الدُّنْيَا إلَّا كَرَاكِبٍ سَارَ في يومٍ صائفٍ،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه رقم ٥٤١٤ في الأطعمة، باب ما كان النبي ﷺ وأصحابه يأكلون، والبغوي في مشكاة المصابيح رقم ٤٠٧٦، وابن حبان في صحيحه، الإحسان ج ٢٥٥/١٤ ـ ٢٥٦. قال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه البخاري رقم ٥٣٧٤.

(٢) سورة الفرقان، الآية ١٠. =

فاستظلَّ تحتَ شجرةٍ ساعةً مِنَ النَّهارِ، ثم رَاحَ وتركَهَا)[1].

وروى حمد بن بلال بن أبي بردة قال: أخرجتْ إلينا عائشةُ رضي اللَّه عنها كساءً مُلَبَّداً وإزاراً غليظاً، وقالت: قُبِضَ رسولُ اللَّه ﷺ في هذين[2].

هذا وقد ملك من أقصى الحجاز إلى عَذَارِ العراق، ومن أقصَى اليمن إلى شجر عُمَان، وهو أزهدُ النَّاس فيما يُقْتَنَى، ويُدَّخَر، وأعرضُهم عمَّا يُستفاد ويُحتكر، لم يخلف عيناً ولا ديناً، ولا حفر نهراً ولا شيد قصراً، ولم يُوَرِّثْ ولدَهُ وأهلَهُ متاعاً ولا مالاً، ليصرفهم عن الرغبة في الدنيا، لمَّا صرف نفسَهُ عنها، فيكونوا على مثل حاله في الزهد فيها.

وروى أبو سلمة عن أبي هريرة قال: جاءت فاطمةُ رضي اللَّه عنها إلى أبي بكر رضي اللَّه عنه تُريد الميراثَ، فمنعَها، فقالت: مَنْ يرثُكَ؟ قال: ولدي وأهلي، فقالت: فلا ترثُ رسولَ اللَّه ﷺ بنتُه؟ فقال أبو بكر رضي اللَّه عنه: سمعتُ رسولَ اللَّه ﷺ يقول: (إنَّا لا نُورَثُ، ما تَرَكْنَا فهو صَدَقَةٌ)، فمن كان رسولُ اللَّه ﷺ يعولُهُ، فأنا أعولُهُ، ومَنْ كان رسولُ اللَّه ﷺ يُنفقُ عليه، فأنا أُنْفِقُ عليه[3].

وحثَّ رسول اللَّه ﷺ على الزهد في الدنيا والإعراض عن التَّلبس بها ليكون عوناً على السلامة من تباعتها وصرف النفوس عن شهواتها.

= الدُّرُّ المنثور: للحافظ السيوطي ج ٥/٦٣، رواه الفريابي، وابن أبي شيبة في المصنف.

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج ١/٣٩١ و ٤٤١، والحاكم في مستدركه ج ٤/٤١٠ وصححه؛ وذكره الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد ج ١٠/٣٢٦ وقال: رواه الطبراني وفيه عُبيد اللَّه بن سعيد قائد الأعمش وقد وثقه ابن حبان وضعفه جماعة وبقية رجاله ثقات.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ج ٤/١٠١، ومسلم في صحيحه ج ٦/١٤٥، والترمذي رقم ١٧٣٣، وأحمد ج ٦/٢٢.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج ١/٢٥، ٤٨، ١٦٢، ١٦٤، ١٧٩، ١٩١، والطحاوي في شرح معاني الآثار ج ٢/٥، والترمذي في الشمائل رقم ٢١٤، وابن سعد في الطبقات الكبرى ج ٢: ٢/٨٥.

وروى عبد المطلب بن حاطب عن أبي موسى الأشعري أن رسول اللّه ﷺ قال: (مَنْ أحبَّ دُنْيَاهُ أضرَّ بآخرتِهِ، فآثِرُوا ما يَبْقَى على ما يفنى)[1].

وروي عن الحسن قال: قال رسول اللّه ﷺ: (احْذَرُوا الدُّنْيَا فإنها أَسْحَرُ من هاروتَ وماروت)[2].

وروى عمرو بن مرة عن أبي جعفر قال: قال رسول اللّه ﷺ: (يا عجباً! كل العجب للمصدِّق بدار الخلود، وهو يسعَى لدارِ الغُرُور)[3].

وروى عوف عن الحسن قال: قال رسول اللّه ﷺ: (إنَّما مَثَلُ الدُّنْيا كمثلِ الماشي على المَاءِ، هل يستطيع الذي يمشي على الماء أن لا تبتل قدماه)[4].

وهذه الدواعي والوصايا ما اقتدى به خلفاؤه في زهده وانتقلوا بالأمور من بعده، فكان أبو بكر يتخلل عباءَةً له، وهو خليفة، فسمي ذا الخلالين، وكان عمر يلبس مرقعةً من صوف فيها رقاع من أدم، ويطوف في الأسواق على عاتقه درة يؤدِّب بها النَّاس، ويمرُّ بالنَّوى فيلقطه، ويُلقيه في منازل النَّاس حتى ينتفعوا به، ويطوف وحده في الليل عَسَساً، ويتطلع غوامض الأمور تَحَسُّساً، ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر!! وكان عثمان يقوم اللَّيلَ كلَّه، يختم القرآن في ركعة، وجاد بماله وفَدَى

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج ٤/١٧٥، ٤١٢، والبيهقي في سننه ج ٣/٣٧٠، والحاكم في المستدرك ج ٤/٣٠٨، ٣١٩، وصححه ولم يُقرَّهُ الذهبي، ورواه ابن حبان في صحيحه، الإحسان ج ٢/٤٨٦ رقم ٧٠٩. قال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده ضعيف، لانقطاعه، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ج ١٠/٢٤٩: رواه الطبراني والبزار، وقال: رجالهم ثقات، وكون رجاله ثقات لا يعني صحة الحديث، فإنَّه لا بدَّ من شرط اتصال السند، وهو مفقود هنا.

(٢) هذا الحديث قال فيه المحدث الشيخ ناصر الدين الألباني في الأحاديث الضعيفة ج ١/٥٣ رقم ٣٤: منكر لا أصل له، وكذا قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ج ٣/١٧٧.

(٣) ذكره ابن عساكر ج ٣/١٩٨، والسيوطي في الدر المنثور ج ٥/١٤٩، والزبيدي في الإتحاف ج ٨/٨٢.

(٤) ذكره الزبيدي في الإتحاف ج ٨/١٠، وابن عساكر ج ٣/٢١١، ولا يصح إسناده.

الخلقَ بنفسِه[1]. وقال: إنَّما أنا عبد آكلُ كما يأكل العبدُ، وأشربُ كما يشرب العبدُ!! واشترى عليٌّ رضي اللَّه عنه، وهو خليفةٌ، قميصاً بثلاثة دراهم، قطع كُمَّهُ من موضع الرُّسُغين، وقال: الحمدُ للَّه الذي هذا مِنْ رِيَاشِهِ، ولم يزل يأكل الخشب ويلبس الخَشِنَ، وفرَّق الأموال حتى رشَّ بيت المال، ونام فيه، وقال: يا صفراء يا بيضاء غرِّي غيري!! وحقيقٌ بمن كان في الدنيا بهذه الزهادة حتى اجتذب أصحابه إليها أن لا يُتهم بطلبها، ويكذب على اللَّه تعالى في ادِّعاء الآخرة بها، ويقنع في العاجل، وقد سُلِبَ الأجل، بالميسور النَّزْر، ورضي بالعيش الكدر.

وقد روى الزهري عن عروة عن عائشة رضي اللَّه عنها قالت: كان رسول اللَّه ﷺ يقول في شهر رمضان: (قدِّمِي غَدَاكِ المبارك). وقالت: ربما لم يكن إلاَّ تمرتين[2].

وروى عبد اللَّه بن مسلمة عن مالك بن أنس: أنَّه بلغه أنَّ رسولَ اللَّه ﷺ دخل المسجدَ، فوجد أبا بكر وعمر رضي اللَّه عنهما فسألهما فقال: (مَا أخرَجُكُمَا؟)، فقالا: الجوع! فقال رسولُ اللَّه ﷺ: (وأنا أخرجني الجوع)، فذهبوا إلى أبي الهيثم بن التَّيهان، فأمر لهم بحنطةٍ أو شعيرٍ عنده يُعمل، وقام فذبح لهم شاةً، فقال له: (نَكِّبْ عن ذات الدَّرِّ)[3] واستعذِبَ لهم ماءً عُلِّقَ على نخلةٍ، ثم أوتُوا بذلك الطَّعام، فأكلوا منه وشربوا من ذلك الماء، فقال رسول اللَّه ﷺ: (لَتُسْأَلُنَّ عَنْ نعيمِ هذا اليوم)[4]، ثم مَلَكُوا الدُّنيا فرفضُوها، واقتنَعُوا بالبلاغة فيها.

---

(١) وفدَى الخلقَ بنفسِه: وذلك يوم الدَّار، لم يرضَ من أحدٍ أن يُقاتل الخارجين عن طاعته من أهل مصر، حتى قتلوه ظلماً وبغياً وعدواناًوهو يتلو القرآن الكريم.

(٢) لم يرد بهذا اللفظ، وإنما هو بلفظ: (قدّمي إلينا الغداء المبارك) يعني السحور، وربَّما لم يكن إلاّ تمرتين. مجمع الزوائد: للحافظ الهيثمي ج ١٥١/٣ وقال: رواه أبو يعلى، ورجاله ثقات.

(٣) أي: لا تذبح الحلوب.

(٤) أخرجه مطولاً ابن حبان في صحيحه رقم ٥٢١٦، ج ١٢/١٦ ـ ١٨، الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان.

فصـل :

[٤ ــ تواضعه ﷺ]

والخصلة **الرابعة** : تواضعه للنَّـاس، وهم أتباع! وخفض جنـاحه لهم، وهـو مـطاع! يمشي في الأسواق! ويجلس على التـراب! ويمتزج بـأصحابـه وجلسائـه، فلا يتميز عنهم! إلاَّ بإطراقه وحيائه، فصارَ بالتواضـع متميزاً!! وبـالتَّذلُّـل متعزِّزاً!! ولقد دخل عليه بعض الأعراب فارتاع من هيبته، فقال: (خفِّضْ عليك فإنَّما أنَا ابْنُ امرأةٍ كانتْ تأكُلُ القَدِيدَ بمكَّةَ)[1]، وهذا من شرف أخلاقه وكريم شيمه، فهي غريزةٌ فُطِرَ عليها، وجِبلَّةٌ طُبِعَ بها، لم تندر فتعدُّ، ولم تحصر فتحدُّ!!.

فصـل :

[٥ ــ حلمه ووقاره ﷺ]

والخصلة **الخامسة** : حِلْمُهُ ووَقَارُهُ عن طيش يهزُّه، أو خَرْقٍ يَسْتَفِزُّهُ، فقد كان أحلم في النفار من كلِّ حليم، وأسلم في الخصام من كل سليم!! وقـد مُنِيَ بجفوةِ الأعـراب، فلم تُوجـدْ منه نـادرةٌ ولم يحفر عليـه بادرة ولا حليم غيـره إلا ذُو عُثرة، ولا وقور سواه إلاَّ ذو هفوةٍ، فإنَّ اللَّه تعالى عصَمَهُ من نزع الهوى، وطيش القـدرة، بهفوةٍ أو عَثْرَةٍ؛ ليكون بأمَّته رؤوفاً، وعلى الخلق عَطُوفاً، وقـد تناولتـه قريشٌ بكـلِّ كبيرةٍ، وقصدتْهُ بكلِّ جريرةٍ، وهو صَبُورٌ عليهم، ومُعْـرِضٌ عنهم، وما تفـرد بذلـك سفهاؤهم دون حلمائهم، ولا أراذلهم دون عظمائهم، بل تَمالأَ عليه الجِلَّةُ والدُّون، فكلَّما كانوا عليه من الأمر وألح، كان عنهم أعرض وأفصح!! حتى قَهَرَ فَعَفَا!! وقَدِرَ فَغفَرَ!! وقال لهم حين ظفِرَ بهم عامَ الفتح، وقد اجتمعوا إليه: (ما ظَنُّكُمْ بي؟) قالوا: ابْنُ عمٍّ كريم!! فإنْ تعفُ فذاك الظن بك، وإن تنتقم فقد أسأنا، فقال: (بل أقولُ كما

---

(١) أخرجه الحـاكم في المستدرك ج ٤٦٦/٢ وصححـه، و٤٨/٣، والبيهقي في دلائل النُّبـوَّة ج ٦٩/٥، وأخرجه ابن ماجه برقم ٣٣١٢، والهيثمي في مجمع الزوائد ج ٢٠/٩، وذكـره الشيخ محمد ناصر الدِّين الألباني في الأحاديث الصحيحة رقم ١٨٧٦.

قـالَ يُـوسُفُ لأخـوتِـهِ: ﴿لا تَثْـرِيْبَ عليكُمُ اليَـوْمَ يَغْفِـرُ اللَّهُ لكُمْ وهُـوَ أرْحَمُ الرَّاحِمِين!﴾[1]، قـال ﷺ: (اللهم قـد أذقتَ أوَّلَ قـريش نكـالاً فـأذِقْ آخـرَهُمْ نَوالاً)[2]، وأتته هند بنت عُتبة، وقد بقرت بطن عمه حمزة، ولاَكَتْ كَبِدَهُ، فصفَحَ عنها وأعطَاهَا يده لبيعتِهَا[3].

فإن قيل: فقد ضرب رقاب بني قريظة صبراً في يوم واحد، وهم نحو سبعمائة، فأينَ موضعُ العفوِ والصفح؟ وقد انتقم انتقام من لم يعطفه عليهم رحمة، ولا داخلته لهم رقة؟!.

قيل: إنَّما فعل ذلك في حقوق اللَّه تعالى، وقد كانت بنو قريظة رَضُوا بتحكيم سعد بن معاذ عليهم، فحكم أنَّ مَنْ جرتْ عليه المُوسَى[4] قُتِلَ، ومن لم تجرِ عليه اسْتُرِقَّ، فقال رسول اللَّه ﷺ: (هذا حُكْمُ اللَّهِ من فوقِ سبعة أرقعة)[5] فلم يَجُزْ أن يعفو عن حقٍّ وجبَ للَّهِ تعالى عليهم، وإنَّما يختصُّ عفوُهُ بحقِّ نفسِهِ.

---

(١) سورة يوسف، الآية ٩٢.

(٢) السيرة النَّبويَّـة: لابن هشام ج ٤١٢/٢، والسيـرة النَّبويَّـة: لابن كثيرج ٥٧٠/٣، وتـاريخ الطبري ج ٦١/٣، والدُّرُّ المنثور: للسيوطي ج ٣٤/٤.

(٣) هذه عبارة عن بيعته ﷺ من قِبَل هند وقبوله لها، وإلَّا فهوعليه الصلاة والسلام لم يصافح امرأة لا تحلُّ له. وقـد قال عليـه الصلاة والسلام: (إنِّي لا أُصَافِحُ النِّسـاءَ) أخـرجـه النسـائي ج ١٤٩/٧، وابن ماجه في سننه رقم ٢٨٧٤، وأحمد في مسنده ج ٣٥٧/٦، وعبد الرزاق في مصنفه رقم ٢٠٦٨٥.

(٤) أي بلغ ونبت شعر عانته.

(٥) رواه ابن إسحاق بإسناده قال: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن عمـر بن سعد بن معاذ، عن علقمة بن وقّاص اللّيثي قال: قال رسـول اللَّه ﷺ لسعد: (لقـد حكمتَ فيهم بحُكْمِ اللَّهِ من فوقِ سبعة أَرْقِعَةٍ)!! [الأَرْقِعَةُ: السمـوات. الواحـدة: رقيع] السيـرة النَّبويَّة: لابن هشام ج ٢٤٠/٢.

فصـل:

[٦ ــ حفظه ﷺ للعهد ووفاؤه بالوعد]

والخصلة السادسة: حفظه للعهد ووفاؤه بالوعد، فإنَّه ما نقض لمحافظ عهداً، ولا أخلف لمراقب وعداً، يرى الغدر من كبائر الذُّنوب والإخلاف من مساوىء الشيم فيلتزم فيهما الأغلظ، ويرتكب فيهما الأصعب، حفظاً لعهدِهِ ووفاء بوعدِهِ! حتى يبتدىء معاهدُوهُ بنقضهِ، فيجعل اللَّهُ تعالى له مخرجاً، كفعل اليهود من بني قريظة، وبني النضير، وكفعل قريش بصلح الحُديبية، فجعل اللَّهُ تعالى له في نكثهم الخِيَرَةُ، فهذه ستُّ خصالٍ تكاملت في خُلُقه، فضَّلَهُ اللَّه تعالى بها على جميع خلقه!!!.

فصـل:

[فضائل أقواله ﷺ]

وأمَّا الوجه الثالث: في فضائل أقواله، فَمُعْتَبرٌ بثمانِ خصالٍ:

إحداهنّ: ما أُوتي من الحكمة البالغة، وأعطي من العُلوم الجمَّةِ الباهرة!! وهي أُمِّيٌّ من أُمَّة أُمِّيَّة!! لم يقرأ كتاباً ولا درسَ علماً، ولا صحب عالماً، ولا معلماً، فأتى بما بَهَرَ العُقُولَ، وأذْهَلَ الفِطَنَ من إتقان ما أبانَ وإحكامَ ما أظهر!! فلم يعثر فيه بزلل في قولٍ أو عملٍ!! وجعل مَدَارَ شرعه على أربعة أحاديث، أوجز بها المرادَ وأحكمَ بها الاجتهاد.

أحدُها: قولُهُ: (إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّات، وإنَّما لكلِّ امْرِىءٍ مَا نَوَى)[١].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه رقم ١ في بدء الوحي: باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول اللَّه ﷺ، وفي الإيمان: باب ما جاء إنَّ الأعمال بالنِّيَّة ٥٤، وفي العتق باب الخطأ والنسيان ٢٥٢٩، وفي المناقب رقم ٣٨٩٨، وفي النكاح رقم ٥٠٧٠، وفي الأيمان والنذور رقم ٦٦٨٩، وفي الحيل رقم ٦٩٥٣، وأخرجه مسلم في صحيحه رقم ١٩٠٧ في الإمارة: باب قوله ﷺ: (إنَّما الأعمال بالنِّيَّة).

والثاني: قوله: (الحَلاَلُ بَيِّنٌ، والحَرَامُ بيِّنٌ، وبينَ ذلك أُمورٌ مُتَشَابِهَاتٌ، وَمَنْ يَحُمْ حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أنْ يقعَ فيه)[1]!.

والثالث: قوله: (مِنْ حُسْنِ إسْلاَمِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لاَ يُعْنِيهِ)[2]!.

والرابع: قوله: (دَعْ مَا يُرِيبُكَ إلى مَا لاَ يُرِيبُكَ)[3]!.

وقد شرعَ من تقدم من حكماء الفلاسفة سنناً حملوا النَّاس على التَّدَيُّن بها حين علموا أنَّه لا صلاح للعالم إلَّا بدين ينقادون له ويعملون به، ممَّا راق لها أثر، ولا فاقَ لها خبرٌ، وهم ينبوع الحكم، وأعيان الأُمَم، وما هذه الفِطرةُ في الرَّسُول ﷺ إلَّا من صَفَاءِ جَوْهَرِهِ، وخُلُوصِ مَخْبَرِهِ!!.

فصـل:

[حفظـه ﷺ]

والخصلة الثانية: حفظه لما أطلعه اللَّه تعالى عليه من قصص الأنبياء مع الأمم وأخبار العالم في الزمن الأقدم حتى لم يعزب عنه منها صغير ولا كبير ولا شذَّ عنه منها قليل ولا كثير، وهو لا يضبطها بكتاب يدرسه، ولا يحفظها بعين تحرسه، وما ذاك إلَّا من ذهنٍ صحيحٍ، وصدرٍ فسيحٍ، وقلبٍ شريحٍ، وهذه الثلاثة آلة ما استودع من الرسالة، وحمل من أعباء النُّبوَّة، فجديرٌ أن يكون بها مبعوثاً، وعلى القيام بها محثوثاً.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان رقم ٥٢، وفي البيوع رقم ٢٠٥١، ومسلم في المساقاة رقم ١٥٩٩، ولفظ البخاري: (يُوشك أنْ يَرْتَعَ فيه).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه رقم ٢٣١٧، وابن ماجه في سننه رقم ٣٩٧٦، وهو حديث صحيح.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه رقم ٢٥١٨، والنسائي في سننه ج ٨/٣٢٧ ـ ٣٢٨، والحاكم في المستدرك ج ٢/١٣ وج ٤/٩٩، وصححه وأقرَّه الذهبي على تصحيحه.

فصل :

[جوامع كلمه ﷺ]

والخصلة الثالثة : إحكامه لما شرع بأظهر دليل، وبيانه بأوضح تعليل، حتى لم يخرج منه ما يُوجبه معقول، ولا دخل فيه ما تدفعه العُقولُ، ولذلك قال ﷺ : (أُوتيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ ، واخْتُصِرتْ ليَ الحكمةُ اختصاراً)[1]، لأنه نبَّه بالقليل على الكثير، فكف على الإطالة، وكشف عن الجَهَالة، وما تيسَّر ذلك إلاَّ وهو عليه مُعَانٌ وإليه مُقَاد.

فصل:

[محاسن الأخلاق التي دعا إليها ﷺ]

والخصلة الرابعة : ما أمرَ بـهِ من محاسن الأخلاق، ودعا إليه من مستحسن الآداب، وحثَّ عليه من صلة الأرحام، وندب إليه من التعطُّف على الضعفاء والأيتام، ثم ما نهى عنه من التباغض والتَّحاسد، وكفَّ عنه من التَّقاطع والتَّباعد، فقال: (لا تَقَاطَعُوا ولا تَدَابَرُوا، ولا تَبَاغَضُوا، وكُونُوا عباداً للَّهِ إخْواناً)[2]؛ لتكون الفضائل فيهم أكثر ومحاسن الأخلاق بينهم أنشر، ومستحسن الآداب عليهم أظهر وتكون إلى الخير أسرع ومن الشر أمنع، فيتحقَّقُ فيهم قول اللَّهِ تعالى : ﴿كُنْتُمْ خيرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاسِ تأمُرُونَ بالمعرُوفِ وتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ﴾[3] فلزموا أوامره واتقوا زواجره، فتكامل بهم صلاح دينهم ودنياهم، حتى عزَّ بهم الإسلامُ بعد ضعفه، وذلَّ الشِّركُ بعد عزِّهِ، فصاروا أئمةً أبراراً، وقادةً أخياراً!!.

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب المساجد ٧، ٨، والإمام أحمد في مسنده ج ٢/ ٢٥٠، ٣١٤، ٤٤٢، ٥٠١، وسعيد بن منصور في مسنده رقم ٢٨٦٢، وابن أبي شيبة في مصنفه ج ١١/ ٤٨٠، والبيهقي في الدلائل ج ١/ ١٤.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب البر والصلة: باب ٩ رقم ٣٠، والترمذي في سننه رقم ١٩٣٥، وأحمد في مسنده ج ١/ ٥، والحميدي في مسنده رقم ١١٨٣.

(3) سورة آل عمران، الآية ١١٠.

فصـل :

[وضوح جوابه وظهور حجته ﷺ]

والخصلة الخـامسة : وضـوح جوابـه إذا سئل ، وظهـورُ حِجَاجِـهِ إذا جُوْدِلَ ، لا يحصرُهُ عيٌّ ولا يقطعه عجزٌ ولا يُعارضُهُ خصمٌ في جـدال إلا كان جـوابه أوضح وحجاجه أرجح ! ! أتاه أُبَيُّ بن خلف بعظم نَخِرٍ من المقابر ، قـد صار رميماً ففركـه حتى صار كالرماد ، ثم قال : يا محمد ! أنتَ تزعمُ أنَّا وآباءَنَا نعُودُ إذا صرنا هكذا؟ لقد قلتَ قولاً عظيماً ! ؟ ما سمعنا من غيرك ! ؟ ﴿مَنْ يُحيـي العِظَامَ وهي رميم﴾[1] فأنطقَ اللّه تعالى رسولَه ﷺ ببرهانِ نبوَّتِهِ فقال : ﴿يُحييها الذي أَنْشَأَهَا أوَّل مـرَّةٍ وهو بكـلِّ خَلْقٍ عليم﴾[2] فانصرف مبهوتاً ولم يَدْرِ جواباً ! ! ولمّا قـال عليه الصـلاة والسلام : (لا عَدْوَى ولا طِيَرَةَ) ، قال له رجل : يا رسـول اللّه ! إنَّا نـرى النقبة من الجـرب في مشفر البعير ، فيعدُو سائِرَهُ؟ قال : (فَمَنْ أعدَى الأوَّل)[3]؟ وأسكتَهُ ! ! .

فصـل :

[محفـوظ اللِّسان ﷺ]

والخصلة السادسة : أنه محفوظ اللسان من تحريفٍ في قول[4] ، واسترسـالٍ

---

(١) سورة يسٓ ، الآية ٧٨ .

(٢) سورة يسٓ ، الآية ٧٩ .

(٣) رواه البخـاري في صحيحـه : في كتـاب الـطب ، ومسلم في صحيحـه في كتـاب السـلام ج ١٧٤٢/٤ ، وأبو داود في سننه : في كتاب الطب ، والإمام أحمد في مسنده ج ٢٦٩/١ ، و ج ٢٦٧/٢ .

(٤) وكلامه ﷺ إنْ قلَّت حروفه ، فقد كثُرت معانيه ! ! فاستعملَ كلامه المبسوط في موضع البسط ، والمقصور في موضع القصر ، هجَرَ الغريب ورغب عن الهجين من الألفـاظ ! ! فلم ينطق إلاَّ عن حكمة ، ولم يتكلم إلا بعصمة ، فشيَّدَ اللّه تعالى كلامه بالتَّأييد ، ويَسَّرَه بالتوفيق ، فكـان الكـلام الذي ألقى اللّه تعـالى عليه المحبَّـة ، وغشَّاه بـالقبول ، وجمـع له فيـه بين المهابـة والحلاوة ، وبين حُسْنِ الإفهام وقلَّة عدد الكلام ! ! لم تسقط له كلمة ! ولا زلَّت بـه قدم ! ولا =

في خيرٍ يكون إلى الكذب منسُوباً، وللصدق مُجَانباً، فإنَّه لم يزل مشهوراً بالصدق في خبره فاشياً وكثيراً، حتى صار بالصدق مرموقاً، وبالأمانة مرسوماً، وكانت قريش بأسرها تتيقَّنُ صِدْقَهُ قبل الإسلام، فجهروا بتكذيبه في استدعائهم إليه، فمنهم مَنْ كذَّبَهُ حسداً، ومنهم من كذَّبَهُ عِناداً، ومنهم مَنْ كذَّبَهُ استبعاداً أن يكون نبياً أو رسولاً. ولو حفظوا عليه كذبةً نادرةً في غير الرسالة لجعلوها دليلاً على تكذيبه في الرسالة، ومن لزم الصِّدقَ في صغره كان له في الكِبَرِ ألزم، ومَنْ عُصِمَ منه في حقِّ نفسِهِ كان في حقوق اللَّه تعالى أَعْصَمَ، وحسبك بهذا دفعاً لجاحد ورداً لمعاند!!.

فصل:

[روعة كلامه ﷺ]

والخصلة **السابعة**: تحرير كلامه في التَّوخي به إبَّان حاجته، والاقتصار منه على قدر كفايته، فلا يسترسل فيه هدراً، ولا يحجم عنه حصراً، وهو فيما عَدَا حالتي الحاجة والكفاية أجمل الناس صمتاً وأحسنهم سمتاً، ولذلك حفظ كلامه حتى لم يختل، وظهر رونقه حتى لم يعتل، واستعذبتْهُ الأفواه حتى بقيَ محفوظاً في القلوب، مدوّناً في الكتب[1]، فلن يسلم الإكثار من زَلَلٍ، ولا الهَذْرُ مِنْ مَلَلٍ، أكثَرَ أعرابي

= بارت له حُجَّة! ولم يقم له خصم! ولا أفحمه خطيب! ولم يسمع النّاس بعد كلام اللَّه تعالى بكلامٍ قط أعم نفعاً، ولا أقصد لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً! ولا أحسن موقعاً! ولا أسهل مخرجاً! ولا أفصح معنًى! ولا أبينَ فحوًى من كلامه ﷺ!! [من البيان والتبيين: للجاحظ ج ٢/١٧].

(١) أحاديث الرسول ﷺ: هي السبيل الواضح! والنجم اللائح! والقائد النَّاصح! والعلم النافع! والبرهان الساطع! فهي المفزَعُ عند الخصام! والقدوة لجميع الأنام!!.
وأقواله ﷺ كلَّما زدتَها فكراً زادتك معنًى!! ولقد اتصفتْ بصفاتٍ قَلَّ أن تجتمع في كلامٍ سواه، ومن هذه الصفات: الغنى في المعاني، والعمق، والجدَّة، والإحكام، والغوص في الفكر والإمعان!! فهذه الأحاديث النَّبويَّة لا تبلى معانيها، ولا تَخْلَقُ مبانيها، ولا تُملُّ عند سامعيها، وكلَّما أُعيدت وُجدت جديدةً، كأنَّها النَّهار في تجديده، فهي للحياة مهما امتدتْ وتطاولتْ!!.

عندَهُ الكلام، فقال: (يا أعرابي كم دون لسانك من حجاب؟ قال: شفتاي وأسناني، فقال ﷺ: إنَّ اللَّه يكره الانبعاق في الكلام، فنضَّرَ اللَّهُ وَجْه امرىءٍ قصَّرَ من لسانه واقتصر على حاجته)[1].

فصل:

[فصاحته ﷺ]

والخصلة الثامنة: أنه أفصح النَّاس لساناً، وأوضحهم بياناً وأوجزهم كلاماً وأجزلهم ألفاظاً وأصحهم معانيَ، لا يظهر فيه هجنةُ التَّكلُّف، ولا يتخلَّلُهُ فَيْهَقَةُ التَّعسُّف، وقال ﷺ: (أبْغَضُكُمْ إليَّ الثَّرثَارُون، المُتَفَيْهِقُون)[2]، وقال: (إيَّاكَ والتَّشَادُق)[3]، ولمَّا نزل عليه قوله تعالى: ﴿في بُيُوتٍ أذِنَ اللَّهُ أنْ تُرْفَعَ ويُذْكَرَ فيها اسْمُهُ﴾[4] بنى مسجدَ قباء، فحضر عبد اللَّه بن رواحة، فقال: يا رسول اللَّه! قد أفْلَحَ من بنى المساجدَ؟ قال: نعم يا ابْنَ رواحة!! قال: ولَمْ يَبِتْ للَّهِ إلاَّ ساجد، قال: (يا ابْنَ رواحة! كُفَّ عن السَّجْعِ فما أُعطي عبدٌ شيئاً شرٌ من طَلاَقَةٍ في لسانه)[5].

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث، غير أنِّي وجدتُ ابنَ الأثير ذكر في النهاية في غريب الحديث ج ١/ ١٤١ في مادة «بَعَقَ» ما يرويه: «كان ﷺ يكرَهُ التَّبعُّقَ في الكلام»، ويُرْوَى «الانبعاق».

(٢) هذا من حديث أبي ثعلبة عن النبي ﷺ قال: (إنَّ أحبَّكم إليَّ وأقربَكم منِّي في الآخرة، أحاسِنُكم أخلاقاً، وإنَّ أبغضَكم إليَّ وأبعدَكم منِّي في الآخرة، أسوؤكم أخلاقاً؛ المُتشدِّقُون المتفيهقُون الثرثارون) أخرجه ابن حبان في صحيحه، ورجاله على شرط مسلم، الإحسان ج ٢/ ٢٣٢ رقم ٤٨٢ وج ١٢/ ٣٦٨ رقم ٥٥٥٧، وأخرجه أحمد في مسنده ج ٤/ ١٩٤، وله شاهد عند الترمذي ٢٠١٨.

(٣) لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث المعتبرة.

(٤) سورة النور، الآية ٣٦.

(٥) ذكره صاحب كشف الخفاء ج ١/ ٣٢٠ رقم ٨٥٦ وقال: ذكره في الإحياء، قال العراقي: لم =

فصـل :

[الإيجاز في الكَلِم النَّبويِّ]

فمن كلامه الذي لا يُشاكل في إيجازه قوله ﷺ : (والنَّاسُ بزمانهم أشبه)[1]، وقوله : (مَا هَلَكَ امْرؤٌ عَرَفَ قَدْرَهُ)[2]، وقوله : (لو تَكَاشَفْتُمْ ما تَدَافَنْتم)[3]، وقوله : (السَّعيدُ مَنْ وُعِظَ بغيرِهِ)[4]، وقوله : (حُبُّكَ للشَّيءِ يُعْمِي ويُصم)[5]، وقوله : (العقلُ أَلُوفٌ مَأْلُوفٌ)[6]، ....

= أجده هكذا، ورواه ابن السُّنِّي وأبو نعيم عن عائشة بإسناد صحيح : أنَّها قالت للسَّائب : إياك والسَّجع، فإنَّ النبي ﷺ وأصحابه كانوا لا يَسْجعون. وفي البخاري نحوه من قول ابن عباس.

(١) هذا من قول عليّ بن أبي طالب، كما في كشف الخفاء ج ٢/٤١٣.

(٢) ذكر القاضي عياض في الشفاء ج ١/١٧٤، وقال الحافظ السيوطي في مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا ص ٤٩ رقم ١٠٤ : ابن السمعاني في تاريخه من حديث عليٍّ بسندٍ فيه من لا يُعرف حالُهُ.

(٣) لم أجده بهذا اللفظ، وإنما ورد بلفظ : (لولا أنْ تَدَافَنُوا لدعوتُ اللَّهَ أن يُسمعكم عذاب القبر) رواه أحمد في مسنده ج ٣/١١٤، ١٥٣، وذكره الشيخ محمد ناصر الدِّين الألباني في الأحاديث الصحيحة رقم ١٥٨، وهو عند الحميدي برقم ١١٨٧، بلفظ : (لولا أن تدافنوا لسألتُ اللَّهَ أن يُسمعكم من عذاب أهل القبور).

(٤) ذكره صاحب كشف الخفاء ج ١/٥٤٨ رقم ١٤٧٥ وقال : رواه مسلم عن ابن مسعود، وكذا العسكري في الأمثال، والقضاعي عن ابن مسعود مرفوعاً، وأخرجه البيهقي في المدخل، والبزار في مسنده عن أبي هريرة مرفوعاً، لكن بلفظ : (السَّعيدُ من سَعِدَ في بطن أمه، والشقي من شقي في بطن أمه) وسنده صحيح.

(٥) ذكره الإمام الشوكاني في الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ٢٥٥، وذكره صاحب كشف الخفاء ج ١/٤١٠ رقم ١٠٩٥، رواه أبو داود العسكري عن أبي الدرداء مرفوعاً وموقوفاً، والوقف أشبه، وفي سنده ابن أبي مريم، ضعيف، ورواه أحمد عن ابن أبي مريم فوقفه، وذكره الشيخ محمد ناصر الدِّين الألباني في الأحاديث الضعيفة ١٨٦٨ وضعَّفَهُ.

(٦) أحاديث العقل لا يصح منها شيء، قال الإمام ابن قيم الجوزية في المنار المنيف في الصحيح والضعيف ص ٦٤/ في فصل ١٢ [في الأحاديث المكذوبة على النبي ﷺ] : ومنها أحاديث العقل، كلها كذب.

. . . . وقوله: (العِدَّةُ عطية)[1]، وقوله: (اللهم إنِّي أعوذُ بك من طمع يهدي إلى طَبْعٍ)[2]، وقوله: (أَفْضَلُ الصَّدَقَةُ جَهْدُ المُقِلِّ)[3]، وقوله: (اليَدُ العُلْيَا خيرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى)[4]، وقوله: (تَرْكُ الشَّرِّ صَدَقَةٌ)[5]، وقوله: (الخيرُ كثيرٌ وقليلٌ فَاعِلُهُ)[6]، وقوله: (النَّاسُ كمعادن الذَّهَبِ)[7]، وقوله: (نَزَلَتِ المَعُونَةُ على قَدْرِ المُؤْنَة)[8]، وقوله: (إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بعبدٍ خيراً، جَعَلَ له وَاعِظاً مِنْ نفسِهِ)[9]، وقوله: (أَدِّ الأَمَانَةَ إلى مَنِ ائتمَنكَ، ولا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ)[10]، وقوله:

---

(١) هذا حديث لا يصح، ذكره الشيخ ناصر الدين الألباني في الأحاديث الضعيفة، وقال: ضعيف ١٥٥٤، وضعيف الجامع الصغير رقم ٣٨٥٥.

(٢) لم يرد بهذا اللفظ، وإنما رواه أحمد ج ٥/٢٣٢، ٢٤٧ بلفظ: (استعيذوا باللَّهِ من طمعٍ يهدي إلى طبع)، والحاكم في المستدرك ج ١/٥٣٣، وقال الذهبي: مستقيم الإسناد، وضعفه الشيخ ناصر في مشكاة المصابيح ج ٢/٧٦٢، رقم ٢٤٧٤.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه والحاكم في مستدركه، والشيخ ناصر في الأحاديث الصحيحة رقم ٥٦٦، وصحيح الترغيب ٨٧٤.

(٤) أخرجه الشيخان في صحيحيهما: البخاري ج ٣/٣٩٤ رقم ١٤٢٩، ومسلم ج ٢/٧١٧، رقم ١٠٣٣.

(٥) ذكره صاحب كشف الخفاء ج ١/٣٦٠ وقال: ذكره في المواهب من غير عَزْوٍ لأحد. وفي صحيح مسلم ج ١/٨٩ رقم ١٣٦، وفيه: (تَكُفُّ شَرَّكَ عن النَّاس، فإنَّها صدقةٌ منك على نفسِكَ).

(٦) رواه أبو المؤيد الخوارزمي محمد بن محمود في جامع المسانيد لأبي حنيفة رحمه اللَّه تعالى ج ١/١٠٧، والخطيب البغدادي في تاريخه ج ٨/١٧٧ وفي إسناده أحمد بن عمران الأخنسي متروك. الميزان ج ١/١٢٣، وعطاء بن السائب ضعيف، المغني في الضعفاء ج ٢/٤٣٤.

(٧) وتمامه: (خيارُهم في الجاهلية خيارُهم في الإسلام إذا فَقُهُوا)، متفق عليه: البخاري ج ٦/٥٢٥ رقم ٣٤٩٣ و ٣٤٩٦، ومسلم في صحيحه ج ٤/١٩٥٨ رقم ٢٥٢٦.

(٨) لم يرد بهذا اللفظ وإنما بلفظ: (إنّ المعونة تنزل من السماء على قدر المؤونة)، ذكره ابن الجوزي في العلل المتناهية ١٨٩٢، وفي لفظ: (إنّ المعونة تأتي من اللَّه للعبد على قدر المؤونة) وهو في الأحاديث الصحيحة للشيخ محمد ناصر الدِّين الألباني رقم ١٦٦٤.

(٩) ذكره صاحب كنز العمال برقم ٣٠٧٦٢ وعزاه لمسند الفردوس.

(١٠) أخرجه أبو داود في سننه رقم ٣٥٣٤، والترمذي رقم ١٢٦٤، وأحمد في مسنده =

(المؤمن غِرٌّ كَرِيمٌ، والفَاجِرُ خَبٌّ لئيم) [1]، وقوله: (الدُّنيا سجنُ المؤمنِ وبلاؤه، وجَنَّةُ الكافِرِ ورَخَاؤُهُ) [2].

فصل:

[الفصاحة النَّبويَّة]

ومن كلامه الذي لا يُشاكَلُ في فصاحته: قوله ﷺ: (إيَّاكم والمُشَاوَرَةُ، فإنَّها تُميتُ العِزَّة وتحيي الضرَّة)[3]، وقوله: (لا تزال أمتي بخيرٍ ما لم ترَ الأمانةَ مغنماً والصدقة مغرماً)[4]، وقوله: (رحمَ اللَّهُ عبداً قال خيراً فغَنِمَ، أو سَكَتَ فسَلِمَ)[5]، وقوله: (اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ، ونفسٍ لا تشبَعُ، وقلبٍ لا يخشَعُ، وعَيْنٍ لا تدمَعُ، هلْ يطمعُ أحدُكم إلاَّ غنىً مُطْغِيَاً أو فقراً مُنْسِياً، أو مَرَضاً مُفْسِداً، أو هِرَماً مُفَنِّداً، أو الدَّجَّالُ، فهو شَرُّ غَائِب يُنْتَظَرُ، أو السَّاعَةُ فالسَّاعَةُ أَدْهَى وأمرُّ)[6]،

= ج ٣/٤١٤، والبيهقي في سننه ج ١/٢٧١، والحاكم في المستدرك ج ٢/٤٦، والشيخ محمد ناصر الدين الألباني في الأحاديث الصحيحة ٤٢٤.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الزهد/١، والترمذي برقم ٢٣٢٤، وابن ماجه برقم ٤١١٣، وأحمد في مسنده ج ٢/١٩٧، وأورده الشيخ محمد ناصر الدِّين الألباني في صحيح الترمذي برقم ١٨٩٣.

(٢) قال الشيخ محمد ناصر الدين الألباني: ضعيف/ضعيف، الجامع الصغير برقم ٣٠١٥، والأحاديث الضعيفة برقم ٢٥٣٧.

(٣) ذكره الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد ج ٧/٧٥ وج ٨/٢٢١ بلفظ: (فإنَّها تدفن العزّة، وتُظهر العورة) وقال: رواه الطبراني في الصغير، ورجاله ثقات، إلاّ أن شيخ الطبراني أبي محمد بن الحسن بن هديم لم أعرفه.

(٤) لم يردْ بهذا اللفظ، وإنما ورد في سنن الترمذي ج ٤/٤٩٤ - ٤٩٥ بلفظ: (إذا اتُّخِذَ الفَيْءُ دولاً، والأمانة مغنماً، والزكاة مغرماً.. فليرتقبوا ريحاً حمراء..). وقال الترمذي: حديث غريب. وضعفه الشيخ محمد ناصر الدين الألباني في ضعيف سنن الترمذي رقم ٣٨٦، والمشكاة رقم ٥٤٥١.

(٥) ذكره الغزالي في الإحياء ج ٣/١١٠، وقال الحافظ العراقي في تخريجه لأحاديث الإحياء: أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت والبيهقي في الشعب من حديث أنس، بسندٍ فيه ضعيف.

(٦) القسم الأول من الدعاء من حديث طويل أخرجه مسلم في صحيحه ج ٤/٢٠٨٨، والشطر =

وقوله: (ثَلاثٌ مُنْجِيَاتٌ، وثلاثٌ مُهْلِكَاتٌ؛ فأمَّا المُنْجِيَاتُ: فخشيةُ اللَّهِ تعالى في السِّرِّ والعلانية، والاقتصادُ في الغِنَى والفَقْرِ، والحكمُ بالعدلِ في الرِّضَا والغَضَبِ، وأمَّا المُهْلِكَاتُ فشُحٌّ مُطَاعٌ وهوىً مُتَّبَعٌ، وإعجابُ المَرْءِ بنفسِهِ)[1]، وقوله: (تَقَبَّلُوا لِيْ بستٍّ أتقبَّلْ لكم بالجنَّةِ)، قالوا: وما هي يا رسولَ اللَّه؟ قال: (إذا حدَّثَ أحدُكم فلا يكذب، وإذا وَعَدَ فلا يُخْلِفْ، وإذا ائتمِنَ فلا يَخُنْ، غُضُّوا أبصارَكم، واحفظُوا فروجَكُمْ، وكُفُّوا أيديكم)[2]، وقوله في بعض خطبه: (ألاَ إنَّ الأيَّامَ تُطْوَى، والأعمارَ تَفْنَى، والأبدانَ في الثَّرَى تُبْلَى، وأنَّ اللَّيلَ والنَّهارَ يتراكضَانِ تراكض البريد، يُقرِّبَانِ كلَّ بعيدٍ، ويُخْلِقَانِ كلَّ جديدٍ، وفي ذلكَ عبادَ اللَّهِ ما ألهى عن الشَّهوات، ورغَّبَ في الباقياتِ الصَّالحاتِ)[3]، وقوله في بعض خطبه، وقد خاف من أصحابه فترة: (أيُّها النَّاسُ كأنَّ الموتَ فيها على غيرنا كُتِبَ، وكأنَّ الحقَّ فيهاعلى غيرنا وَجَبَ، وكأنَّ

= الثاني: (هل يطمع أحدُكم إلاَّ غنًى. . .) هو عند الترمذي في حديث أبي هريرة: (بادروا بالأعمال سبعاً هل تنتظرون إلاَّ فقراً مُنْسِياً، أو غنىً مُطغياً، أو مرضاً مفسداً، أو هرماً مُفَنِّداً. .). وقال الترمذي: هذا حديث حسنٌ غريب. وضعَّفه الشيخ محمد ناصر الدين الألباني في الأحاديث الضعيفة رقم ١٦٦٦، وضعيف سنن الترمذي رقم ٤٠٠.

(١) ذكره التبريزي في مشكاة المصابيح رقم ٥١٢٢، والشيخ محمد ناصر الدين الألباني في الأحاديث الصحيحة بلفظ (ثلاثٌ مهلكات، وثلاث منجيات. فقال: ثلاث مهلكات: شحٌ مُطاع، وهوىً مُتَّبَعٌ، وإعجابُ المرءِ بنفسِهِ. وثلاث منجيات: خشيةُ اللَّهِ في السِّرِّ والعلانية، والصدق في الفقر والغنَى، والعدلُ في الغضبِ والرِّضَا) رقم ١٨٠٢.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ج ٣/٣٥٩ وذكره الشيخ ناصر الدين الألباني في الأحاديث الصحيحة رقم ١٤٧٠، وذكر له ألفاظاً: (اضمنُوا لي ستّاً من أنفسكم. .)، و (مَنْ ضمن لي ستّاً ضمِّنت له الجنَّة. .).

(٣) لم أجده في كتب الحديث، وهو أشبه بكلام الوُعَّاظ منه بكلام النُّبوَّة، وعلائم السَّجع المُتكلَّف ظاهرة عليه، فكم من كلام مسجوع حسبهُ الوُعَّاظ من كلام النبي ﷺ فرووه حديثاً، وليس هو منها، هذا عدا ما أصاب المسلمين من بلايا الكذَّابين منهم الذين يختلقون الكلام وينسبونه إلى النبي ﷺ، وهؤلاء أعدادهم كثيرة، وفي زماننا هذا بقيَّةٌ منهم خطباءَ ومدرسين يُحدِّثون الناس بأحاديث القُصَّاص المختلقة المكذوبة، وهذا من جرَّاء عدم اهتمامهم بكتب الحديث المعتبرة الصحيحة.

الَّذي يُشيَّع من الأمـوات سفر عمَّـا قليلٍ إلينـا راجعون، نبـوِّئهم أجداثهم، ونـأكل تراثَهُمْ، كأنَّا مُخَلَّدُوْنَ بعدهم، قد نسينا كلَّ واعظةٍ، وأمِنَّا كلَّ جائحةٍ، طـوبَى لمن شغلتْهُ آخرتُهُ عن دُنْيَاهُ، طُوبَى لمن شغلَهُ عيبُهُ عن عُيُوبِ النَّاسِ)[1].

وهذا يسيرٌ من كثير ولا يأتي عليه إحصاء، ولا يبلغه استقصاء، وإنَّمـا ذكرنـا مثالاً ليعلم أنَّ كلامه جامعٌ لشروط البلاغة[2]، ومُعْرِبٌ عن نهج الفَصَاحَةِ، ولو مُزِجَ بغيرهِ لتميَّزَ بأسلوبهِ، ولظهرَ فيه آثارُ التَّنافر، فلم يلتبس حقُّه من باطله، ولَبَانَ صدقِهِ من كذبِهِ، هذا ولم يكن متعاطياً للبلاغة، ولا مُخَالِطاً لأهلها، من خطباءٍ أو شعراء أو فُصحاء، وإنَّما هو من غرائز فطرته!! وبِدَاية جبلَّته، وما ذلك إلَّا لغاية تُرَادُ، وحادثة تُشَاد.

فإن قيل: إذا كان كلامُهُ مُخالفاً لكلام غيره في البلاغة والفصاحـة، حتى لم يكن فيه مساجلاً أيكون له معجزاً؟.

---

(١) هذا الحديث مروي من قبل الكذَّابين والمتروكين والمجاهيل، فقد ذكره الحافظ ابن الجوزي في الموضوعات ج ٣/١٧٨، وابن عراق في تنزيه الشريعة المـرفوعـة عن الأخبار الشنيعـة الموضوعة ج ٢/٣٤٠ ـ ٣٤١، فهو حديث مكذوب مختلق على رسـول اللَّه ﷺ، فالعجب من المؤلف رحمه اللَّه تعالى كيف يروي هذه الأحاديث الموضوعة المكذوبة على النبي ﷺ، ويستشهد بها على عظيم فصاحته وروعة بلاغته ﷺ؟! والعلَّة في هذا أنَّه لم يعتمد في مروياته على كتب الحديث المعتبرة المشهورة، ولو اعتمد على الصحيحين وغيرهما من كتب السنن الأربعة والمسانيد والصحاح الأخرى، واعتنى بمعرفة أسانيدها؛ لوجد الكثير الكثير من كلام النُّبوَّة الثابت بالأسانيد الصحيحة، وحقَّقَ مُرَادَهُ فيما يبتغيه من إظهار البلاغة النَّبوية وفصاحتها المعجزة!!.

(٢) هذا فيما صحَّ وثبتَ عن رسول اللَّه ﷺ بالأسانيد الصحيحة والحسنة، أمَّا الأحاديث الضعيفة والموضوعة التي ذكرها في فصوله السَّابقة فلا، ولا اعتبار إلَّا بما هو صحيح ثابت لدى أهل الحديث الذين جعلهم اللَّه تبارك وتعالى الحُمَاةَ الحَفَظَةَ لكلام رسوله ﷺ، أمثال ناصر السُّنَّة الشيخ المحدِّث محمد ناصر الدِّين الألباني، والشيخ عبـد القادر الأرنـاؤوط والشيخ شعيب الأرناؤوط، جزاهم اللَّه تعالى عن المسلمين كلَّ خير، فيما يُقدِّمُونه من خدمةٍ ورعايـةٍ لسنَّة نبيِّهم ﷺ!!!.

قيل له: لو كان هكذا وتحدَّى به صار معجزاً، ولا يكون مع عدم التَّحدِّي معجزاً[1].

فصـل:

[فضائل أفعاله ﷺ]

وأمّا الوجه الرابع: في فضائل أفعاله، فمختبَرٌ بثمان خصال:

إحداهُنّ: حُسْنُ سيرته، وصحة سياستِهِ، في دينٍ ابتكرَ شرعه حتى استقرَّ، وتدبير أحسن وضعه حتى استمرَّ، نقلَ به الأُمَّة عن مألوف وصرفهم به عن معروف، إلى غير معروف فأذعنت به النُّفوس طوعاً، وانقادت خوفاً وطمعاً، وشديد عادة منتزعة إلاَّ لمن كان مع التَّأييد الإلٓهي مُعَاناً بحزم صائب وعزم ثاقب، ولئن كان مأموراً بما شرعَ فهي الحجة القاهرة ولئن كان مجتهداً فيها فهي الآية الباهرة، وحسبُكَ بما استقرَّتْ قواعده على الأبد، حتى انتقلَ عن سلفٍ إلى خَلَفٍ، يُزَادُ فيهم حلاوتُهُ، ويشتدُّ فيهم جدَّتُهُ، ويرونه نظاماً لأعصارٍ تنقلب صروفها، ويختلف مألوفها أن يكون لمن قام به برهاناً، ولمن ارتَابَ به بَيَاناً.

فصـل:

[في اجتماع النَّاس عليه ﷺ]

والخصلة الثانية: أنَّ بين رغبة من استمال ورهبة من استطاع حتى اجتمعَ الفريقان على نصرته، وقامُوا بحقوق دعوتهِ، رَغَباً في عاجلٍ وآجلٍ، ورهباً من زائل

---

(١) بل الثابت أنَّ الأحاديث النَّبويَّة الصحيحة الثابتة تحمل مضمون الإعجاز، حيث لم يؤثر أنَّ أحداً من الفصحاء والبلغاء من عهد النُّبوَّة وإلى هذا الوقت من تكلم بمثل فصاحة النبي ﷺ وبلاغته، وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: (بُعِثْتُ بجوامعِ الكَلِمِ) متفق عليه: البخاري برقم ٢٩٧٧ و٧٢٧٣، ومسلم برقم ٥٢٣، وقال ﷺ: (فُضِّلْتُ على الأنبياء بستٍّ: أُعطيت جَوَامِعَ الكَلِمِ..) الحديث، أخرجه مسلم في صحيحه ٥٢٣، ج ١/٣٧١، قال ابن الأثير في النهاية ج ١/٢٩٥: ومنه الحديث في صفته ﷺ: (أنَّه كان يتكلّم بجوامِعِ الكَلِم) أي: كان كثيرَ المعاني قليل الألفاظ.

ونازل، لاختلاف الشيم والطباع في الانقياد الذي لا ينتظم بأحدهما، ولا يستديم بهما، فلذلك صار الدِّين بهما مستقرّاً، والصلاح بهما مستمراً!!.

فصل:

[بين الغلو والتَّقصير]

الخصلة الثالثة: أنه عَدْلٌ فيما شرعه من الدِّين عن غلوِّ النَّصارَى[1] في التَّشديد، وعن تقدير اليهود في التَّقصير، إلى التَّوسط بينهما، وخير الأمور أوسَاطُها؛ لأنَّه العدلُ بينَ طرفي سَرَفٍ وتقصيرٍ، فليس لما جاوز العدل حظ من رشد، ولا نصيب من سداد، وقد قال ﷺ: (إنَّ هذا الدِّينَ مَتِيْنٌ، فأَوْغِلُوا فيه برفق، فشرُّ السير الحقحقة، وأنَّ المُنْبَتَّ لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى)[2].

---

(١) لقد نهى رسول اللّه ﷺ عن الغلوِّ في إطرائه، فقال: (لا تُطْرُوني كما أطرتِ النَّصارى ابْنَ مريمَ، فإنَّما أنا عبدُه، فقولوا: عَبْدُ اللَّهِ ورسولُهُ)، أخرجه البخاري في صحيحه رقم ٣٤٤٥ و ٦٨٣٠، ومسلم في صحيحه رقم ١٣١٧ و ١٦٩١. والإطراء: مجاوزة الحدِّ في المدح، والكذب فيه، وذلك أنَّ النصارى أفرطوا في مدح عيسى وإطرائه بالباطل، فمنعهم ﷺ أن يُطروه بالباطل، ومن الإطراء بالباطل قول البوصيري في الكواكب الدرية في مدح خير البرية مخاطباً رسول اللّه ﷺ رقم البيت ١٥٤:

وإنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنيا وضُرَّتَها ... ومِنْ عُلُومِكَ عِلْمُ اللَّوحِ والقَلَمِ

وبهذا الكلام لم يجعل للّه تعالى شيئاً، فإذا كانت الدنيا وضرَّتها ـ وهي الآخرة، وفيها الجنَّة والنار ـ من جوده ﷺ، ومن علومه علم اللوح والقلم، فما هو الذي أبقاه للّه تعالى؟ والعياذ باللّه تعالى من الغلوِّ المفضي إلى الضَّلال.

(٢) ذكره الحافظ ابن حجر في فتح الباري ج ١١/٢٩٧ وقال: أخرجه البزار، من حديث عبد اللّه بن عمرو، موقوفاً. وأخرج ابن حبان في صحيحه رقم ٤٥١ وإسناده صحيح على شرط البخاري، عن أبي هريرة أنَّ رسول اللّه ﷺ قال: (إنَّ هذا الدِّينَ يُسْرٌ، ولن يُشادَّ الدِّينَ أحدٌ إلَّا غلبَهُ، فسَدِّدُوا وقارِبُوا وأبشروا، واستعينُوا بالغدوة الرَّواح، وشيءٍ من الدُّلْجةِ).

فصـل:

[بين الميل إلى الدُّنيا ورفضها]

والخصلة الرابعة: أنه لم يمل بأصحابه إلى الدنيا، كما رغبتِ اليهودُ، ولا إلى رفضها كما ترهَّبتِ النَّصارَى، وأمرَهُمْ فيها بالاعتدال أن يطلبوا منهـا قدر الكفـايـة، ويعدلوا عن احتجان واستزادة، وقال لأصحابه: (خيرُكم مَنْ لم يتركْ دُنْيَاهُ لآخرتهِ، ولا آخـرتَهُ لـدنياه، ولكنَّ خيرَكم مَنْ أخَذَ من هـذهِ وهذهِ)[1]، وهـذا صحيـح لأنَّ الانقطاع إلى أحدهما اختلال، والجمع بينهما اعتدال.

وقال ﷺ: (نِعْمَ المَطِيَّةُ الدُّنْيَا، فارتحلوهَـا، تُبلِّغكُمُ الآخِرَةَ)[2]، وإنَّمـا كان كذلك، لأنَّ منها يتزود لآخرته، ويستكثر فيها من طاعته، ولأنَّه لا يخلو تاركها من أن يكون محروماً مضاعاً أو مرحوماً مُرَاعَى، وهو في الأول كَلٌّ، وفي الثاني مستذَلٌّ أُثْنِيَ على رجلٍ بخيرٍ عندَ رسول اللَّه ﷺ وقالوا: يا رسول اللَّه! كنّا إذا ركبنَا لا يزالُ يذكرُ اللَّهَ تعالى حتى ننزل، وإذا نزلنا لا يزال يصلي حتى نرفع، فقال: (فمَنْ كانَ يكفيهِ عَلَفَ بعيرهِ وإصلاحَ طعامه؟ قالوا: كُلُّنَا، قال: فكلُّكُمْ خيرٌ منهُ)[3].

فصـل:

[عصمة شريعته ﷺ وكمالها]

والخصلة الخامسة: تصديه لمعـالم الدِّين، ونـوازل الأحكام، حتَّى أوضح

---

(١) ذكره ابن عدي في الضعفاء «الكامل» ج ٢٧٣٨/٧.

(٢) ذكره الغزالي في الإحياء ج ١٩/٤ وقال الحافظ العراقي في تخريجه للإحياء: رواه العقيلي في الضعفاء، وأبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق، بلفظ: (نعمت الدار الدنيا لمن تزوَّدَ منها لآخـرته) الحـديث، وإسنـاده ضعيف. وقـال العقيلي في الضعفـاء ج ٨٩/٣: في إسنـاده عبد الجبار بن وهب، مجهول، وحديثه غير محفوظ. وقال: هذا يُرْوَى عن عليٍّ من قوله.

(٣) أخرجه سعيد بن منصور في سننه رقم ٢٩١٩ بلفظ: ما رأينا مثل فلان! إنْ نزلنا فصلاةٌ، وإنْ ركبنا فقراءة، ولا يفطر، فقال رسول اللَّه ﷺ: (من كان يُرحِّلُ له؟ ومن كان يعمل له؟ ـ وذكر سفيان أشياء ـ فقالوا: نحنُ، فقال: كُلُّكُمْ خيرٌ منهُ) وإسناده صحيح.

للأمَّة ما كلفوه من العبادات، وبيَّن لهم ما يحل ويحرم، من مُبَاحَات ومحظورات، وفصَّلَ لهم ما يجوزُ ويمتنعُ من عُقودٍ ومناكح ومعاملات حتى احتاج اليهود في كثير من معاملاتهم ومواريثهم لشرعه، ولم يحتج شرعُهُ إلى شرعِ غيرِهِ!! ثم مهَّدَ لشرعِهِ أُصُولاً تدلُّ على الحوادث المغفلة، ويستنبط لها الأحكام المعلَّلة، فأغنى عن نصٍّ بعدَ ارتفاعه، وعن الْتِبَاسٍ بعدَ إغفاله، ثم أمر الشَّاهدَ أنْ يُبَلِّغَ الغائب ليعلم بإنذارِهِ ويحتج بإظهارِهِ، فقال ﷺ: (بلِّغُوا عنِّي ولا تكذبوا عليَّ، فَرُبَّ مبلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ، ورُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إلى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ منه)[1]، فأحكم ما شرعَ من نصٍّ، وتنبيه، وعمَّ بما أمر من حاضرٍ وبعيدٍ حتى صار لما تحمله من الشرع مُؤدِّياً، ولِما تقلَّدَهُ من حقوق الأمة موفياً؛ لئلاَّ يكون في حقوق اللَّه زَلَلٌ ولا في مصَالح الأمة خَلَلٌ، وذلك في برهةٍ من زمانهِ، لم يستوفِ تطاولَ الاستيعابِ حتى أوجز وأنجزَ، وما ذَاكَ إلاَّ بديعٌ ومعجزٌ!.

الخصلة السادسة: انْتِصَابُهُ لجهادِ الأعداء، وقد أحاطوا بجهاته وأحدَقُوا بجنباته، وهو في قطب مهجور، وعددٌ محقور، فَزَادَ بِهِ مَنْ قَلَّ، وعزَّ بِهِ مَنْ ذَلَّ وصار بإثخانه في الأعداء محذوراً، وبالرعبِ منه منصوراً، فجمع بين التَّصدِّي لشرعِ الدِّين، حتَّى ظهر وانتشر وبينَ الانتصاب لجهاد العدو، حتى قَهَرَ وانتصرَ والجمع بينهما معوز إلاَّ لمن أمدَّهُ اللَّهُ بمعونته، وأيَّدَهُ بلطفه، والمعوز معجز!!.

والخصلة السابعة: ما خُصَّ به من الشجاعة في حروبه، والنَّجدة في مصابرة عدوه، فإنَّه لم يشهد حرباً في فزاع إلاَّ صَابرَ حتَّى انجلت عن ظفرٍ، أو دفاع، وهو في

---

(١) هذا مأخوذ من حديثين، الأول: (بلِّغوا عنِّي ولو آية، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومَنْ كذبَ عليَّ متعمِّداً فليتبوَّأ مقعدَهُ مِنَ النَّارِ) أخرجه البخاري برقم ٣٤٦١. والحديث الثاني: (نَضَّرَ اللَّهُ عبداً سمعَ مقالتي فحفظها ووَعَاهَا وأدَّاهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فقهٍ غيرِ فقيهٍ، ورُبَّ حَامِلِ فقهٍ إلى مَنْ هو أفْقَهُ منه) الحديث، أخرجه الشافعي في مسنده ج ١/١٦، والترمذي في سننه برقم ٢٦٥٨، والدارمي في سننه ج ١/٧٥، وأبو داود في سننه ج ٤/٦٨ ـ ٦٩ برقم ٣٦٦٠، وقال الترمذي: حديثٌ حسنٌ.

موقفه لم يزلْ عنه هَرَباً، ولا جَازَ فيه رَغَباً، بل ثبت بقلبٍ آمِنٍ وجأشٍ سَاكِنٍ!! قَدْ وَلَّى عنه أصحابُهُ يومَ حُنينٍ حتى بقي بإزاء جمعٍ كثيرٍ وجمٍّ غفيرٍ، في تسعة من بيته وأصحابه، على بغلة مسبوقة، إن طلبت غير مستعدَّة لهرب ولا طلب، وهو يُنادي أصحابه ويُظهر نفسَهُ ويقولُ: (إليَّ عبادَ اللَّهِ أنا النَّبيُّ لَا كَذِبَ!! أنا ابْنُ عبدِ المطلب)[1]!! فعادوا أشذاذاً وأرسالاً، وهوازن تراه وتحجم عنه، فما هَابَ حَرْبَ مَنْ كَاثَرَهُ، ولا انكفأ من مصاولةِ من صابرَهُ، وقد عضَدَهُ اللَّهُ تعالى بإنجادٍ وأنجادٍ فانحَازُوا، وصبرَ حتَّى أَمَدَّهُ اللَّهُ بنصرهِ، وما لهذه الشجاعةِ مِنْ عَدِيلٍ، ولقد طرق المدينة فَزَعٌ فانطلقَ النَّاسُ نحو الصَّوتِ، فوجدُوا رسولَ اللَّه ﷺ قد سبقهم إليه، فتلقوه عائداً على فرسٍ عَرِيٍّ لأبي طلحة الأنصاري، وعليه السَّيفُ فجعل يقولُ: (أيُّها النَّاسُ لم تُرَاعُوا، بل تراغوا)، ثم قال لأبي طلحة: (إنْ وَجَدْنَاهُ بحراً!!)[2] وكان الفرس يُبطِّىء، فما سبقه فرسٌ بعدَ ذلك!! وما ذاك إلا عن ثقة من أنَّ اللَّه تعالى سينصره، وإن دينه سيُظهرهُ، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾[3] وتصديقاً لقول رسوله ﷺ: (زُوِيتْ لي الأرضُ فرأيتُ مَشَارِقَها ومَغَارِبَهَا، وسيبلغُ مُلْكُ أمّتِي ما زُوِيَ لي منها)[4]، وكفى بهذا قياماً بحقِّه وشاهداً على صدقه!!.

الخصلة الثامنة: ما مُنِحَ من السَّخاءِ والجُودِ، حتى جَادَ بكلِّ موجودٍ، وآثَرَ بكلِّ مطلُوبٍ ومحبوبٍ!! ومات ودرعُهُ مرهونةٌ عند يهوديٍّ على آصُعٍ من شعير، لطعام أهله[5]، وقد ملكَ جزيرةَ العرب، وكان فيها ملوكٌ . . . .

---

(١) متفقٌ عليه: البخاري في صحيحه رقم ٢٩٣٠ و ٤٣١٥ و ٤٣١٦ و ٤٣١٧، ومسلم في صحيحه رقم ١٧٧٦.

(٢) هكذا اللفظ عند المؤلف: (لم تراعوا، بل تراغوا) والذي في البخاري ج ٨/١٦، والبيهقي في سننه ج ٩/١٧٠ وج ١٠/٢٠٠: (لن تَرَاعوا لن تُرَاعوا).

(٣) سورة التوبة، الآية ٣٣.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه رقم ٢٨٨٩ ج ٤/٢٢١٥، ولفظه أطول ممَّا هنا، والذي ذكره المؤلف رحمه اللَّه تعالى بدايته.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه رقم ٢٩١٦ و ٤٤٦٧.

. . . . وأقيال[1] لهم خزائن وأموال، يقتنونها زُخْراً ويتباهَون بها فخراً، ويستمتعون بها أشراً وبطراً، وقد حازَ ملك جميعهم، فما اقتنى ديناراً ولا درهماً، لا يأكل إلاَّ الخشب[2] ولا يلبس إلاَّ الخشن، ويُعطي الجزل الخطير، ويصل الجَمَّ الغفير، ويتجرَّع مرارة الإقلال، ويصبر على سَغَبِ الاختلال، وقد حاز غنائم هوازن[3]، وهي من السبي ستَّة آلافِ رأس من الإبل، وأربعة وعشرون ألف بعير، ومن الغنم أربعون ألف شاة، ومن الفضة أربعة آلاف أوقية، فجاد بجميع حقِّه، وعاد خلوّاً!!!.

روى أبو وائل عن مسروق عن عائشة رضي اللّه عنها قالت: ما تركَ رسولُ اللّه ﷺ ديناراً ولا درهماً، ولا شاةً ولا بعيراً ولا أوصى بشيءٍ[4].

وروى عمرو بن مُرَّة عن سويد بن الحرث عن أبي ذر قال: قال رسول اللّه ﷺ: (ما يسرُّني أنَّ لي أُحُداً ذَهَباً أُنْفِقُهُ في سبيلِ اللّهِ أموتُ يومَ أموتُ وعندِي منه دينارٌ، إلاَّ أن أعدَّهُ لغريمٍ)[5].

وكان ﷺ إذا سُئِل وهو معدم وَعَدَ، ولم يردَّ، وانتظرَ ما يفتحُ اللّهُ.

فروَى حماد بن زيد عن المُعَلَّى بن زيادٍ عن الحسن أنَّ رجلاً جاء إلى النبيِّ ﷺ يسألُهُ، فقال: اجْلِسْ سيرزقُكَ اللّهُ، ثم جاء آخر، ثم آخر، فقال لهم:

---

(١) الأقيال: جمع قَيْلٍ، وهو أحدُ ملوك حِمْيَر، دون المَلِك الأعظم. النهاية ج ٤/١٣٣.

(٢) كذا عند المؤلف رحمه اللّه تعالى. والصحيح: لا يأكل إلاَّ الخَشِن. وفي صحيح البخاري برقم ٥٣٨٥: «عن أنس: ما أكل النبي ﷺ خبزاً مرقّقاً، ولا شاةً مَسْمُوطةً حتى لَقِيَ اللّهَ». وفي صحيح مسلم برقم ٢٩٧٧، والترمذي برقم ٤١٤٦: «عن النعمان بن بشير: لقد رأيتُ نبيَّكم وما يجدُ الدَّقْلَ [وهو رديء التمر] ما يملأ به بطنه».

(٣) وفي صحيح البخاري برقم ٢٨٢١: بعد أن أحصى الغنائم، فاتّبعه النّاسُ.. فخُطِفَ رداؤُه، فوقف النبيّ ﷺ فقال: (أعطوني ردائي، لو كان لي عدد هذه العِضَاة [وهي شجر الشوك] نَعَماً لقسمته بينَكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً)!!.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه برقم ١٦٣٥.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه برقم ٩٩٢، والبيهقي في سننه ج ٤/٧.

اجْلُسُوا، فجاءَ رجلٌ بأربع أواقي فأعطاه إياها!! وقال: يا رسول اللّه! هذه صدقة، فدعا الأولَ فأعطَاهُ أوقيَّةً، ثم دعا الثاني فأعطاه أوقية، ثم دعا الثالث فأعطاه أوقيةً، وبقيتْ معه أوقيَّة واحدة، فعرض بها للقوم فما قامَ أحدٌ، فلمَّا كان اللَّيل وضَعَها تحتَ رأسِهِ، وفراشهُ عباءه، فجعل لا يأخذه النوم فيرجع فيصلي، فقالت له عائشة: يا رسول اللّه! حَلَّ بك شيءٌ؟ قال: لا، قالت: فجاءكَ أمرٌ من اللّهِ؟ قال: لا، قالت: إنك صنعتَ منذ اللَّيلة شيئاً لم تكن تفعله؟ فأخرجها وقال: (هذه التي فعلتْ بي ما ترين، إنِّي خشيتُ أن يحدث أمرٌ من أمر اللّه ولم أمْضِهَا)[1].

وروى الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: (أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن تركَ دَيْناً فعليَّ، ومن ترك مالاً فلورثتهِ)[2].

فهل مثل هذا الكرم والجود كرماً وجوداً، أم هل لمثل هذا الإعراض والزَّهَادة إعراضاً وزهداً، هيهات هل يدرك شيئاً، ومن هذه شذورٌ من فضائله ويسير من محاسنه التي لا يُحصَى لها عددٌ، ولا يُدرك لها أَمَدٌ، لم تكمل في غيره فيساويه ولا كذب بها ضدٌّ يُناديه، ولقد جهد كل منافق ومعاند وكل زنديق وملحد أن يزري عليه في قول أو فعل أو يظفر بهفوة في جَدٍّ أو هزل فلم يجد إليه سبيلاً، وقد جَهِدَ جَهدَهُ وجمعَ كيدَهُ، فأيُّ فضل أعظمُ من فضل تشاهده الحسدة والأعداء فلم يجدوا فيه مغمزاً لثالب أو قادح ولا مطعناً لجارحٍ أو فاضحٍ، فهو كما قال الشاعر:

شهِدَ الأنامُ بفضلِهِ حتى العِدَى والفَضْلُ ما شَهِدتْ به الأعداءُ

وحقيقٌ لمن بلغ من الفضائل غايَتَها، واستكملَ لغايات الأمور آلَتَها، أن يكون لزعامة العالم مؤهَّلاً، وللقيام بمصالح الخلق مُوكَّلاً، ولا غاية بعد النُّبوَّة أن يعمَّ له صلاح أن ينحسم به فساد، فاقتضى أن يكون لها أهلاً وللقيام بها مؤهَّلاً، ولذلك

---

(١) لم أجده في كتب الحديث.

(٢) متفق عليه، وهو أطول ممَّا هنا. أخرجه البخاري في صحيحه برقم ٢٢٩٨، ومسلم في صحيحه برقم ١٦١٩.

استقرَّت به حين بعث رسولاً، ونهضَ بحقوقها حين قام به كفيلاً، فناسبها وناسبَتْهُ، ولم يذهلْ لها حين أتته، وكلُّ مُتَنَاسِبَيْن مُتَشَاكِلاَنِ، وكلُّ مُتَشَاكِلَين مُؤْتَلِفان، وكلُّ مُؤْتَلِفَيْنِ متَّفقان، والاتفاقُ وِفَاقٌ، هو أصلُ كلِّ انتظام، وقاعدة كل التِئَام، فكان ذلك من أوضح الشواهد على صحة نبوَّته، وأظهر الإمارات في صدقِ رسالتِهِ، فما يُنكرُهَا بعدَ الوُضُوحِ إلاَّ مفضُوحٌ، والحمدُ للَّهِ الذي وفَّقَ لطاعتِهِ، وهدَى إلى التَّصديق برسالته!!!.

البـاب الحـادي والعشرون

في مبدأ بعثته واستقرار نبوته ﷺ

إنَّ للَّه تعالى لكلِّ مقدورٍ من الأمور إذا دَنَا نذيراً وبشيراً، يظهر بهمـا مبادىء ما أخفَاهُ، ويُشعر بحلولهما قَـدَرَهُ وقَضَاهُ، ليكـونا تعـذيراً وتحـذيراً، تستيقظ بهمـا العقولُ، ويزدجرُ بهما الجَهُولُ؛ لطفاً بعبادهِ من فُجَأةِ الأُمور المُذْهِلة أن تصدم ببوادر لا تُسْتَدْرَكُ، لتكون النُّفُوسُ في مُهْلةٍ من استدفاع خَطْبِها، وحلِّ صَعْبِها.

ولمَّا دَنَا مبعثُ رسولِ اللَّه ﷺ بالنُّبوَّة رسولاً، وإلى الخلقِ بشيراً ونذيراً، انتشرَ في الأمم أنَّ اللَّه تعالى سيبعث نبيَّاً في هذا الزمان، وأنَّ ظهورَهُ قد قَرُبَ وآن، فكانتْ كل أُمَّةٍ لها كتابٌ يُعرف ذلك من كتابها، والتي لا كتاب لها ترى من الآيات المنذرة ما تستدلُّ عليها بعقولها، وتنتبه عليه بهواجس فِطَرِها إلهاماً أعان به الفَطِنَ اللَّبيبَ، وأنذرَ به الحازمَ الأريبَ، هذا ورسولُ اللَّه ﷺ غافلٌ عنها وغيرُ عالمٍ أنَّه مُرَادٌ بهـا، ومؤهَّلٌ لها، لم يشعـر بها حتَّى نُـودِيَ، ولا تحقَّقَها حتى نُـوجِيَ؛ ليكونَ أبعـدَ من التُّهمة، وأسلمَ من الظِّنَّة، فيكون برهاناً أظهر وحِجَاجهُ أقهر، وكان مـع تمييزه عن قومه بشرف أخلاقه وكرم طباعه، لم يعبد معهم صنماً، ولا عظَّم وَثناً، وكان متديِّناً بفرائض العُقُول، في قول جميع الفقهاء والمتكلِّمين، من توحيد اللَّه تعالى، وقِدَمِهِ وحُدوثِ العَالَمِ وفَنَائِهِ، وشكـر المنعم وتحريم الـظُّلم، ووجوب الإنصـاف، وأداء الأمانة(١).

---

(١) لقد حَبَا اللَّه تبارك وتعالى رسوله محمَّداً ﷺ قبل أن يبعثه بأخلاقٍ كريمةٍ وسجايا ساميةٍ وآداب =

واختلفَ أهلُ العلم: هل كان قبلَ مبعثه متعبّداً بشريعة مَنْ تَقَدَّمَهُ من الأنبياء؟ فذهب أكثر المتكلمين[1] وبعضُ الفقهاء من أصحاب الشافعي، وأبي حنيفة، إلى

= عاليةٍ، لم تجتمع لأحدٍ من قومه، وكان ذلك إرهاصاً بعظيم شأنه، فقد كان ﷺ أحسنَ النَّاسُ خُلُقاً، وأجود النّاس كفّاً، وأصدقهم حديثاً، وأفضلهم مروءة، وخيرهم جِوَاراً، وأعظمهم أمانةً، وأوفاهم ذمَّةً، فسمَّاهُ قومُهُ بالصَّادق الأمين!!! وشهد أعداؤه بحُسْن خُلقه وعظيم فضله، قال النَّضْر بن الحارث ـ وكان قد قُتِل في بدرٍ كافراً ـ: يا معشر قريش! إنَّه واللهِ قد نـزَلَ بكم أمرٌ ما أتيتم له بحيلةٍ بعدُ؛ قد كان محمّدٌ فيكم غلاماً حَدَثاً أرْضَاكم فيكم! وأصدقكم حديثاً! وأعظمكم أمانةً!!!.

وقد حفظه اللَّهُ تعالى في صغره من كل أعمال الجاهلية التي جاء الشرعُ بضدِّها، فلم يكن يعبد الأصنام، ولم يأكل ما ذُبح على النُّصُب، ولم يشرب الخمر، ولم يتعامل بالرِّبا، ولم يُصِبْهُ شيءٌ من أخلاق الجاهلية!! وفي رواية ذكرها الحمزاوي في مناهل الصفا ١٦، والقاضي عياض في الشفاء ج ١/٢٦٣، والقرطبي في تفسيره ج ١٦/٥٦: أنه ﷺ قال: (لمّا نشأتُ بُغضتْ إليَّ الأوثان، وبُغّض إليَّ الشعر، ولم أهمَّ بشيءٍ كانت الجاهلية تفعله إلاَّ مرَّتين، كلُّ ذلك يحولُ اللَّهُ بيني وبينَ ما أريد من ذلك، ثم ما هممتُ بسوء بعدهما حتى أكرمني اللَّهُ برسالته) والمرَّتين كانتا في حضور سَمَرٍ مع شباب قريش، وكان اللّه تعالى قد ضرب على أذنيه فينام، فلم يقضِ شيئاً في لهو الجاهلية. وما رؤي ﷺ قبل بعثته مُلاحياً ولا مخاصماً ولا مُمارياً أحداً، وكان أبعد النّاس من الفُحْش والأذى. وهذا يدلُّ على أنَّ اللّه تعالى قد اختارَه من بين العالمين، قال سبحانه في سورة الأنعام، آية ١٢٤: ﴿اللَّه أعلَمُ حيثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾، أخرج مسلم في صحيحه برقم ٢٢٧٦ عن واثلة بن الأسقع قال: سمعتُ رسولَ اللّه ﷺ يقول: (إنَّ اللّه اصطفى كِنَانَةَ من ولدِ إسماعيل، واصطفى قريشاً من كِنانَةَ، واصطفَى من قريشٍ بني هاشم، واصطفاني من بني هَاشِمٍ)!! فهو ﷺ خيارٌ من خيارٍ!!.

(١) هذه المسألة من مسائل علم الكلام الجدلي، الذي نشأ عليه المتكلِّمون، في البحث عمّا ليس فيه دليل، والتكلُّم فيه بمحض العقل. وقد ذكر الإمام القرطبي في تفسيره ج ١٦/٥٧ سبعةَ أقوال للمتكلِّمين في هذه المسألة، ثم قال: «وقد أبطل هذه الأقوالَ كلَّها أئمتُنا، إذْ هي أقوال متعارضة، وليس فيها دلالةٌ قاطعة، وإن كان العقل يُجوِّز ذلك كلَّه. والذي يُقطع به أنَّه عليه الصلاة والسلام لم يكن منسوباً إلى واحدٍ من الأنبياء نسبةً تقتضي أن يكون واحداً من أمَّته، ومُخَاطَباً بكلِّ شريعة، بل شريعتُه مُسْتقلة بنفسها، مفتتحةٌ من عندِ اللّه الحاكم جلَّ وعزَّ، وأنَّه ﷺ كان مؤمناً باللّه عزَّ وجلَّ ـ وحده لا شريك له ـ ولا سَجَد لصنم، ولا أشرك باللّه» ثم قال: «بل نَزَّهَهُ اللَّهُ وصانَهُ عن ذلك». =

أنَّه لم يكن متعبِّداً بشريعة مَنْ تقدَّمَهُ مِنَ الأنبياء؛ لأنَّه لو تعبَّد بها لتعلَّمها، ولعمل بها، ولو عمل بها لظهرتْ منه، ولو ظهرتْ منه لاتَّبَعَهُ فيها المُوافِقُ، ونَازَعَهُ فيها المخالفُ. وذهب بعضُ المتكلِّمين، وأكثرُ الفقهاء من أصحاب الشافعي وأبي حنيفة، إلى أنَّه كان متعبِّداً بشريعة مَن تقدَّمَهُ من الأنبياء؛ لأنَّهم دَعُوا إلى شرائعهم مَنْ عَاصَرَهم، ومَنْ يأتي بعدَهُم، ما لم تُنْسخْ بنبوَّةٍ حادثةٍ، فدخلَ الرسولُ ﷺ في عموم الدُّعاء قبل مبعثِهِ، لأنَّ اللّه تعالى لا يُخْلِي زماناً من شرعٍ مَتْبوعٍ، ولا مُتَدَيِّناً من تعبُّدٍ مَسْمُوعٍ، واختلفَ مَنْ قال بهذا فيما كان متعبِّداً به من الشرائع المتقدِّمة؛ فذهب بعضُهم إلى أنَّه كان متعبِّداً بشريعة جدِّهِ إبراهيم عليهما السَّلام، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عن مِلَّةِ إبْرَاهِيمَ إلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾[1] ولأنَّه كان في الحج والعمرة على مَنَاسِكه.

وذهبَ آخرون إلى أنَّه كان متعبِّداً بشريعة موسى، فيما لم تنسخْهُ شريعةُ عيسى عليهم السَّلام؛ لظهور شريعته في التوراة، ودروس ما تقدمها من الشرائع، مع قول اللّه تعالى: ﴿إنَّا أنْزَلْنَا التَّوْرَاة فيها هدىً ونُورٌ﴾[2].

وذهب آخرون إلى أنَّه كان متعبِّداً بشريعة عيسى عليه السَّلام، لأنَّها كانت

= وفي قوله تعالى في سورة الشورى، آيتان ٥٢، ٥٣: ﴿وكذلك أوحينا إليكَ رُوحاً من أمرِنَا ما كنتَ تَدْرِي ما الكِتَابُ ولا الإيمانُ ولكنْ جعلنَاهُ نوراً نهدي به من نشاءُ من عبادِنَا، وإنَّك لتهدِي إلى صِرَاطٍ مستقيم * صِرَاطِ اللّهِ الذي له ما في السَّمواتِ وما في الأرض، ألاَ إلى اللّهِ تصيرُ الأمورُ﴾ قطعٌ لقولِ كلِّ متقوِّل ولكلام كلِّ متكلِّم، حيث أثبتَ سبحانه له الإيمانَ قبل بعثتِهِ، ولكنَّه لا يعرف الطريقَ إلى ذلك، ولا يدري تفصيلَهُ حتى بعثَهُ، ففيه إثباتٌ لأصل الإيمان، والتَّوحيد، ونفيٌ لتفاصيله. والبحث في أكثر من ذلك تكلُّفٌ لِما لا تكليفَ فيه، فلم يُؤثَر عن أحدٍ من الصحابة والتَّابعين أنه بحث عن هذه المسألة التي أثارها علم الكلام والجدل، وكانوا يعلمون ما كان عليه الصلاة والسلام قبل النُّبوَّة من الإيمان والتوحيد، ونبذ الشرك وعمل المشركين.

(١) سورة البقرة، الآية ١٣٠.

(٢) سورة المائدة، الآية ٤٤.

ناسخةً لشريعة موسى، فسلم قبل مبعثه من حرج في دينه وقدحٍ في يقينهِ، وهذا من أمارات الاصطفاء، ومقدِّمات الاجتباء!!.

فصـل:

[بـدء الوحـي]

ولمَّا جدَّ الأمرُ في النُّبوَّة، ودَنَا وقتُها حَبَّبَ اللَّه تعالى إلى رسوله الخلاء، بعد أربعين سنة من عمره، حين تكامل نُهَاهُ، واشتدَّ قِوَاهُ، ليكون متهيِّئاً لِما قُدِّرَ له ومتأهِّباً لِما أُريد له، فكان يتخلَّى في غار بحراء[1] في ذوات العدد من اللَّيالي.

وقيـل: شهراً في السَّنـة، على عـادة كـانت لقـريش في التَّبـرُّز بـالمجـاورة بحراء[2]، ويعود إلى أهله إلى أن استدام الخلاء في الغار[3] لِما أرادَ اللَّه تعالى به، فكان يُؤْتَى بطعامهِ وشرابهِ، فيأكُلُ منه ويُطعم المساكين برهة من زمانه، وهو غافل عن النُّبوَّة، وإنْ كان فِي النَّاس موهوماً، وعند أهل الكتب معلوماً، ليكون ابتكار البديهة بها مانعاً من التَّصنُّع لهـا، فلا يُنسب إلى اختـراعها، ولـو تصنَّعَ واختـرع لظهـرت أسبابهما، وتمَّتْ شواهدهما، ولم يخفَ على من عَادَاهُ أن يتداوله وعلى من وَالاَه أن يتأوَّله، وحسبُك بهذا وضوحاً أن يكون بعيداً عن التُّهمة بهما سليماً من الظِّنَّة فيهما،

---

(1) غار حِراء: بكسر الحاء، جبل، ويُسمَّى: جبل النُّـور، ويقع في الشمـال الشرقي من مكَّـة المكرَّمة.

(2) لم يثبت أنَّ أحداً من أهل مكة كان يخرج مجاوراً إلى جبل حِرَاء، وإنَّما كان ذلـك منه ﷺ على غير عادة قريش.

(3) أخرج البخاري في صحيحه برقم ٣، ومسلم في صحيحه برقم ٢٦٠: عن أُمِّ المؤمنين عائشة رضي اللَّه تعالى عنها أنها قالت: «أوَّلُ ما بُدىء به رسولُ اللَّه ﷺ من الوحي الرُّؤيا الصَّالحةُ في النَّوم، فكان لا يرى رؤيا إلَّا جاءتْ مثلَ فَلَقِ الصبح، ثم حُبِّبَ إليه الخَـلاءُ، وكان يَخْلُو بغارِ حِرَاء، فيتحنَّثُ فيهِ ـ وهو التَّعبُّـدُ ـ الليالي ذواتِ العَـدَدِ قبلَ أن ينـزِعَ إلى أهلِه، ويتزوَّد لـذلك، ثم يـرجع إلى خـديجة فيتـزوَّدُ لمثلِها، حتى جـاءَهُ الحقُّ وهـو في غـارِ حِـراء..» الحديث.

فلم يزل ﷺ على خلوته إلى أن أظهر الله تعالى له أمارات نبوته، فأيقظه بها بعد الغفلة وبشّره بها بعد المهلة، ثم بعثه بها رسولاً بعد البُشْرَى، على تدريج ترتَّبَتْ فيها أحوالُهُ ليتوطأ لتحمُّل أثقالها، ويعلم لوازم حقوقها، حتى لا تفاجئه بغتةً، فيذهل ولا يخفى عليه حقوقُها فينكل، وكان ذلك من الله لطفاً به وإنعاماً عليه، وداعياً لأمته في الانقياد إليه، فسبحانه من لطيف بعباده، منعم على خلقه!!!

فصل:

[تدرُّجه ﷺ في أحوال النُّبوَّة]

تدرجتْ إليه أحوالُهُ في النُّبوَّة حتى علم أنه نبيٌّ مبعوثٌ، ورسولٌ مبلِّغٌ، ترتَّبَ تدرُّجُهُ على ستَّة أحوال، نُقل فيهنَّ إلى منزلةٍ بعدَ منزلة حتى بلغَ غايَتَها.

فالمنزلة **الأولى**: الرؤيا الصادقة في منامه، بما سيؤولُ إليه أمرُهُ، فكان ذلك إذكاراً بها ليروض لها نفسَهُ ويختبرَ فيها حواسَّه، فيقوم بها إذا بُعِثَ، وهو عليها قوي وبها ملي.

روى الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنَّها قالت: «أوَّل ما ابْتُدِئَ به رسولُ الله ﷺ من الوحي الرُّؤيا الصَّادقة، كانت تجيء مثل فَلَقِ الصُّبح، حتى فاجأه الحقُّ»[1]، واختلف في هذه الرؤيا هل كانت قبل انقضاء إلى

---

(1) هذا الحديث في الصحيحين، وقد تقدم ذكر أوله في التعليق السابق، وتمامه: «... حتى جاءه الحقُّ وهو في غار حراء، فجاءه المَلَكُ فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجَهْدَ ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلتُ: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجَهْدَ، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلتُ: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني، فقال: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجُفُ فؤادُهُ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله تعالى عنها، فقال: زمِّلوني زمِّلوني، فزمَّلوه حتى ذهب عنه الرَّوْع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيتُ على نفسي، فقالت خديجة: كلَّا والله ما يُخزيك الله أبداً، إنك ...».

الخلوة بحراء، فحكى عروة عن عائشة: أنه حُبِّبَ إليه الخلاء بعد الرؤيا.

وذهب قوم إلى أنَّ الرؤيا جاءته بعد خلوته، لأنَّه خَلاَ على غفلة من أمره.

وقد روت بَرَّةُ بنتُ أبي تِجْرَاة أنَّ اللَّه تعالى لمَّا أراد كرامة رسول اللَّه ﷺ بالنُّبوَّة كان لا يمرُّ بشجرةٍ ولا حجرٍ إلَّا قال: السَّلامُ عليكَ يا رسولَ اللَّه، فكان يلتفِتُ عن يمينهِ وشمالهِ وخلفهِ، فلا يرَى أحداً[1]، فاحتمل أن يكون ذلك قبل رؤيا المنام فيكون كالهُتُوف الخارجة عن إعلام الوحي إلى إعجاز النُّبوَّة، واحْتُمِل أن يكون بعد الرؤيا فيكون تصديقاً لها وتحقيقاً لصحتها.

والمنزلة **الثانية**: ما مُيِّزَ بهِ عن سائر الخلق من تقديسه عن الأرجاس، وتطهيرهِ من الأدناس، ليصفوَ فيُصطَفَى، ويخلص فيستخلص، فيكون ذلك إنذاراً لأمر وتنبيهاً على العاقبة، وهو ما رواه عروة بن الزبير عن أبي ذَرٍّ الغفاري قال: سألتُ رسول اللَّه ﷺ عن أول نبوته فقال: (يا أبا ذرٍّ أتاني ملكان وأنا ببطحاء مكة، فوقع أحدُهما على الأرض والآخر بينَ السماء والأرض. فقال أحدُهما لصاحبه: أهو هو؟ قال: فَزِنْهُ برجلٍ من أُمّتِهِ فَوُزِنْتُ برجل فرجحتُه، ثم قال: زِنْهُ بعشرةٍ، فَوُزِنْتُ

= لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَحمِلُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وتُقري الضَّيف، وتُعينُ على نوائب الحَقِّ!! فانطلقتْ به خديجةُ حتَّى أَتَتْ به وَرَقَةَ بنَ نوفل بن أسد بن عبد العُزّى، ابنَ عمِّ خديجة، وكان امرءاً تنصَّرَ في الجاهلية، وكان يكتبُ الكتابَ العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء اللَّه أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالتْ له خديجةُ: يا بْنَ عمِّ اسمعْ من ابن أخيك، فقال: يا بن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول اللَّه ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقةُ: هذا النَّاموسُ الذي نزَّلَ اللَّهُ على موسى، يا ليتني فيها جَذَعٌ، ليتني أكونُ حيّاً إذْ يُخْرِجُكَ قومُك، فقال رسول اللَّه ﷺ: (أوَمخرجيَّ هم)؟ قال: نعم، لم يأتِ رجلٌ قطُّ بمثلِ ما جئتَ بهِ إلَّا عُودِي، وإنْ يُدْرِكْني يَوْمُكَ أنْصُرْك نصراً مؤزَّراً. ثم لم ينشبْ ورقةُ أن تُوفي، وفَتَرَ الوحيُ. [صحيح البخاري برقم ٣ و ٣٢١٢ و ٤٦٧٠ و ٤٦٧٢ و ٤٦٧٤ و ٦٥٨١، ومسلم برقم ١٦٠].

(١) أخرج مسلم في صحيحه برقم ٢٢٧٧ في كتاب الفضائل: باب نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النُّبوَّة، وأخرجه الترمذي برقم ٣٦٢٨ في كتاب المناقب: باب رقم ٩.

بعشرةٍ، فرجحتُهم فجعلوا ينثرون على كفة الميزان فقال أحدهما للآخر: لَوْ وَزَنْتَهُ بأمَّته رَجَحها!! ثم قال أحدهما لصاحبه: شقَّ بطنَهُ، فشق بطني، ثم قال: شقَّ قلبه، فشقَّ قلبي فأخرجَ منه مَغْمَزَ الشيطان وعَلَقَ الدَّم، ثم قال: اغْسِلْ بطنَهُ غَسْلَ الإناءِ، واغْسِلْ قلبَهُ سَلْ المَلاءَةِ، ثم دَعا بالسَّكينة فأدخلت قلبي، ثم قال: خِطْ بَطْنَهُ فخاط بطني، فما هو أن وَلَّيا حتى كأنَّما أعاين الأمر[1].

وروى أنس بن مالك قال: لمَّا حانَ أن يُنَبَّأ رسولُ اللَّه ﷺ كان ينام حول الكعبة وكانت قريش تنام حولها فأتاه جبريل وميكائيل، فقالا: بأيِّهم أُمِرْنَا؟ فقالا: أُمِرْنَا بسيِّدهم، ثم ذَهَبَا وجاءَا مِنَ القابلة، وهم ثلاثة فألْفَوْهُ وهو نائم فقلبوه لظهره، وشقُّوا بطنه، ثم جاءوا بماء من زمزم فغسلوا ما كان في بطنه من شك أو ضلالة أو جاهلية، ثم جاءوا بطست من ذهبٍ قد مُلِئَتْ إيماناً وحكمةً فمُلِيءَ بطنُه وجوفهُ إيماناً وحكمة[2]. وهذا موافق لحديث أبي ذَرٍّ في المعنى وإن خالفه في الصِّفة، فتوارَدَ في الرواية وهو إنذارٌ بالنُّبوَّة.

---

(١) حديث: (يا أبا ذَرٍّ! أتاني ملكان وأنا ببعض بطحاء مكة..) أخرجه الدارمي في سننه ج ١/٩، وذكره الشيخ محمد ناصر الدِّين الألباني في الأحاديث الصحيحة مشيراً إلى تعدُّدِ رواياته وطرقه رقم ١٥٤٥.

(٢) هذا الحديث ذكره الطبري في تاريخه ج ٢/٣٠٨ في حادثة الإسراء والمعراج، ولفظه: «لمّا كان حين نُبِّيءَ النبي ﷺ، وكان ينام حول الكعبة..» فليس كما ذكر المؤلف رحمه اللَّه تعالى أنه لمَّا حان أن يُنبَّأ، بل هو بعد النُّبوَّة ـ والرواية عن أنس في حادثة شقِّ الصَّدر قبل النُّبوَّة وهو صغير في الصحاح ليس فيها لفظ: «فغَسَلُوا ما كان في بطنه من شكٍّ أو ضلالةٍ أو جاهلية» بل جاء فيها: «.. فشقَّ عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقةً، فقال: هذا حظُّ الشيطان منك، ثم غسله في طَسْتٍ من ذهب بماءِ زمزم، ثم لأَمَهُ، ثم أعادَهُ في مكانه..» وهذا قبل النُّبوَّة. وأما رواية شق الصدر بعد النُّبوَّة وقبل الإسراء فهي كما يرويه أنس في صحيح مسلم أيضاً: (.. فنزل جبريل ﷺ ففرج صدري، ثم غسله من ماءِ زمزم، ثم جاء بطستٍ من ذهبٍ ممتلىءٍ حكمةً وإيماناً، فأفرغها في صدري، ثم أطبقه..)، فيجب التفريق بين الروايتين: رواية شق الصدر قبل النبوة، ورواية شق الصدر بعد النبوة وقبل الإسراء والمعراج. وليس في الروايات الصحيحة لفظ: «فغسلوا ما كان في بطنه من شك أو ضلالة أو جاهلية»، فهي رواية منكرة، مخالفة للروايات الصحيحة.

والمنزلة **الثالثة**: البشرى بالنبوة من ملك أخبره بها عن ربه، واختصت بُشراه بالإشعار، وتجرَّدت عن تكليف وإنذار، لم يسمع بها وحياً ولا أُرِيَ معها شخصاً، وإنَّما كان إحساساً بالملك اقترن بآية دلَّتْ وأمارة ظهرتْ اكتفَى بها عن مشاهدته واستغنى بها عن نطقه، ليعلم أنه من أنبياء اللَّه تعالى، فيتأهَّب لوحيه ويُعان بإمْهَالِهِ، فيكون على البلوى أصبر وللنعمة أشكر.

روى الشعبي وداود بن عامر أنَّ اللَّه تعالى قَرَنَ إسرافيل بنبوَّة رسوله ﷺ ثلاث سنين، يسمع حِسَّه ولا يرى شخصه، ويُعلِّمه الشيءَ بعد الشيء، ولا ينزل عليه بالقرآن. فكان في هذه المدَّة مبشَّراً بالنبوَّة وغير مبعوث إلى الأمة، فاحتمل أن يكون إمْهَالُهُ فيها معونة للرسول، واحتمل أن يكون نظراً للأمَّة، واحتمل أن يكون لأوان المصلحة، وليس يمتنع أن يكون لجميعها، فإنَّه أُعلم بسرِّ ما أُخفي، وأُعرِفَ بمعنى ما أُظهر[1].

والمنزلة **الرابعة**: أن نزل عليه جبريل لوحي ربِّه حتَّى رأى شخصه وسمع مناجاته، فأخبره أنه نبيُّ اللَّه ورسولُهُ واقتصرَ به على الأخبار، ولم يأمره بالإنذار ليعلمها بعد البشرى عِياناً ويقطع بها يقيناً، فيكون معتقده بها أوثق وعلمه بها أصدق، فلا يعترضه وَهْمٌ ولا يُخالجه رَيْبٌ.

روى الزهري عن عائشة رضي اللَّه تعالى عنها أنَّ رسول اللَّه ﷺ لمَّا فاجأه الحق أتاه جبريل عليه السَّلام فقال: يا محمد أنتَ رسولُ اللَّه! قال رسول اللَّه ﷺ:

---

(١) جميع هذه الاحتمالات لها أساس من الواقع، فقد ذكر الحافظ ابن كثير في فصل مبعث رسول الله ﷺ في السيرة [ج ١/١٤٢] أنّ الأحبار من اليهود والكهان من النصارى ومن العرب قد تحدّثوا بأمر رسول الله ﷺ قبل البعثة لمّا تقارب زمانه، أمّا الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى فعمّا وجدوا في كتبهم من صفته وصفة زمانه وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه. ومعنى هذا أنّ الله تعالى أراد بدءَ أمره بين الناس واشتهاره فيهم، وانتشار ذكره بينهم. فإذا كان هذا حال الناس قبل بعثته فحاله ﷺ أظهر في نفسه ولكن بغير معرفة للتفاصيل، فلمّا نزل الوحي أصبح عليه الصلاة والسلام على بيِّنة من أمره بما لا يدع عنده شكّاً ولا تردُّداً.

(فجثوت لركبتيَّ وأنا قائم، ثم رجعتُ ترجفُ بوادري، ثم دخلتُ على خديجة فقلتُ: زمِّلوني زمِّلوني، حتى ذهبَ عنِّي، ثم أتاني فقال: يا محمد أنا جبريلُ وأنتَ رسولُ اللَّهِ! ثم قال: إقرأ، قلتُ: ما أقرأ؟ قال: فأخذني ففتني ثلاث مرات حتى بلغ منِّي الجهد وقال: ﴿اقْرَأْ باسْمِ ربِّك الذي خلق﴾[1] فأتيتُ خديجة فقلتُ: لقد أشفقتُ على نفسي، فأخبرتُها خبري، فقالتْ: أَبْشِرْ فواللَّه لا يخزيك اللَّهُ أبداً، إنَّك لتصلُ الرحمَ، وتصدقُ الحديثَ وتُؤدِّي الأمانةَ، وتحمِلُ الكَلَّ، وتُقري الضَّيْفَ، وتُعينُ على نَوائبِ الحقِّ، ثم انطلقت به إلى ورقة بن نوفل، وكان ابن عمِّها ـ وخرجَ في طلب الدِّين، وقيل: قرأ التَّوراة والإنجيل وتنصَّرَ ـ وقالت: إسمعْ من ابن أخيكَ، فسألني فأخبرته خبري، فقال: هذا النَّامُوسُ الذي نزلَ على موسى عليه السَّلام ـ يعني جبريل عليه السَّلام ـ ليتني أكون حَيَّاً حين يُخرجك قومُكَ، قلتُ: أوَمُخْرِجِيَّ هم؟ قال: نعم إنَّه لم يجىء رجلٌ قط بما جئتَ بِهِ إلَّا عُودِيَ، ولئن يُدْرِكني يَوْمُكَ لأنصرنَّكَ نصراً مُؤزَّراً. ثم كان ما نَزَلَ عليَّ من القرآن بعد إقرأ[2]: ﴿نٓ والقَلَمِ وما يَسْطُرونَ * ما أنتَ بنعمةِ ربِّكَ بمجنونٍ * وإنَّ لكَ لأجراً غيرَ مَمْنُونٍ * وإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عظيمٍ * فستُبْصِرُ ويُبْصِرونَ﴾[3] ونزل عليه ذلك ليزدادَ ثباتاً ولنفسه استبصاراً، ولنعمة ربِّه شكراً!!.

ورُوي أن خديجة قالت لرسول اللَّه ﷺ: هل تستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا إذا أتَاكَ؟ تعني جبريل عليه السَّلام، قال: (نعم)، قالت: فأخبرني به إذا جاءَك، فجاءَهُ جبريل فقال لها: (يا خديجة هذا جبريل، قد جاء)، قالتْ: قُمْ فاجْلِسْ على فخذي اليُسْرَى فجلس عليها فقالت: هل تراه؟ قال: (نعم)، قالت: فتحوَّلْ على

---

(١) هذه الرواية مقتضبة جداً، وقد سبق ذكر الرواية الصحيحة المفصَّلة لبدء الوحي كما في صحيح البخاري: كتاب بدء الوحي، وهو أول أبوابه.

(٢) الثابت في صحيح البخاري ج ١/٦ رقم ٤ أنَّ اللَّه تعالى أنزل على رسول اللَّه ﷺ سورة المدثر بعد: ﴿اقرأ باسم ربِّك الذي خلقَ﴾، ويكون نزول سورة «القلم» بعدها، ثم أُنزل عليه سورة المزمّل، ثم سورة المدثّر. فنُبِّىء باقرأ، وأرسل بالمُدثّر.

(٣) سورة القلم، الآيات ١ ـ ٥.

فخذي اليُمْنَى، فتحوَّل إليها، فقالت: هل تراه؟ قـال: (نعم)، قالت: فتحـوَّلْ في حجري، فتحوَّل في حجرها، قالت: هل تراه؟ قال: (نعم)، قال: فحسرتْ وألقتْ خِمَارَها وهو جالس في حجرها، فقالتْ: هل تراه؟ قال: (لا)، قالت: يا ابن عمِّي أَثْبُتْ وأَبْشِرْ فواللَّه إنَّه لَمَلَكٌ وما هو بشيطان[1]. وآمنتْ به، فكانتْ أوَّل من أسلم من جميع النَّاس، واستظهرت خديجةُ بما فعلته من هذا في حقِّ نفسِها في حقِّ الرسول ولا استظهاراً عليه، واكتفى رسول اللَّه ﷺ في تصديق جبريل بما عاينتْهُ خديجة من آياته المعجزة، وكان ما نزل به جبريل في هذا الحال مقصوراً على إخباره بالنُّبـوَّة، ليعلم أنَّ اللَّه تعالى قد اصطفَاهُ لها، فينقطع إليـه، ويُوقف نفسَـهُ على ما يُؤْمَـرُ بِهِ، ويُنَزَّل عليه، فيكون لأوامره متبعاً ولِما يُرَادُ به متوقعاً، وأذِنَ له في ذكره وإن لم يُؤذنْ له في إنذاره، لقوله تعالى: ﴿وأمَّا بنعمةِ ربِّك فحدِّث﴾[2] أي بما جاءك من النُّبوَّة فكان يذكرها مستسراً.

والمنزلة الخامسة: أنْ أُمِرَ بعد النُّبوَّة بالإنذار فصارَ بِهِ رسولاً، ونَزَلَ عليه القرآنُ بالأمر والنهي، فصارَ بِهِ مبعُوثاً، ولم يؤمر بالجهر، وعموم الإنذار ليختصَّ بمن أَمِنَهُ ويشتدَّ بمن أجابه، فنزل عليه قول اللَّه تعالى: ﴿يا أَيُّها المُدَّثِّرْ * قُمْ فأَنْذِرْ * وربَّكَ فكبِّرْ * وثيابَكَ فَطَهِّرْ * والرُّجْـزَ فاهْجُـرْ * ولا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ * ولـربِّكَ فـاصْبِرْ﴾[3] فتمت نبوته بالوحي والإنذار، وإن كان في استسرار، وكان ذلك في يوم الاثنين من شهر رمضان.

قال هشام بن محمد: أول ما تلقاه جبريل في ليلة السبت وليلة الأحد، ثم ظهر له برسالته في يوم الإثنين.

---

(١) أخـرجه البيهقي في دلائـل النُّبوَّة ج ١٥١/٢ ـ ١٥٢، وابن كثير في تاريخـه ج ١٥/٣ عن إسماعيل بن أبي حكيم مولى آل الزبير عن خديجـة، وفيه انقـطاع بينه وبين خـديجة رضي اللَّه تعالى عنها. وبنحوه أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة برقم ١٦٥ عن عائشة.

(٢) سورة الضحى، الآية ١١.

(٣) سورة المدثّر، الآيات ١ ـ ٧.

وروى أبو قتادة: عن عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه قال: سألتُ رسول اللَّه ﷺ عن صوم يوم الإثنين؟ فقال: (ذَاكَ يومٌ وُلِدتُ فيه وأُنْزِلَ عليّ فيه النُّبوَّة)[1]، واختلف في أيِّ الإثنين كان من شهر رمضان، فقال أبو قلابة: كان في الثامن عشرَ منه.

وقال أبو الخلد: كان في الرابع والعشرين منه، وهو ابن أربعين سنة في قول الأكثرين، لأربعين سنة مضت من عام الفيل، وزعم قوم أنه كان ابن ثلاث وأربعين سنة.

قال هشام بن محمد: وذلك لعشرين سنة من ملك كسرى أبرويز.

وقال غيره: لستَّ عشرة سنة من ملكه.

ثم رُوي أنّ جبريلَ عليه السَّلام نزلَ عليه في يوم الثلاثاء ثاني النبوَّة، وهو بأعلى مكّة فهمَّ بعقبة في ناحية الوادي فانفجرت منه عينٌ فتوضأ جبريل منها ليريه كيف الطهور، فتوضأ مثل وضوئه، ثم قامَ جبريلُ فصلَّى وصلَّى رسول اللَّه ﷺ بصلاته فكانت هذه أول عبادة فرضت عليه، ثم انصرف جبريل فجاء رسول اللَّه ﷺ إلى خديجة فتوضأ لها، حتى توضأت، وصلَّى بها كما صلَّى به جبريلُ، فكانت أول مَنْ توضأ بعدَهُ وصلَّى، واستتر بالإنذار من يأمنه[2].

واختلف في أول من أسلم بعد خديجة على ثلاثة أقاويل: أحدها: أنَّ عليَّ بن أبي طالب رضي اللَّه تعالى عنه، أول من أسلم من الذكور، وصلَّى وهو ابن تسع سنين، وقيل: ابن عشر وهذا قول جابر بن عبد اللَّه وزيد بن أسلم[3].

---

(١) صحيح مسلم في كتاب الصيام باب استحباب صوم.. يوم الاثنين رقم ١٩٧، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ج ٢٩٧/٥، ٢٩٩، والبيهقي في دلائل النُّبوَّة ج ٧٢/١، وفي سننه الكبرى ج ٢٩٣/٤.

(٢) ذكره ابن هشام في السيرة النَّبويَّة ج ٢٤٤/١، وابن كثير في السيرة النبوية ج ٤٢٧/١، والطبري في تاريخه ج ٣٠٧/٢.

(٣) السيرة النَّبويَّة: لابن هشام ج ٢٤٥/١، والطبري في تاريخه ج ٣١٠/٢.

وروى يحيى بن عفيف عن أبيه عفيف قال: جئتُ في الجاهلية إلى مكَّة فنزلتُ على العباس بن عبد المطلب، فلما طلعتِ الشمس وتحلقت في السماء، أقبل شابٌّ فرمى ببصره إلى السماء واستقبل الكعبة، فقام مستقبلها، فلم يلبث أن جاء غلام فقام عن يمينه، فلم يلبث أن جاءت امرأة فقامت خلفهما، فركعَ الشَّاب وركعَ الغُلامُ والمرأة، ورفع الشَّابُّ فرفعَ الغلامُ والمرأةُ، فخرَّ الشَّابُّ ساجداً فسجَدَا معه، فقلتُ للعبَّاس: يا عبَّاس، أمر عظيم هل تدري من هذا؟! قال العباس: نعم، هذا محمد بن عبد اللَّه ابن أخي، وهذا علي بن أبي طالب ابن أخي، وهذه خديجة ابنة خويلد زوجة ابن أخي، وهذا حدَّثني أنَّ ربَّ السَّماء أمَرَهُ بهذا الذي تراهم عليه، وأيْمُ اللَّهِ ما أعلمُ على ظهرِ الأرضِ كلِّها أحداً على هذا الدِّين غيرَ هؤلاء الثلاثة[1]!!.

والقول الثاني: أنَّ أوَّل من أسلمَ وصلَّى أبو بكر رضي اللَّه تعالى عنه، وهذا قول ابن عباس وأبي أُمامة الباهلي.

وروى أبو أمامة عن عمرو بن عبسة السلمي قال: أتيت رسول اللَّه ﷺ وهو نازل بعكاظ فقلت: يا رسول الله! من تبعك على هذا الأمر؟ قال: (تبعني عليه رجلان حر وعبد: أبو بكر وبلال)، قال: فأسلمت عند ذلك فلقد رأيتني إذ ذلك ربع الإسلام، وقال الشعبي: سألت ابن عباس من أول الناس إسلاماً؟ فقال: أما سمعت قول حسان بن ثابت:

إذا تذكرت شجواً من أخي ثقة ... فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا

خير البرية أتقاها وأعدلها ... بعد النبي وأوفاها بما حملا

الثاني التالي المحمود مشهده ... وأول الناس منهم صدق الرُّسُلا[2]

---

(١) السيرة النَّبويَّة ج ٤٢٩/١ لابن كثير.

(٢) تاريخ الطبري ج ٣١٤/٢ ـ ٣١٥، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ج ٤٣/٩ وقال: رواه الطبراني وفيه الهيثم بن عديٍّ، وهو متروك.

والقول الثالث: أن أول من أسلم زيد بن حارثة وهذا قول عروة بن الزبير وسليمان بن يسار[1].

وجعل أبو بكر يدعو إلى الإسلام من يثق به لأنه كان تاجراً ذا خُلق ومعروف، وكان أنْسَبَ قريش لقريش، وأعلمهم بما كانوا عليه من خير وشرٍّ، حسن التَّأليف لهم، وكانوا يكثرون غشيانه، فأسلم على يديه عثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد اللّه، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، فجاء بهم إلى رسول اللّه ﷺ حين استجابوا له بالإسلام، وصلوا فصاروا مع من تقدم ثمانية نفرٍ هم أول من أسلمَ وصلَّى، وقيل: إنه أسلم معهم سعيد بن العاص وأبو ذر، ثم تتابع النَّاس في الإسلام ورسول اللّه ﷺ على استسراره بالدعاء وإن انتشرت دعوته في قريش.

والمنزلة السادسة: أن أُمر أن يعم بالإنذار بعد خصوصه، ويجهر بالدعاء إلى الإسلام بعد استسراره، فأنزل اللّه تعالى عليه: ﴿فاصْدَعْ بما تُؤْمَرُ وأعْرِضْ عَنِ المشركين﴾[2] فجهر بالدُّعاء، قال ابن إسحاق: ذلك بعد ثلاث سنين من مبْعَثِه وأمر أن يبدأ بعشيرته الأقربين فقال تعالى: ﴿وأنْذِرْ عشيرتَكَ الأقْرَبِين * واخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المُؤْمِنين﴾[3]. قال ابن عباس: فصعد رسول اللّه ﷺ الصَّفَا فهتَفَ: (يا صَبَاحَاهْ! يا بني عبد المطلب! يا بني عبد مناف!) حتى ذكر الأقربَ فالأقربَ، من قبائل قريش، فاجتمعُوا إليه، وقالوا: مَا لَكَ! قال: (أرأيتُكم لو أخبرتُكم أنَّ خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أما كنتم تصدِّقوني؟) قالوا: بلى، مَا جَرَّبْنَا عليك كذباً، قال: (فإنِّي نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد)، فقال أبو لهب: تَبّاً لك ألهذَا جمعتَنَا، ثم قام فأنزلَ اللّه تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أبي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[4] إلى آخر السورة، قال

---

(١) السيرة النَّبويَّة: لابن هشام ج ٣٤٧/١، والطبري في تاريخه ج ٣١٦/٢ ـ ٣١٧.

(٢) سورة الحجر، الآية ٩٤.

(٣) سورة الشعرا، الآيتان ٢١٤، ٢١٥.

(٤) سورة المسد، الآية ١.

ابن إسحاق: ولم يكن في قريش في دعائه لهم مباعدة له ولكن ردوا عليه بعض الرَّدّ، حتى ذكرَ آلهتهم وعابها وسَفَّه أحلامهم في عبادتها، فلمَّا فعل ذلك أجمعوا على خلافه، وتظاهروا بعداوته إلَّا من عصمه اللَّه تعالى منهم بالإسلام، وهم قليل مستحقرون، فصار بعموم الإنذار والجهر بالدعاء إلى التوحيد والإسلام عام النُّبوَّة مبعوثاً إلى كافة الأُمَّة فكمَّلَ اللَّهُ تعالى بذلك نبوَّتَهُ وتمَّمَ به رسالته، فصدَعَ بأمرِهِ وقامَ بحقِّه، وجاهد بإنذاره وعمَّ بدعائه، وجاهد في اللَّه حقَّ جهادهِ، حتى خَصَمَ قريشاً حين جَادَلُوهُ وصابَرَهُم حينَ عاندُوهُ، وجمُّهُمْ غفيرٌ، وجمعُهم كثيرٌ إلى أن عَلَتْ كلمتُه وظهرتْ دعوتُه، وكابَدَ مِنَ الشَّدائدِ ما لم يثبت عليها إلَّا معصوم ولا يسلمْ منها إلَّا منصور، وكلُّ هذه آيات تُنْذِرُ بالحقِّ وتُلاَئم الصِّدق، لأنَّ اللَّه لا يهدي كيدَ الخائنين، ولا يصلحُ عملَ المفسدين.

فصل:

[تشريع الأحكام والعبادات]

فأمَّا شرعه من الدِّين، فالشرع بعد التوحيد يشتمل على قسمين: عباداتٍ وأحكامٍ.

فأمَّا العباداتُ فلم يشرع منها مُدَّة مقامه بمكة[1] إلَّا الطَّهارة والصَّلاة حين علَّمه

---

(١) سورة المزمل، الآيات ١ ـ ٤.
كان التشريع في المرحلة المكيَّة منصبّاً على بيان أصول الدِّين؛ في العقيدة والإيمان. وفي المرحلة المدنية استمرت العناية بأصول الدِّين، وتنزلت الآيات التي تبيِّن الأحكام العملية وتوضيحها، وقد تعرَّضت آيات الأحكام إلى جميع أنواع ما يصدر عن الإنسان من أعمال العبادات من صلاة وزكاة وصوم وحج، وإلى الأمور المدنية كالبيع والإجارة والرِّبا، وإلى الأمور الجنائيَّة من قتلٍ وزنا وقطع طريق، وإلى نظام الأسرة من زواج وطلاق وميراث، وإلى الشؤون الدولية كالقتال، وعلاقة المسلمين بالمحاربين، وما بينهم من عهود وغنائم الحرب، والقرآن في كلِّ هذا لا يتعرض كثيراً للتفاصيل الجزئية، إنَّما يتعرَّض غالباً للأمور الكلية، وقد كان الرسول ﷺ يبيِّن ما في القرآن من إجمال ويخصص من عمومه ويُقيِّد من مطلقه ما يحتاج إلى تخصيص أو تقييد، وقد يأتي عليه الصلاة والسلام بأحكامٍ لم يأتِ تفصيلها في =

جبريل الوضوء والصلاة، وكانت فرضاً عليه وسنَّةً لأمَّته لقول اللَّه تعالى: ﴿يا أيُّها المُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيلَ إلاَّ قَلِيلاً * نِصْفَهُ أوِ انْقُصْ منه قليلاً * أو زِدْ عَلَيْهِ﴾[1] فكان هذا حكمها في حقِّه وحقوق أمته إلى أن فرضت الصلوات الخمس بعد إسرائه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وذلك في السنة التاسعة من نبوَّته، فصارت الصَّلوات الخمس فرضاً عليه وعلى أمته ولم يفرض ما سواها من العبادات حتى هاجر إلى المدينة وصارت له بالإسلام داراً وصار أهلها أنصاراً.

فأول ما فرض بالمدينة من العبادات، بعد فرض الصَّلوات الخمس بمكة، صيام شهر رمضان في الثانية من الهجرة في شعبان، وفيها حوِّلت القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة، وفرض فيها زكاة الفطر، وشرع فيها صلاة العيد، وكان فرض الجمعة قد تَمَّ في أول الهجرة بدلاً من صلاة الظهر، ثم فُرضتْ زكاةُ الأموال بعد ظهور القوة وسدِّ الخلَّة، ثم الحج والعمرة.

وأمَّا الأحكام فما أوجبته قضايا العقول من تحريم القتل والزِّنا كان مشروعاً بمكة مع ظهور إنذاره، وما تردَّدَ في قضايا العقول بين فعله وتركه كَفٌّ عن الحكم فيه بتحليل أو تحريم أو حَظْر أو إباحة أو استحباب أو أو كراهة، فلم يُحلِّلْ بمكة حلالاً ولا حرَّم بها حراماً حتَّى هاجر منها، فحلَّلَ بعد الهجرة وحرَّمَ وأباح وحظَّرَ؛ لأنَّه كان بمكة مغلوباً باستيلاء قريش عليها، وكانتْ دارَ شركٍ لا يُنَفِّذُ فيها أحكامَهُ، فلم يُحلِّلْ ولم يُحرِّمْ، حتى صار بالمدينة في دار إسلام يُنَفِّذُ فيها أحكامَهُ، فبيَّن ما حلَّلَ وحرَّمَ، وبيَّنَ ما أباح وحظَّرَ، وبيَّنَ ما يصح من القول ويُفسد، ولذلك كان بمكة مُسالِماً وبالمدينة مُحارِباً، فكانتِ الحكمةُ موافقةً لأفعالِهِ، والتوفيقُ مُعاضِداً لأقوالِهِ، وإن كان مأموراً بها كما قال اللَّه تعالى: ﴿وما يَنْطِقُ عَنِ الهوى * إنْ هُو إلاَّ وحيٌ

= القرآن الكريم. قال اللَّه تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكْرَ لتبيِّنَ للنَّاس ما نُزِّلَ إليهم ولعلَّهم يتفكرون﴾ [سورة النَّحل، آية ٤٤] فجميع ما بيَّنه الرسول ﷺ في سنَّته تشريع لأصل الدِّين وأساسه في العقيدة والأحكام من العبادات والمعاملات والآداب والأخلاق. وبدون السُّنَّة النَّبويَّة لا يمكن فهم أحكام القرآن وتطبيقها.

يُوْحَى﴾[1] لكن لحسن قيامه بها وموافقة الصَّواب في مواضعها تظهر آثار حكمته في صحة حزمه، وصدقِ عَزْمِهِ.

فهذه جملةٌ متفقة في أعلام نبوَّته وقاعدة مستقرَّةٌ في ترتيب رسالتِـهِ، وأحكامِ شريعتهِ، فأمَّا أحكام جهاده في حروبه وغزواته فسنذكره في كتـاب نُفْرِدُهُ في سيـرته نُوضِّح به مواقع أعلامه ومبادىء أحكامه، وباللَّه تعالى التّوفيق.

انتهى كتاب أعلام النُّبوَّة

بحمدِ اللَّه تبارك وتعالى قد تمَّ ضبطُ هذا الكتاب، والتَّعليقُ عليـه، وتخريـجُ آياتهِ وأحاديثهِ ومرويَّاتهِ، وبيانُ خصائصهِ وسلبيَّاتهِ وأخطائهِ، سَالِكين في ذلك قواعدَ منهجِ السَّلفِ الصَّالحِ في التَّدقيقِ والتَّحقيقِ والتَّخريجِ والنَّقـدِ والتَّعليقِ، وذلك ليلةَ الإثنين ١١ جمادَى الآخرة سنة ١٤١٣ هـ الموافق لـ ١٩٩٢/١٢/٦ م.

والحمدُ للَّهِ ربِّ العالمين

---

(١) سورة النجم، الآيتان ٣ ـ ٤

مصادر ومراجع التعليقات والتخريجات

١ ـ الإبانة عن أصول الديانة: للإمام أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري [ت ٣٢٤ هـ] ط. المنيرية ـ القاهرة.

٢ ـ الإبانة عن شريعة الفِرَق النَّاجية ومجانبة الفِرَق المذمومة: لأبي عبد اللَّه عُبيد اللَّه بن محمد بن بطة العكبري الحنبلي [ت ٣٨٧ هـ] ط. دار الراية للنشر والتوزيع ـ الرياض.

٣ ـ الأجوبة الفاضلة للأسئلة العشرة الكاملة: للإمام أبي الحسنات محمد بن عبد الحي اللَّكنوني الهندي [ت ١٣٠٤ هـ] تحقيق: الشيخ عبد الفتاح أبو غدَّة ـ ط. مكتب المطبوعات الإسلامية ـ حلب.

٤ ـ الإحسان بتقريب صحيح ابن حبان: لعلاء الدِّين علي بن بلبان الفارسي [ت ٧٣٩ هـ] تحقيق: الشيخ شعيب الأرناؤوط ـ ط. مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

٥ ـ إحكام الإحكام في أصول الأحكام: للإمام ابن حزم [ت ٤٥٧ هـ] وهو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ـ ط. السعادة ـ بمصر.

٦ ـ إحياء علوم الدِّين: للإمام أبي حامد الغزالي محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الغزالي [ت ٥٠٥ هـ] ط. مصورة دار المعرفة ـ بيروت.

٧ ـ أخبار الآحاد في الحديث النبوي: للشيخ عبد اللَّه بن عبد الرحمن بن خير بن معاصر ـ ط. دار طيبة ـ الرياض.

٨ ـ **اختلاف الحديث**: للإمام محمد بن إدريس الشافعي [ت ٢٠٤ هـ] ط. دار الكتب العلمية ـ بيروت وهو في ج ٥ من كتاب «الأم».

٩ ـ **أدب الدنيا والدِّين**: للإمام أبي الحسن عليٍّ بن محمد بن سعيد الماوردي [ت ٤٥٠ هـ] تحقيق مصطفى السَّقا ـ ط. مصورة دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١٠ ـ **الأربعون النووية**: للإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي [ت ٦٧٦ هـ] تحقيق: محمود الأرناؤوط، مراجعة: الشيخ المحدِّث عبد القادر الأرناؤوط ـ ط. دار العروبة للنَّشر والتوزيع ـ الكويت.

١١ ـ **إرشاد الفحول إلى تحقيق الحقِّ من علم الأصول**: للإمام الشوكاني محمد بن علي [ت ١٢٥٠ هـ] ط. البابي الحلبي ـ بمصر.

١٢ ـ **أسد الغابة في معرفة الصحابة**: لابن الأثير عز الدين أبي الحسن علي بن محمد [ت ٦٣٠ هـ] ط. مصر.

١٣ ـ **الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة**: للقاري نور الدِّين عليٍّ بن محمد بن سلطان، المشهور بالمُلاَّ عليّ القاري [ت ١٠١٤ هـ] ط. دار الكتب العلمية ـ تحقيق: بسيوني زغلول.

١٤ ـ **الإصابة في تمييز الصحابة**: للإمام ابن حجر شهاب الدِّين أحمد بن عليٍّ الكنَّاني العسقلاني [ت ٨٥٢ هـ] ط. مكتبة الكليات الأزهرية ـ القاهرة، تحقيق: طه محمد الزيني.

١٥ ـ **أصول التَّفسير وقواعده**: للشيخ خالد عبد الرحمن العك ـ ط. دار النفائس ـ بيروت.

١٦ ـ **أصول فقه السُّنَّة**: للشيخ خالد عبد الرحمن العك ـ مخطوط.

١٧ ـ **الاعتصام**: لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى اللَّخمي، المعروف بالشاطبي [ت ٧٩٠ هـ] ط. دار المعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت.

١٨ ـ **إعلام الموقعين عن ربِّ العالمين**: للإمام ابن قيّم الجوزية أبي عبد الله

محمد بن أبي بكر [ت ٧٥٢ هـ] ط. مصر ـ تحقيق محمد محيي الدِّين عبد الحميد.

١٩ ـ **الأم**: للإمام الشافعي محمد بن إدريس [ت ٢٠٤ هـ] ط. مصر.

٢٠ ـ **الأمر بالإتباع والنَّهي عن الابتداع**: للحافظ السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدِّين الحضيري السيوطي [ت ٩١٠ هـ] ط. بولاق ـ القاهرة.

٢١ ـ **الأنساب**: للسَّمعاني أبي سعد عبد الكريم بن محمد [ت ٥٦٢ هـ] ط. محمد أمين دمج ـ تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلِّمي اليماني ـ بيروت.

٢٢ ـ **أولو العزم من الرسل**: لعمر أحمد عمر /معاصر/ ط. دار حسان ـ دمشق.

٢٣ ـ **إيثار الحق على الخلق**: لابن الوزير أبي عبد اللَّه محمد بن المرتضى اليماني [ت ٨٤٠ هـ] ط. دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٢٤ ـ **البداية والنهاية**: للحافظ ابن كثير عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير [ت ٧٧٤ هـ] ط. مصر ـ مصوَّرة دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٢٥ ـ **البدع والنهي عنها**: لابن وضاح محمد بن وضاح القرطبي [ت ٢٨٦] ـ ط. دمشق، تحقيق: أحمد دهمان.

٢٦ ـ **تأويل مختلف الحديث**: للإمام ابن قتيبة عبد اللَّه بن مسلم بن قتيبة الدينوري [ت ٢٧٦ هـ] ط. مكتبة الكليات الأزهرية ـ القاهرة.

٢٧ ـ **تاريخ الرسل والملوك**: **تاريخ الطبري**: لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري [ت ٣١٠ هـ] تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم ـ ط. دار المعارف ـ بمصر.

٢٨ ـ **تجريد أسماء الصحابة**: للحافظ شمس الدين أبي عبد اللَّه محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي [ت ٧٤٨ هـ] ط. شرف الدين الكتبي وأولاده ـ الهند.

٢٩ ـ **تحفة الأحوذي بشرح سنن الترمذي**: للحافظ أبي العلي محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري [ت ١٣٥٣ هـ] ط. مؤسسة قرطبة للنشر والتوزيع ـ بمصر.

٣٠ ـ **تذكرة الحفاظ**: للحافظ الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي [ت ٧٤٨ هـ] ط. حيدر أباد الدكن ـ الهند ـ مصوَّرة دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٣١ ـ **تذكرة الموضوعات**: محمد بن طاهر الهندي الفتني [ت ٩٨٦ هـ] طبع مصر ـ تصوير محمد أمين دمج ـ بيروت.

٣٢ ـ **ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان**: لابن الوزير أبي عبد اللّٰه محمد المرتضى اليمني [ت ٨٤٠ هـ] ط. إدارة الطباعة للجمعية العلمية الأزهرية ـ القاهرة.

٣٣ ـ **الترغيب والترهيب**: للحافظ المنذري عبد العظيم بن عبد القوي [ت ٦٥٦ هـ] تعليق وضبط: مصطفى محمد عمارة ـ ط. مصطفى البابي الحلبي ـ بمصر.

٣٤ ـ **تفسير القرآن العظيم**: للحافظ ابن كثير عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير [ت ٧٧٤ هـ] ط. مصر ـ مصوَّرة دار المعرفة ـ بيروت.

٣٥ ـ **تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة**: لعليٍّ بن عراق الكناني [ت ٩٦٣ هـ ـ تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف ـ ط. مكتبة القاهرة ـ مصوَّرة دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٣٦ ـ **التوسل أنواعه وأحكامه**: جمع الشيخ محمد عيد العباسي حفظه اللّٰه تعالى ـ وهي بحوث للشيخ المحدث محمد ناصر الدِّين الألباني بارك اللّٰه في حياته ـ ط. المكتب الإسلامي ـ دمشق.

٣٧ ـ **الثقات**: لابن حبان أبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم بن إدريس بن المنذر التميمي [ت ٣٢٧ هـ] ط. حيدر أباد الدكن ـ الهند ـ مصوَّرة دار

إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٣٨ ـ **جامع الأصول من أحاديث الرسول ﷺ**: لابن الأثير أبي السعادات المبارك بن محمد ـ المعروف بابن الأثير الجزي ـ [ت ٦٠٦ هـ] تحقيق: الشيخ عبد القادر الأرناؤوط ـ ط. دار الملاح ـ دار الحلواني ـ دار البيان ـ دمشق ـ مصوَّرة ـ دار الفكر ـ بيروت.

٣٩ ـ **جامع البيان عن تأويل آي القرآن: تفسير الطبري**: للإمام محمد بن جرير الطبري [ت ٣١٠ هـ] ط. مصر ـ مصوَّرة ـ دار المعرفة ـ بيروت.

٤٠ ـ **جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله**: للحافظ ابن عبد البر أبي عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي [ت ٤٦٣ هـ] ط. مصر ـ مصوَّرة ـ دار الفكر ـ بيروت.

٤١ ـ **الجامع لأحكام القرآن: تفسير القرطبي**: للإمام أبي عبد اللَّه محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي [ت ٦٧١ هـ] ط. دار الكتب المصرية.

٤٢ ـ **الجرح والتعديل**: لابن أبي حاتم، أبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي [ت ٣٣٧ هـ] ط. الهند ـ مصوَّرة ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٤٣ ـ **جماع العلم**: للإمام محمد بن إدريس الشافعي [ت ٢٠٤ هـ] ط. دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٤٤ ـ **الحديث حُجّة بنفسه في العقائد والأحكام**: للشيخ المحدِّث محمد ناصر الدِّين الألباني /معاصر/ سلسلة رسائل الدعوة السلفية.

٤٥ ـ **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**: لأبي نعيم أحمد بن عبد اللَّه الأصبهاني [ت ٤٣٠ هـ] ط. مصر ـ مصوَّرة ـ دار الكتب العربي.

٤٦ ـ **دَرْءُ تعارض العقل والنَّقل**: لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية [ت ٧٢٨ هـ] تحقيق: محمد رشاد سالم رحمه اللَّه تعالى ـ ط. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ بالرياض.

٤٧ ـ الدُّرّ المنثور في التفسير بالمأثور: للحافظ السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي [ت ٩١١ هـ] ط. الميمنية ـ بمصر.

٤٨ ـ دلائل النبوة: لأبي نعيم الأصبهاني أحمد بن عبد اللَّه أحمد بن إسحاق المهراني الأصبهاني [ت ٤٣٠ هـ] ط. دار النفائس ـ بيروت ـ تحقيق: محمد رواس قلعه جي ـ عبد البر عباس.

٤٩ ـ دلائل النبوة: للحافظ البيهقي أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي [ت ٤٥٨ هـ] ط. دار الكتب العلمية ـ تحقيق: الدكتور عبد المعطي قلعه جي ـ بيروت.

٥٠ ـ دلائل التوحيد: للشيخ محمد جمال الدين القاسمي [ت ١٣٣٢ هـ] ضبط وتعليق وتخريج: الشيخ خالد عبد الرحمن العك ـ ط. دار النفائس ـ بيروت.

٥١ ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: للإمام الألوسي شهاب الدين محمود الألوسي [ت ١٢٧٠ هـ] ط. مصر ـ مصوَّرة ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٥٢ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد: للإمام ابن قيم الجوزية أبي عبد اللَّه شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي [ت ٧٥١ هـ] ط. مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ تحقيق: الشيخ شعيب الأرناؤوط والشيخ عبد القادر الأرناؤوط، حفظهما اللَّه تعالى.

٥٣ ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة: للشيخ المحدث ناصر السنة محمد ناصر الدين الألباني ـ ط. المكتب الإسلامي، ومكتبة المعارف ـ الرياض.

٥٤ ـ سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة: للشيخ محمد ناصر الدين الألباني ـ ط. المكتب الإسلامي ـ دمشق ـ بيروت.

٥٥ ـ سنن البيهقي الكبرى: للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي [ت ٤٥٨ هـ] ط. دائرة المعارف العثمانية ـ الهند ـ مصوَّرة ـ دار الفكر ـ بيروت.

٥٦ ـ **سنن الترمذي**: للإمام أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي [ت ٢٧٩ هـ] تحقيق: أحمد محمد شاكر رحمة الله تعالى ـ ط. مصطفى البابي الحلبي ـ بمصر.

٥٧ ـ **سنن أبي داود**: للإمام سليمان بن الأشعث السجستاني [ت ٢٧٥ هـ] تحقيق: عزة عبيد الدعاس ـ ط. حمص.

٥٨ ـ **سنن الدارقطني**: للحافظ علي بن عمر الدارقطني [ت ٣٠٦ هـ] تخريج: السيد عبد اللّه هاشم يماني المدني ـ بالمدينة المنورة ـ ط. دار المحاسن للطباعة ـ القاهرة.

٥٩ ـ **سنن الدارمي**: للإمام أبي محمد عبد اللّه بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمي [ت ٢٥٥ هـ] تخريج: عبد اللّه هاشم يماني المدني بالمدينة المنورة ـ ط. دار المحاسن ـ القاهرة.

٦٠ ـ **سنن ابن ماجه**: للإمام أبي عبد اللّه محمد بن يزيد بن ماجه القزويني ـ تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي رحمه اللّه تعالى ـ ط. مصر ـ مصوَّرة ـ المكتبة العلمية ـ بيروت.

٦١ ـ **سنن سعيد بن منصور**: للحافظ سعيد بن منصور بن شعبة الخرساني المكي [ت ٢٢٧ هـ] تحقيق: حبب الرحمن الأعظمي ـ ط. دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٦٢ ـ **سنن النسائي**: للإمام أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي [ت ٣٠٣ هـ] ط. المطبعة المصرية ـ القاهرة.

٦٣ ـ **السنة**: لابن أبي عاصم أبي بكر عمرو بن أبي عاصم الضحاك بن مخلد الشيباني، تحقيق: الشيخ المحدث محمد ناصر الدِّين الألباني ـ ط. المكتب الإسلامي ـ بيروت.

٦٤ ـ **السُّنَّة ومكانتها في التَّشريع الإسلامي**: للدكتور مصطفى السِّباعي رحمه اللّه تعالى [ت ١٣٨٤ هـ] ط. المكتب الإسلامي ـ دمشق.

٦٥ ـ **السُّنَّة النبوية وبيانها للقرآن الكريم** : للدكتور محمود أحمد حسين عبد ربه /معاصر/ ط. دار القبلة للثقافة الإسلامية ـ جدَّة.

٦٦ ـ **سير أعلام النبلاء** : للحافظ الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي [ت ٧٤٨ هـ] ط. مؤسسة الرسالة ـ بيروت، تحقيق : الشيخ شعيب الأرناؤوط وزملاؤه.

٦٧ ـ **السِّيرة النَّبوية** : للحافظ ابن كثير أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير [ت ٧٧٤ هـ] وهي من أقسام تاريخه «البداية» وقد طبعت بمفردها في أربعة أجزاء بمصر.

٦٨ ـ **السِّيرة النَّبوية** : لابن هشام أبي محمد عبد الملك بن هشام [ت ٢١٨ هـ] ط. مصر، تحقيق : مصطفى السقا وزميليه ـ مصوَّرة ـ دار الكنوز الأدبية.

٦٩ ـ **السِّيرة النَّبويَّة في ضوء القرآن والسنة** : محمد بن محمد أبو شهبة /معاصر/ ط. دار القلم ـ دمشق.

٧٠ ـ **شذرات الذهب** : لابن العماد الحنبلي أبي الفلاح عبد الحي بن العمادات [ت ١٠٨٩ هـ] ط. مصر ـ مصوَّرة ـ دار الأمانة الجديدة ـ بيروت.

٧١ ـ **شرح العقيدة الأصفهانية** : لشيخ الإسلام ابن تيمية تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية [ت ٧٢٨ هـ] تقديم : حسنين مخلوف ـ بمصر.

٧٢ ـ **شرح العقيدة الطحاوية** : لابن أبي العز الحنفي الدمشقي صدر الدين أبي الحسن علي بن علي بن محمد بن أبي العز الأذرعي الدمشقي [ت ٧٩٢ هـ] ط. المكتب الإسلامي.

٧٣ ـ **صحيح ابن حبان : الإحسان بتقريب صحيح ابن حبان** : للحافظ أبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس بن المنذر التميمي [ت ٣٢٧ هـ] ط. مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ تحقيق : الشيخ شعيب الأرناؤوط.

٧٤ ـ **صحيح ابن خزيمة** : للحافظ أبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السُّلمي

النيسـابـوري [ت ٣١١ هـ] تحقيق : د. محمـد مصـطفى الأعـظمي ـ ط . المكتب الإسلامي ـ بيروت .

٧٥ ـ **صحيح البخاري** : أبو عبد اللّٰه محمد بن إسماعيـل البخاري [ت ٢٥٦ هـ] ط . إستانبول .

٧٦ ـ **صحيح البخاري** : أبو عبد اللّٰه محمد بن إسماعيـل البخاري [ت ٢٥٦ هـ] تحقيق : د. مصطفى البغا/ ط. دمشق .

٧٧ ـ **صحيـح سنن ابن ماجـه** : للشيخ المحـدث محمد نـاصر الـدين الألبـاني ـ ط . مكتب التربية العربي لدول الخليج .

٧٨ ـ **صحيـح سنن أبي داود** : للشيـخ المحـدث محمـد نـاصـر الـدين الألبـاني /معاصر/ ط. مكتب التربية العربي لدول الخليج .

٧٩ ـ **صحيـح سنن الترمـذي** : للشيخ المحـدث محمـد نـاصـر الـدين الألبـاني /معاصر/ ط. مكتب التربية العربي لدول الخليج .

٨٠ ـ **صحيح سنن النسائي** : للشيخ المحدث نـاصر الـدين الألباني ـ ط. مكتب التربية العربي لدول الخليج .

٨١ ـ **صحيـح مسلم** : أبـو الحسين مسلم بن الحجـاج القشيـري النيسـابـوري [ت ٢٦١ هـ] ط. إستانبول .

٨٢ ـ **صحيـح مسلم** : أبـو الحسين مسلم بن الحجـاج القشيـري النيسـابـوري [ت ٢٦١ هـ] ط. مصر ـ تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي .

٨٣ ـ **صفـة الصفوة** : للحـافظ ابن الجوزي أبي الفـرج عبد الـرحمن بن علي بن الجوزي [ت ٥٩٧ هـ] تحقيق : فاخوري وقلعه جي ـ حلب .

٨٤ ـ **الضعفـاء الكبير** : للحـافظ أبي جعفر محمـد بن عمرو بن مـوسى بن حماد العقيلي المكي [ت ٣٢٢ هـ] تحقيق : د. عبد المعطي فلعه جي ـ ط. دار الكتب العلمية .

٨٥ ـ **ضعيف الجامع الصغير وزيـاداتـه** : للشيخ المحـدث ناصر الدين الألبـاني

/معاصر/ ط. المكتب الإسلامي ـ بيروت.
٨٦ ـ **ضعيف سنن ابن ماجه**: للشيخ محمد ناصر الدين الألباني ـ ط. المكتب الإسلامي ـ بيروت.
٨٧ ـ **ضعيف سنن أبي داود**: للشيخ المحدث محمد ناصر الدين الألباني ـ ط. المكتب الإسلامي ـ بيروت.
٨٨ ـ **ضعيف سنن الترمذي**: للشيخ محمد ناصر الدين الألباني ـ ط. المكتب الإسلامي ـ بيروت.
٨٩ ـ **ضعيف سنن النسائي**: للشيخ المحدث محمد ناصر الدين الألباني ـ ط. المكتب الإسلامي ـ بيروت.
٩٠ ـ **طبقات الشافعية**: للسبكي تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي [ت ٧٧١ هـ] ط. عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة.
٩١ ـ **طبقات الشافعية**: لعبد الرحيم الأسنوي [ت ٧٧٢ هـ] ط. دار اللكتب العلمية ـ بيروت.
٩٢ ـ **الطبقات الكبرى**: لابن سعد أبي عبد الله محمد بن سعد الزهري [ت ٢٣٠ هـ] ط. دار صادر ـ بيروت.
٩٣ ـ **عقائد السلف**: البخاري، الدارمي، أحمد بن حنبل، ابن قتيبة ـ تحقيق: د. علي سامي النشار وعمار جمعي الطالبي ـ ط. منشأة المعارف ـ الإسكندرية.
٩٤ ـ **العلل المتناهية**: لابن الجوزي أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي [ت ٥٩٧ هـ] ط. دار الكتب العلمية ـ بيروت.
٩٥ ـ **فتاوى ابن الصلاح في التفسير والحديث والأصول والفقه**: لأبي عمرو صلاح الدين عبد الرحمن بن عثمان بن موسى المعروف بابن الصلاح [ت ٦١٨ هـ] دار المعرفة ـ بيروت.
٩٦ ـ **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**: للحافظ ابن حجر أحمد بن علي بن

حجر العسقلاني [ت ٨٥٢ هـ] ط. المطبعة السلفية ومكتبتها ـ القاهرة.
٩٧ ـ **الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة**: للإمام محمد بن علي الشوكاني [ت ١٢٥٠ هـ] ط. مصر.
٩٨ ـ **فيض القدير تاج الجامع الصغير**: للمناوي محمد بن عبد الرؤوف المناوي [ت ١٠٣١ هـ] ط. مصرية ـ مصوَّرة ـ دار المعرفة ـ بيروت.
٩٩ ـ **كشف الخفاء**: للعجلوني إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي [ت ١١٦٢ هـ] تحقيق: أحمد القلاش ـ ط. مؤسسة الرسالة ـ بيروت.
١٠٠ ـ **كنز العمال**: لعلاء الدين المتقي علي بن حسام الدين الهندي البرهان فوري [ت ٩٧٥ هـ] ط. مكتبة التراث الإسلامي ـ حلب.
١٠١ ـ **اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة**: للحافظ السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين السيوطي [ت ٩١١ هـ] ط. مصر ـ مصوَّرة ـ دار المعرفة ـ بيروت.
١٠٢ ـ **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**: للحافظ الهيثمي نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي [ت ٨٠٧ هـ] ط. مصر ـ مصوَّرة ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.
١٠٣ ـ **مجموعة الرسائل الكبرى**: لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية [ت ٧٢٨ هـ] ط. دار إحياء التراث العربي.
١٠٤ ـ **مجموعة فتاوى شيخ الإسلام**: تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية رحمه الله تعالى [ت ٧٢٨ هـ] جمع: الشيخ عبد الرحمن بن القاسم وابن محمد ـ ط. الرياض.
١٠٥ ـ **المستدرك على الصحيحين**: للحاكم أبي عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري [ت ٤٠٥ هـ] وبذيله التلخيص للحافظ الذهبي ـ ط. حيدر آباد الدكن ـ الهند ـ مصوَّرة ـ دار المعرفة ـ بيروت.
١٠٦ ـ **المسند**: للإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني [ت ٢٤١ هـ] ط. مصر ـ مصوَّرة ـ المكتب الإسلامي.

١٠٧ ـ **مشكاة المصابيح** : لمحمد بن عبد الله الخطيب التبريزي [ت ٧٣٧ هـ] تحقيق وتخريج : الشيخ المحدث محمد ناصر الدين الألباني ـ ط . المكتب الإسلامي ـ بيروت .

١٠٨ ـ **مصابيح السنة** : للبغوي ركن الدين أبي محمد الحسين بن مسعود بن محمد الفرَّاء البغوي [ت ٥١٦ هـ] تحقيق : د. يوسف عبد الرحمن مرعشلي وزميليه ـ ط . دار المعرفة ـ بيروت .

١٠٩ ـ **المغازي للواقدي** : محمد بن عمر بن واقد [ت ٢٠٧ هـ] تحقيق : د. مارسدن جونس ـ ط . عالم الكتب ـ بيروت .

١١٠ ـ **المغني في الضعفاء** : للحافظ الذهبي : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي [ت ٧٤٨ هـ] تحقيق : د. نور الدين عتر ـ حلب .

١١١ ـ **المقاصد الحسنة** : للسخاوي محمد بن عبد الرحمن السّخاوي [ت ٩٠٢ هـ] ط . مصر ـ ط . بيروت ، تحقيق : محمد عثمان الخشت ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت .

١١٢ ـ **مصنف ابن أبي شيبة** : للحافظ أبي بكر عبد الله بن أبي شيبة [ت ٢٣٥ هـ] ط . الدار السَّلفية ـ الهند .

١١٣ ـ **مصنف عبد الرزاق** : للحافظ أبي بكر عبد الرزاق ابن همَّام بن نافع الحميري الصنعاني [ت

٢١١ ـ ط . المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي .

١١٤ ـ **مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة** : للحافظ السيوطي [ت ٩١١ هـ] في الرسائل المنيرية ـ ط . إدارة الطباعة المنيرية ـ القاهرة .

١١٥ ـ **المنار المنيف في الصحيح والضعيف** : للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية [ت ٧٥١ هـ] ط . مصر ـ مصوَّرة ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

١١٦ ـ **منهج القرآن في الدعوة إلى الإيمان** : الدكتور علي بن محمد ناصر الفقيهي

/معاصر/ ط. أولى ـ سنة ١٤٠٥ هـ/بدون ذكر الناشر.
١١٧ ـ **منهاج السنة النبوية**: لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية [ت ٧٢٨ هـ] تحقيق: د. محمد رشاد سالم رحمه الله تعالى ـ ط. القاهرة ـ مطبعة مدني.
١١٨ ـ **موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان**: للحافظ الهيثمي: نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي [ت ٨٠٧ هـ] ط. مصر ـ مصوَّرة ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.
١١٩ ـ **موسوعة عظماء حول الرسول ﷺ**: للشيخ خالد بن عبد الرحمن العك ـ ط. دار النفائس ـ بيروت.
١٢٠ ـ **موسوعة عقائد السَّلف**: للشيخ خالد بن عبد الرحمن العك ـ ط. دار الحكمة ـ بيروت ـ دمشق.
١٢١ ـ **الموضوعات**: لابن الجوزي أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي [ت ٥٩٧ هـ] ط. السلفية بالمدينة المنورة ـ تحقيق: عبد الرحمن عثمان ـ مصوَّرة ـ دار الفكر ـ بيروت.
١٢٢ ـ **الموطأ**: للإمام مالك بن أنس الأصبحي المدني، إمام دار الهجرة[ت ١٧٩ هـ] ط. مصر ـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ـ مصوَّرة ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
١٢٣ ـ **ميزان الاعتدال**: للحافظ الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي [ت ٧٤٨ هـ] تحقيق: علي محمد البخاري ـ ط. مصر ـ مصوَّرة ـ دار المعرفة ـ بيروت.
١٢٤ ـ **النبوات**: لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية [ت ٧٢٨ هـ] ط. دار الكتاب العربي ـ بيروت.
١٢٥ ـ **وجوب الأخذ بحديث الآحاد في العقيدة والرد على شبه المخالفين**: للشيخ محمد ناصر الدين الألباني ـ رسائل الدعوة السلفية ـ ط. دمشق.

١٢٦ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر: للإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري [ت ٦٠٦ هـ] تحقيق: الزاوي والطناحي ـ ط. مصر ـ مصوَّرة ـ المكتبة الإسلامية ـ بيروت.

الفهارس العامة

١ ـ فهرس الآيات القرانية

* * *

٢ ـ فهرس الأحاديث النبوية

* * *

٣ ـ فهرس العلوم والمصطلحات

* * *

٤ ـ فهرس الأعلام

٥ ـ فهرس الأشعار

* * *

٦ ـ فهرس الفرق والملل

* * *

٧ ـ فهرس الأمم والشعوب والقبائل

* * *

٨ ـ فهرس الأماكن والبلدان

* * *

٩ ـ فهرس الكتب

* * *

١٠ - فهرس موضوعات الكتاب

الموضوع	الصفحة

الباب الأول: في مقدمة الأدلة

الباب الثاني: معرفة الله المعبود سبحانه وتعالى

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الباب الخامس: مدّة العالم وعدة الرسل

الباب السادس: إثبات نبوّة محمد ﷺ

الباب السابع: فيما تضمّنه القرآن من أنواع إعجازه

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الفهارس العامة

* * *



الماورديّ عَلَمٌ من أعلام الفكر الإسلامي في أزهى عصوره وأبهاها. وله كتب عدّة منها هذا الكتاب الذي ضمَّنه قسمين: الأول يختص بدلائل النبوة، والثاني فيما يختلف فيه من أقسامها وأحكامها.

وأما منهجه فكلاميٌّ جدليٌّ عقليٌّ منطقيٌّ. لذلك يحلق فيه بكثير من أدلة إثبات النبوة العقلية، ويفوته في بعض الأحيان - على رفعة مكانته العلمية - التدقيق في صحة بعض الأحاديث النبوية الشريفة، مما اقتضى إعادة طباعة الكتاب، والتدقيق في أحاديثه، والتوسع في بعض أدلّته، والتعليق عليها. فقام بذلك، في هذه الطبعة الخاصة بدار النفائس، الشيخ الجليل، سلفي العقيدة والمنهج، خالد عبد الرحمن العك. فكانت هذه الطبعة المميزة في الشكل والمضمون.